

مشكلات فلسفية



C.B. RENA



* 1



مشكلة الفيلسوف

**GIFTS OF 1996
BIBLIOTHEQUE**

مشكلات فلسفية

(٤)

مشكلة الفلاسفة

بمقدم
الدكتور زكريا إبراهيم

طبعة منقحة ومزودة

١٩٧١

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الغزالة"
٩٥٥٩٢

تقدير

مشكلة الفلسفة ؟ ولماذا يأتى كاتب هذه السطور إلا أن يجعل من الفلسفة مشكلة ؟ أليكون الدافع إلى ذلك هو مجرد الحرص على إدخال هذا الكتاب ضمن سلسلة « المشكلات الفلسفية » ؟ وماذا كان يضير المؤلف لو أنه أطلق على كتابه اسم « المدخل إلى الفلسفة » أو « دفاع عن الفلسفة » ؟ أما كان في وسعه أن يعدل من عنوان كتابه ، دون أن يغير شيئاً من مضمونه ؟

... كل تلك أسئلة قد تتبادر إلى ذهن القارئ حينما يرانا نحصر على استبقاء عنوان هذا الكتيب ، فنصرّ على تسميته باسم « مشكلة الفلسفة » . ولكن ربما كان لنا بعض العذر في ذلك : فلنحزن أولاً لنميل إلى الظن بأنه لا يمكن أن يكون ثمة « مدخل إلى الفلسفة » : إذ ليس في وسع المرء أن يشرّع في البحث عن الفلسفة ، مالم يكن قد سبق له الالتقاء بها أو العثور عليها ! ومهما وقع في ظن البعض أنهم يستطيعون بالفعل أن يكتبوا « مقدمة » للفلسفة ، فإن مثل هذه « المقدمة » لا بد من أن تجيء بمثابة مصادرة تفترض الشيء الكثير من المبادئ الفلسفية . فضلاً عن ذلك ، فإننا نلاحظ — مع الأسف الشديد — أن مايسمونه باسم « مدخل إلى الفلسفة » كثيراً ما يكون مجرد « تخرّج » منها ! وآية ذلك أن أمثال هذه المقدمات قد تتخذ صورة موسوعات مذهبية تصاغ فيها الحقائق الفلسفية على هيئة قضايا نهائية ، أو آراء حاسمة ، أو معتقدات جازمة . ومثل هذه

الصورة قد توحى إلى الطالب المبتدئ بأن الفلسفة حلقة مفرغة ، أو دائرة مغلقة ، أو نسق متكامل ؛ وعندئذ تصبح بداية الفلسفة هي نهايتها ، وتصير ألف التفلسف هي في الوقت نفسه ياؤه !

ولم نشأ أيضاً أن نطلق على كتابنا اسم « دفاع عن الفلسفة » ؛ وكانت حُجَّتُنَا في ذلك أن مثل هذه التسمية قد توحى إلى القارئ بأن الفلسفة موضع شبهة أو ملامة أو اتهام ! حقاً إن خصوم الفلسفة كثيرون ، ولكننا حتى لو سلمنا بأن الفلسفة في حاجة إلى دفاع ، فإننا لا نجد في أنفسنا من الجرأة ما يدفعنا إلى احتكار حق الدفاع عنها ، أو ما يشجعنا على التكلم باسمها ! وهذا واحد من كبار الفلاسفة المعاصرين — ألا وهو ميرلوبونتي — يتصدى في إحدى المناسبات الجامعية الكبرى للنطق بلسان الفلسفة ، فلا ينصب من نفسه محامياً يتولى الدفاع عنها ، بل يُطْلِقُ على افتتاحيته الفلسفية المتنازعة اسم « ثناء على الفلسفة » ، بدلاً من أن يسميها باسم « دفاع عن الفلسفة » . ^(١) وأما نحن فإننا نرى أن خير وسيلة للإعلاء من شأن الفلسفة والإشادة بها والثناء عليها ، إنما هي العمل على بيان موضوع « الإشكال » في الفلسفة ، والاهتمام بالكشف عما تنطوي عليه رسالة الفيلسوف من مخاطرة فكرية ، وقلق وجودي ، وتجربة روحية خصبة ... وربما كان خير دفاع عن الفلسفة هو أن نثبت « الفلسفة » عن طريق « التفلسف » ، كما أثبت ديوجانس « الحركة » عن طريق « التحرك » ...

أقصد درس ديكارت الرياضيات والطبيعيات والبلاغة والشعر ، كما درس المنطق والميتافيزيقا والأخلاق ، ولكنه خرج من كل هذه الدراسة بدرس واحد سجله في كتابه الخالد « مبادئ الفلسفة » حيث نراه يقول : « إن الفلسفة وحدها

(1) M. Merleau-Ponty : " Éloge de la Philosophie " (Leçon inaugurale faite au Collège de France), Gallimard. 1953

هى التى تميزنا من الأقوام المتوحشين والمهجين ؛ وإنما تقاس حضارة الأمة وثقافتها بمقدار شيوع التفلسف الصحيح فيها ؛ ولذلك فلن أجلّ نعمة بنعم الله بها على بلد من البلاد هى أن يمنحه فلاسفة حقيقتين . . « . فلم يكن اهتمام ديكارت بالعلوم ليصرفه عن التفكير فى الحكمة والاهتمام بالبحث عن اليقين ، بل إننا لنراه يقر منذ البداية بأهمية التفاسف وضرورة البحث الميتافيزيقى ، حتى أنه ليشبّه الرجل الذى يمتنع عن التفلسف بمخلوقٍ أعمى يسير معصوب العينين . وهو يقول فى هذا بصريح العبارة : « إن المرء الذى يحيا دون تفلسف لمو حقا كمن يظل مغمضاً عينيه لا يحاول أن يفتحهما . ولا يمكن أن يقارن التلذذ برؤية كل ما يستكشفه البصر ، بالرضى الذى يُنال من معرفة الأشياء التى تنكشف لنا بالفلسفة » . ويستطرد ديكارت فيقول : « إنه لا جرم أن تكون الحكمة هى القوت الصحيح للعقول ، فإن الذهن هو أهم جزء فينا ؛ وطلب الحكمة لابدّ بالضرورة من أن يكون ههنا الأكبر^(١) » .

حقاً إنه قد يروق للبعض أن يرفض التفلسف ، كما قد يحاول البعض أن يغمض عينيه ، ولكن من المؤكد أنه من الأجدى على المرء أن يواجه الحقيقة ، كما أن من الأفضل له أن يستعمل عينيه لهداية خطواته . وليس أيسر على الإنسان — بطبيعة الحال — من أن يتخذ موقف اللامبالاة أو عدم الاكتراث ، ولكن ضرورات الحياة لابدّ من أن تجيء فتلزم كل فرد منا بتحديد موقفه من الأشياء ، والآخرين ، والله نفسه . ومهما أمعن المرء فى الاستخفاف بقضايا الوجود ، والانصراف عن مواجهة مشكلة الحقيقة ، فإنه لابدّ من أن تواجهه أزمات تضطّره (فى هذه اللحظة أو تلك) إلى إثارة بعض المشكلات الروحية الخطيرة ..

(١) ديكارت : « مبادئ الفلسفة » ، ترجمة الدكتور عثمان أمين ، القاهرة ، .

وعندئذ قد يحىء التفلسف ، فيعيد إلى الإنسان حضوره أمام الكون ، وحضوره أمام الآخرين ، وحضوره أمام الله أيضاً .

لقد روى لنا أحد مؤرخى الفلسفة أن الفيلسوف الألماني المعاصر ماكس شر كان يقيم ندوة فلسفية يتناقش فيها مع طلبته حول كثير من مسائل الفكر والوجود . وكان الجميع يجدون لذة كبرى فى مطارحة الآراء ، ومناقشة الأفكار ، بينمابقى طالب واحد صامتاً لا ينطق بكلمة ، ولا يبدى أية ملاحظة . وأوشك العام الدراسي أن ينتهى ، فأراد شر أن يستحث الطالب المذكور على إبداء رأيه ، فما كان من هذا الطالب سوى أن أجابه بقوله : « إذا كان الكلام من فضة ، فإن السكوت من ذهب » ! وعندئذ هب شر واقفاً ، وصاح فى وجهه : « يا لك من مزيف تقود » ! ولم يجانب شر الصواب ، فإن رفض الحوار هو ضرب من الاستخفاف أو عدم المبالاة ؛ والفيلسوف إنما يضع « عدم الاكتراث » على قدم المساواة مع الكذب ، والتضليل ، والتويه ، والنشويه ، وشتى ضروب الزيف الفكرى . وإذا كان التفلسف ضرورة ، فذلك لأن الآراء لا يمكن أن تستوى ، والمبادئ لا يمكن أن تتعادل ، والمذاهب لا يمكن أن تحيا فى حالة تعايش سلمى . وما دام كل حوار هو فى صميمه ضرب من « المواجهة » Affrontement ، فإن الفيلسوف لا بد من أن يتخذ صورة « الشخص » الذى يواجه الأشياء والأشخاص ، ويدافع عن رأيه مستوحياً تلك « الحقيقة » التى يعيش لأجلها . ومعنى هذا أن التفلسف هو فى صميمه مواجهة لا تخلو من معارضة وصراع ، ولكنها « مواجهة » تقوم على احترام حق كل إنسان فى التفكير ، لا على فرض حقيقتنا فرضاً على الآخرين . وليس المهم فى عالم الفلسفة أن يتحقق بين المذاهب نوع من التعايش السلمى ، بل المهم أن يقوم بينها ضرب من « المواجهة » ، فيؤثر بعضها فى البعض الآخر ، ويتأثر بعضها

بالبعض الآخر . والفيلسوف المستبصر حين يأتي أن يفرض على الآخرين حقيقة جاهزة تبدو كأنما هي مجرد « شيء » ، فإنه بذلك إنما يقدم الدليل على أنه يضع نفسه في خدمة « حقيقة » هي في الوقت نفسه « حياة » — . حقاً إن الفيلسوف على ثقة تامة من أن المساومة بالحقيقة إن هي إلا خيانة لها ، ولكنه مع ذلك مستعد دائماً لتحقيق ضرب من « الوصال » بينه وبين الآخرين ، موقن دائماً بإمكان التلاقى معهم على صعيد مرتفع . وليس الحوار الفلسفي سوى هذا الوصال الفكري الذي يتم بين شخصيات حية يتفتح بعضها للبعض الآخر ، ويحترم كل منها حقيقة الآخر .

يبد أن كثيراً من مفكري العصر الحديث يميلون إلى استبعاد مفهوم « الحقيقة » ، ويحاولون من الفلسفة مجرد حلقة في سلسلة من الأحداث التاريخية . وهؤلاء لا ينظرون إلى أي « مذهب » فلسفي من حيث صدقه أو كذبه ، بل هم يقتصرون على تحديد موضعه من حتمية الأفكار بوصفه مجرد حدّ في سلسلة من الملل والمملات . وليس من شك في أن مثل هذا التعليل التاريخي للمذاهب والأفكار كثيراً ما يفضي إلى القضاء على المعنى العقلي لكل فلسفة ، من أجل إحالتها إلى مجرد ظاهرة حضارية نسبية يتكفل بتفسيرها سياق الأحداث . ولكن الفيلسوف الحق يأتي أن يجعل من المذاهب مجرد شخصيات مسرحية تنطق بلسان قوة اجتماعية أو طبقة اقتصادية أو جماعة تاريخية ، وإنما هو يناقشها بلغة « المعقولة المنطقية » ، ويطالبها بتقديم مستنداتها الشرعية ، ويحاول الوصول إلى التحقق بما إذا كانت صادقة أم كاذبة^(١) .

والواقع أنه إذا كانت النزعة الشكّية نفسها نزعة فلسفية ، فذلك لأنها تضع

(1) Cf. E. Bréhier: «Transformation de la Philosophie Française», Paris, Flammarion, 1950, pp. 7-8.

في الاعتبار الأول « مشكلة الحقيقة ». وأما حين يُصَرَّفُ النظر عن صدق القضية أو كذبها ، لكي يُكْتَفَى بالحكم عليها من الخارج حُكْمًا نسبيًا يستند إلى نوع من التفسير الأيديولوجي ، فهناك لابد من أن تزول الفلسفة ، لكي يحل محلها صراع الطبقات الاجتماعية . ولسنا نريد بذلك أن نفكر صلة الفلسفة بالإطار الحضاري ، ولكننا نريد أن نؤكد أن الفلسفة ليست مجرد حلقة في سلسلة من الأحداث . ولو أننا اقتصرنا على النظر إلى الفلسفة بوصفها مجرد تمثيل اجتماعي ، وكأنما هي ظاهرة حضارية يتكفل بتفسيرها البلد أو الجنس أو الحقبة التاريخية ، لجعلنا منها مجرد موضوع من موضوعات الدعاية ، أو مجرد مبدأ من مبادئ الانفصال ، في حين أن الصبغة الرئيسية التي تميز الفلسفة هي حرصها على « الكلية » واهتمامها ببلوغ مستوى « العمومية » . وسنحاول عند الحديث عن صلة الفلسفة بالسياسة ، وصلتها بالأيديولوجيا ، أن نعرض بالتفصيل لمناقشة هذه القضية^(١) .

إن الفيلسوف ليزعم لنفسه أنه ينطق بلسان الإنسانية قاطبة ، وهو لهذا كثيراً ما يعتقد أنه قد استطاع أن يعبر عن الحقيقة المطلقة . ويحكي في هذا الصدد أن حريقاً شب في منزل الفيلسوف الألماني المعاصر هوسرل (١٨٥٩-١٩٣٨) ، فالتهمت النيران عدداً غير قليل من مخطوطات الفيلسوف . وجاء بعض أصدقائه المقربين إليه يعزونه عن هذه الخسارة الفادحة ، فما كان منه سوى أن أجابهم بقوله : « إن شيئاً لم يضع ! إنها الحقيقة ؛ والحقيقة لابد دائماً من أن تنكشف في خاتمة المطاف . » ! وهذه العبارة إن دلت على شيء ، فإنما تدل على أن الفيلسوف يميل بطبعه إلى إغفال الجانب الفردي التاريخي من تفكيره ، لكي يخلع على آرائه قيمة نهائية مطلقة ، وكأنما هي الحكم الأخير الذي لا يقبل نقضاً

(١) أضفنا في هذه الطبعة الجديدة فصلاً بأكمله عن « الصلة بين الفلسفة والأيديولوجيا » : انظر الفصل العاشر) ، كما أضفنا فصلاً آخر عن « صلة الفلسفة بالأخلاق » .

ولا إبراماً ! وليس بدعاً أن تتصف قضايا الفيلسوف — في نظره هو — بطابع الصدق اليقيني . فإن الاعتقاد ملازم للحكم ، والقضية صادقة دائماً بالنسبة إلى من يقررها . ولكن الفلاسفة لا يقفون عند هذا الحد ، بل هم يميلون إلى الظن بأن حقائقهم حقائق موضوعية مطلقة ، وكأنهم قد استطاعوا أن يخرجوا على التاريخ وأن يتحرروا من أسر الزمن . والظاهر أن هذا الاعتقاد الذي تردد في نفوس كبار الفلاسفة من أمثال ديكرت ، واسبينوزا ، وكانت ، وهيغل (وغيرهم) هو الذي عمل على اختلاط الروح الفلسفية بالنزعة الإيقانية القطعية ، حتى لقد استحالت « الفلسفة » في نظر الكثيرين إلى مجرد « عقيدة » .

بيد أننا لو عدنا إلى تاريخ الفلسفة ، لاستطعنا أن نتحقق من أن « الحقيقة » لم تكن في يوم ما من الأيام وفقاً على مذهب بعينه ، بل هي قد كانت دائماً أبداً موزعة بين سائر المذاهب . وإذا كان تاريخ الفلسفة مدرسة حقيقية يتلقن فيها الفكر دروس الإخاء الفكري ، والوصال العقلي ، والتسامح المذهبي ، فذلك لأن هذا التاريخ تقرير لحقيقة عليا تؤكد قيمة الإنسان وحقه في التفكير . وما كان تاريخ الفلسفة يوماً مجرد مقبرة للأوهام البشرية ، أو مجرد سجل للأخطاء الإنسانية ، بل هو قد كان دائماً أبداً ندوة كبرى يتحقق فيها الوصال الحقيقي بين مفكرى عاضى والحاضر . ومهما أغلق الفيلسوف بابه على نفسه ، فإن فلسفته لا يمكن أن تبقى بمثابة مناجاة لنفسه إحقاً إن من طبيعة كل مفكر أن يتمسك بالحقيقة التي تملأ أفقه ، ولكن من واجب المفكر أن يتذكر دائماً أن تفكيره هو في صميمه إجابة أو استجابة . فالفلسفة حوار وجدال ومواجهة ، والفيلسوف تلميذ قبل أن يكون أستاذاً . وليس تاريخ الفلسفة في جوهره سوى شبكة من العلاقات الفكرية والمنازعات المذهبية ، وكأن حكماء العصور المختلفة يتبادلون الآراء ويتقارعون بالحجج !

إن الحقيقة — كما يقول إسبرز — ليست ملكاً لأحد ، وإنما البشر جميعاً ملك للحقيقة . وإذا كان « الوصال » Communication هو جوهر الإيمان الفلسفي ، فذلك لأن البحث عن الحقيقة يضطرنا إلى الخروج من قوقعتنا الفكرية ، من أجل التفتح للآخرين والتلاقى معهم والاستجابة لهم . والفيلسوف الحق هو ذلك الذي يعلم أنه في خدمة الحقيقة ، فيقنع بأن يكون مجرد شاهد لها ، بدلاً من أن يحاول تملكها واغتصابها . وشهادة الفيلسوف هي تقرير لنوع العلاقة التي تربطه بالوجود ، فهي التزام فكري يتعهد فيه الفيلسوف بالوفاء لخبرته الروحية الخاصة ، أو يأخذ على عاتقه فيه أن يكون مخلصاً لتلك الحقيقة التي يحملها في باطنه . والفيلسوف حين يضع فكرة « الشهادة » Témoignage محل فكرة « الحقيقة » Vérité ، فإنه بذلك إنما يعلن أنه مجرد « وسيط » تنكشف عن طريقه واقعة تعلو عليه . ومعنى هذا أن الفيلسوف « شاهد » يجاهد في سبيل تحرير تلك الحقيقة التي يحملها في باطنه ، فهو في خدمة مبدأ متعال يضع تحت تصرفه فكره وشخصه معاً . وليست رسالة الفيلسوف سوى تلك المهمة الروحية التي يضطلع فيها المفكر بأداء هذه الشهادة على الوجه الأكمل .

حقاً إن شهادات الفلاسفة مختلفات متباينات ، ولكنها جميعاً إقرارات حية تنطق بلسان الحقيقة . وقد تتصارع الآراء والمذاهب ، ولكن من المؤكد أن ثمة اتصالاً خفياً أو رابطة ضمنية تجمع بين تلك الآراء المتعارضة والمذاهب المتضاربة . ولعل هذا ما أراد التوحيدى أن يعبر عنه حينما أورد لنا مقالة لأفلاطون قال فيها : « إن الحق لم يصبه الناس في كل وجوهه ، ولا أخطأوه في كل وجوهه ، بل أصاب منه كل إنسان جهة . ومثال ذلك عريان انطلقوا إلى فيل ، وأخذ كل واحد منهم جارحةً منه ، فجلسها بيده ومثلها في نفسه . فأخبر الذي مسَّ الرجل أن خلقه الفيل طويلة مدورة شبيهة بأصل الشجرة

وجذع النخلة . وأخبر الذى مس الظهر أن خلقته شبيهة بالهضبة العالية والرابية المرتفعة . وأخبر الذى مس أذنه أنه منبسطة دقيق يطويه وينشره . فكل واحد منهم قد أدى بعض ما أدرك ، وكل ما يكذب صاحبه ويدعى عليه الخطأ والغلط والجهل فيما يصفه من خلق الفيل . فانظر إلى الصدق كيف جمعهم ، وانظر إلى الكذب والخطأ كيف دخل عليهم حق فرقهم .^(١)

والواقع أن من طبيعة الفكر البشرى أن يقصر نظره على ناحية واحدة من نواحى الوجود ، فهو قلما يصيب منه أكثر من جهة ، بينما تفوته منه جهات أخرى فطن إليها غيره . والذى يحدث أن الجهة التى يصيبها الفرد الواحد تكون فى العادة مغايرة لما يصيبه غيره من الأفراد ، فينشأ من ذلك الاختلاف والتنازع . والحال فى التفكير كالحال فى الإبصار : فإن المنظر الطبيعى الواحد يختلف أشد الاختلاف تبعاً للجهة التى ينظر منها الإنسان إليه ، حتى إنك لترى صورتين قد أخذتا لمنظر واحد ، فتتوهم أنهما تمثلان منظرين مختلفين ، وما هما إلا صورتان قد أخذتا من جهتين مختلفتين لمشهد واحد بعينه . والفلاسفة أيضاً ينظرون إلى الحقيقة من « جهات » مختلفة ، فليس بدعاً أن تحجب نظراتهم متباينة متنوعة ، وما هى إلا « روايات » مختلفة لحقيقة شاملة تفلت من طائلة كل تحديد أو استيعاب . أما إذا عرفنا أن كل نظرة فلسفية إن هى إلا وجهة نظر جزئية تنقسم بطابع خاص ، فهناك قد نفطن إلى ضرورة ربطها بما عداها من وجهات النظر الأخرى ، حتى لا تكون مجرد فكرة هجينة لا تمت إلى تاريخ الفكر البشرى بأدنى سبب . والحق أنه ليس ثمة « فلسفة فى ذاتها » ، بل هناك

(١) أبو حيان التوحيدي : « المقابسات » ، طبعة حسن البندوبى ، ١٩٢٩ ،
المطبعة رقم ٦٤ ، ص ٢٥٩ .

« شهادات » فلسفية مختلفة يتكون من مجموعها ما يشبه « الحقيقة » .
والفيلسوف العظيم إنما هو ذلك الذى ترتد إليه الإنسانية بين الحين والآخر ،
واقعة من أنها لا بد من أن تلقى عنده شهادة فكرية حية تجعل منه دائماً أبداً
مفكراً عصرياً . وهكذا تكون خصوصية الفيلسوف سبباً فى تجمع المفكرين
التأخرين حوله ، وكأنما هو مركز إشعاع تتلاقى عنده العقول ، ويتحقق عن
طريقه ضرب من « الوصال » بين الأذهان .

حقاً لقد وقع فى ظن البعض أن المذاهب الفلسفية عوالم منفصلة ليس بينها
تداخل أو اتصال ، ولكن هؤلاء قد تناسوا أن الكلمة النهائية فى الحياة
الفكرية لا يمكن أن تكون هى العزلة أو الانفصال . وإذا كان من شأن
الفيلسوف الكبير أن يظهر على مسرح التاريخ بصورة « موحد الأفكار »
أو « مؤلف الأذهان » ، فذلك لأنه يتيح للآخرين أن يروا من خلاله أكثر
بما يراه كل واحد منهم بمفرده . ولئن كان كل عصر قد فهم سقراط ، وأفلاطون ،
وأرسطو ، وديكارت ، وكانت ، وهيجل ، وغيرهم ، على طريقته الخاصة ،
إلا أن تيارات الفكر فى كل زمان ومكان قد ارتدت إليهم ، وتأثرت بهم ،
وتلاقت عندهم . والظاهر أن هؤلاء المفكرين — كما قال برجسون — قد
استطاعوا أن يكشفوا للإنسانية عن حقائق ميتافيزيقية كبرى ، فشقوا أمام
الفكر البشرى سبلاً جديدة لم تكن فى الحسبان . « ولو أننا أردنا أن ننفذ
بفعل حدسى إلى صميم مبدأ الحياة ، لكان علينا أن نوليهم انتباهنا بكل عناية ،
وأن نحاول بكل جهد أن نستشعر عن طريق التعاطف ما كان يدور فى قرارة
نفوسهم . ولن يتسنى لنا أن ننفذ إلى أعماق السر ، إلا إذا صوّبنا أنظارنا نحو

القمم : فإن النار التي تنوى في مركز الأرض لا تتجلى إلا فوق ذرى
البراكين . » ^(١)

ولكن هل يكون معنى هذا أن التجربة الميتافيزيقية هي وقف على تلك
الشخصيات الكبرى « التي استطاعت أن تستخرج الكثير من القليل ،
وأن تخلق الشيء من اللاشيء ، وأن تضيف في كل لحظة إلى ما في العالم من
خصب وثرأ وجدة » ؟ . . . هل تكون الفلسفة وليدة الخبرات الممتازة ،
والتجارب الأصيلة ، والحدوس المبدعة ؟ أليست الخبرة الفلسفية ظاهرة إنسانية
عامة يشترك فيها سقراط مع المواطنين الأثينيين البسطاء في الشوارع والأسواق
والحوانيت ؟ ألا يتميز الحوار الفلسفي بأنه ذلك « الوصال الفكري » الذي
يتحقق بين المتخصصين وغير المتخصصين ؟ . . .

يبدو لنا أنه ليس للوعي الفلسفي من موضوع سوى الخبرة المادية : فنحن
نتفلسف حين نفكر في العالم ، والآخرين ، والتاريخ البشري ، والحقيقة ،
والحضارة . . . إلخ . ولكننا حين نتفلسف ، فإننا لا نعدّ هذه كلها وقائع جاهزة
معدة من ذى قبل ، وكأننا يلزأ نتائج ليس لها مقدمات ، أو كأننا يلزأ أشياء
تلقائية تفسر نفسها بنفسها ، بل إن من شأن الوعي الفلسفي أن يحىء فيكشف
لنا عن الغرابة الأصلية التي تنطوى عليها كل تلك الظواهر ، والمعجزة الكبرى
التي عملت على ظهورها إلى عالم الوجود . ولا بد من أن تظهر « الميتافيزيقا »
بمجرد ما يكف المرء عن الاستمرار في سباته الطبيعي ، لكي يرفض « بينة »
الموضوع ، حسيا كان أم عليا . فالفلسفة إنما تبدأ حينما يفتن المرء إلى
ما يسخر خبرته من ذاتية أصلية ، وقيمة جوهرية ، بوصفها « حقيقة » . والإنسان

H. Bergson : "L'Énergie Spirituelle", P. U. F., 1949, p. 25. (١)

إنما يتفلسف حين يدرك أن لمعظم أفعاله ، سواء أ كانت هي الحياة ، أم الشهوة ،
 أم الحب بصفة عامة ، دلالة ميتافيزيقية . ولو أننا اقتصرنا على النظر
 إلى الإنسان باعتباره مجرد آلة تحكمها قوانين طبيعية ، أو مجرد « حزمة من
 الغرائز » ، لكان في هذا قضاء مبرم على الفلسفة . ولكن الإنسان — لحسن
 الحظ — ما يزال يشعر في قرارة نفسه بأنه وعيٌ وحرية ، وهذا الشعور نفسه
 هو الذي يدفعنا إلى القول بأنه لن تزول الفلسفة اللهم إلا بزوال آخر مخلوق
 بشري على ظهر هذه البسيطة !

ذكر يا ابراهيم

مقدمة

يخيل إلى أنه ليس أروع في الحياة من أن تكون هوايتك هي حرفتك ! وأنا رجل قد احترفت الفلسفة ، ولكنني أستطيع مع ذلك أن أقول مع شوبنهاور إنه « إذا كان ثمة أناس يعيشون من الفلسفة ، فإنني قد اخترت أن أعيش للفلسفة . » وأنا أعلم تمام العلم أن الفلسفة لم تعد بضاعة رائجة في عصرنا الحاضر ، فقد وقع في ظن الكثيرين أن العلم قد خلع الفاسفة عن عرشها إلى غير ما رجعة ، ولكنني مع ذلك لا زلت أعتقد أنه ليس كالفلسفة رسالة تستحق أن يعيش من أجلها المرء . وماذا عسى أن تكون الفلسفة في صميمها إن لم تكن تلك الدراسة الجدية التي يضطلع بها موجود ناطق يبغي الفهم وينشد المعرفة ويلمس الحقيقة ؟ . . . إننا لنسمع عن شخصيات عظيمة كرسن حياتها لخدمة البحث العلمى ، قعاشت من أجل العلم ، ولكننا ما نكاد نتحدث عن تكريس الحياة لخدمة التفكير الفلسفى ، حتى يبتدرنا الناس بقولهم : « وهل كانت الفلسفة يوماً غاية في ذاتها حتى يحيا المرء من أجلها ؟ » . ولكن ، كيف لاستحق الفلسفة أن يحيا المرء من أجلها ، وهى تلك الرسالة الإنسانية الكبرى التي تفرضها علينا طبيعتنا العقلية نفسها ؟ . أليس الوجود البشرى بطبعه هو ذلك الخلق المتسائل الذى لا يكاد يكف عن إثارة المشاكل ؟ . فكيف لا تكون الفلسفة قوته اليومى ، وهى غذاؤه الروحى الذى يهيات له أن يستغنى عنه ، اللهم إلا إذا تنازل عن عقله ، وارتضى لنفسه أن يتخلى عن إنسانيته ؟ . . . إننا لننسى في كثير

من الأحيان أن موضوع الفلسفة الأول هو البحث في مشكلة المصير ؛ ولا شك أنه ليس ثمة مشكلة يمكن أن تكون أشد خطورة بالنسبة إلينا من مشكلة الوعى الذى يمكن أن يحصله كل منا عن ذاته ، مع ما يقترن به من شعور عميق بالمعنى الذى ينطوى عليه وجوده ، وإدراك واضح للسكانة الخاصة التى نشغلها فى صميم العالم ككل . فليس بدعا أن يجد البعض فى الفلسفة رسالة كبرى تستحق أن يعيشوا من أجلها ، خصوصا إذا عرفنا أن « الحكمة » كانت دائما أبدا حلما عزيزا على أنصاف الآلهة ! .

بيد أننا لو نظرنا إلى تلك المشكلات العديدة التى دأب الفلاسفة على إثارتها فى كل زمان ومكان ، فقد نجد أنفسنا مدفوعين إلى القول مع البعض بأن الفلسفة ماهى إلا سجل لأخطاء العقل البشرى ! . ولكننا نغبط الفلسفة حقها ، لو أننا حكمنا عليها بما تقدم من حلول ، لا بما توضع من مشكلات . أو ربما كان الأدنى إلى الصواب أن نقول إن الفلاسفة ينقسمون إلى طائفتين : فلاسفة المشكلة وفلاسفة الحل ؛ فلاسفة السؤال وفلاسفة الجواب ؛ فلاسفة لديهم سؤال عن كل شيء ، وفلاسفة لديهم جواب لكل شيء ! . ولعل من سوء حظ الفيلسوف أنه ما يكاد يخطو بضع خطوات فى ميدان التفكير الفاسفى ، حتى يتعرض لخطر المذهبية ، فلا يلبث فى خاتمة المطاف أن يصبح أسيراً لمذهب بعينه لا يستطيع منه فككا ! وهكذا يستحيل الإنسان الذى كان لديه سؤال عن كل شيء ، إلى إنسان لديه الجواب على كل شيء ! أما الفيلسوف الحقيقى فإنه لا يمكن أن يرى فى الفلسفة سوى مخاطرة روحية يقوم بها إنسان لا يملك أن يضع حدا لعملية « حوار الذات مع الذات » ؛ لأن هذا الحوار عنده فعل لا ينقطع أبداً ، بل تصبح فيه الأجوبة نفسها أسئلة جديدة ، دون أن يكون ثمة توقف على الإطلاق . ومعنى هذا أن التأمل الفلصفى عملية متصلة لا يمكن أن تتوقف ؛ اللهم

إلا إذا تنكرت الفلسفة لنفسها . وحين يدرك الفيلسوف أن واجبه الأول هو الوفاء للوجود ، فإنه لابد من أن يدع مجال البحث مفتوحاً دائماً أبداً . ونبعاً لذلك ، فإن الفيلسوف إنسان « سالك » هيات أن يصبح يوماً « واصلاً » . وليس التفكير الفلسفي — على حقيقته — سوى شعور المرء بأنه ما يزال عليه أن يحقق مهمة لم يستطع أحد من قبله أن ينهض بتحقيقها ! أجل ، فإن الفيلسوف لابد أن يحو كل شيء ، لكي يبدأ كل شيء من جديد ! ألم يشعر كل من ديكارت ، واسبينوزا ، وكانت ، وهيغل ، وهوسرل (وغيرهم) ، أن الفلسفة بأسرها قد بدأت على يديه ، وكأن لم تكن من قبله فلسفة ، أو كأنما هو قد أعاد بناء كل شيء من جديد ؟ ! ألم يقل شوبنهاور « إنه لا يمكن أن تقوم في العصر الواحد سوى فلسفة واحدة ، كما أنه لا يمكن أن توجد في خلية النحل الواحدة سوى ملكة واحدة ؟ » فهل نقول إن الفلاسفة عناكب سامة يحيا كل منها داخل خيوطه الخاصة ، ولا يقرب الواحد منها غيره إلا لمهاجمته والاعتداء عليه ؟ أو بعبارة أخرى ، هل تصور الفلاسفة بصورة الحيوانات الضارية التي لا يأنس بعضها إلى بعض ، ولا تتلاقى إلا لكي تتنازع وتقتصرع ، وتتشابك وتتشاجر ، دون رحمة ولا هوادة ؟

الواقع أن الأنانية الفلسفية كثيراً ما تستبد بالمفكرين ، فنرى الواحد منهم يتحدث عن محاولاته الفكرية بقوله « فلسفتي » أو « مذهبي » ، وكأنما هو « يملك » فلسفة أو مذهباً ، كما « يملك » المرء بيتاً أو سيارة أو قطعة من الأرض (مثلاً) ، في حين أن فكر الفيلسوف هو أبعد ما يكون عن القوقعة التي يقبع فيها ويحتجى بها ، أو القمقم الذي يتسلل إليه ويختبئ فيه ! والحق أن الفلاسفة ليست تركة يتنازع عليها جماعة من الورثة المتخاصمين ، بل هي تراث إنساني مشترك تعيش عليه البشرية قاطبة ، بحيث قد يعسر على مؤرخ الفلسفة أن يحدد

القسط الذى أسهم به كل مفكر فى تكوين هذا التراث، الإنسان، الخالد . ومن هنا فإن أصداء « الفلسفة الخالدة » *Philosophia perennis* لابد من أن تتردد فى كل ما يجرى على أقلام مفكرى العصر ، حتى ولو بدت لهم أفكارهم جديدة كل الجدة ، أصيلة أصالة مطلقة !

بيد أن القول بوجود « فلسفة خالدة » لا يعنى أن يمحصر الفيلسوف جهوده فى دراسة المذاهب ، وتتبع تاريخها ، ومحاولة تصنيفها ، ووضع الشروح والتمايمات عليها ، بل لابد للفيلسوف من أن يمضى مباشرة نحو المشكلات الفلسفية ، وبلا أن يعيشها . ومن هنا فقد يصح أن نقول — بمعنى دامن المأزق — : إن على كل فيلسوف أن يثير قضايا الفكر والوجود لحسابه الخاص ، وأن الفلسفة بأسرها إنما تظهر إلى الوجود للمرة الأولى على يديه ! فلا حياة للفلسفة إن لم يحاول الإنسان أن يفلس حياته ويحيى فلسفته ، ولا قيام للتفكير الفلسفى إن لم نجعل نقطة انطلاقنا هى « الإنسان » نفسه ، بوصفه ذلك الموجود الذى لا يكاد يكتف عن وضع نفسه موضع التساؤل . وما أصدق جبريل مارسل حينما يقول : « إن ذلك الذى لم يعيش هذه المشكلة أو تلك من مشكلات الفلاسفة ، أعنى ذلك الذى لم يجد نفسه معانقاً لها ، مأخوذاً فى حلها ، لا يمكن أن يفهم ماذا كانت تعنى تلك المشكلة بالنسبة إلى من عاشها قبله . »

حقاً إن البعض لا يظن أن الفلاسفة ما هى إلا تركيب فكري ضخم ، أو بناء عقلى شامخ ، أو تفكير لفظى ملتقى ، ولكن هؤلاء يفسون أن الفلاسفة (كما قلنا فى موضع آخر) هى استفهام وتساؤل ، لا مجرد إثبات أو نفي . . . وإذا كان بعض الفلاسفة قد وقع تحت سحر « المذهبية » ، فأراد لفلسفته أن تتخذ صورة مغلقة ، وكأنما هى قد استطاعت أن تحتكر الحقيقة لنفسها ، فإن من واجبنا منذ البداية أن نشور على هذه النزعة المذهبية المنطرفة ، لكي نترك

فلسفتنا حرة ، متفتحة ، مسامية ، ذات منافذ ! وإذا كان ثمة عبارة طالما وددت لو أننى كنت قائلها قبل صاحبها ، فتلك هى عبارة كيركجارد حين يقول : « إن فيلسوف المذهب لمو أشبه ما يكون برجل ابتنى لنفسه قصرًا شامخًا ، ولكنه ظل يسكن كوخًا حقيرًا إلى جواره . . . وما كان فكر الإنسان سوى المسكن الذى يعيش فيه ويستظل بظله » . وكلنا يذكر بلا شك ثورة برجسون على التركيبات الضخمة ، والمذاهب الشاخنة ، والتصورات الجاهزة ، والمفاهيم المتعجزة ؛ ولكننا مع ذلك كثيرًا ما نساق وراء إغراء « المذهبية » ، فنأبى إلا أن نبنى لأنفسنا صروحًا ميتافيزيقية هائلة ، نقنع بتأمل أعمدها الضخمة وقبائها الشاهقة ، دون أن نسأل أنفسنا يومًا هل تصلح حقًا لمسكنى الآلهة !

وإننا لمعجبين أحيانًا حين نرى الفلاسفة يثيرون من المشكلات ما لا موضع للإثارة فى رأينا نحن ، وكأنما يحلو لهؤلاء الحيارى أن يشككوا الناس فى كل شيء ، وأن يثيروا الشبهات حول كل موضوع ! ولكننا ننسى فى الحقيقة أنه إذا كان الرجل المادى يرى كل شيء طبيعيًا مأوفًا ، فإن الفيلسوف لابد من أن يظل حائرًا مندهشًا متعجبًا أمام كل شيء ! وقديما قال أرسطو : « إنما الدهشة هى الأم التى أنجبت لنا الفلسفة ! » . . . والفيلسوف لا يملك سوى أن يقف ذاهلًا أمام سر الوجود ، وكأنما هو حدث صغير يشهد العالم المرة الأولى ، فلا يكاد يكف عن إثارة السؤال تلو السؤال ، ولا يكاد يفتح فيه إلا لى ينطق بكلمة « لماذا ؟ » . ويأبى بعض الناس إلا أن يتطلبوا من الفيلسوف أجوبة محددة ، وآراء حاسمة ، وحلولا نهائية ، ولكن الفيلسوف نفسه حينما يلتقى بشيئين مختلفين ، فإنه (كما قال أفلاطون) كثيرًا ما يحذو حذو الطفل حين يختار هذا وذاك معا ! وليس أيسر بطبيعة الحال من أن تنهم

الفلسفة بأنها تعقيد لما هو واضح ، لا إيضاح لما هو معقد ، ولكننا عندئذ
إنما ننسى أن الوضوح لا يكون على حساب العمق ، وأن التعقيد ليس في ذهن
الفيلسوف ، بل في قرارة الوجود نفسه ! ولو كان الوجود حقيقة بيّنة متجانسة ،
لما استحال على الفيلسوف أن يصوغه في قالب محدد ؛ ولكن الوجود مع الأسف
حقيقة غامضة متناقضة ، فهو لا يمكن أن يصاغ في مجموعة من القوالب الجامدة
التحجيرة ، أو الصيغ المنطقية المتسلسلة . وليس أمعن في الخطأ من أن نطالب
الفيلسوف بأن يقدم لنا عن الوجود مثل هذه الصورة الساذجة المبسطة ، وكأن
على الفيلسوف أن يحل كل مشكلات الوجود على صورة معادلات رياضية
سهلة ، في حين أن الفلسفة لا تبدأ حقا إلا حينما يلتقي المرء باللامعقول ، وحينما
يشعر بالتناقض ، وحين يدرك أن الوجود يخرج على المنطق !

وهنا قد يقول قائل : « ولكن ، ماذا عسى أن تكون جدوى الفلسفة ،
إذا كانت كل مهمتها إنما تنحصر في إثارة بعض الأسئلة التي لن يكون لها يوماً
جواب ؟ » . وردنا على هذا الاعتراض أنه ليس من شأن الفيلسوف أن يتفنن
في إثارة مشكلات غير معقولة لا تقبل الحل ، بل إن من طبيعة الفيلسوف
ألا يقنع بأية مجموعة نهائية من الأجوبة ، مهما بدت له يقينية قاطعة ؛
فإن الفلسفة لا تعرف النتائج الحاسمة والتأكيدات الجازمة والحلول الصارمة .
وقد لا نجانب الصواب إذا قلنا مع ماركس : « إن الإنسانية لا تثير من المشكلات
إلا ما هي قادرة على حله » ؛ ولكن على شرط أن نتذكر أن المقصود بهذه
العبارة هو أن ثمة ضرباً من التماسك بين السؤال والجواب ، وأن لكل حقبة
من الحقب الفكرية أسئلتها وأجوبتها التي تتلاءم مع طبيعة تفكيرها . . .
والواقع أن كل سؤال إنما ينطوى بوجه ما من الوجوه على إجابته ، لأنه يفترض
ضرباً من التنظيم الخاص للتجربة ، بحيث إننا قد نستطيع أن نلمح من خلاله

ذلك القلق الفكرى الذى ينطوى عليه السؤال ، نوع الترضية العقلية التى ستكون هى الكفيلة بإزالته أو التخفيف من حدته . ولما كان الوعى البشرى لا يجزع لشيء قدر جزعه للخلاء أو الفراغ ، فإننا قلما نلتقى عبر التاريخ بسؤال فلسفى واحد قدبقى بدون جواب على الإطلاق ! ومن هنا فقد اصططبت الفلسفة فى كل عصر من العصور بنوع الإطار الحضارى الذى عاش بين ظهرانيه شتى الفلاسفة ، كما يظهر بوضوح من تسلم كل فيلسوف لثراث عصره الفكرى ، من أجل معاودة القيام بتلك المخاطرة الفكرية الكبرى التى ينطوى عليها فعل التفلسف ، فى ضوء المعارف التى كانت سائدة فى عصره . ولكن هذا لا يمنعنا من أن نعود فنقول : إن الفيلسوف هو رجل الإنكار والانفصال والمعارضة ؛ فهو لا يمكن أن يكون مجرد صدى لعصره ، بل لابد له من أن يشرئب بعنفه نحو ذلك « المجهول » الذى لا زال مرأ خافياً على رجال عصره ؛ حتى لا يقنع الناس بما بين أيديهم من حقائق ، بل حتى لا يستنمى العلماء أنفسهم إلى ما حصلوا من معارف . وليست الصبغة التساؤلية للفلسفة سوى مجرد تعبير عن عملية « التعالى » التى ينطوى عليها كل بحث فلسفى . . .

والحق أن كل من يزعم لنفسه أنه قد استطاع أن يرى بوضوح كل شيء ، إنما يقلع عن البحث والتفلسف ، وكل من لا يسلم بوجود أى « سر » ، إنما يلغى كل تفكير وتساؤل . ولعل هذا هو ما عناء يسبرز حينما قال : « إن التفلسف فى صميمه ما هو إلا اعتراف بالتواضع العميق الذى تفرضه علينا حدود المعرفة العلمية الممكنة ، وبالتالي فإنه تفتح كامل للذهن أمام آفاق ذلك « المجهول » الذى يمتد فيما وراء كل معرفة موضوعية . وعلى الرغم من أن كل فلسفة لابد من أن تنطوى على اعتراف ضمنى بقدرته العقل على المعرفة ، فإن الفيلسوف قلما ينسب إلى الوجود شفافية مطلقة تجعل منه كتاباً مفتوحاً أمام العقل !

ولو كان في وسع الفكر أن ينفذ إلى أعماق الوجود في سهولة ويسر ، لما قامت لمشكلة الفلسفة قائمة ، ولتحقق التكافؤ المطلق بين الذات والموضوع ! ولكن الفلسفة (مع الأسف) لا تكاد تنفصل عن ذلك الدوار العقلي الذي اعتبره جبريل مارسل شرطاً إيجابياً لكل تفكير ميتافيزيقي جدير بهذا الاسم . وليست الضرورة الميتافيزيقية مجرد حب استطلاع محض ، وإنما هي شوق ملح يمكن أن نسميه باسم « الحنين إلى الوجود » ، وكأن لدينا نزوعاً قوياً نحو امتلاك الوجود بالفكر . فالفيلسوف هو أشبه ما يكون برجل مريض يبحث عن « وضع » يمكن أن يرتاح إليه ! والمرء إنما يصبح فيلسوفاً حينما يشعر بأن وضعه بالقياس إلى الواقع هو مما لا سبيل إلى تقبله . بل إننا حتى لو رجعنا إلى صميم ذواتنا ، لوجدنا أن وجودنا الإنساني نفسه ليس من الشفافية بحيث يدرك الفكر نفسه ، على نحو ما يرى الإنسان صورته في المرآة ! ولم تقم الفلسفة إلا يوم أدرك الإنسان أن وجوده نفسه هو في صميمه سر لا بد له من أن يعمل على استجلاء كنهه ! ولكن العقل البشري الذي دأب على إثارة المشكلات ، ما كان ليأخذ « الفلسفة » على أنها قضية مسلّمة ، بل هو سرعان ما جعل « التفلسف » نفسه مشكلة ! وهكذا اختلف الفلاسفة حول معنى الفلسفة ، على الرغم من اعترافهم ضمناً بأهمية التفكير الفلسفي ، فنشأت من ذلك مشكلة الفلسفة : ما موضوعها ، وما منهجها ، وما غايتها ، وما قيمتها . . . إلخ . وارتد الفكر البشري إلى ذاته فراح يسائل نفسه عن شرعية التأمل الفلسفي ، وإلى أي حد يمكن الخوض فيه ، وكيف السبيل إلى تعيين حدوده وتحديد معالمه . . . إلخ . . . ودب الخلاف بين الفلاسفة حول صلة دراستهم بما عداها من الدراسات ، فنشأت من ذلك مشكلة الصلة بين الفلسفة والدين من جهة ، وبينها وبين العلم من جهة أخرى . ثم تنوعت الاتجاهات ، وتعددت النزعات ،

وكادت الفلسفة أن تلامس بعض الفنون ، فنشأت من ذلك مشكلة الصلة بين الفلسفة والأدب ، بل أصبح البعض لا يرى حرجاً في أن يمزج الميتافيزيقا بالشعر . وعلى العكس من ذلك ، أراد البعض أن يحدد من دائرة الفلسفة ، بعد أن استقلت عنها معظم العلوم ، فذهب إلى أن مهمتها لا تكاد تعدو العمل على تحليل المفاهيم العلمية تحليلاً لغوياً منطقياً . . . وهكذا أصبحت الفلسفة نفسها مشكلة ؛ فارتد الفلاسفة إلى أنفسهم ، بعد أن تشكك قوم منهم في مدى شرعية دراستهم ، وصارت مشكلة « المتفلسف أو عدمه » هي أول موضوع عندهم المتفلسف ! . وسنحاول فيما يلي أن نعمل بنصيحة أرسطو ، فنتفلسف لكي نثبت لزوم « التفلسف » .

زكريا إبراهيم

الفصل الأول

تطور التفكير الفلسفي

١ — اعتاد مؤرخو الفلسفة من الغربيين أن يرجعوا نشأة الفلسفة إلى الطبيعيين الأولين ، وكان التفكير الفلسفي قد ظهر إلى عالم الوجود للمرة الأولى في ملطية على يد طاليس الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد ! . فهل يكون معنى هذا أن الحاجة إلى الفلسفة لم تكن معروفة قبل ذلك التاريخ ، أو أنه لم يحدث شيء في تاريخ التفكير البشري قبل أن يظهر طاليس ؟ أليس من الغريب حقا أن تكون الإنسانية قد ظلت كل هذا الأمد الطويل بدون فلسفة ، إلى أن قام في آسيا الصغرى على حين فجأة مفكرون يونانيون تمنحضت أذهانهم عن بعض الأفكار الفلسفية ؟ حقا إن التفكير الفلسفي الصحيح — كما لاحظ هيجل — لم يظهر إلا بعد أن فرغت الإنسانية من مطالب الحياة المادية ومستلزمات الصراع الطبيعي ، ولكن من المؤكد أن « الأسطورة » قد مهدت للفلسفة ، فكان لكل شعب من الشعوب خرافاته الحيوية التي كانت تشبع حاجته إلى الفهم وميله إلى المعرفة . هذا إلى أن الفلسفة الغربية نفسها — باعتراف الكثيرين من المؤرخين — قد وقعت تحت تأثير الكثير من التقاليد الشرقية (سواء أكانت دينية أم إشراقية أم صوفية أم غيبية) سواء كان ذلك في نشأتها أو خلال مراحل تطورها . فليس في استطاعتنا إذن أن نرجع نشأة الفلسفة إلى جنس بعينه ، أو إلى حقبة بعينها ، بل لا بد لنا من أن نقرر منذ البداية أنه ليس لتاريخ الفلسفة نقطة انطلاق معروفة ، لأن التفكير الفلسفي لم يكن

في يوم ما من الأيام وفقاً على قوم دون قوم أو على شعب دون شعب ! ولو أننا أطلقنا لفظ « الفلسفة » على أية حكمة إنسانية ، أو أية صورة يكونها الإنسان لنفسه عن العالم ، أو أى وعى بشرى يحصله الإنسان عن الواقع ، لكان في وسعنا أن نقول إن التفكير الفلسفى حق إنسانى لا شأن له بخطوط الطول والعرض ، ولا علاقة له بمسائل الجنس والدين واللون ... إلخ^(١) .

والحق أنه ما دام الإنسان حيواناً ناطقاً ، فإنه لا يمكن أن يشهد الطبيعة دون أن يستخدم عقله في محاولة تفهم ظواهرها ؛ وهو إذالم يعمل عقله بطريقة شعورية واضحة ، فإنه لابد من أن يعمل بطريقة غريزية مبهمه . وليس في وسع الإنسان أن يستغنى تماماً عن كل تفكير فلسفى ، لأن من طبيعة للعقل البشرى أن يحاول التعرف على حقيقة مركزه في الكون . وحسبنا أن نرجع إلى تاريخ الشعوب ، شرقية كانت أم غربية ، لكي ننتحقق من أن الفلسفة ماثلة بالضرورة في كل زمان ومكان ، سواء أكان ذلك في الأساطير الشعبية ، أم في الأمثال والحكم التقليدية ، أم في الآراء السائدة بين الناس ، أم في التصورات السياسية التي يأخذ بها المجتمع ... إلخ . وحتى أولئك الذين يظنون في أنفسهم أنهم أبعد ما يكونون عن الفلسفة ، إنما هم في الحقيقة فلاسفة رغم أنوفهم ، وإن كانوا في الحقيقة هواة متقلبين أو مفكرين مذبذبين ينتقلون من فكرة إلى أخرى ، دون أن يكون لديهم شعور واضح بما يفعلون ! . ومعنى هذا أن التفكير الفلسفى ظاهرة بشرية مشاعة . وما دامت الفلسفة ضرورة إنسانية ، فهيئات لأحد أن يستغنى عنها أو أن يتخلص منها . حقاً إن الفلسفة قد تكون (كما قال كارل بوبر) شعورية أو لا شعورية ، واضحة أو مبهمه ، حسنة أو سيئة ، ولكنها في كل هذه الحالات

G. Gusdorf : "Traité de Métaphysique", Paris, Colin, (١) 1956, p 7.

لا تخرج عن كونها فلسفة . وكل من ينبذ الفلسفة ، إنما يؤكد بذلك أن له فلسفته ، دون أن يظن هو نفسه إلى ذلك^(١) ! وهكذا قد يكون في وسعنا أن نقول : إن التفكير الفلسفي قد نشأ بمجرد ما استطاع الإنسان أن يمارس وظيفته بوصفه كائناً ناطقاً يهيمه أن يتعمق وجوده ، ويحدد علاقته بالعالم والآخرين .

٢ — والظاهر أن كلمة « الفلسفة » عند اليونان الأولين كانت تدل على معنى عام كل العموم ، إذ كانت تعني كل معرفة محضة لا تتوخى أية غاية عملية ، أو أية فائدة مادية . فلم تكن « الفلسفة » تشير إلى مفهوم خاص ، بل كانت تشير إلى حب الاستطلاع عامة ، وبالتالي فإنها كانت تعني كل جهد يقوم به العقل في سبيل تزويد صاحبه بالمعارف الجديدة . وهكذا كانت الفلسفة مرادفة للعلم ، والعلم هنا هو ما يعارض الفن ، من حيث إن الفن إنما يتوخى النافع أو المفيد ، في حين أن الفلسفة معرفة منزهة عن كل غرض . . . ونحن نجد كلمة « الفلسفة » لأول مرة عند هيرودوت الذي روى عن كريسوس أنه قال لصلولون : « لقد سمعت أنك جيت كثيراً من البلدان متفلسفاً ، بغية ملاحظتها واكتشاف معالمها » . ثم لم تلبث هذه الكلمة أن أصبحت تعني عند اليونان حب الحقيقة في شتى صورها ، وفن إجادة التعبير وإصابة التفكير ؛ أعني كل ما من شأنه أن يزيد حظ الفرد من التهذب والإنسانية .

وتبعاً لما تواترت به الرواية ، يعد فيثاغورس (العالم الرياضي المشهور الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد) أول من وضع معنى محدداً لكلمة « الفلسفة » ، فقد نسب إليه أنه قال : « إن صفة الحكمة لا تصدق على أى مخلوق بشري ، وإنما الحكمة لله وحده . » وهكذا قال فيثاغورس عن نفسه إنه يحب للحكمة ،

K. Jaspers : " Introduction à la Philosophie ", Plon, (١)
1951, p. 8

ولأنه حسب الإنسان شرفاً أن يهوى الحكمة ويحذ في طلبها . وما يروى عن فيثاغورس أيضاً أنه قال : « إن الحياة أشبه ما تكون بحفلة رياضية ، فهناك قوم يختلفون إليها للاشتراك في الألعاب ، وقوم للقيام ببعض المبادلات التجارية ، وآخرون — وهم صفوة المواطنين — يأتون للتأمل والملاحظة . وهكذا الحال أيضاً بالنسبة إلى الحياة ، فإن ثمة أناساً لا يعينهم منها سوى حب المجد ، وآخرين لا يبتغون من ورائها سوى تحقيق منافعهم وإشباع شهواتهم ؛ في حين لا ينفذ الفلاسفة من ورائها سوى الاهتداء إلى الحقيقة » .

بيد أننا ما نكاد نخوض في صميم الفلسفة اليونانية حتى لا نلبث أن نتحقق من أن كلمة فلاسفة الإغريق قد تفرقت حول مفهوم لفظ « الفلسفة » . فالفلاسفة الطبيعيون (مثلاً) لم يكونوا يفهمون من الفلسفة إلا أنها بحث عن العناصر ، وسعى من أجل الكشف عن أصل الكون . حقاً إن فاسفتهم كانت مستوعبة لكل ميادين المعرفة البشرية التي كانت سائدة في ذلك الوقت ، ولكنها كانت متجهة اتجاهها كلياً نحو العالم الخارجى ، فلم تكن تتجاوز في دراستها مسائل « نشأة الكون » ، و « تفسير الطبيعة » ، ورد الكثرة إلى الوحدة ، أعنى أنها كانت فلسفة كونية (كوسمولوجية) محضة . ثم جاء السوفسطائيون فاحتفوا الجدل والخطابة ، وجعلوا من الفلسفة ضرباً من التلاعب اللفظى الذى يعين صاحبه على تأييد القول الواحد ونقيضه على السواء . ولم تلبث النزعة الشكية أن تطرقت إلى الفلاسفة على يد بروتاغوراس وجورجياس ، فشاع القول بالنسبية ، وققد الكثيرون إيمانهم بالحقيقة المطلقة ، وأصبح هدف الفلاسفة هو الجدل المجرد الجدل ، لا لطلب الحق أو إصابة اليقين .

ثم ظهر سقراط فأحدث ثورة كبرى في نطاق الفلسفة ، إذ وجه الدراسات الفلسفية وجهة جديدة حين انصرف عن دراسة الطبيعة من أجل الانهماك

في دراسة الإنسان وقد روى شيشرون عن سقراط أنه « أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض ، وأدخلها إلى صميم المدن والبيوت » . ومعنى هذا أن سقراط قد حول الفلسفة إلى دراسة الأخلاق والسياسة ، بدلا من الاقتصار على البحث في الفلك والطبيعة . ولكن سقراط لم يقف عند حد الدفاع عن الأخلاق ضد مهارات السوفسطائية ، بل هو قد حرص أيضاً على وضع منطق عقلى قوامه الإيمان بالعقل ، والعمل على الوصول إلى الأفكار العامة أو المدركات الكلية . وليس من شك في أن الفلسفة مدينة بالكثير لسقراط ، ذلك الفيلسوف العظيم الذى عاش فلسفته وفلسف حياته ، فكان نموذجاً حياً للمفكر المحلى الذى يمضى مع منطق مذهبه حتى النهاية ! وحسب سقراط فخراً أن يكون هو صاحب العبارة المشهورة : « أيها الإنسان ، اعرف نفسك » ! ولكن معرفة النفس لا تتأتى إلا إذا كان ثمة علم ، والعلم إنما يقوم على الكليات أو الأفكار العامة ، فلم يكن بد من أن يهتم سقراط بالبحث عن المدركات الكلية ، والعمل على إقامة العلم على أسس متينة ثابتة . ونحن نعرف كيف حرص سقراط على وضع منهج فلسفى محكم ، فكان يصطنع الجهل ، ويقف من أدياء المعرفة موقف التهكم ، لكى لا يلبث أن يستخلص الحقائق من نفس محدثه عن طريق الأسئلة المنظمة والاعتراضات المنطقية ، وفقاً لعملية جدلية تهيب النفس لقبول الحق . وهذا المنهج « السقراطى » الذى اصطللحنا على تسميته باسم « منهج التهكم والتوليد » هو الأصل الذى تفرع عنه المنهج الجدلى الذى سنراه عند أفلاطون ، والمنهج التحليلى أو القياسى الذى سنلتقى به من بعد عند أرسطو . ولسنا نريد أن نخوض فى صميم فلسفة سقراط ، وإنما حسبنا أن نقول إنه أول من جعل من الفلسفة علم الماهيات أو المعانى . . .

ثم جاء أفلاطون فسار على نهج أستاذه سقراط ، وجعل من معرفة الذات نقطة البداية فى كل بحث فلسفى ، ولكنه لم يلبث أن أرجع إلى الفاسفة طابعها

العام ، إذ جعلها تستوعب موضوعات الطبيعة والنفس والأخلاق وما وراء الطبيعة . . . إلخ . حقا لقد اهتم أفلاطون على وجه الخصوص بدراسة المشكلات النظرية والعملية التي تنطوى عليها الحياة البشرية ، ولكنه لم ينفصل مع ذلك مسائل الطبيعة والعناصر الكونية والمبادئ الميتافيزيقية . . . إلخ . وهكذا أصبحت الفلسفة عند أفلاطون هي اكتساب العلم ، وموضوع العلم هو الوجود الحقيقي الثابت الضروري ، لا الأشياء المحسوسة التي لا تكف عن التغير ، ولا تنطوى على أية حقيقة أو ثبات . وإن أفلاطون ليفرق أيضاً بين المعرفة والظن ، فيقول إن العلم الحقيقي هو المعرفة بالمثل أو الماهيات ، في حين أن الظن الصائب إنما يهتدى إلى الحقيقة عن طريق الصدفة المواتية أو الاتفاق السعيد . ولا شك أن القارئ يذكر ما لنظرية المثل من أهمية عند أفلاطون : فإن موضوع العلم عنده هو تلك المثل أو الصور أو الماهيات التي هي في نظره مبادئ المعرفة والوجود على السواء . ولكن المهم أن الفلسفة قد اكتسبت على يد أفلاطون صبغة ميتافيزيقية ، فأصبحت تعالج على كل من علم الطبيعة وعلم الأخلاق ، وإن كان أفلاطون نفسه لم يستخدم لفظ « الميتافيزيقا » للإشارة إلى مشكلات ما وراء الطبيعة . وأما المنهج الفلسفي الذي اتبعه أفلاطون في معظم محاوراته ، فهو منهج الحوار السقراطي الذي لم يلبث أن استحال على يديه إلى منهج جدلي (دياكتيكي) يتم فيه الانتقال من الأفراد إلى الأنواع ، ومن الأنواع إلى الأجناس ، ثم من الأجناس إلى المثل أو النماذج الأثرية التي تشارك فيها شتى الوجودات . وهكذا كان أفلاطون ينتقل (مثلاً) من الجمال الحسي إلى الجمال الخلقى ، ثم من الجمال الخلقى إلى الجمال العقلى ، لكي ينتهى في خاتمة المطاف إلى الجمال بالذات أو مثال الجمال . ولما كانت الفلسفة في نظره هي مبدأ الانسجام أو التوافق في الحياة والفكر معاً ، فقد أصبحت

الفلسفة عنده « حكمة » يمتزج فيها العلم بالعمل ، وبلتبس فيها النظر العقلى بالفضيلة الأخلاقية . وتبعاً لذلك فإن مايسمو بعقل الفيلسوف فوق مستوى الرجل العادى هو فى نظر أفلاطون البحث الدائب عن الحق والجمال ، وما الجمال عنده سوى الخير نفسه ! وإذن فإن الفيلسوف الحق ليس بالرجل الذى يبنى المنفعة لنفسه فحسب ، وإنما هو ذلك الإنسان الذى ينشد منفعة الجميع ، ويبنى الخير للناس أجمعين ، فهو وحده السياسى الحق والمُشرِّع المصلح الذى يستطيع أن يكفل لمدننته أسباب السعادة والفضيلة على السواء .

أما عند أرسطو فقد ظلت كلمة « الفلسفة » تشير إلى كل ضروب البحث العلمى أو المعرفة العلمية ، فكانت مرادفة للعلم بمعناه العام . وقد قسم أرسطو العلوم إلى ثلاثة أنواع : علوم نظرية ، وعلوم عملية ، وعلوم فنية . والعلوم النظرية هى تلك التى تدرس المبادئ الضرورية ، أعنى كل ما لا نستطيع الإرادة البشرية أن تغيره ، فى حين أن العلوم العملية إنما تتجه نحو الإزادة فتحاول أن تؤثر على سلوكها ، بينما تتمثل غاية العلوم الفنية فى شيء يوجد خارج الفاعل ، ويكون على الفاعل أن يحقق إرادته فيه . . . وقد أطلق أرسطو على الرياضيات والطبيعيات والإلهيات اسم « الفلاسفات النظرية » ، ولكنه ذهب إلى أن الفلسفة الحقيقية إنما هى « الفلسفة الأولى » التى تدرس الوجود من حيث هو وجود ، أى التى تهتم بعلم الأشياء الأولى ومبادئها العليا ، حتى ترتفع إلى المبدأ المطلق الذى لا يعاود عليه شيء . ولما كانت الفلسفة فى نظر أرسطو هى علم المبادئ ، فإنها بوجه ما من الوجوه علم كلى . والعلم عند أرسطو هو دائماً علم بالعام ، وهو فى أصله وليد الدهشة أو التعجب . وقد نحا أرسطو منحى أستاذه أفلاطون ؛ فعمد إلى التمييز بين العلم — وهو المعرفة بالأزلى والضرورى — وبين الإحساس والظن ؛ وتجاهاً للممكن أو الحادث

أو العرضى — وقد حرص أرسطو على أن يحدد لنا أهم الخصائص التي تميز الروح الفلسفية ، فنص على صفات كثيرة لعل أهمها العموم أو الشمول ، بمعنى أن الفلسفة تتصف بروح التأليف والجمع والتوحيد ، ثم التجريد والسمو النظري ، بمعنى أن على الفيلسوف أن يرقى إلى أعقد المشكلات وأكثرها عسراً وأبعدها عن الواقع العيني ، ثم النزاهة وامتناع الغرض ، بمعنى أن الفلسفة لا تنشذ منفعة بل تُطلَب لذاتها ؛ ثم الاستقلال والتفوق ، بمعنى أن الفيلسوف رجل حر لا يخضع لحكم غيره ؛ وأخيراً صفة الأولوية ، على اعتبار أن للفلسفة طابعاً إلهياً يحمل منها أشرف العلوم ، فضلاً عن أننا بها نشارك الآلهة ، إذ نرقى إلى درجة التأمل الخالصة أو النظر المحض — . أما المنهج الفلسفي الذي اتبعه أرسطو في مؤلفاته العديدة ، فهو منهج البحث العلمي الذي يبدأ بتحديد موضوع بحثه ، ثم يستعرض شتى الآراء التي أدلى بها سابقوه في هذا الموضوع ، لكي يتناولها بالتحليل والنقد ، مع الاهتمام بتحديد « الصعوبات » أو المسائل المشكّكة التي يمكن أن تثار بخصوصها ، لكي لا يلبث أن ينظر في المسائل نفسها لحسابه الخاص ، من أجل العمل على حلها في ضوء النتائج المستخلصة من الدراسة النقدية السالفة . وهكذا سار أرسطو في كل موسوعته الفلسفية الضخمة (التي شملت كتباً في الطبيعة ، والنفس ، وما بعد الطبيعة ، والأخلاق ، والسياسة ، والشعر ، والخطابة) وفقاً لمنطق علمي صارم تتجلى فيه عقلية الفيلسوف المنظم الذي يعرف دائماً إلى أية جهة هو متوجه .

أما عند الرواقيين فقد ظل الغرض من الفلسفة هو دراسة كنه الأشياء والنفاذ إلى جوهرها ، وإن كان الرواقيون قد نسبوا إلى الفلسفة صبغة أخلاقية عملية ، فجعلوا منها حكمة تتمثل في اكتساب علم خاص بالأُمور الإلهية والبشرية على السواء . وتبعاً لذلك فإن الرواقيين لم يكونوا ينشدون من وراء النظر العقلي (٣ — فلسفة)

سوى الاهتمام إلى المبادئ الضرورية لإقامة أخلاق عقلية . وقد سبَّه الرواقيون
الفلسفة بالكائن الحى ، فقالوا إن العظام والأعصاب هى المنطق ، واللحم
هو الأخلاق ، والنفس هى الطبيعة . ولم يكن غرضهم من هذا التشبيه سوى
تأكيد وجدة الفلسفة ، بوصفها حقيقة عضوية تقوم على الترابط بين الحياة
النظرية والحياة العملية . وهذا أيضاً ما ذهب إليه أبيقور فى تصويره للفلسفة ،
وإن كان هذا الفيلسوف قد فاق الرواقيين فى تأكيد ضرورة توجيه الفلسفة
وجهة عملية ، حتى لقد ذهب إلى حد القول بأن الفلسفة نشاط يوصلنا إلى الحياة
السعيدة عن طريق الأدلة العقلية والبراهين الاستدلالية . ولكن أبيقور لم يقتصر
على الإغلاء من شأن الأخلاق ، بل هو قد انتقص أيضاً من قدر النظر
العقلى وبمما لذلك فقد احتقر أبيقور علوما كالرياضة والفلك ، بدعوى أنها
علوم محضه لا تنطوى على أية منفعة مباشرة ، مما يدلنا على انحطاط العقل النظرى
فى أصيل الفكر اليونانى ثم اختلطت الفلسفة اليونانية فى خاتمة المطاف
بالروح الشرقية ، فامتزج العلم بالأساطير ، واختلط الفكر بالتصوف ، وظهرت
النزعات الإشرافية التى اصطلمحنا على تسميتها باسم « الحكمة الإلهية »
(أو النيو صوفية) ، فلم تعد الفلسفة علماً تركيبياً أو نظرة كلية فحسب ،
بل أصبحت أيضاً وجداً صوفياً ، وانجذاباً دينياً ، وأوهاماً كشفية . . . الخ .
وهكذا كان تلاقى الفلسفة والدين بمثابة نقطة تحول حاسمة فى تاريخ التفكير
الفلسفى ، فأصبح على الفلاسفة منذ ذلك الحين أن يواجهوا مشكلات جديدة
لم يكن يعرفها أهل النظر المحض من رجال الفكر اليونانى .

٣ — فإذا ما انتقلنا الآن إلى فلاسفة العصور الوسطى (من مسيحيين
ومسلمين على السواء) ، ألفينا أنهم قد صرفوا معظم جهودهم إلى التوفيق بين
الفلسفة والعقيدة ، أو بين العقل والنقل ، حتى لقد زعم بعض مؤرخى الفلسفة

أن الصبغة العامة التي أَسْمَ بها التفكير الوسيط في الشرق والغرب معاً لم تكن سوى مجرد صبغة توفيقية أو تأليفية أو تلفيقية . ولكن من المؤكد مع ذلك أن ظهور المسيحية قد ساعد على توجيه الفكر الإنساني نحو كثير من المشكلات الميتافيزيقية التي لم يَخُضْ فيها فلاسفة اليونان ، أو التي لم يتطرق إليها قدماء المفكرين . ولعل في مقدمة الأفكار الجديدة التي جاءت بها المسيحية فكرة الوجود الكامل ، وفكرة العناية الإلهية ، وفكرة التفاضل المسيحي ، والنزعة التشبيهية ، والقول بمذهب شخصي ، إلى آخر تلك الأفكار المسيحية التي بينَ لنا جيلسون Gilson تميزها عن سائر الأفكار الماثلة عند اليونان والرومان ، فأثبت لنا بذلك إمكان قيام « فلسفة مسيحية » بمعنى الكلمة . حقاً لقد أخذ المدرسيون الكثير عن مذاهب اليونان والرومان وآباء الكنيسة الأول ، ولكن سائر العناصر التي أخذوها عن تلك المذاهب قد تحولت على أيديهم واكتسبت طابعاً جديداً ، حتى ليكاد يعسر علينا أحياناً أن نقف على أصولها . ولم يسر فلاسفة العصور الوسطى في استعانتهم بالفلسفة القديمة على مبدأ عبادة القديم لقدمه ، وإنما كان رائدهم في ذلك هو البحث عن الحقيقة دون التعبد للماضي عبادة عمياء . فهم إذن كانوا يلتمسون الحق أنى وجدوه ، لا يحفزهم إلى ذلك سوى هاجس واحد هو السعى إلى الكشف عن الحقيقة . ولكنهم قد وجدوا أنفسهم بإزاء حقيقة فلسفية مصدرها العلم ، وحقيقة دينية مصدرها الوحي ، فكان لابد لهم من أن يحاولوا التوفيق بين هاتين الحقيقتين ، ما دامت الحقيقة لا تتعارض مع الحقيقة ! وهكذا حاول قوم منهم أن يبينوا للناس ما في مجموع الحقائق المنزلة من تعبير عن العقول ، وتسكلة للعقل البشري ، حتى يهتثوا للناس عن هذا الطريق سبيلاً يعينهم على فهم ما في الصبغ العامة للدين من تعبير عن قوانين الوجود والفكر معاً ، وتفسير للوجود البشري بأكمله ، أعني بما فيه من عقل وقلب معاً .

ولكنهم لم يستقروا على رأى واحد بخصوص العلاقة بين العقل والنقل ، فقال قوم منهم بأن الإيمان شرط ضرورى للعقل ، بينما قال البعض الآخر إن العقل يمهّد للإيمان ويقتاد إليه ، وإن اتحدت كلمتهم جميعاً على القول بأن العقل والنقل مصدران هامين من مصادر المعرفة . ثم جاء بعض الفلاسفة المدرسين المتأخرين فزعموا أن كل ما يعدو دائرة التجربة ، إن هو إلا سرّ هيات للعقل أن يحيط به ؛ وبالتالي فقد ذهبوا إلى أن كل ما يفوق الطبيعة هو بالضرورة موضوع الإيمان وحده . وأما الصوفيون منهم فقد انتهى بهم الأمر إلى القول بأن كل البراهين الفلسفية والأدلة العقلية لا تساوى خفقة واحدة من خفقات النفس التقيّة التي تنهف إلى الله وتنجذب نحوه ! وعلى كل حال ، فقد سار معظم الفلاسفة المدرسين على نهج أرسطو ، فأدخلوا في نطاق الفلسفة الطبيعية كلا من علم الطبيعة وعلم الحياة ، وجعلوا من الميتافيزيقا (أو ما وراء الطبيعة) أشرف العلوم ، كما يظهر من تسمية القديس توما الأكويني للميتافيزيقا باسم « عميدة العلوم » .

بيد أن التفكير المدرسى لم يلبث أن استحال إلى الأعبى لفظية عقيمة ، وتحليلات منطقية جوفاء ، إذ قنع المدرسيون في نهاية العصور الوسطى ببعض الحلول المنطقية الصورية ، والحيل اللفظية الآلية ، فكان ريمون لول Raymond Lulle (مثلاً) يستعين بجهاز منطقي ، أطلق عليه اسم « الفن الكبير » : Ars Magna من أجل إنتاج كل ما يريد أن يقوله من فلسفة ، وكل ما يود أن يثبتته من أدلة حول وجود الله ، وخلود النفس ، أو الرد على أصحاب الفرق الأخرى ، بإدارة بضعة ألفاظ إدارة آلية صرفة ! ولا شك أن هذا المنهج الآلى في التفكير هو الذى حدا بديكارت من بعد إلى اتهام المدرسين بأنهم كانوا يعلمون الناس كيف يتكلمون عن كل شيء ، دون أن يعرفوا أى شيء على الإطلاق ! وهكذا دب الانحلال فى أوصال الفلسفة المدرسية ؛ ثم استجدت

عوامل أخرى هامة كحركة الإصلاح الديني ، وظهور بعض النزعات الشكية ، وقيام بعض الحركات العلمية ، فساعدت على هدم البقية الباقية من التراث الأرسطاطالى الذى ظل سائداً طوال العصور الوسطى . ولم تلبث الفلسفة فى عصر النهضة أن استردت استقلالها ، فقام فى فرنسا مفكرون أحرار من أمثال رابليه Rabelais ومونتني Montaigne ، بينما ظهر فى إيطاليا علماء متحمسون يدعون إلى التماس الواقع والرجوع إلى الظواهر ، بدلا من الاقتصار على ترديد بعض الألفاظ ، وفى مقدمة هؤلاء العلماء الفنان الإيطالى المشهور ليوناردو دافنشى Leonardo da Vinci . ونشطت الحركة العلمية فى أوروبا على أثر ما قام به كل من جاليليو Galilée وكبلر Kepler من كشف ، فلم تلبث الفاسفة الحديثة أن قامت على أكتاف تلك الدعوات العلمية الجديدة ، خصوصاً وأن علم الطبيعة الجديد قد أصبح يقوم على فكرة جديدة فى « المادة » تختلف كل الاختلاف عن مفهوم هذه الكلمة عند أرسطو . وهكذا ظهرت فلسفات جديدة فى كل من إيطاليا ، وفرنسا ، وإنجلترا ، فاقترن مطلع العصر الحديث بأسماء هامة ثلاثة : برونو G. Bruno ، وديكارت Descartes ، وبيكون F. Bacon .

٤ — ولو أننا أنعمنا النظر الآن إلى الخصائص المميزة للفلسفة الحديثة ، لوجدنا أنها أولا وقبل كل شيء فلسفة نقدية تُعنى بمشكلة المعرفة أكثر مما تهتم بمشكلة الوجود . فالنظر العقلى الذى تحرر على يد مفكرى عصر النهضة من السلطة الدينية سرعان ما اتجه باهتمامه نحو « الذات » نفسها ، بوصفها مصدر كل معرفة . ومن هنا فقد جاء بيكون وديكارت ، ووضعوا الدين بكل احترام خارج نطاق الأنظار العقلية ، وعملا على تأسيس الفلسفة الحديثة بالاستناد إلى العقل وحده . ولكنهما لم يلبثا أن اصطدما بمشكلة الحقيقة ، فكان على كل منهما

أن يحاول الاهتداء إلى أداة جديدة للبحث . ونحن نعلم كيف حاول سيكون أن يضع لنا قواعد لاجتناب الخطأ والاهتداء إلى الحقيقة ، فكان من ذلك كتابه المشهور « الأورجانون الجديد » الذى أراد فيه أن يبين لنا خصوبة الاستقراء وعمق مناهج المدرسين القائمة على القياس الأرسططالى . وهكذا حاول سيكون أن يستعيض عن فلسفة أرسطو القياسية بفلسفة أخرى استقرائية تقوم على المنهج التجريبي ، فاهتم بالحديث عن الملاحظة والتجربة وحاول أن يمحصر خطوات المنهج التجريبي ، كما حرص على تنبيه الباحثين إلى ضرورة تجنب مواطن الزلل ، فضلا عن أنه أعلن ضرورة التخلي عن الميتافيزيقا ، بوصفها دراسة عقيمة لا فائدة منها ولا طائل تحتها . ومن هنا فقد ذهب ليكون إلى أن الفلسفة الحقيقية إنما هى تلك التى تعمل على إيضاح لغة الكون وتفسير كلمات الطبيعة ، فلا تضيف شيئا من عندها إلى ما تجده مدونا فى الطبيعة ، أو ما يمليه عليها الكون ، بل تقتصر على التردد والتكرار ، واثقة من أنه لا سبيل إلى التحكم فى الطبيعة ، إلا بالخضوع لها أولا .

وأما عند ديكارت ، فقد بقيت الفلسفة هى العلم الكلى الشامل ، وإن كان ديكارت قد حرص على أن يذكرنا بأن الفلسفة ليست بمجموع المعارف الجزئية أو العلوم الخاصة ، بل هى علم المبادئ الأولى ، أعنى أنها تمثل أسمى وأشرف ما فى العلوم جميعا . والفلسفة فى نظر ديكارت نظرية وعملية معاً ، ولكن النظر لا يُطلب من أجل النظر (كما كان الحال عند أرسطو) ، بل النظر هو الذى يمدنا بأسس العمل . وقد شبه ديكارت الفلسفة بشجرة جذورها هى الميتافيزيقا أو ما بعد الطبيعة ، وجذعها هو علم الطبيعة أو الفيزياء ، وفروعها هى الطب والميكانيكا والأخلاق . ولسنا بمعرض الحديث عن فلسفة ديكارت ذاتها ، وإنما حسبنا أن نقول إن أبا الفلسفة الحديثة قد خالف أرسطو فى قوله بأن العلم للعلم ، وذلك

لأنه رأى أن المعرفة ليست هي الترضى الأوحى للعلم ، بل إن العلم يرى أيضاً إلى توفير أسباب الراحة والسعادة للإنسان . ولكن المهم في الفلسفة الديكارتية كلها أنها تجعل من اكتشاف الفكر لقيمتها الذاتية الأصل في كل بحث فلسفي . والفلسفة الحديثة لا تتوصل إلى حقيقة الفكر إلا عبر تجربة « الشك » ، فهي فلسفة نقدية تهتم بتخليص العقل من الأفكار السائدة والآراء المسبقة ، تمهيداً لإمداده بالمنهج الصالح للبحث عن الحقيقة . وإذا كان ديكارت قد ثار على المنطق الصوري ، فما ذلك إلا لأنه قد وجد فيه السبب المباشر لتلك النزعات التوكيدية القطعية (Dogmatisme) التي طالما سادت لدى المدرسين في العصور الوسطى . وهكذا أراد ديكارت أن يضرب صفحاً عن سائر المعارف السابقة والأفكار المسلّم بها في العلم والفلسفة حتى يضع لنا منهجاً جديداً يسمح لنا بإقامة العلم والفلسفة على أسس يقينية يقيناً مطلقاً .

ونحن نعلم أن نظرية المعرفة عند أرسطو كانت جزءاً من رسالته في النفس ، وهذه بدورها كانت جزءاً من الفلسفة ؛ هذا إلى أن أرسطو تصور الفلسفة الأولى (أو الميتافيزيقا) على أنها علم الوجود من حيث هو وجود ، والفيزياء أو الطبيعة على أنها علم لوجود الطبيعي ، والسيكولوجيا على أنها علم الوجود الحى الواعى . فالفلسفة الأولى (أو الميتافيزيقا) هي التي كانت تتمتع بالأولوية أو الصدارة عند أرسطو (والمدرسين من بعده) بالقياس إلى نظرية المعرفة . وأما عند ديكارت ، فإننا سنرى أن نظرية المعرفة هي التي ستمتّع بالأولوية أو الصدارة بالنسبة إلى الميتافيزيقا ، نظراً لأن ديكارت يجعل العلم والفلسفة لاحقين لمرحلة التفكير النقدي التي يهتم فيها الفيلسوف بدراسة المنهج وتحديد خطوات البحث العلمى . وتبعاً لذلك فقد كرس ديكارت جانباً كبيراً من دراسته لوضع قواعد المنهج ، وخرج لنا من كل ذلك بمنهج رياضى يقوم على الحدس

والاستنباط ، ويجعل من الواضح والتمايز وتسلسل الأفكار المعيار الأوحده لصحة الاستدلال . والقواعد الديكارتية في المنهج أربع : قاعدة اليقين : وخلصتها بمجنب التهور والسبق إلى الحكم قبل النظر ، وقاعدة التحليل : وقوامها تقسيم المشكلة التي تدرس إلى أجزاء بسيطة بقدر الحاجة ، وقاعدة التركيب : ومؤداها التدرج في المعرفة من البسيط إلى المركب ، وقاعدة الإحصاء أو التحقيق : ومفادها عمل إحصاءات كاملة ومراجعات شاملة للتحقق من أن الباحث لم يغفل شيئاً .

ولئن كان ديكارت قد شك بادية ذي بدء في كل شيء ، إلا أن شكه لم يكن مذهيباً ، بل كان شكاً منهجياً تسيره إرادة تلمس الحقيقة . وهكذا بقي الشكاك في شكهم ، بينما استطاع ديكارت أن يثبت حقيقة الفكر بالاستناد إلى الشك . وحينما قال ديكارت عبارته المشهورة : « أنا أفكر فأنا إذن موجود » ، فإنه لم يرد بذلك أن يقدم لنا تدليلاً منطقياً بل هو قد أراد أن يضع بين أيدينا نموذجاً للحدس الفلسفي البسيط الذي هو اليقين بعينه . ومن هنا فإن دعامة التفكير الفلسفي عند ديكارت هي « الكوجيتو » Cogito الذي ينسب الأولوية للفكر ، ويبين لي أنني أقبض على وجودي نفسه في صميم عملية التفكير . ولعل هذا هو ما عناه أحد مؤرخي الفلسفة الحديثة حينما كتب يقول : « إن الفلسفة الحديثة لم تقم على أسس متينة ، إلا حينما جاء ديكارت فجعل من « الفكرة » l'idée الموضوع المباشر للوعي أو الشعور » .

٥ — ولكن ، إذا كان سيكون وديكارت قد احتفظا للفلسفة بطابعها العام الذي كانت تتصف به في العصر القديم ، فإن فلاسفة القرن الثامن عشر قد حاولوا أن يفصلوا الفلسفة عن سائر العلوم ، وأن يقيموا بناءها باعتبارها علماً مستقلاً قائماً بذاته . والواقع أن المصور الحديثة قد شهدت حركات انشقاق

متوالية في داخل العلوم الفلسفية : فانفصل علم الطبيعة عن الفلسفة على يد كل من جاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢) ونيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧) ، وانفصل علم الكيمياء على يد لافوازييه (١٧٤٣ - ١٧٩٤) ، واستقل علم الأحياء على يد كلود برنار (١٨١٣ - ١٨٧٨) . — وأما موضوع الفلسفة باعتبارها علما مستقلا قائما بذاته فقد أصبح عندلوك هو « دراسة العقل البشري » ، وعند هيوم وبركلي هو « دراسة الطبيعة البشرية » ، وعند كوندياك هو « تحليل الإحساسات » . وهكذا انصرف الفلاسفة في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر عن دراسة أصل الأشياء إلى دراسة أصل الأفكار ، فأصبحت الفلسفة بمثابة « إيديولوجيا » Idéologie أى مجرد علم يدرس الأفكار ؛ نشأتها وطريقة تكوينها ومدى ترابطها ... إلخ .

ثم جاء كانت بفلسفته النقدية فحمل على الميتافيزيقا — أو ما بعد الطبيعة — ورفض كلا من المذهب التجريبي الإنجليزى ، والمذهب اليقيني الرياضى الذى نادى به الديكارتيون . واعتراض كانت على المذهب التجريبي قائم على القول بوجود أحكام كلية ضرورية ، بينما يقوم اعتراضه على اليقين الرياضى الديكارتي على القول بوجود تمييز بين الرياضيات والفلسفة ، أو على استحالة تطبيق المنهج الرياضى على التفكير الفلسفى . وفى هذا يقول كانت نفسه . « إن عالم الهندسة حينما يحاول أن ينقل منهجه إلى مجال الفلسفة فإنه إنما يحاول أن يبتنى قصورا من الورق ! » . وأما موضوع الفلسفة فى نظر كانت فهو تحديد العناصر الأولية للمعرفة والعمل ، أو تحديد الأسس العقلية التى تقوم عليها حياتنا النظرية والعملية . وإذن فإن الفلسفة نظرية وعملية معاً ، والفلسفة النظرية هى التى تحدد الموضوع وتعين طبيعته وتبين قوانينه ، بينما الفلسفة العملية هى التى « تحقق » هذا الموضوع بأن تنقله من مجال الفكر إلى مجال العمل . فالفلسفة النظرية هى علم

« ما هو كائن » بينا الفلسفة العملية هي علم « ما ينبغي أن يكون » .
وتبعاً لذلك فإن الأولى هي علم « الطبيعة » ، والثانية هي علم « الحرية » .
والفلسفة النظرية تنقسم إلى قسمين ؛ علم المنطق : وموضوعه دراسة المعاني الكلية
من حيث صورتها فقط ، وعلم الميتافيزيقا : وموضوعه دراسة تلك المعاني الكلية
من حيث مادتها ، أى في علاقاتها بالأشياء . وإذن فلن موضوع المنطق هو
« الحق » ، وموضوع الميتافيزيقا هو « الواقع » *réalité* أو الوجود الحقيقي ،
من حيث إن هذا الوجود خاضع لقوانين عقلية أولية سابقة على التجربة . وعلى
ذلك فإن الميتافيزيقا الوحيدة التى يتقبلها كانت هي ذلك العلم الذى يدرس
القوانين الأولية للعقل ، فى علاقاتها بالأشياء . والعقل فى نظر كانت إنما يدرك
الظواهر ، لا « الأشياء فى ذاتها » ، فليس فى استطاعة الميتافيزيقا أن تصل
إلى الفصل فى حقيقة « المطلق » أو « المقول » أو « الشيء فى ذاته » . ومن
هنا فإن كانت يقول إن العقل النظرى لا يستطيع أن يتوصل إلى إثبات وجود
الله ، أو حرية الإنسان ، أو خلود النفس ، ولو أن هذه كلها مصادرات
— أو مسلمات — *postulate* يستلزمها العقل العملى فى مجال الأخلاق .
وهكذا نجد أن الفلسفة عند كانت هي عبارة عن نقد قوانين العقل والإرادة
نقداً أولياً *apriori* ، أعنى أنها قاصرة على نقد العقل النظرى والعقل العملى .
وقد اتفق كانت مع لوك على ضرورة دراسة العقل ، ولكن بينما نجد أن لوك قد
حصر جهده فى نطاق التجربة ، مقتصرأ على التجربة الذاتية أو الشعورية ،
فلاحظ أن كانت يسلم أيضاً بوجبة نظر الذات أو الشعور ، ولكنه يتجه
فى الوقت نفسه إلى الكشف عن الشروط الأولية المطلقة للتجربة : فالموضوع
عند كل منهما هو العقل البشرى ، ولكن واحداً منهما يدرس العقل التجريبي ،
بينما يدرس الآخر العقل المجرد .^(١)

(١) ارجع إلى كتابنا « كانت أو الفلسفة النقدية » ، مكتبة مصر ، ١٩٦٤ ، المقدمة .

٦ - وأما لدى الفلاسفة اللاحقين لِكَانَتْ ، فإن الفلسفة قد أخذت تميل إلى استعادة نفوذها وسيطرتها باعتبارها علماً كلياً شاملاً ، مع احتفاظها في الوقت نفسه بفرديتها واستقلالها ، باعتبارها علماً متميزاً قائماً بذاته . وقد ذهب فشته Fichte - أحد هؤلاء الفلاسفة - إلى أن الفلسفة هي العلم السابق على شتى العلوم : لأن سائر العلوم تسلم بمضمونها وصورتها دون فحص أو امتحان ، بينما تختص الفلسفة ببيان المبادئ المادية والصورية للعلوم ، فهي العلم الذي يدرس العلم من حيث المضمون والمنهج على السواء . ولكن للفلسفة - باعتبارها علم العلم - موضوعاً ومنهجاً ، أو مضمونها وصورتها ؛ فهل نلتجئ إلى علم آخر لتبريرها ؟ هذا ما يرد عليه فشته بقوله إن علم العلم يبرر ذاته ، ومن ثم فهو العلم الذي ينحصر موضوعه في المبادئ الأولى . وهكذا نرى أن تعريف فشته للفلسفة لا يكاد يختلف عن تعريف أرسطو أو تعريف ديكرت مثلاً .

وأما عند شلنج وهيجل ، فقد استعادت الفلسفة طابعها الكلي العام ، وأصبحت دراسة للذات والموضوع معاً ، بعد أن كان كانت قد حصرها في النطاق الذاتي الخالص . ونحن نجد مثلاً أن هيجل يقول إنه ليس ثمة واقع من جهة ، وعقل من جهة أخرى ، أعنى أنه ليس ثمة ظاهرة من جهة ، وشئ في ذاته من جهة أخرى ، وإنما ليس ثمة غير « الفكر » الذي يضع كلا من الحقيقة والواقع . وتبعاً لذلك فقد خلط هيجل بين المنطق والميتافيزيقا ، ومزج العقل بالواقع ، وجعل الفكر هو « المطلق » نفسه . وقد أدخل هيجل في مجال الفلسفة كلا من الطبيعة ، والقانون ، والفن ، والدين ، ولكنه قال إن كل هذه إنما هي مجرد مظاهر لتطور تلك « الروح » التي تتجسد الطبيعة وتتجلى من خلال التاريخ ، وفقاً لقوانين ضرورية كلية صارمة هي قوانين الفكر نفسه باعتباره « مطلقاً » . وقد تصور هيجل لتطور التاريخ منهجاً أطلق عليه اسم

« الديالكتيك » وهو عبارة عن « منطق ديناميكي » ذي أطوار ثلاثة هي « الموضوع » *Thèse* ، و « نقيض الموضوع » *Antithèse* ومركب الموضوع *Synthèse* . ومعنى هذا السير الثلاثي للفكر (والتاريخ) أن العقل البشري يبدأ بتقرير حقيقة ما (كأن يقول مثلاً إن الوجود موجود) ، لكي لا يلبث أن يفكر هذه الحقيقة (كأن يقول مثلاً إن الوجود غير موجود) ثم ينتهى به الأمر إلى سلب تلك القضية الإنكارية (بأن يقول مثلاً إن الوجود هو الصيرورة *Le devenir* ، باعتبار أن الصيرورة مزيج من الوجود واللاوجود) . وقد حاول هيجل أن يطبق منهجه الديالكتيكي على شتى مظاهر التطور التاريخي ، فبين لنا كيف أن قوام الحياة البشرية — والوجود عموماً — هو الصراع والتناقض والتوتر والحركة المستمرة ، وثار على كل تلك النزعات الفلسفية القديمة التي لا تنظر إلى الوجود إلا على أنه حقيقة ثابتة مستقرة ^(١) .

٧ — أما عند كارل ماركس (١٨١٧ — ١٨٨٣) وأنصاره مثل إنجلز *Engels* (١٨٢٠ — ١٨٩٥) ولينين وستالين ، فإن المهم ليس هو وضع نظرية فلسفية لتفسير الوجود ، بل العمل على فهم التاريخ ومعركة القوانين الرئيسية التي يخضع لها تطور البشرية . وإن ماركس ليحمل بشدة على المذاهب الميتافيزيقية ، فنراه يقول « إن الفلاسفة قد صرفوا همهم حتى الآن إلى تفسير العالم على شتى الوجوه ، ولكن بيت القصيد أن نعمل على تغييره » . وإذا كان قد وقع في ظن الفلاسفة أن الأفكار هي التي توجه العالم ، فإنه لمن واجهنا أن نبين لهم أن هذه الأفكار نفسها تتوقف على كثير من الشروط الاقتصادية ، وبالتالي فإن المادة — لا الفكر — هي التي تفسر التاريخ . وليس التاريخ بأفكاهة — في نظر ماركس وإنجلز — سوى تاريخ الصراع القائم بين الطبقات نتيجة لبعض العوامل الاقتصادية . ولكن اهتمام الماركسيين بتحديد قوانين التطور

(١) ارجع إلى كتابنا « هيجل أو المثالية العالقة » ، الجزء الأول ، مكتبة مصر ، ١٩٧١ .
(الفصل الثالث : المنهج الجدلي) .

الاجتماعى والتاريخى لا يرمى إلى غرض نظرى بحت ، وإنما هو موجه منذ البداية نحو غاية عملية صرفة . ومعنى هذا أن تفسير التاريخ عندهم موجهٌ دائماً أبداً نحو العمل . والعالم — بصفة عامة — فى نظر الماركسيين ليس مجرد فهم أو نظر أو معرفة خالصة ، وإنما هو بالأحرى معرفة فعالة تستحيل مباشرة إلى صناعة أو (تكديك) . — وعلى الرغم من أن كارل ماركس يأخذ بالمنهج الجدلى الذى سار عليه هيغل ، إلا أنه يرفض نزعة هيغل للتالية ، بدعوى أن عالم الأفكار ليس إلا العالم المادى نفسه على نحو ما ينعكس من خلال العقل البشرى . وإذا كان هيغل قد جعل التاريخ يمشى على رأسه ، فإن من واجبنا الآن — فيما يرى ماركس وإنجاز — أن نجعله يسير على قدميه . وهذا هو السبب فى أن الماركسية قد أتجهت نحو « المادية الجدلية » أو التاريخية ، بينما بقى الجدل أو (الديالكتيك) عند هيغل مرتبطاً بنزعته العقلية التالية .

وحيثما يتحدث الماركسيون عن « الديالكتيك » فإنهم يعنون به القوانين العامة لحركة العالم الخارجى والفكر البشرى معاً . والمنهج الجدلى إنما يقوم أولاً وبالذات على الإيمان بأن أية ظاهرة من ظواهر الطبيعة لا يمكن أن تفهم على حدة ، وبالتالى فإنها لا تفسر إلا على ضوء ما يحيط بها من ظواهر . ولعل هذا هو السبب فيما لفكرة « الكل » أو « المجموع » من أهمية فى صميم الفلسفة الماركسية . وليس يعنيننا هنا أن ندخل فى تفاصيل الفلسفة الماركسية ، ولكن حسبنا أن نقول إن هذه الفلسفة مادية تقول بالتغير وتؤمن بالصيرورة *le devenir* ، وتفهم من « الديالكتيك » أنه دراسة ضرورية « التناقض » الكامنة فى صميم الأشياء . والواقع أن فكرة « التناقض » *contradiction* (سواء فى الأشياء أم فى الفكر) هى التى قادت المفكرين الماركسيين إلى القول بأن للحقيقة طابعاً نسبياً مؤقتاً . فليس هناك حقيقة نهائية حاسمة غير قابلة للتغير

في نظر دعاة الماركسية ، بل إن كل تركيب يضعه العقل البشري (وقفا للمنهج الجدلي الذي يتم فيه الانتقال من الإثبات إلى النفي ، ومن النفي إلى نفي النفي ، أى إلى مركب الموضوع) إنما هو تركيب مؤقت سرعان ما يعود العقل البشري إلى إنكاره . وإذن فإن كل مذهب عنى أو فلسفى إنما هو مجرد لحظة من لحظات تاريخ الفكر فى صميم الجهد الذى يقوم به من أجل تفسير العالم ، وبالتالي فإنه لا يمكن أن يكون هو الحقيقة النهائية المطلقة . وليس ثمة أخلاق أبدية أو عدالة أبدية ، كما ظن الفلاسفة ، بل إن الأخلاق ما كانت فى يوم ما من الأيام سوى « أخلاق طبقة (من الطبقات) » *une morale de classe* .

٨ — ولم تكن الماركسية هى الحركة الوحيدة التى قامت فى القرن التاسع عشر حاملة على الفلسفة التقليدية ، بل لقد شهد هذا القرن أيضاً حملة أخرى ظهرت فى فرنسا قبل الحركة الماركسية نفسها ، وتلك هى الفلسفة الوضعية التى وضع أسسها أوجست كونت *Auguste Comte* (١٧٩٨ — ١٨٥٧) ودافع عنها من بعد بعض تلاميذه وأشهرهم ليتريه *Littré* . والرأى الذى يذهب إليه دعاة الوضعية هو أنه لم يعد ثمة موضوع للفلسفة التقليدية التى تريد معرفة كل شئ عن طريق العقل وحده ، وذلك لأن ما وراء الطبيعة هو — على حد تعبير ليتريه — محيط هائل ليس لدينا لعبوره قارب ولا شراع ولقد كان للفلسفة قديما حق الوجود ، لأن عناصر التجربة البشرية لم تسكن بعد قد تعددت وتعقدت ، فكان فى وسع عقل واحد أن يلم بها جميعاً ، وبالتالي فقد كانت الفلسفة هى العلم نفسه ! أما اليوم وقد تفرقت العلوم وانفصل كل منها عما عداها ، فلم يعد للفلسفة موضوع تقوم ببحثه ، خصوصاً وأن العلوم الوضعية قد استبعدتها من مجال الطبيعة ، كما أقصتها عن مجال النفس . وهكذا وجدت الفلسفة نفسها غير ذات موضوع ، فراحت تتسكع فى ميادين خيالية لا فائدة

منها ولا طائل تحتها ! ولو أننا رجعنا إلى تاريخ الفلسفة نفسه — فيما يزعم دعاة الوضعية — لتحققنا من أن الفلسفة لم تستطع حتى الآن أن تبرز أى تقدم ، بدليل أنه قد مضت عليها حقبة طويلة من الزمن ، ولكنها لم تتمكن حتى اليوم من الوصول إلى حلول نهائية حاسمة يرتضيها الجميع ، فضلا عن أنه ما يزال عليها حتى يومنا هذا أن تحدد موضوعها وأن تعين منهجها ! فإذا ما قارنا هذا المعجز الفاحش الذى اتسم به العقل للنظرى أو النظر العقلى بالتقدم الباهر الذى أحرزه العلم الوضعى أو العقلية العلمية ، أُلْفَيْنَا أن السبب فى ذلك هو أن البرهنة العقلية لا تكفى لمعرفة الواقع ، وبالتالي فإن الفلسفة لا تستطيع أن تنهض بتفسير العالم .

والواقع أن كل ما يمدو نطاق المعرفة الوضعية إن هو إلا مجهول لا سبيل للعقل البشرى إلى إمالة اللثام عنه . وكل قضية لا يمكن إرجاعها فى نهاية الأمر إلى مجرد تعبير عن واقعة عامة أو خاصة إنما هى قضية فارغة لا تحوى فى نظر العقل أى معنى حقيقى معقول . ومعنى هذا أن المجال الحقيقى للعقل البشرى إنما هو الوقائع والقوانين ، أعنى الظواهر وما يقوم بينها من علاقات ثابتة . وحينما يقول الوضعيون إن كل نظر عقلى فى « المطلق » *L'Absolu* هو أمر غير مشروع ، فإنهم يعنون بذلك أن كل معرفة إنسانية لا بد من أن تكون « نسبية » *Relative* . ولا يستند دعاة الوضعية فى قولهم بنسبية المعرفة إلى قد العقل ، بل هم يستندون إلى تأريخ العلوم ، وقفا لقانون الأطوار الثلاثة الذى وضعه أوجست كونت . وخلاصة هذا القانون أن العلوم قد مرت بمرحلتين تمهيديتين قبل وصولها إلى المرحلة الوضعية فهى فى الطور الأول — ألا وهو الطور الدينى (أو اللاهوتى) — كانت تفسر ظواهر الطبيعة بإرجاعها إلى على غيبية ، أى بنسبتها إلى قوى فائقة للطبيعة تتدخل بإرادتها فى صميم نظام الطبيعة .

ثم هي في الطور الثاني — ألا وهو الطور الميتافيزيقي — كانت تفسر الظواهر بردها إلى قوى مجردة أو مبادئ مطلقة ، كأن تفسر ظاهرة النمو في النبات بإرجاعها إلى قوة الإنبات . وأخيراً وصلت العلوم إلى الطور الوضعي فأصبحت تفسر الظواهر بربطها بعضها ببعض وفقاً لما تقدمه لنا التجربة من وقائع . وما يميز القرن التاسع عشر في نظر كونت إنما هو هذا الصراع القائم بين العقلية الوضعية والعقلية الميتافيزيقية ؛ وهو صراع لا بد من أن ينتهى حتماً بانتصار العلم الوضعي وهزيمة الفلسفة الميتافيزيقية ؛ أما إذا زعمت الميتافيزيقا لنفسها أنها تقوم بمهمة التأليف والربط بين العلوم المختلفة ، أعنى أنها تقوم بدور « العلم الكلى » ، فإن دعاة الوضعية يردون على هذا الزعم بقولهم إن الفلسفة الوضعية وحدها هي التي تستطيع أن تسد هذه الحاجة إلى تحقيق وحدة العقل البشرى . حقاً إن العلوم متمايزة متباينة ، ولكنها ليست متباعدة متعارضة ، بل إنها بطبيعتها تنزع إلى تكوين كل واحد هو « العلم » ، ما دام من شأنها أن تكشف عما بين الظواهر من علاقات أو روابط . وإذن فإن مهمة الفلسفة الحقيقية إنما تنحصر في الكشف عن العلاقات والروابط التي توحد بين العلوم ، مع العمل على الجمع بين ما في تلك العلوم من مبادئ ونتائج . وإذا عرفنا أن العلوم تختلف بحسب درجة تجريدها وتعمدها ، أمكننا أن نقيم نظاماً طبقياً تصاعدياً نرتب فيه العلوم بحسب تجريدها وعمومها . وهكذا وضع أوجست كونت تصنيفه للعلوم ، فجعل الرياضات أولى العلوم ، نظراً لأن كل العلوم الأخرى تتوقف عليها وتستند إليها . ثم أعقبها بعلم الفلك ، فعلم الطبيعة ، فعلم الكيمياء ، فعلم الأحياء ، إلى أن انتهى في أعلى السلم إلى علم الاجتماع أو علم المجتمعات البشرية . وليس هذا التصنيف — في نظر دعاة الوضعية — تصنيفاً تحكيمياً مفصلاً ، وإنما هو تصنيف حقيقي يستند إلى تسلسل العلوم ويقوم على ما بينها

من علاقات متبادلة ، ويتلاءم في الوقت نفسه مع تقدمها التاريخي . وهكذا ينتهى أوجست كونت إلى القول بأن الفلسفة الوضعية هي الفلسفة الوحيدة المشروعة ، لأنها تقوم على المنهج الوضعي ، وتقتصر بحثها على دراسة ما بين العلوم من روابط حقيقية ، وذلك هي الدراسة الوحيدة التي يمكن أن تنهض بها الفلسفة .

فإذا ما عرضنا الآن بالنقد لوجهة نظر الوضعيين إلى الفلسفة ، كان في وسعنا أن نقول أولاً إن المشكلة التي تدرسها الفلسفة ليست هي المشكلة التي يدرسها العلم ، وهذه الحقيقة وحدها كافية لتبرير قيام الفلسفة وتأكيدها حاجتنا إليها . وعلى الرغم من أن المذهب الوضعي يريد أن يُجرّم على الإنسان ثمار شجرة المعرفة ، فإن العقل الإنساني لا بد من أن يمد يده إلى هذه الفاكهة المحرمة ! هذا إلى أن « التعميم » لا يعني « التعليل » أ « التفسير » : فالتقانون الكلي العام لن يكون سوى مجرد ظاهرة بالغة العموم تجمع بين سائر الظواهر الأخرى ، نظراً لأنها تنطوي على ما هو مشترك بين كل تلك الظواهر . وعبثاً يحاول بعض العلماء أن يرتفعوا من قوانين إلى قوانين : فإنه لن يمكنهم مطلقاً أن يصلوا إلى الأسباب الأولى أو العلل القصوى . وحتى إذا اكتمل عمل العلم الوضعي ، فإن العقل لن يجد فيه مغنا وشفاء ، لأن العقل بطبيعته يريد العلم بالكلي ، والمطلق ، والضروري ، والمبادئ ، والملل . وتبعاً لذلك فإننا لا بد من أن نجد أنفسنا مضطرين إلى الخوض في مسائل ما بعد الطبيعة ، لأن كل المشاكل التي تفرض نفسها على العقل ليست قابلة للحل علمياً ، أو لأن التجربة العلمية بطبيعتها ليست كافية لحل مثل هذه المسائل . أما إذا نظرنا إلى قانون الأطوار الثلاثة الذي وضعه أوجست كونت لتفسير تقدم الإنسانية العلمي ، فإن أول ما يروعنا في هذا القانون هو أنه قانون عقلي أولي Apriori لا يبرره التاريخ ، (٤ : مشكلة الفلسفة)

بدليل أن بعض الإقدمات قد وصلوا إلى فهم الكثير من الحقائق الرياضية والفلسفية
فهما وضعيا ، كما أن بعض علماء الطور الوضعي كانوا أهل عقيدة أو أصحاب
مذاهب ميتافيزيقية . وربما كان مفهوم « الإنسانية » نفسها بوصفها « كلا » مجرد
مفهوم فلسفي لا يرتضيه أصحاب العلم الوضعي .

٩ - وأما في القرن العشرين فقد تعددت الاتجاهات الفلسفية ، واختلفت
وجهات نظر المفكرين إلى العلاقة بين العلم والفلسفة ، على الرغم من قيام بعض
الحملات العنيفة على التفكير الفلسفي ، فضلا عن ازدهار العلوم وانفصال بعض
الدراسات العلمية عن الفلسفة . وقد شهد القرن العشرون انفصال كل من علم
النفس وعلم الاجتماع عن الفلسفة ، وإن كان التفكير الفلسفي قد ظل يستوحى
الكثير من الدراسات النفسية والاجتماعية ، كما أن الفلاسفة أنفسهم قد ظلوا
يغدنون كلا من علم النفس وعلم الاجتماع بالكثير من الملاحظات القيمة والدراسات
العميقة . واثن كان عصرنا الحاضر قد حفل بالكثير من التيارات العنيفة المعادية
لفلسفة ، وفي مقدمتها جميعا حركة « الوضعية المنطقية » التي حمل لواءها في البداية
أنصار « دائرة فينا » ، إلا أن هذا القرن أيضا قد زخر بالكثير من التيارات
الفلسفية الجديدة : كالنزعة البرجماتية التي حمل لواءها وليم جيمس وجون ديوي ،
والنزعة الحيوية التي عبر عنها دلتاي وبرجسون ، والنزعة الفنونولوجية التي
اقتربت باسم هوسرل وماكس شرل ، والنزعات الوجودية المعقدة التي عبر عنها
في ألمانيا هيدجر وكارل يسيبرز ، وفي فرنسا كل من جبريل مارسيل ، وجان بول
سارتر ، وميرلوبوتي . وبعد أن كان الوضعيون في القرن الماضي يظنون أن اختلاف
الفلاسفة فيما بينهم سوف يؤدي إلى القضاء نهائيا على الفلسفة والاكتفاء بالعلم ،
جاء القرن العشرون فأكد زيادة حاجة العقل البشري إلى الفلسفة ، بدليل وفرة
الإنتاج الفلسفي المعاصر وتعدد التيارات الفكرية الراهنة ، حتى لقد صبح ما قاله

كانت Kant من أن « سأم العقل البشرى من استنشاق هواء غير نقي ،
لن يدفعه يوما الى الامتناع كلية عن التنفس » !

ولو أننا نظرنا إلى الفلسفة المعاصرة من حيث الشكل ، لراعنا أن إنتاج
الكثير من الفلاسفة المعاصرين مطبوع بطابع « التخصص » spécialisation
الذى يجعل من الفلسفة افة نوعية خاصة لا تكاد تتفق فى شيء مع لفة أفلاطون
أو ديكارت (مثلا) . ولو أننا استثنينا مؤلفات أصحاب المادية الجدلية ودعاة
المذهب البرجماتى ، لوجدنا أن معظم مؤلفات الفلاسفة المعاصرين حافلة
بالاصطلاحات الجديدة والمفاهيم الغامضة ، خصوصا لدى بعض أصحاب فلسفة
الوجود ، وعند أهل الوضعية المنطقية أيضا . وحسبنا أن نلقى نظرة على مؤلفات
هوسرل ، أو هيدجر ، أو سارتر نفسه ، حتى ننتهي من أن بعض القضايا
الفلسفية الجديدة التى ينادى بها دعاة الفنونولوجية والوجودية إنما هى قضايا فنية
اصطلاحية تذكرنا من بعض الوجوه بقضايا أرسطو ، إن لم نقل ببعض
اصطلاحات المدرسين أنفسهم فى القرن الخامس عشر (مثلا) .

بيد أننا نلاحظ مع ذلك أن ثمة رد فعل واضح قد نشأ فى أيامنا هذه ضد
تزعة التخصص التى وسمت بطابعها الكثير من مؤلفات المعاصرين فى الفلسفة ،
فحاول الكثيرون أن يبسطوا القضايا الميتافيزيقية المعقدة ، وأن ينزلوا بالفلسفة
إلى مستوى الجمهور . وقد أسهم الفلاسفة أنفسهم فى تعميق الروح الفلسفية ،
فأقبلوا على تبسيط أفكارهم وإذاعتها بين الناس ، كما ساعد على ذلك أيضا تقرب
الفلسفة من الأدب وظهور روايات ومسرحيات تعبر عن بعض التيارات الفلسفية ،
حتى لقد أصبحنا اليوم نرى بعض الفلاسفة يؤلفون للمسرح ، ويكتبون للسينما ،
وينشرون على الناس أقاصيصهم ، فضلا عن أن المجلات الفلسفية قد أصبحت
متداولة بين الناس كالمجلات الأدبية سواء بسواء . وليس أدل على إقبال الجمهور

على الاطلاع الفلسفى من وفرة الإنتاج الفكرى فى معظم بلاد العالم ، حتى لقد ورد فى القائمة السنوية التى أصدرها المعهد العالمى للفلسفة سنة ١٩٣٨ (مثلاً) أن عدد الكتب الفلسفية التى ظهرت فى ذلك العام قد زاد عن سبع عشرة ألف كتاب ! وهذا الإنتاج الضخم إن دل على شىء فإما يدل على أن المشكلات الفلسفية قد تزايدت بما لم يسبق له نظير ، كما أن الوعى البشرى نفسه قد أصبح أقدر على فهم دور الفلسفة فى صميم الحضارة الحديثة . وقد لا نقالى إذا قلنا إن العصر الذى نعيش فيه يعد من أخصب العصور الفلسفية وأغناها ، كما تشهد بذلك المنزلة الهائلة التى تشغلها الدراسات الفلسفية فى معظم جامعات العالم

وثمة طابع شكلى آخر يميز الفلسفة المعاصرة أيضاً ، وهو تقارب المفكرين واتصالهم اتصالاً مباشراً عن طريق المؤتمرات الفلسفية ، والتبادل الثقافى ، وتنظيم العلاقات بين الجامعات المتعددة (فى الشرق والغرب معاً) . وقد شهد مطلع القرن العشرين عدة مؤتمرات فلسفية متوالية استطاعت أن تقرب بين مفكرين مختلفى النزعات ، مما عمل على تحقيق ضرب من « التواصل الروحى » بين العقليات الفلسفية المتباينة^(١) ولا زالت المؤتمرات الفلسفية ، والندوات الثقافية ، والمساجلات الفكرية التى تتطرحها الصحف والمجلات ، تعمل عملها فى التقريب بين النزعات المتعارضة ، والتيارات المتصارعة ، والاتجاهات المتباينة . وبعد أن كان الفلاسفة يعيشون فى عزلة أو شبه عزلة ، أصبحنا نرى اليوم أن المشتغلين بالدراسات الفلسفية والنفسية والاجتماعية لم يعودوا يجدون حرجاً فى أن يتدارسوا المشكلات بروح الفريق الرياضى المتعاون ، أعنى فى جو مليء بالمودة والإخاء . ولا شك أن قيام المجلات العالمية والدوريات الدولية قد أدى إلى امتزاج الحضارات المختلفة ، فلم يعد من النادر أن نجد فى مجلة واحدة بحثاً فلسفياً لمفكرين

(١) سيعقد فى مونتريال بكندا (خلال الفترة من ٢٩ أغسطس إلى ٣ سبتمبر سنة ١٩٧١) أحدث مؤتمر فلسفى عالمى ، وسيكون موضوع مناقشاته هو « التواصل » .

مختلفين ذوى جنسيات متباينة ، ولغات متنوعة ، وعقليات مختلفة . وهذه كلها عوامل فعالة أدت (ولا زالت تؤدي) إلى تداخل التيارات الفلسفية واتصالها بشكل مباشر ، مما لم نعهده من قبل فى أى عصر من العصور منذ نشأة الفلسفة الحديثة .

ونظرا لهذا التقارب الشديد بين التيارات الفلسفية المعاصرة ، فقد نشأ من احتكاك الآراء بعضها ببعض تأثير وتأثر عملا على ظهور فلسفات جديدة مثل فلسفة الوجود التى استمدت عناصر نموها من مصادر متعددة (كالنزعة الفنونولوجية ، وفلسفة الحياة ، والاتجاه الميتافيزيقي الحديث ... الخ) . وهكذا الحال أيضا بالنسبة إلى الوضعية المنطقية ، فإنها مدينة بلا شك لكل من الفلسفة التجريبية التقليدية ، والنزعة الواقعية الحديثة ، والمدرسة الفنونولوجية ، فضلا عن تأثرها بحركة نقد العلم . وعلى كل حال ، فإن مؤلفات الفلاسفة المعاصرين تظهرنا بوضوح على أنه لم تعد هناك عزلة فلسفية ، بل أصبح العالم الفلسفى فى اتصال مستمر واحتكاك دائم ، كما أصبح المفكرون المختلفون يجدون أصداء هامة لمذاهبهم خارج موطنهم الأسمى ، كما هو الحال مثلا بالنسبة إلى النزعة التوماسية الجديدة Néo-thomisme التى أصبح لها ممثلون مختلفون فى كل من فرنسا وبلجيكا وإيطاليا وأسبانيا والنمسا وإنجلترا وأمريكا ، أو كما هو الحال بالنسبة إلى الوجودية التى لقيت لها أشياء فى غير موطنها الأسمى ، فانتشرت دعوتها فى فرنسا وإنجلترا وأمريكا ، وترددت أصدائها حتى لدى بعض المفكرين العرب .

١٠ — فإذا ما حاولنا الآن أن نلخص بإيجاز موقف المفكرين المعاصرين من الفلسفة ، ألفينا أن الغالبية العظمى منهم تحاول أن تقرب الفلسفة من الإنسان ، وتنادى بأن الوظيفة الأساسية للفيلسوف هى أن يحل مشكلة المصير البشرى . فلم تعد الفلسفة تخلق فى سماء المجردات ، وإنما أصبحت تعنى بحل

مشكلات الإنسانية ، وتهتم بإلقاء الأضواء على مواقف كائنات مُشَخَّصة من دم ولحم . ومن هنا قد ذهب دعاة النزعة البرجماتية Pragmatism (مثلا) إلى أن الفلسفة يُرَافد هام من روافد الحضارة ، وأنه لا بد لنا أن نجعل منها دراسة ديناميكية مرنة لا تقبل الأفكار المجردة المطلقة ، بل تبحث دائماً عن المعنى أو للشخص concrete وهكذا عارضت الفلسفة العملية الروح المذهبية والنزعة المثالية على السواء ، لأن كلا منهما قد اشتطت في التفكير المجرد حتى انقطعت صلتها بالواقع . ولئن كان بعض الفلاسفة البرجمائين قد سخرُوا من الميتافيزيقا ، حتى لقد ردّدوا أقوال خصومها الذين كانوا يزعمون أن « الفيلسوف الميتافيزيقي أشبه ما يكون برجل أعمى يبحث في حجرة مظلمة عن قبعة سوداء لا وجود لها ! » ، إلا أن وليم جيمس نفسه قد ذهب إلى أن العلم والميتافيزيقا والدين تسكوّن جسماً عضوياً واحداً يمكن تسميته باسم « الحكمة » . والفلسفة عند البرجمائين تحقق الترابط فيما بين العلوم ، وتقدم لنا من مجموع الحقائق العملية المتنافرة حقيقة كلية شاملة . ولما كان محك صدق الأفكار إنما هو « التجربة » بمعناها الواسع ، فإن الفلاسفة البرجمائين ينادون بالتجربة المتطرفة ، ويرفضون كل فكرة لا تؤدي إلى خدمة عملية ، سواء أكانت مباشرة أم غير مباشرة . ولكن وليم جيمس يعود فيقول إن الفلسفة متوقفة على مزاج كل منا ، تجريبيّا كان أم عقلياً ، متفائلاً كان أم متشائماً ؛ وبهذا المعنى تصبح الميتافيزيقا عملاً فنياً تنحصر مهمته في جعل الأشياء موافقة لأمرجنتنا . فالميتافيزيقا عند وليم جيمس هي أشبه ما تكون بقصيدة تستمد وحدتها وجلالها الفني من خيال صاحبها ، وبالتالي فإن القرابة وثيقة بين الفيلسوف والشاعر ! بيد أن هذا لا يعنى أن نلحق بالفلسفة بالفن ، وإنما لا بد لنا من أن نربط الفلسفة بالواقع والتجربة والإنسان . وإن ديوى ليشتكننا في قيمة تلك الدراسات العامة التي تشغل بعض

المتافيزيقيين ، حينما يبحثون مثلاً في مشكلة المعرفة بصفة عامة ، فيتساءلون مثلاً عما إذا كانت المعرفة ممكنة . وليس من شك (فيا يرى ديوى) أن عالم الطبيعة يحق حين يبحث عن القوانين العامة للحركة ، ولكن من المؤكد أن المتافيزيقي ليس على حق حينما يبحث عن الحركة بصفة عامة . فالفيلسوف المتافيزيقي يثير كثيراً من المشكلات العقيمة التي لا تقبل الحل . وديوى لا يقتصر على القول مع الومضين بأن مثل هذه المشكلات هي أشباه مشكلات ، بل هو يذهب إلى حد أبعد من ذلك فيقول إنها صيغ مَرَضِيَّةٌ *diseased formulations* . ولا سبيل إلى التخلص من أمثال هذه المشكلات (في رأى ديوى) إلا بالرجوع إلى الميول الأصلية التي عملت على نشأتها . . .

أما دعاء الوضعية المحدثة ، فإنهم يستبعدون من مجال الفلسفة كلا من المتافيزيقي والأخلاق المعيارية ، لكي يجعلوا منها مجرد دراسة علمية لبعض المفاهيم أو الرموز اللغوية . وحجتهم في ذلك أن القضايا المتافيزيقية هي أقوال جوفاء خالية من كل معنى ، ما دامت لا تمت إلى القضايا المنطقية المفهومة بأى سبب ، فلا معنى إذن لدراسة المطلق أو الشيء في ذاته أو الوجود أو العدم أو ماهية الرابطة العائية أو القيم المعيارية ... إلخ . وليس في استطاعة الفلاسفة المتافيزيقيين أن يعالجوا هذا النقص في تفكيرهم ، حتى ولو عمدوا إلى مراجعة مصطلحاتهم ، وتوخى الدقة في تعبيراتهم ، لأن الغرض الذي تهدف إليه المتافيزيقي هو الذى يجعل قضاياها خلواً من كل معنى . ألا ترمى المتافيزيقي إلى الكشف عن معرفة مجاوزة للحس ، فتحاول أن تصف لنا أشياء تعدو نطاق العلم التجريبي ؟ ولكن ، أليس معنى أية عبارة إنما ينحصر في مجموع العمليات التي تتحقق بها من صحة تلك العبارة ؟ فكيف يمكننا إذن أن نُخَبِّرَ بعبارة مفهومة عن شيء بعدو دائرة التجربة ، ولا يقبل التحقق على لإطلاق ؟ أليس الأدنى إلى الصواب أن نقول إن قضايا المتافيزيقي إن هي إلا قضايا زائفة أو أشباه قصايا ، ما دامت لا تستند

إلى العلم التجريبي ، فضلا عن كونها ليست قضايا تحليلية ؟ ... أما أحكام القيمة التي يصدرها فلاسفة الأخلاق فإنها في نظر الوضعيين المنطقيين عبارات فارغة ، لأن كل من يجعل من القيمة معياراً ، فقد تجاوز دائرة التجربة التي هي محك كل شيء . ومعنى هذا أنه إذا لم تكن الأحكام الأخلاقية والجمالية مجرد أحكام تجريبية قائمة على الواقع ، فإنها لا يمكن أن تنطوي على أى مدلول . وهكذا يرفض دعاة الوضعية المنطقية سائر العلوم المعيارية ، كما سبق لهم أن رفضوا الميتافيزيقا أو علم ما بعد الطبيعة ، لكي يستبقوا من المواد الفلسفية جميعاً علماً واحداً هو « المنطق » ، بوصفه وسيلتنا إلى فهم العلم . وإذن فإن الفلسفة عند الوضعيين المناطقة لا تكاد تعدو التحليل اللغوي والدراسة المنطقية للمفاهيم العلمية .

أما الفيلسوف الفرنسي هنري برجسون ، فإنه يفرق بين العلم والفلسفة ، بدعوى أن دائرة العلم هي السكم والامتداد والمسكان ، في حين أن دائرة الفلسفة هي السكيف والتوتر والزمان . حقاً إن كلا منهما ينطوي على معرفة مطلقة ، ولكن العلم معرفة مطلقة بالجامد ، في حين أن الفلسفة معرفة مطلقة بالحى . ولا بد للعلم والفلسفة من أن يختلفا موضوعاً ومنهجاً ، ولكنهما لا بد من أن يتلاقيا عند نقطة مشتركة هي التجربة . ولا يريد برجسون للفلسفة أن تحلق في سماء المجردات ، بل هو يرى أنه لا بد لها من أن تحذو حذو العلم فتعود إلى الواقع لكي تقوم بدراسة الظواهر . وإذا كان كثير من الفلاسفة قد درجوا على الانتقال من التصورات إلى الواقع ، فإن برجسون يريد للفلسفة أن تنتقل من الواقع إلى التصورات . وذلك لأننا حين نحاول فهم الوجود عن طريق طائفة من المفاهيم العقلية ، فإننا لا بد من أن تنتهى إلى مذاهب ميتافيزيقية متهاقنة ، قوامها تفسير الحياة والروح بالرجوع إلى أداة ميكانيكية يستخدمها المرء للتصرف في المادة . ولكن « التصور » في رأى برجسون لم يُجعل للنظر أو المعرفة ، بل للعمل

أو الفعل ؛ فلا سبيل لنا إلى اختراق الواقع إلا عن طريق ضرب من « الحدس » الذى نقلب فيه الاتجاه العادى لنشاطنا الفكرى العملى . وحين يتحدث برجسون عن « الحدس » l'intuition فإنه يعنى به ضرباً من المعرفة المباشرة التى تنفذ فيها إلى صميم الموضوع ، بدلا من أن نكتفى بدراسته من الخارج أو عن بُعد . والميتافيزيقا الحقة إنما هى ذلك الجهد الحدسى الذى تقوم فيه بضرب من الفحص الروحى ، فننفذ إلى أعماق الواقع ، محاولين أن نتسّمع ضربات قلبه ! والفارق فى رأى برجسون بين الفيلسوف والعالم ، أن الفيلسوف ينظر إلى الواقع نظرة صداقة وتعاطف ، فى حين أن العالم لا بد من أن ينظر إلى العالم نظرة ملوّهة الاحتراس والتحرّز . فالعالم فى صراع دائم مع الطبيعة ، وهو مضطر — كما قال بيكون — إلى أن يطيع الطبيعة ويخضع لها ، حتى يتسنى له أن يسيطر عليها ويتحكم فيها ؛ وأما الفيلسوف فإنه لا يطيع ولا يأمر ، بل هو يسعى دائماً إلى أن يصادق ويشارك ويتعاطف . وهذا « التعاطف » فى الحقيقة هو ما أطلق عليه برجسون اسم « الحدس » . فالمعرفة الحدسية بهذا المعنى هى تلك المعرفة المباشرة التى تمرق حجب الألفاظ وشباك الرموز ، لكى تنفوس فى طيات الواقع وتمضى مباشرة إلى باطن الحقيقة . . . والفلسفة هى فى صميمها عملية انتباه شاقة نستغنى فيها عن شتى الرموز ، لكى نمضى إلى المصدر الأصيل نفسه ، محاولين أن ننفذ إلى صميم حياته الباطنة ، فلا نلبث فى النهاية أن نلبس الواقع لباساً يحىء « على قدّه » ! وتبعاً لذلك فقد انتهى برجسون إلى القول بأننا نستطيع عن طريق الحدس — تلك الملائكة الفاتكة للعقل — أن نتوصل إلى حل الكثير من المشكلات الميتافيزيقية التى ظلت حتى الآن مستعصية على الحل ^(١) .

(١) ذكرى إبراهيم : « برجسون » (ضمن مجموعة نوابغ الفكر الغربى) ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٨ ، الفصل الثانى ، المنهج الحدسى ، ص ٣٣ — ٣٥ .

١١ — وأما عند فلاسفة الوجود فإن مهمة الفلسفة إنما تنحصر في تحرير الإنسان عما هو متصور عقلياً ؛ من أجل وضعه وجهاً لوجه أمام وجوده الخاص بوصفه كائنًا حراً يتوقف مصيره على قراره الشخصي . فليست الفلسفة شيئاً دخيلاً على الوجود البشري ، بل إن فعل التفلسف لا يكاد ينفصل عن فعل الوجود . ومعنى هذا أن وجودنا لا يمكن أن ينفصل عن تساؤلنا عن معنى وجودنا ، لأن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي لا يمكن أن يتقبل وجوده كواقعة محضة . والسؤال الميتافيزيقي عند يسبرز (كما هو الحال عند هيدجر) هو ذلك السؤال الذي يضعنا نحن أنفسنا موضع السؤال . ونحن لا نستطيع أن نتفلسف دون أن نصطدم باللامعقول ، فإن العقل لا يقوم بدون نقيضه ؛ ذلك النقيض الذي لا سبيل إلى قهره أو التغلب عليه ، لأنه هو الشرط الأساسي لكل تفلسف . ولهذا يقرر يسبرز (سائراً في هذا على نهج كيركجارد ، الأب الروحي لكل فلاسفة الوجود) إنه عبثاً يحاول بعض الفلاسفة أن يحلوا الوجود إلى « معقولة » محضة ، فإنهم لا بد من أن يجدوا أنفسهم مضطرين إلى أن يتركوا الحجة في صميم مذهبهم لهذا « اللامعقول » الذي لا سبيل إلى تصفيته نهائياً^(١) وعلى الرغم من تلك الحرب الضروس التي صورها لنا كيركجارد بين الفكر والوجود ، أو بين الكوجيتو Cogito والكيونة Sum ، إلا أن فلاسفة الوجود لا يريدون أن يقلعوا عن البحث في « الوجود » ، لأنهم يشعرون بأن فعل التفلسف معانق لفعل الوجود نفسه . حقا لقد قال كيركجارد (معارضاً مقالة ديكارت) : « إنه كلما زاد تفكيري قل وجودي ، وكلما زاد وجودي قل تفكيري » ، ولكن من المؤكد حتى بالنسبة إلى كيركجارد نفسه أنه ليس

Karl Jaspers : “ Reason and Existenz ”, translated by (١)
W Earle, 1950, Noonday Press, pp. 19 — 20.

ثمة وجود حقيقي إلا إذا كان ثمة تأمل للوجود أو تفكير في الوجود ، لأنه لا بد للمرء من أن يضم في حقيقة واحدة مؤتلفة فعل الوجود وفعل الفكر معاً . وإن فلاسفة الوجود لهم أدرى الناس بما هنالك من تناقض بين الفكر والوجود ، ولكنهم حريصون على استبقاء « الوجود » (مهما كان من تناقضه وغموضه) لأنهم يعلمون حق العلم أن هذا الصراع الدامى بين الفكر والوجود هو ما يكون صميم الحياة البشرية نفسها^(١) .

لقد كان الأقدمون يقولون إنه ينبغي لنا أن نحيا أولاً لكي نتفلسف ثانياً ، وأما فلاسفة الوجود فإنهم قد جعلوا الفلسفة ملازمة للحياة ، معانقة للوجود ، باطنة في صميم فعل « الكينونة » الذى يقرر الإنسان بمقتضاه أنه « موجود » . ولعل هذا هو ما عناه هيدجر حيناً قال إن الفلسفة لا تنبثق على حين فجأة في صدر الموجود البشرى ، وإنما الأدنى إلى الصواب أن يقال إنها متطابقة مع الوجود نفسه . . . فليس الفكر مجرد صفة جوهرية للوجود ، بل الوجود هو بمعنى ما من المعانى فكر . ولهذا يقرر هيدجر أن العلاقة وثيقة بين الحياة والتفلسف ، مادام الوجود بالنسبة إلى الإنسان إنما يعنى الانشغال بالوجود والنزوع نحو الوجود . وقد تنوهم أن الفكر علاقة تقوم بين ذات حرة لا زمانية وبين موضوع تحاول أن تنفض أسرارها ، ولكن الحقيقة أننا لا نفهم الوجود العام إلا من خلال وجودنا نفسه . فالأنطولوجيا في نظر هيدجر هى وجودنا نفسه . والفلسفة هى عملية فهم الوجود التى تتحقق من خلال حركة « تعالى » المستمرة المعبرة عن صميم وجودنا .

Jean Wahl : “ La Pensée de L'Existence ”, Flammarion, (١)
Paris, 1950, pp. 25 & 69.

ومهما يكن من شيء ، فإن التفكير الفلسفى قد اكتسب أهمية حيوية على يد الوجوديين ، إذ أصبحت الفلسفة عندئذ بمثابة الجواب الذى يقدمه الوجود البشرى لما توجه إليه الحياة من أسئلة . ولا شك أن إنسان المجتمع الغربى قد عاصر فى الثلاثين سنة الماضية أزمت حضارية هامة كانت تستلزم تغييراً جوهرياً فى أسلوب حياته ، فلم يكن بد من أن يعيد الفلاسفة الغربيون النظر فيما بين أيديهم من حلول ، حتى يقضى لهم أن يواجهوا مشكلات حضارتهم على الوجه الأكمل . وهكذا ظهرت فلسفة الوجود لمواجهة نوعين من المشكلات : مشكلات تتعلق بالأزمات والثورات والحروب التى زخر بها النصف الأول من القرن العشرين ومشكلات أخرى ترتبط بالإمكانات والقدرات والاختراعات التى حققها للإنسان تقدم العلم الحديث . فلم تعد المشكلة الفلسفية الكبرى بالنسبة إلى الإنسان هى مشكلة وجوده الشخصى (كما كان الحال بالنسبة إلى بعض شخصيات الرواى الروسى دستوفسكى) ، بل أصبحت المشكلة الكبرى مشكلة الإنسانية بأسرها . والواقع أن الإنسانية اليوم قد أصبحت تعلم أنها إذ كانت ما تزال على قيد البقاء ، فما ذلك لجرد أنها قد ظهرت بطريق الصدفة على مسرح الوجود ، بل لأنها قد اتخذت قرارها وآلت على نفسها أن تظل على قيد البقاء . فليس ثمة « جنس بشرى » (على حد تعبير جان بول سارتر) ، بل هناك إنسانية أخذت على عاتقها أن تنصب من نفسها حارساً على القنبلة الذرية ، وأن تضطلع بمسئولية حياتها وموتها . وحينما يقول زعيم الوجودية الفرنسية إن الجماعة البشرية هى بلا شك فوق مستوى الملكية الطبيعية ، فإنه يعنى بذلك أنه قد أصبح على الإنسانية فى كل لحظة ، بل فى كل دقيقة ، أن ترتضى الحياة ، وتوافق على الاستمرار فى البقاء . وهذه الحقيقة التى يستشعرها إنسان القرن

المشرين في جزع وقلق إنما هي بعينها مشكلة الفيلسوف الوجودى . وهكذا
تخلص إلى القول مع سارتر بأن مشكلة الفلسفة اليوم قد أصبحت هي مشكلة
الوجود الإنسانى نفسه ، ما دام وجود الإنسان قد أصبح يتوقف على قراره
الشخصى نفسه^(١) .

Cf. R. Garaudy : "Perspectives de L' Homme.", Paris, (١)
P. U. F , 1959, pp. 3-5.
& Jean-Paul Sartre : "Les Temps Modernes" No 1, Présentation.

الفصل الثاني

معاني الفلسفة

١٢ — إذا كنا قد تعمقنا في الفصل السابق تطور مفهوم الفلسفة عبر العصور المختلفة ، فربما كان من واجبنا الآن أن نحاول تعريف الفلسفة ، أو تحديد موضوعها ، بالاستناد إلى هذا العرض المُشَبَّه لتطور التفكير الفلسفي . وهنا قد يبادر البعض إلى القول بأن الفلسفة علم لم يتحدد موضوعه بعد ، بدليل أن الفلاسفة أنفسهم لا زالوا جاهلين بموضوعهم ، منقسمين حوله . وردُّنا على هذا الاعتراض أن اختلاف الفلاسفة في تعريفهم للفلسفة لا يعنى مطلقاً أنها لا تملك موضوعها الخاص ، بل هو يدلُّنا فقط على تعدُّد بناييع الفلسفة في صميم الخبرة البشرية . فالفلاسفة مجمعون على ضرورة السعي نحو المَقُول ، ولزوم الكشف عن معاني الأشياء ، وأهمية البحث عن قيمة الحياة الإنسانية ، ولكنهم يختلفون حول مصادر هذا البحث ، ووسائل ذلك الكشف ، وطبيعة تلك الرحلة الفلسفية التي يقوم بها الإنسان في مطاردته للحقيقة . ولما كانت التجربة الإنسانية هي من السَّعة بحيث قلما يستطيع مذهب أن يستوعبها ، فإن فهم الفلاسفة لدلالة حياتهم الروحية قد اختلف باختلاف أنماط خبراتهم . وهكذا تعددت مشكلات الفلاسفة ، وتنوعت حلولهم ، بينما بقي لديهم جميعاً اهتمام واحد أَلَفَ بينهم وجمع شملهم ، ألا وهو الاهتمام بالحقائق الكبرى التي يعيش عليها الإنسان في صميم حياته الروحية . ولولا هذا الإيمان الراسخ بخطورة المضمون الروحي للحقيقة الفلسفية ، لما قامت للفلسفة أدنى قائمة ، ولما كان في استطاعة الفلاسفة حتى ولا أن يتلاقوا فوق صعيد واحد .

والواقع أنه مهما تفرقت كلمة الفلاسفة حول موضوع الفلسفة ، ومنهجها ، وغايتها ، فإن الكل مُجمعٌ — أو شبه مجمع — على القول بأن التفلسف هو ضرب من النظر العقلى الذى يهدف إلى معرفة الأشياء على حقيقتها . ولعلّ هذا هو ما حدا بالفيلسوف الأمريكى المعاصر رويس إلى القول بأن « المرء يتفلسف حينما يفكر تفكيراً نقدياً فى كل ما هو بصدد عمله بالفعل فى هذا العالم . حقاً إن ما يعمله الإنسان أولاً وقبل كل شيء إنما هو أن يحيا ؛ والحياة تنطوى على أهواء ، وعقائد ، وشكوك ، وشجاعة ، ولكن البحث النقديّ فى كل هذه الأمور إنما هو الفلسفة بعينها » ومثل هذا القول إن دل على شيء فإنما يدل على أن الفلسفة — بمعناها العام — إنما هى « حياة ، ونقد للحياة ؛ أو حياة ، وتحليل للحياة ؛ أو حياة ، وتعلم للطريقة المثلى فى الحياة » . ولهذا فقد ارتبط مفهوم الفلسفة منذ البداية بمعاني الحكمة ، والتوجيه ، والكمال الخلقى ، حتى لقد كتب أحد فلاسفة الإسلام يقول : « إن الفلسفة تنقسم إلى قسمين : الجزء النظرى ، والجزء العملى . فإذا كمل الإنسان بالجزء النظرى والجزء العملى ، فقد سعد السعادة التامة . . . والكمال الأول النظرى منزلته منزلة الصورة ، والكمال الثانى العملى منزلته منزلة المادة . وليس يتم أحدهما إلا بالآخر ، لأن العلم مبدأ ، والعمل تمام ؛ والمبدأ بلا تمام يكون ضائعاً ، والتمام بلا مبدأ يكون مستحيلاً^(١) » . . . فليست الفلسفة فى أصلها نظراً عقلياً مجرداً ، أو تسلية ذهنية يُرضى بها الإنسان ميله إلى التشوف وحبه للاستطلاع ، بل هى بحث عن أكثر الحقائق أهمية فى حياة الإنسان الروحية ، وسعى نحو توجيه السلوك فى ضوء تلك الحقائق .

١٣ — ولو أننا عدنا إلى التراث الفلسفى القديم ، لألفينا أن الفلسفة

(١) « تهذيب الأخلاق » : لابن مسكويه ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، طبعة محمد طه

قد فهمت بمعنى عمليّ أخلاقى ، فكان معناها « حكمة الحياة » ، وكان الفيلسوف هو الرجل الذى يوجه حياته فى ضوء ما يقضى به العقل . وتبعاً لذلك فقد كانت الصلة وثيقة دائماً أبداً بين النظر والعمل : إذ كانت الفلسفة التقليدية لا تنفصل عن المعرفة ، بل تحاول أيضاً تنظيم الحياة ، وتحقيق السعادة . ولا زال كثير من المفكرين — فى أيامنا هذه — يعتقدون أن الفلسفة لا تعلمنا كيف نفكر فحسب ، بل تعلمنا أيضاً كيف نحيا . وأصحاب هذا رأى يؤمنون بأن الفلسفة الحقة لا يمكن أن تكون مجرد معرفة نظرية ، بل هى « فن حياة » أيضاً . وليس معنى هذا أن هؤلاء ينكرون قيمة النظر المجرد ، وإنما هم حريصون على ربط الصناعة النظرية بالصناعة العملية ، مادامت الفلسفة منذ البداية علماً وعملاً ، أو معرفة وحياة . والحق أن « المعرفة » فى نظر دعاة هذا رأى شرط أساسى للحكمة : فإننا لا نتفلسف إلا حين نبحث عن معنى الحياة والعالم ، وحين نحدد لأنفسنا موضعاً فى صميم الكون ، قاصدين من وراء هذا كله أن نعرف على أى وجه ينبغي لنا أن نحيا . ومعنى هذا أن المعرفة العقلية هى سبيلنا إلى السعادة ، مادامت « الحكمة » هى النور العقل الذى نسير على هديه فى ظلمات هذه الحياة الدنيا .

ولو أننا استرجعنا فهم أفلاطون ، أو الرواقيين ، أو ديكارت ، أو البرجماتيين ، أو غيرهم للفلسفة ، لوجدنا أن هؤلاء جميعاً يعملون من الفلسفة محاولة لبقاء إنسان جديد ، ويهتمون بتأكيد الدور الحيوى الذى تقوم به الفلسفة فى تنظيم الخبرة البشرية . ولعل من هذا القبيل أيضاً ما ذهب إليه الفيلسوف الفرنسى المعاصر موريس بلوندل حينما كتب يقول : « إننا نستطيع أن نلج فى الجهد الفلسفى عنصريين متميزين متماسكين : معرفة نظرية بالحقيقة اليقينية ، وحلاً عملياً متيناً لمشكلة المصير الإنسانى . وقصارى القول إن الفلسفة قاعدة للحياة والخلق تستند إلى يقين عقلى » . فالفلسفة — فى نظر هذا المفكر المعاصر — تشيع حاجة

إنسانية مزدوجة : حاجة إلى التنظيم المنهجي والتسلسل العقلي ، تملينا علينا الرغبة في تكوين نظرة شاملة استيعابية إلى الوجود ؛ وحاجة إلى تحديد مكانة الوجود المفكر والكشف عن سر وجوده في الكون ، تملينا علينا الرغبة في إزاحة النقاب عن أحجية المصير البشري ، والعمل على تحقيق « النجاة » (أو الخلاص) له في هذه الحياة الدنيا .^(١)

وهذا برجسون نفسه يقرر في موضع ما من المواضع أنه إذا لم يكن في استطاعة الفلاسفة أن تنبئنا بشيء عن تلك المشكلات الخطيرة التي تثيرها الإنسانية ، فإنها لن تستحق منا عناء ساعة واحدة نقضيها في التأمل والتفكير . ويمضى لويس لافل (خليفة برجسون) إلى حد أبعد من ذلك فيقول « إنه ليس ثمة مشكلة يمكن أن تكون أشد خطورة بالنسبة إلى الإنسان من مشكلة الوعي الذي يستطيع أن يحصله عن نفسه ، وعن معنى وجوده ، وعن مكانته الخاصة في الكون ؛ وهذا كله إنما هو موضوع الفلاسفة » . فالمشكلة الرئيسية للفلاسفة — في نظر لافل — إنما هي مشكلة المصير البشري . وربما كان في وسعنا أيضاً أن نقرب من هذه النزعة وجهة نظر المفكر الفرنسي أليير كامو حين يقول في كتابه « أسطورة سيزيف » : « إنه ليس ثمة سوى مشكلة فلسفية واحدة يمكن أن تعد جدية بحق ، وتلك هي مشكلة الانتحار . ولو استطعنا أن نحكم ما إذا كانت الحياة جدية بأن تعاش أم لا ، فقد أجبنا على المشكلة الرئيسية في الفلسفة . »^(٢) فهؤلاء المفكرون جميعاً يفهمون الفلسفة على أنها بحث عن معنى الحياة ، واهتمام بمشكلة المصير ، وفن عملي لتوجيه السلوك . وهم إذ كانوا يربطون الفلسفة بالحياة ، فذلك لأنهم يرون أنه لا بد من حقيقة فلسفية يعيش

Maurice Blondel : "La Pensée" Vol. II., F, Alcan, 1934, (١)
Paris, pp. 192—193.

Albert Camus : "Le mythe de Sisyphe", Gallimard, 1942, (٢)
p. 15.

عليها الإنسان ، وبحيما من أجلها . ولولا هذه التجربة الروحية التي تفدى حياة الإنسان ، لما كان للفلسفة أى موضع فى الوجود البشرى ، وبالتالى لما استمرت الحاجة إلى التفلسف فى كل زمان ومكان .

١٤ - وقد تفهم « الفلسفة » بمعنى عام كل العموم ، فيكون المقصود بها أى سؤال يطرحه الإنسان ، أو أى تمجب يثيره العقل البشرى . فنحن نتساءل مثلا : ما هى الحقيقة ؟ وما هو الخطأ ؟ وما هو اليقين ؟ ولماذا كان « وجود » بدلا من أن يكون « عدم » فقط ؟ ومن أين جئنا ؟ ولماذا نحن هنا ؟ وإلى أين نمضى ؟ وهل هناك حياة بعد الموت ؟ وما علاقه الكون بالوجود البشرى ؟ وما هى غاية الطبيعة ؟ ولماذا وجد الشر ؟ وما هو معنى القيم ؟ ... إلى آخر تلك الأسئلة العديدة التى اعتدنا أن نثيرها بمجرد مانستيقظ من سباتنا الإيقانى ، أعنى بمجرد ما ننفض عنا غبار الحياة العادية ، بما فيها من آراء متواترة ، وأفكار مسبقة ، وعادات متأصلة ... إلخ .

ولو أننا فهمنا الفلسفة بهذا المعنى ، لسكان التفلسف هو تلك العملية النسأولية التى نحاور فيها أنفسنا ، ونتجادل فيها مع العالم والآخرين . وإذا كان سقراط قد اعتُبرَ نموذجاً للفيلسوف ، فذلك لأنه قد صور لنا منذ القدم شخصية « الإنسان المتسائل » الذى لا يكف عن إثارة المشكلات . ولما كانت الفلسفة هى لغة الوجود المتناهى ، فليس بدعاً أن تجمىء هذه اللغة معبرة عن طابع التجربة البشرية بما فيها من حيرة ، وقلق ، وتساؤل ، وتوتر ، وتعارض ، وصراع ، وتناه . إلخ . والإنسان « يتساءل » ، لأنه لا يرى فيما حوله حولا جاهزة أو أجوبة شافية ، فهو مضطر بالتالى إلى أن ينشد « المعنى » وراء « الواقعة » ، وأن يبحث عن « التفسير » الذى يزيح النقاب عن « السر » . وحسبنا أن نرجع إلى أقدم الحضارات البشرية ، لكي نتحقق من أن الإنسان قد وجد فى الطبيعة « لنزأ » يستدعى الحل ، كما وجد فى نفسه « أحجية » تتطلب التفسير .

وما نشأت الفلاسفة إلا استجابة لتلك الحاجة التساؤلية التي دفعت الإنسان منذ البداية إلى رفض الواقعة المحضة ، ونبذ التصديق الساذج ، واعتبار الوجود كله مجموعة من الرموز والشفرات .

حقاً إن التفكير — كما قال تولستوى — يشقى البشر أكثر مما يشقيهم أى شيء آخر ، ولكن شقاء الفكر هو في الوقت نفسه ثراء للتجربة البشرية ، وتغذية للحياة الروحية . وحين يفكر الإنسان ، فإنه يرفض بينات الحواس ، ومتواترات الناس ، لكي ينطلق في البحث عن حقائق جديدة تزيد حياته غنى وعمقاً . وليس التساؤل الفلسفي سوى تلك العملية الوجودية التي يصطنعها الإنسان حيناً يجعل من حياته حواراً بين الزمان والأبدية ، فيجادل التاريخ لكي يقهره على الاعتراف بأنه شيء أكثر مما ينطوى عليه غبار الأحداث ، ويلج على الأبدية لكي يجبرها على الإفراز بأنها شيء أكثر مما تعبر عنه المذاهب الإطلاقية . ولما كانت « المذهبية » كثيراً ما تخفي تعقد الواقع خلف ستار من بساطة المبادئ ، فليس بدعاً أن تظل الفلاسفة « تساؤلاً » ينفر من كل نزعة تجريدية ، ويتوجس خيفة من كل تنظيم عقلي مذهبي^(١) . وحسبنا أن نرجع إلى فلاسفة من أمثال القديس أوغسطين ، أو بسكال ، أو كيركجارد ، لكي نتحقق من أن مهمة الفلسفة الحقيقية إنما تنحصر في تعمق شروط وجودنا بوصفنا كائنات عارفة مشخصة . وفيلسوف التساؤل لا يزعم لنفسه حق امتلاك الحقيقة ، بل هو يريد بالأحرى أن يكون مملوكاً للحقيقة ، بمعنى أنه يريد لنفسه أن يكون « حقيقياً » . ولعل هذا هو ما حداً بالفيلسوف الوجودي المعاصر جبريل مارسيل إلى الاستعاضة عن « فكرة الحقيقة » بمبد آخر أطلق عليه اسم « روح الحقيقة » . وهو يعني

Cf. Jean La Croix : "Marxisme, Existentialisme, Personnalisme." Paris, P. U. F., 1951, pp. 58—59.

بهذا للمبدأ أن الحقيقة ليست موضوعاً نمتلكه أو نحاول حيازته ، بل هي موقف روحي نحاول فيه توثيق أو اصرار القُرْبَى بيننا وبين « مدينة مثالية » *cité idéale* أو « وسط معقول » *milieu intelligible* هو بمثابة النور العقلي الذي يظهره من أهوائنا الفردية ، لكي يتدرج بنا في عالم مثالي مشترك^(١) ،

ومهما يكن من شيء ، فإن فلاسفة السؤال يجزعون من روح التجريد ، والميل إلى التنسيق ، والتمسك بالتنظيم العقلي ، وصياغة الوجود في صور لاشخصية . وهم إذا كانوا يصرون على فهم الفلسفة بمعنى « التساؤل » ، فذلك لأنهم يرون أن « المذهبية » تقضي على « الدهشة الفلسفية » ، وتوحي إلى ذهن الفيلسوف بأنه قد استطاع أن يصوغ في إطار مذهبه العقلي الجامد كل ما تنطوي عليه السماء والأرض من حقائق . وهكذا يستمض الفيلسوف المذهبي عن الإحساس بالتاريخ (الذي هو صميم وجودنا الزمني) بتلك الروح التجريدية (التي هي في صميمها مجرد صدى للنزوع نحو الأبدية) . وأما الفيلسوف الوجودي فهو يأبى أن يعدّ الحدث مجرد حلقة في سلسلة ، ويرفض أن يفهم الواقعة التاريخية على أنها مجرد جزء من كل ، ويشور دائماً على كل نزعة تجريدية تجعل من الحياة الفردية مجرد تطبيق لقانون عام . ولعل هذا هو السبب في أن معظم فلاسفة الوجود يستمضون عن لاشخصية المذهب أو النسق العقلي بمجموعة من العواطف المشخصة أو للشاعر الشخصية : كالفارقة ، والسخرية ، والقلق ، والهم ، والتوتر ، والتمزق .
الداخلي . . . إلخ .

١٥ — أما التصور الثالث من تصورات الفلسفة فهو ذلك الذي يجعل منها نظاماً خاصاً أو نسقاً معيناً من الاعتقاد . وأصحاب هذا الرأي يجمعون على القول

^(١) Cf. Gabriel Marcel : "Le Mystère de l'Être", T. I. Paris, Aubier (Editions Montaigne), 1951, 4e leçon, pp. 67—89.

بأن « الاعتقاد » ضرورى للانسان ، فإن أحداً لا يستطيع أن يحيا على الشك المطلق أو الإنكار التام ، بل لا بد لكل منا — فى لحظة من لحظات حياته — أن يقلع عن الشك ، لكي يؤمن بحقيقة أو حقائق قام البرهان على صحتها فى نظره . وسواء آمننا بوجود الله ، أم باطراد نظام الطبيعة ، أم بغائية الكون ، أم بخلود النفس ، أم ببحرية الإرادة ، أم بقدرة العقل على المعرفة ، أم بوحدة الطبيعة والله ، أم بوجود الصدفة والاتفاق ، أم بالاحتمية الشاملة ، أم بأية عقيدة فلسفية أخرى ، فإننا فى كل هذه الحالات نؤكد صحة أحكام نفقن بها ، ونخلص لها ، ونعيش عليها . ومهما راق للفيلسوف أن يتخذ صورة محط الأصنام أو هادم الأوثان ، فإنه لا بد من أن يظل مؤمناً — إن من حيث يدري أو من حيث لا يدري — ببعض المعتقدات الخفية أو الآراء الضمنية ، كأن يؤمن مثلاً بوجود جسمه أو فكره أو الوسط الذى يعيش فيه . . . إلخ . وحينما يحاول المرء أن يكون من مجموع الحقائق العقلية التى يدين بها نفساً فكراً متكاملًا ، أو نظاماً عقلياً متناسلاً ، فهناك يظهر « المذهب » بوصفه تلك الصورة المنظمة التى تتخذها المبادئ العقلية حين تصبح صريحة متماسكة . وليس تاريخ الفلسفة — فيما يرى بعض الباحثين — سوى تاريخ بناء المذاهب ، وهدمها ، وتصارعها ، وإعادة بنائها . . . إلخ .

إن الفلسفة — فيما يرى أصحاب هذه النزعة — ليست معرفة ، بل فهماً . ولما كان « الفهم » إنما يعنى أن العالم يقبل التعقل ؛ فإن مبدأ السبب الكافى هو الفرض الضرورى الذى تقوم عليه كل فلسفة . وعبثاً يحاول البعض أن يرفع عن الفلسفة صبغتها العقلية : فإنه لا يمكن أن تقوم فلسفة ضد العقل ، اللهم إلا إذا أمكن أن يقوم فن ضد الجمال ، أو دين ضد الله ! ويمضى دعاء هذا الرأى إلى حد أبعد من ذلك فيقررون أن الفلسفة لا تقوم إلا على رفض الحال ،

مادام « التهم » الفيلسوف فهما معنى ، وفضاً لرموز ، وقراءة لشفرات . فالفيلسوف مضطر إلى البحث عن الحقيقة ، والعمل على فك رموز العالم ، والسعى نحو تبرير الوجود . ولئن كان البعض — من أمثال مونتنى — قد خلطوا بين الفلسفة والشك ، فإن أصحاب هذا التصور يريدون للفيلسوف أن يحل الإيمان أو الاعتقاد محلّ الشك والارتياب . و « الاعتقاد » في رأيهم إنما يعنى الوفاء للحقيقة ، والالتزام بها ، وتوجيه الحياة كلها في ضوء تلك الحقيقة . أما « الشك » فهو التردد والتشتت واليأس ، أو هو ذلك الضعف الذى ينشأ من فقدان الشعور الداخلى بالحقيقة . فالشك « يقف عند اختلاف المذاهب والمعتقدات ليستخلص أن أحكام الناس باطلة كلها أو صادقة كلها ، والرأيان سواء ، فالقول إنها باطلة كلها يرتكز في الواقع على مفهوم مجرد للحقيقة السكائية وعلى محاولة للبحث عنها في متاهات الآراء والأقوال . . . أما القول إنها صادقة كلها ، بمعنى أن كل فرد محق في أن يحمل نفسه مقياساً للحقيقة ، فهو قول يهدم معنى الحقيقة نفسه . ولا خلاص للإنسان من كل ذلك إلا في مجابهة المشكلات بمجابهة مباشرة ، ودفع العقل في اكتشاف حلولها . وعندئذ تتحول المذاهب والعقائد المختلفة من متاهات أو أقطار إلى أدوات تساعد على بلوغ الحقيقة »^(١) .

من هذا نرى أن تصور الفلسفة بمعنى « الاعتقاد » إنما يفترض الإيمان بقدرة العقل على المعرفة ، وقابلية العالم للمعقولية ؛ فضلاً عن أنه يتضمن التسليم بأن « السلب » أو « الإنكار » لا يمكن أن يكون هو الكلمة النهائية للفلسفة . والفيلسوف الذى يقنع بالشك^(٢) ، ويركن إلى الهدم ، ويقتصر على السلب

(١) د . بدیع الكسم : « الحقيقة الفلسفية » ، محاضرات جامعة دمشق ، ١٩٦١ ، ص ١٢ ، ١٠

(٢) ليس الشك — في حد ذاته — خطأ أو خطيئة ، بل « إن الشك — كما قال أيبيلار — يقتادنا إلى البحث . والبحث هو وسيلة إلى إدراك الحقيقة » .

إنما هو إنسان يائس ، واليأس إنكار لكل فلسفة ، إن لم نقل بأنه انتحار ودمار للإنسان نفسه . حقاً إن الحرية البشرية إنما تتجلى أولاً وبالذات في تلك القدرة السلبية التي يستطيع معها الإنسان أن يقول كلمة « لا » ، ولكن الفيلسوف الذي يتماهى في الإنكار سرعان ما يجد نفسه — فيما يقول أصحاب هذا الرأي — منجرفاً فوق تيار المتناقضات بعيداً عن طريق الحق . فلا بد للإنسان إذن من أن يصبح يوماً إنسان هذه الفكرة ، أو رجل تلك العقيدة ، أو صاحب هذا المذهب ، حتى ينفذ نفسه من مخاطر الارتياح بما فيه من تشق وغرق وضياح . والفيلسوف هو هذا المخلوق الذي يأخذ على غائقه أن يكون رجل حقيقة ما ، حقيقة يعيش لأجلها بدلاً من أن يعيش منها . وحسبنا أن نعود إلى تاريخ الفكر لكي نتحقق من أن فيلسوفاً لم يضع يوماً أكثر من مذهب واحد ، فما كان في وسع أحد أن ينادى بأكثر من عقيدة ، أو أن يكون داعية لأكثر من فكرة ! أما هذه العقائد الفلسفية التي طالما كرر الفلاسفة أنفسهم مرة بعد أخرى في سبيل التعبير عنها ، فهي تلك التجارب الحية التي عاشوها ، وعانوها ، وأوهى تلك الحقائق الكبرى التي حاولوا أن يمتصوها ويثروها . . .

١٦ — أما التصور الرابع للفلسفة ، فهو ذلك الذي يجعل منها نظرة كلية إلى الأشياء ، أو ميلاً قوياً نحو الوحدة ، أو التركيب ، أو الكلية . وأصحاب هذا الرأي متفقون مع أفلاطون على القول بأن « الفيلسوف هو الإنسان المتأمل الذي يتطلع إلى الوجود ككل ، ويستوعب الأزمنة بأسرها . » . فليس المقصود بالفلسفة دراسة بعض الظواهر الجزئية أو الوقائع الخاصة ، بل المقصود به رؤية الأشياء في مجموعها ، أو النظر إلى العالم ككل ، أو الحكم على الوجود في جملته ولهذا فقد ذهب بعض الباحثين إلى أن فكرة « الكل » قد لعبت دوراً كبيراً في نشأة التفكير الفلسفي وتطوره ، لأن الإنسان لم يتفلسف إلا حينما حطر بباله

أن يوحد بين الموجودات في إطار عقلي أو نسق فكري يفسر به الحقيقة كلها في شتى مظاهر تعقدها . ولا زال الميل إلى التعميم ، أو الحرص على التركيب ، أو الاهتمام بالوحدة ، أو النزوع نحو الكلى ، من أهم الصفات التي يتميز بها صاحب العقلية الفلسفية . حقاً إن الفلسفة لا تخلو من وصف وتحليل ، ولكن ما يميز الفيلسوف عن العالم إنما هو اهتمامه بتكوين نظرة متجانسة موحدة عن شتى جوانب العالم . ولعل هذا ما عناه الفيلسوف الإنجليزي هربرت سبنسر حينما كتب يقول : « إن أدنى درجة من درجات المعرفة إنما هي المعرفة غير الموحدة . وإذا كان العلم معرفة موحدة جزئياً ، فإن الفلسفة هي المعرفة الموحدة كلياً » .^(١)

ولو أننا عدنا إلى الكثير من التعريفات الحديثة للفلسفة ، لوجدنا أن غالبية كبرى من الباحثين لا زالت تعرف الفلسفة بالرجوع إلى مفاهيم « التأليف » أو « التركيب » أو « التوحيد » . فهذا مثلاً بوترو Boutroux يعرف الفلسفة فيقول إنها « جهد يراد به النظر إلى الأشياء من وجهة نظر واحدة كلية » . وهذا بارودي Parodi يحدد الفكرة الأساسية التي تقوم عليها الفلسفة فيقول : « إن المهم في الفلسفة هو الجهد المبذول في سبيل الوصول إلى تأليف شامل أو مركب كلي . . . فالفلسفة معرفة تأملية وتوحيدية معاً » . وهذا بول فاليري Paul Valéry يصف لنا الفيلسوف فيقول إنه « أى إنسان ، كائناً ما كانت ثقافته ، يحاول من وقت إلى آخر ، أن يقدم لنفسه نظرة شاملة يستوعب فيها كل ما يعرف ، وبالأخص ما يعرفه عن طريق الخبرة المباشرة ، داخلية كانت أم خارجية » . ومهما اختلفت هذه التعريفات ، فإنها مجمعة على تقرير أهمية

H. Spencer «First Principles», London, Watts, 1945, Ch. (١).

I. p. 115.

« النظرة الكلية » أو « التركيبية » في الفلسفة ، على اعتبار أن الفيلسوف هو الباحث العقلي الذي يعيد بناء خبرته لكي يصوغها لنا في حدودٍ تصورية أو مقولاتٍ منطقية . حقاً إن الوجود الحقيقي هو ينبوع التفلسف ، ولكن الفيلسوف في حاجة دائماً إلى أن يخلق على خبرته طابعاً كلياً ، حتى يتسنى له أن يعبر عنها بالألفاظ للمقولة التي يفهمها الجميع . فلا بد للفيلسوف من أن يحاول صياغة وجوده في إطار عقلي ، حتى يتقل إلى الآخرين خبرته الذاتية . وما دام الفهم في صميمه ضرباً من التوحيد ، فإن العقل البشري لا بد من أن يجد نفسه مضطراً إلى إعادة تركيب الواقع عن طريق التصورات العقلية : والخطأ الذي يقع فيه كثير من الفلاسفة هو أنهم يردون الحقائق جميعاً إلى بعض الصيغ المجردة التي يظنون أنها تستوعبها كلها بدلا من أن يقتصروا على تنظيم مجموع الحقائق على صورة كل واحد متماسك . ومن هنا فإن « المذهب » قد يصبح مجرد « عوميات غامضة » ، بدلا من أن يتخذ صورة وحدة عضوية حية تتصف سائر عناصرها بالوحدة المنظمة بصفات الثراء ، والوفرة ، والقيمة ... إلخ .

وللإحاطة أن العقل البشري في سعيه نحو « الوحدة الكلية » كثيراً ما يحاول أن يسد الثغرات الكامنة في الصورة التي يقدمها لنا العلم عن الكون ؛ ومن ثم فإننا نراه يستعير من تجربته الداخلية أو الخارجية أداة ترابط يضمها في الحل الأول ويجعل منها مبدأ ميتافيزيقياً أساسياً . وتبعاً لذلك فقد أصبح التفكير الميتافيزيقي هو صميم الفلسفة ، ما دامت « الميتافيزيقا » هي أنقى صورة من صور الميل إلى الوحدة ، أو البحث عن تفسير موحد للعالم ، خارج القائل نفسه . ولعل هذا ما عناه لاشلييه حينما كتب يقول : « إننا لو أردنا أن نجعل لكلمة الفلسفة معنى دقيقاً محدداً ، فلا بد لنا من أن نجعل منها أولاً وبالذات ميتافيزيقا . والميتافيزيقا — بحسب تعريف أرسطو — هي علم الوجود من حيث هو موجود ؛ أو هي

على الأصح — بشرط أن تتجاوز قليلاً فكر أرسطو — علم الشروط الأولية للوجود والحقيقة معاً ، أو علم العقل والمقولة الشاملة ، أو علم الفكر في ذاته وفي الأشياء^(١) . فهذا المفكر الفرنسي المعاصر يوحد بين الفلسفة والميتافيزيقا (أو علم الوجود المحض) ، لأنه يرى أن كل نظرة كلية إلى العالم تفترض عملية ميتافيزيقية نوحد فيها معارفنا ، ونصوغ عناصر تجربتنا على صورة نسق عقلي . ومن هنا فإن للمذاهب الفلسفية صبغة جمالية واضحة : لأن الفيلسوف حين يجمع شتات المعطيات الحسية المتناثرة ، وحين يؤلف بين عناصر خبراته المتنوعة ، فإنه يضفي عليها انسجاماً يستمد من فكرة « موجهة » . ولا شك أن تناسق المذهب لا يرجع إلى خيال الفيلسوف أو إلهامه أو حدسه الإبداعي فحسب ، بل هو يرجع أيضاً إلى ثراء عناصر خبرته ، وخصوصية معطياته الحسية ، وتنوع مصادر تجربته ، وتماسك بناء تفكيره . ولهذا فقد شبه البعض فلاسفة المذهب بالمهندسين المعماريين أو الملحنين للموسيقين ، أو شعراء الملاحم ، وإن كانت مادة الفلاسفة هي الأفكار ، لا الأحجار أو الأنعام .

١٧ — وأخيراً قد يكون في وسعنا أن نشير إلى تصورات أخرى للفلسفة يهتم أصحابها بربط الفلسفة بالمنطق ، بدلاً من ربطها بالميتافيزيقا ، فترام يقررون أن وظيفة التفكير الفلسفي هي الكشف عن المبادئ الأصلية أو الفروض الأولية التي يقوم عليها كل علم ، أو هي تحليل اللغة وتوضيح معرفتنا التجريبية بترجمتها إلى قضايا تنصب على المضامين الحسية ، أو هي الدراسة المنطقية للمفاهيم والرموز العلمية . . . إلخ . وكل هذه التمرينات تتفق في رفضها للمفهوم التقليدي لفلسفة ، واستبعادها لكل من الميتافيزيقا والأخلاق ، وحرصها على صلب الفلسفة

Cf. A. Lalande : « Vocabulaire Technique et Critique de la Philosophie », Paris, P.U.F., 1947, 5^e éd., Art. « Philosophie », p. 755.

بالصبغة العلمية . وليس معنى هذا أن دعاة هذه النزعة يريدون أن يورثوا الفلاسفة فيما لا شأن لهم به من شئون العلم ، وإنما هم يريدون للفلاسفة أن يلتزموا في ألقاظهم وعباراتهم دقةً تقربهم من العلماء حين يحددون معاني مصطلحاتهم العلمية . وهم يأخذون على الفلاسفة التقليديين أنهم يخلعون ما بأنفسهم على العالم الخارجى ، ويصفون الكون وصفا ذاتياً ، ويظنون أن في وسع الفكر الخالص وحده أن يصف الوجود الخارجى ، ويحاولون الوصول إلى « مبدأ » يضم الكون كله بما فيه ومن فيه . « ولا سبيل إلى ضبط هؤلاء الشاطحين — فيما يقول دعاة هذا الرأى — إلا بدعوتهم إلى تحديد مصطلحاتهم تحديداً علمياً دقيقاً ، وتحليل مشكلاتهم تحليلاً منطقياً صارماً ، وعندئذ لن يلبثوا هم أنفسهم أن يتحققوا من أنه ليس ثمة إشكال على الإطلاق ، وأن الأمر كله غموض فى لغة الفلاسفة ، هو الذى خيل إليهم أنهم إزاء مشكلات تريد الحل ، ولا حل هناك^(١) . . » .

تلك هى نظرة « الوضعية المنطقية » إلى الفلسفة . ولئن كانت هذه النزعة تجعل من « المنطق » جوهر الفلسفة ، إلا أنها تختلف اختلافاً كبيراً عن النزعات العقلية التى تجعل من الفلسفة « نقداً للفكر » . فعلى حين نجد فيلسوفاً مثل برنشيك يقول « إن الفكر — دون سواء — هو الشيء الوحيد الذى يبدو شفافاً أمام الفكر . وليس الموضوع الرئيسى للفكر هو التصور أو التمثل العقلى ، بل هو نشاط العقل ذاته . وإذن فإن فى وسعنا أن نعرف الفلسفة بأنها نشاط عقلى ينعكس فيه الشعور على ذاته »^(٢) ، نرى كارناب Carnap يقرر أن المهمة الرئيسية للفلسفة هى « تحليل العلم » ، ونجد آير Ayer يمحصر الجهد الفلسفى

(١) د. ذكى نجيب محمود : « نحو فلسفة علمية » . القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية

١٩٥٨ ، ص ١١ .

L. Brunschwig : « La Modalité du jugement » , F. Alcan (٢)
pp. 2-3.

في نطاق الألفاظ والتعريفات ، فيؤكد أن كل مهمة الفلسفة أن تعمل على توضيح معرفتنا التجريبية بترجمتها إلى قضايا تنصب على « مضامين حسية » . وهكذا يضرب الوضعيون المناطقة على جذور « المشكلات الفلسفية » ، لكي يقضوا على كل تلك « القضايا الزائفة » التي لا يستقيم لها منطق ، ولا يتضح لها أي مضمون . « وما قد جرى العرف على تسميته باسم « مشكلات فلسفية » إن هو إلا غموض في استخدام الرموز اللفظية ، ولو استقام لهذه الرموز طريق استخدامها ، لتبخرت تلك المشكلات في الهواء وزالت^(١) » . فليس من شأن الفلسفة إذن أن تحدثنا عن العالم ، أو الطبيعة ، أو العقل ، أو الحق ، أو المطلق ، أو ما وراء الطبيعة ، بل حسبها أن تحصر نفسها في « الكلام » تحمله وتفترغه وتجرده ، مقتصرة على تناول صور التركيب وما ينشأ فيها من علاقات .

ونحن لا ننكر أن من محاسن هذه النظرة الجديدة إلى الفلسفة أنها تجنب التفكير الفلسفي أسباب الغموض ، وتدعو الفلاسفة إلى تحديد ألفاظهم وتحليل عباراتهم ، فضلا عن أنها تحاول تخليص العقل من أشباه المشاكل ، ولكننا نرى أن هذه النظرة حين تحصر الفلسفة كلها في نطاق « التحليل اللفظي » و « الأشكال اللغوية » وحدها ، فإنها إنما تقضى على خصوبة الفكر البشري ، وتنتهي في خاتمة المطاف إلى قتل الفلسفة نفسها . وعلى حين أن الفلسفة في كل زمان ومكان قد اهتمت بدراسة طبيعة العالم ، وتحديد العلاقات بين الفكر والواقع ، نجد أن دعاة الوضعية المنطقية يريدون أن يستبعدوا تلك المشكلات الرئيسية بدعوى أنها « مسائل زائفة » . ولكننا مهما اعترفنا بأهمية « التحليل اللغوي » فإننا لن نستطيع أن نجبر الفكر البشري على الوقوف عند هذه التحديدات

(١) د . زكي نجيب محمود : « نحو فلسفة علمية » ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٥٨ ، ص «ط» .

اللفظية والتحليلات المنطقية ، لأن الفكر البشرى فى حاجة إلى فهم العلاقة القائمة بين نظام الأفكار وتربطها من جهة ، ونظام الأشياء وتربطها من جهة أخرى . فليس ثمة مسوغ لحرمان العقل الإنسانى من التفكير فى طبيعة العالم ، والدلالة الموضوعية للمعرفة البشرية ، والصلة بين الفكر والواقع ، اللهم إلا إذا حكمنا منذ البداية بأن العالم نفسه ليس سوى مجرد تركيب عقلى أو بناء منطقي ، يصطنعه كل فرد منا بالاستناد إلى خبرته الحسية . . ولكن هذا بعينه هو موضع الإشكال الفلسفى ؛ فليس فى وسع الوضعية المنطقية أن تستبعد الميتافيزيقا ، اللهم إلا إذا سلمت ضمنا بنوع من « المثالية الذاتية » ، وكأن العالم المادى هو مجموعة من البنائيات المنطقية . ولسنا نريد أن ندخل فى تفاصيل هذا المذهب ، وإنما حسبنا أن نقرر أنه يحرم التفكير الفلسفى من كل مضمونه ، ويستبدل بقضايا الفلسفة الحيوية الهامة ، برنامجا هزليا لا يودى إلا إلى إجذاب الفكر^(١) .

١٨ — من كل ما تقدم يتبين لنا أن الفلسفة قد فهمت بمعان كثيرة : فهى قد فهمت أولا بمعنى « حكمة الحياة » ثم اعتبرت ثانياً مجرد « دهشة » أو « تساؤل » ، بينما عرفها قوم بأنها « نسق من الاعتقاد » ، ورأى آخرون أنها « نظرة كلية للأشياء » ، فى حين انتهى غيرهم إلى القول بأنها مجرد « نقد للفكر » أو مجرد « تحليل لغوى » . ولو أننا استثنينا هذا التصور الأخير ، لكان فى وسعنا أن نقول مع لوسن Le Senne « إن الفلسفة هى وصف الخبرة » . فالفيلسوف إنما يحاول أن يصف لنا خبرته ، وهو مضطر خلال هذا الوصف إلى اصطناع لغة عقلية يمكنه عن طريقها نقل تجربته الخاصة إلى الآخرين . ولكن لما كانت التجربة هى من السعة بحيث يعجز أى فرد منا عن استيعابها ،

Maurice Cornforth : - Science versus Idealism -, London, (١)
1954, pp. 190-192 & p. 215.

فقد نشأت مذاهب عديدة هي من الفلاسفة بمثابة نشرات مختلفة أو روايات متباينة^(١). وهكذا اختلف المفكرون في فهمهم للفلسفة ، وتحديدهم للمشكلة الفلسفية ، وإجاباتهم على كل سؤال فلسفي ، ولكنهم اتفقوا جميعاً على أن « مهمة الفيلسوف أن يخلق أسئلته، وأن يجدد طرح المشكلات ». ولم يكن من الممكن أن تتساوى قيم المسائل الواحدة في نظرم جميعاً، بل كان « لا بد من أن تأخذ المشكلة الواحدة أهمية كبرى في مذهب معين ، وتنفذ كل أهميتها في مذهب آخر ». ومع ذلك فقد كان لا بد لكل مذهب من أن يكون بمثابة الوجه الناطق الذي يحاول أسلوب خاص في التفكير والحياة أن يعبر عن نفسه من خلاله ، حتى يكون في وسعنا أن نتعرف عليه كما نتعرف على أمارات الحب في نظرات الوجه المعبّر . ومهما اختلفنا مع صاحب مثل هذا المذهب ، فإننا لن نستطيع أن نحكم على خبرته بأنها عديمة للضمون ، أو أنها لا تنطوي على أية دلالة روحية . وإن الفلسفة لتأخذ بيدنا فتعيّننا على التفتح لأفكار الآخرين وتجاربهم ، وتيسر لنا السبيل للتلاق معهم دون أدنى مساومة أو تفریط .

١٩ — حقاً إن لكل منا تجربته الخاصة التي يحرص على التمسك بها والإخلاص لها ، ولكن الفلسفة تعلمنا أنه هيئات لأي مذهب أن يصف التجربة بتامها . ولهذا فإن الفيلسوف في حاجة دائماً إلى تقبل شئٍ ضروب الوصف ، بما فيها ضروب الوصف العلمي ، وضروب الوصف الفني ، حتى يجيء تعبيره عن التجربة أقرب ما يكون إلى تمثيل حقيقة الواقع الخصب الحي . ولما كان كل وصف بطبيعته جزئياً متحيزاً ، فإن تفتح الفيلسوف لألوان أخرى من « الوصف » إنما هو سبيله الأوحـد لتجنب كل خيانة للتجربة . وهكذا يرفض الفيلسوف

René Le Senne : «Obstacle et Valeur» Paris, Aubier, 1946, (١)
pp. 25 — 26.

الحق أن يخلق باب مذهبه على نفسه ، ويبدى استعداداه دائماً لمراجعة أفكاره وعقائده ، ويحرص باستمرار على توسيع خبرته وتعميق وصفه . وهنا قد يحق لنا أن نقول مرة أخرى مع لوسن « إن الفلسفة طفلٌ همجيٌّ : فهي تضيق ذرعاً بكل قييد ، وتنفر دائماً من كل تحديد .^(١) » . ومعنى هذا أن وصف التجربة هو في حاجة دائماً إلى الإحاطة بكل شيء دون إغفال لأي عنصر من العناصر ، حتى تبيء الصورة كاملة غير منقوصة . ومن هنا فإن الفيلسوف يشارك في التاريخ ، ويقرأ القصص والروايات ، ويتردد على المتاحف والمعارض ، ويتعاطف مع أحباب الموجد والأذواق ، ويستمع إلى السيمفونيات والمقطوعات الموسيقية ، ويُسهم في خدمة قضية بلاده ، ويشارك في الدفاع عن رسالة أو دعوى ، ويتابع بشغف تقدم العلم في عصره . . . إلخ . وهو في كل هذا إنما يحاول أن يزيد من عمق تجربته الروحية ، وأن يبنى حياته الفكرية بناءً متصلاً متجدداً ، واثقاً من أن الفلسفة الحققة إنما هي تلك التي لا تكف عن التفتح لكل ما من شأنه أن يضيئ عليها عمقاً ، ويكسبها دقة ، ويزيدها ثراءً .

René Le Senne : « Obstacle et Valeur » Paris, Aubier, 1946, (١)
p. 47.

الفصل الثالث

الفلسفة والإنسان

٢٠ — لو أننا ألقينا نظرة فاحصة على الجهد الفلسفي في صميمه ، لألفينا أن الفلسفة تحاول دائماً أن تقيم ضرباً من التوازن بين نوعين مختلفين من المعرفة : معرفة ترمى إلى تغيير وجودنا ، ومعرفة أخرى ترمى إلى زيادة قدرتنا وتوسيع رقعة سيطرتنا على الأشياء . ولكن من المؤكد أن معرفتنا بنايتنا الشخصية ومصيرنا البشري هي الكفيلة وحدها بأن تخلع معنى أو دلالة على معرفتنا بوسائلنا في الفعل من جهة ، وإدراكنا لدورنا الحيوي في السيطرة على الطبيعة من جهة أخرى .

فالفلسفة (كما يقول برييه) هي في جوهرها اعتراض قائم باستمرار من قبلي الروح الإنسانية ضد كل محاولة آلية يراد بها إدماج الوجود البشري في دائرة مغلفة من التنظيمات الصناعية والأجهزة المادية والتحديدات الموضوعية . وهذا ديكرت (مثلاً) ينادي بضرورة تحسين الأحوال المادية للحياة البشرية ، ولكننا نجدده يحرص في الوقت نفسه على أن يجعل الصدارة للروح على المادة . وهذا فيلسوف آخر مثل كانت يقرر أن ثمة حتمية كونية أو ضرورة شاملة ، ولكنه لا يلبث أن يقصر تلك الحتمية على الظواهر المادية وحدها ، معلناً أن « القانون الأخلاقي » هو وحده الذي يكشف عن معنى مصيرنا وذايتنا في الحياة . (إميل برييه : « قضايا الفلسفة الراهنة » باريس ، ١٩٥١ ، ص ٧ —) .

بيد أن دُعاة الوضعية لن يجدوا أدنى حرج في أن يردوا على هذه الدعوى بقولهم إن من شأن التطبيقات المختلفة للعلوم أن تقومنا إلى حل شتى المشكلات

الإنسانية ، في حين أن الفلسفة لا تقدم لنا من الحلول إلا طائفة من التأملات المجردة التي لا طائل تحتها ولا فائدة منها بالنسبة إلى الوجود البشرى . ولكن من المؤكد أن حصر المعرفة في دائرة الحقائق العلمية الموضوعية والأنظمة الصناعية التطبيقية إنما يعنى الاقتصار على جانب واحد من المعرفة ، بدعوى أن الموضوعية الطبيعية هي النموذج الأوحيد لكل موضوعية ، وأن المشكلة الإنسانية لا تحل إلا بالرجوع إلى الواقع الخارجى وحده . ولكننا حينما متمسك بتلك الموضوعية الطبيعية التي يقدمها لنا دعاء النزعة العلمية المتطرفة ، فإننا ننسى أو نتناسى ذلك الدرس القيم الذي قدمه لنا هوسرل في مطلع هذا العصر ، حينما أكد لنا ضرورة العودة إلى « الذاتية العارفة » بوصفها المصدر الأولى لكل ما نبدع من معان موضوعية ، وكل ما نقرر من أحكام حول الوجود . فليس في استطاعتنا إذن أن نغفل الإنسان ، لأنه ليس ثمة « معنى » إلا بالقول إلى « وعى » يخرج من عداد الموضوعات ولا يمكن اعتباره جزءاً من هذا العالم . وتبعاً لذلك فإن مهمة الفلسفة (كما قال هوسرل) إنما تنحصر في فهم العالم بوصفه نتاجاً لمعنى وتقييم ...

حقاً إن الإنسان حين يقوم بتأسيس علم الطبيعة ، فإنه يميل إلى أن يرى في كل ما حوله « طبيعة » ، ومن ثم فإن علماء النفس الذين تأثروا بالقزواء ، لم يلبثوا أن عمدوا إلى « تطبيع » الوعى *Naturalisation de la Conscience* ، وكان الظاهرة النفسية لا تخرج عن كونها طبيعة أو شيئاً . بيد أن النهج الحقيقى فيما يقول هوسرل — لابد من أن يراعى طبيعة الشيء الذى يدرسه ، بدلا من قهر الموضوع على ملاءمة أفكار سابقة أو تصورات قبلية ... ولو أننا سرنا على نهج علم الطبيعة في دراسة الظواهر النفسية ، فإن من المؤكد أننا لن نجعل من « الوعى » سوى مجرد « شيء » . ولكن عبتاً يحاول علماء النفس

(٦ - فلسفة)

التجريبيون أن يطبقوا مناهج الفزياء على الظواهر النفسية ، فإن « الوعي » لن يطاوعهم بحيث يستحيل على أيديهم إلى مجرد « طبيعة » . والواقع أنه ليس ثمة غير « طبيعة » واحدة ، وتلك هي الطبيعة الخارجية التي تبدى من خلال ظواهر الأشياء . وأما ما يسميه بعض علماء النفس باسم « الظاهرة النفسية » ، فإنه في الحقيقة « ظاهرة » phénomène ، ولكنه ليس بطبيعة nature . ومعنى هذا أننا لا نستطيع أن نطبق على الظاهرة النفسية مقولات الطبيعة ، فتحدث عن وحدتها الجوهرية ، أو خصائصها الواقعية ، أو أجزائها الحقيقية ، أو روابطها العلية . . الخ ، وإنما ينبغي أن نقرر منذ البداية أنه لا سبيل إلى اعتبار الواقعة النفسية مجرد ظاهرة طبيعية . ولهذا يقرر هوسرل مرة أخرى أن من شأن « الظاهرة » أو الواقعة النفسية أن تظهر ومحتفى ، دون أن تحتفظ بأية كينونة ثابتة تظل دائماً على ما هي عليه ، وتكون قابلة للتحديد موضوعياً بوصفها شيئاً يقبل التجزئة ويخضع للتحليل^(١) . وتبعاً لذلك فإننا لن نستطيع أن نجعل من الإنسان مجرد موضوع يتكفل بتفسيره العلم ، وكأن « الإنسان » هو مجرد ظاهرة طبيعية تخضع لقانون العلية .

حقاً إن البعض ليظن أن « العلم » قد أصبح قديراً اليوم على حل مشكلة الإنسان ، فلم يعد هناك من مبرر لقيام « فلسفة » تحاول منافسة العلم في هذا المضمار ، ولكن هؤلاء ينسون أو يتناسون أن العلم يستبعد الإنسان من حسابه ، وكان الطبيعة وقائع محضة خالصة لا أثر فيها للإنسان ، أو كأن الإنسان نفسه هو مجرد طبيعة ! وأما الفلسفة فإنها هي التي تذكر العالم في كل حين بأنه ليس في وسع العلم أن يضرب صفحاً عن وجود الإنسان ، اللهم إلا إذا أراد لنفسه

(١) Husserl : « La Philosophie comme Science Rigoureuse »
trad. Franç. par Lauer. Paris, P. U. F., 1955, pp. 80-85.

أن يستحيل إلى مجرد سلسلة من الوقائع المحضة التي لا تنطوي على أية دلالة إنسانية . ولعل هذا هو ما عناه هوسرل حينما قال « إن علوم الوقائع المحضة المجردة إنما تُخْرِجُ لنا أناساً لا يرون إلا وقائع محضة مجردة »^(١) . ولكن من المؤكد أن إدراك العالم — بالنسبة إلى الوجود البشري الحى — لا يعنى تأمل بعض الظواهر الطبيعية المجردة ، أو مشاهدة بعض الوقائع الموضوعية المحضة ، وإنما هو يعنى إدراك بعض المعانى ، وتركيب نظام من شأنه باستمرار أن يتزايد تعقداً وانسجاماً . والفلسفة حين تأخذ على عاتقها مهمة دحض سائر النظرات الآلية إلى « العلم » ، فإنما تبين لنا تهاافت تلك النزعات العلمية للمتطرفة التي تجعل من الإنسان مجرد منطقة من مناطق الطبيعة ، وكأن الذات البشرية إن هى إلا « شئ » تربطه بالطبيعة بعض الروابط العلية . وإذن فليس أمعن فى الخطأ من تلك المحاولات السيكلولوجية التي يراد بها تفسير الحالات النفسية بإحالتها إلى مجرد حلقات فى سلسلة طبيعية من العلل والمعلولات ، فى حين أن المهم لفهم الظاهرة النفسية هو إلقاء الأضواء على الرابطة الفعالة التي تربطنى بالحدث النفسى ، حتى يتبين لنا بكل وضوح كيف أنه لا يمكن أن تتحقق ظاهرة نفسية فى مجرى شعورى بدونى أو على الرغم منى ! وهكذا قد يكون فى وسعنا أن نقول مع هوسرل إن الفلسفة تعلمنا أن الظاهرة النفسية ليست مجرد قطاع فى الطبيعة الفيزيقية ، وتظهرنا على أن « الذات » ليست مجرد « موضوع » تتكفل بتفسيره قوانين الأشياء . . .

٢١ — إن الفلسفة — بعكس ما وقع فى ظن هيجل — لا تريد أن تلتبس

E. Husserl : “ La Crise des Sciences Européennes... ”, (١)
 traduction française dans : “ Les Etudes Philosophiques.” Avril-
 Juin, 1949, p. 130.

حلا لسائر أحاجي الوجود ، كما أنها لا تزعم لنفسها القدرة على حل شتى مشكلات التاريخ البشرى والفكر الإنساني ؛ وإنما تتميز الفلسفة بأنها جهد يراد من ورائه الكشف عما فى الإنسان من عنصر أصيل لا يتوقف على التاريخ ولا على النظام الموضوعى للأشياء ؛ فالفلسفة لا تقدم لنا مفتاح الوجود ، وهى لا تروى لنا قصة المطلق ، بل هى تظهرنا على أن الإنسان ينفذ بحريته عن التاريخ ، وتبين لنا بالتالى أنه ليس للتاريخ على الانسان سائر الحقوق . والواقع أن للتفكير الميتافيزيقى فى صميمه إنما هو (كما قال ألكيه) رد فعل ينشأ ضد موقف سابق يوحد بين « الوجود » وبين ما هو معطى للحواس والذهن . فالعروة الفلسفية هى — بمعنى ما من المعانى — شعور بتمعالى الوجود ، ووضع للموضوع فى موضعه . والميتافيزيقى هو ذلك الإنسان الذى يدرك أن « الطبيعة » لا تستغنى بذاتها ، وأنها ليست هى « الوجود » ، وأنها فى حاجة دائماً إلى شئ آخر تستند إليه . وحينما نضع « الموضوع » موضع السؤال ، فإننا بذلك نمبر عن البعد الانسانى الذى بمقتضاه يند المرء عن نظام الطبيعة والتاريخ . ولهذا فإن الانسان إنما يكتشف نفسه عبر تلك الخطوة الميتافيزيقية التى يتخذها حينما يتحقق من قيمة وجوده وحرية . وليس يكفى أن تقول مع شوبنهاور إن الانسان حيوان ميتافيزيقى بطبعه ، وإنما يجب أن نضيف إلى ذلك أن « الميتافيزيقى » (أعنى ما هو فوق الطبيعة) إنما هو الإنسان نفسه ؛ وأنه لا يمكن أن يكون المرء عدواً للميتافيزيقا إن لم يكن فى الوقت نفسه عدواً للإنسان بوجه ما من الوجوه .

والواقع أن كل من يطَّرحُ الفلسفة بصفة عامة ، والميتافيزيقا بصفة خاصة ، إنما يَرُدُّ الانسان إلى مستوى واحد من مستويات الواقع ، ألا وهو (فى الغالب) مستوى الموضوعية . ولكننا لو رجعنا إلى تجربتنا الخاصة ، لتحققنا من أن لدينا خبرات كثيرة لا يمكن إرجاعها إلى هذا البعد الموضوعى ، كما هو الحال

مثلاً بالنسبة إلى خبرة الحب أو الحرية . ومن هنا فقد يكون في وسعنا أن نقول إن الفلسفة الديكارتية أو الكانتية ليست في حقيقة الأمر مجرد معرفة ، بل هي تمثل موقفاً بشرياً يريد من ورائه الإنسان أن يظل مخلصاً لذاته ، وألا يسلك إلا بوصفه إنساناً . وتبعاً لذلك فإنه لا بد لكل ميتافيزيقا من أن تصبكون في الوقت نفسه أخلاقاً .

والموقف الميتافيزيقي إنما هو ذلك الموقف الذي يتخذه الإنسان بالضرورة حينما يفهم أن العلم هو من صنعه ، وأن علاقته بالوجود هي من نوع آخر غير كل ما تفترضه المعرفة الموضوعية . وليس تاريخ الفلسفة بمثابة مدزسة تتعلم فيها دروس الشك أو اليأس أو الثقة العمياء في تقدم مطرد ، وإنما هو مدرسة تتعلم فيها — على العكس — درساً هاماً في اليقين : إذ ينكشف أمام أعيننا خلود الإنسان ، فنبحث خلال نزاع المذاهب وصراع الأفكار عن ذلك « الحاضر الأبدى » الذي يكمن من وراء ماضى البشرية . ومعنى هذا أن خلود الفلسفة لا ينكشف على صورة صبغة لازمانية يتميز بها قانون مجرد ، بل هو ينكشف على صورة أبدية إيجابية ملموسة تتجلى من خلال تجربة إنسانية يكررها الفلاسفة دائماً أبداً . فليس في تاريخ الفلسفة أى تقدم مطرد ، بل هناك أبدية مستمرة لنداء الوجود الذى يهيب بكل فيلسوف أن يبدأ من جديد . ولا بد لكل فيلسوف من أن يعود إلى « الوجود » ، أو بالأحرى أن يعود إلى « الذات » . وما تكشف عنه الميتافيزيقا ، سواء عند أفلاطون أم عند ديكارت أم عند كانت ، إنما هو دائماً « الإنسان » . و « الإنسان » إنما هو الكلمة النهائية لكل فلسفة^(١)

F. Alquié : “La Nostalgie de l’Être”. Paris, P.U.F. 1950, (١)
pp. 139 — 152.

حقاً إن الفلسفة لا تبدأ إلا حينما يقلع الفكر عن الانشغال بالوقائع الجزئية والمشكلات الخاصة لكي ينصرف إلى الاهتمام بالمبدأ الذي يتوقف عليه كل شيء ، والمشكلة الرئيسية التي تتفرع منها شتى المشكلات ، ولكن الفلسفة مع ذلك لا بد من أن تجعل من « الإنسان » محور تأملاتها ، لأن ما يضطر الفيلسوف إلى تصور « الكل » أو تكوين فكرة عن « الحقيقة الشاملة » ، إنما هو رغبته في تحديد مركز الإنسان من العالم ، وفهم موقف الموجود البشري من الوجود العام . ومن هنا فقد ذهب بعض الباحثين إلى أن الفلسفة هي علم الإنسان ، أو علم الروح الإنسانية ، بمعنى أنها دراسة أنثروبولوجية تشتمل على علوم فلسفية ثلاثة ، ألا وهي : علم النفس ، وعلم المنطق ، وعلم الأخلاق . فلا يمكن أن تكون ثمة فلسفة بدون فهم للظواهر النفسية ، ولا يمكن أن يقوم تفكير فاسفي دون إلمام بأساليب التفكير وطرائقه ، ولا يمكن أن يقوم تفلسف ، بدون الاهتمام بمشكلات السلوك والإرادة والحرية والسعادة ... إلخ . وعلى الرغم من أن أصحاب هذا الرأي ينسون أن الفلسفة هي أيضاً تركيب عقلي ، أو محاولة يراد بها وضع تفسير كلي شامل (على الأقل في نظر بعض الفلاسفة) ، إلا أنهم محقون بلا شك في قولهم بأن الفلسفة هي في صميمها تساؤل عن معنى الحياة الإنسانية ، وسعى دائم من أجل تفهم حقيقة المصير البشري . وحسبنا أن نرجع إلى أكثر الفلسفات تجريداً ، لكي نتحقق من أن ثمة نفحة إنسانية تشيع فيها ، فتكشف لنا عن انشغال أصحابها بمعنى الحياة ، واهتمامهم بغاية المصير . ولئن كان بعض الفلاسفة — من أمثال أرسطو والتقيديس توما الأكويني وهاملان — لم يحاولوا يوماً أن يصفوا لنا تجاربهم الشخصية ، أو أن يربطوا فلسفاتهم بمواقفهم الخاصة ، إلا أننا قد نستطيع أن نستشف من وراء أكثر نصوصهم جفافاً ، روحاً إنسانية تنبض بالقلق والجزع واللهفة ، وقلباً بشرياً عامراً بالهوى والحماة

والإخلاص . فليس الفلاسفة عقولا محضة أو موجودات مجردة تخرج خارج الزمان ، وتندرج بفلسفاتها في عالم الأبدية ، بل هم مخلوقات حية من دم ولحم ، فليس في وسع الواحد منهم أن يتفلسف إلا هنا والآن ^(١) hic et nunc

بيد أن الفلاسفة — في كل زمان ومكان — قد شعروا بمركب نقص شديد نحو العلماء ، فكان من ذلك أن اندفع قوم منهم نحو صياغة فلسفاتهم على شكل قضايا رياضية يترتب بعضها على بعض ترتيبا منطقيا هندسيا ، مبتدئين من مجموعة من المسلمات الأولية أو التعريفات البسيطة ، كما فعل اسبينوزا مثلاً حينما صاغ كل فلسفته على صورة سلسلة من النظريات الهندسية التي تُستخلصُ فيها النتائج من المقدمات بطريقة رياضية علمية صارمة . . . ولكن تطور التفكير الفلسفي لم يلبث أن أظهرنا على أن الحقيقة الكلية — لسوء الحظ — لا يمكن أن تصاغ على صورة نظرية هندسية ، وأنه قد يكون من الخطأ البالغ أن نخلع على الفلسفة طابعاً علمياً محضاً ، فإنهم عندئذ لن تكون فلسفة ، ولن تكون علماً . فليس بدعاً أن يتطلب إنسان العصر الحديث من الفيلسوف فلسفة واقعية ، جزئية ، عينية ، ملموسة ، حية ، لمتها وسداها الحقيقة الجسمة (le concret) ، بعد أن كان الأقدمون يفتخرون بالمذاهب الشاخنة ، والتركيبات العقلية البارعة ، والنظريات الأونولوجية المائلة . ومن هنا فقد اتجهت الغالبية العظمى من المفكرين المعاصرين نحو نزعة واقعية جديدة ، قوامها وصف للواقف البشرية على اختلاف أنواعها ، والعمل على فهم الوقائع المباشرة للشعور على نحو ما نعيشها ، والاهتمام بدراسة الوجود الإنساني بوصفه وجوداً زمانياً فعلياً لا تكفي لتحديد مقولات العلم . ولا ريب أننا إذا أردنا لفلسفتنا أن تبقى حيوية ، واقعية ، صادقة ، فإنه لا بد لنا

H. Gouhier : “ La philosophie et son Histoire. ”, Vrin, (١) 1940. p 37.

عندئذ من أن نطلع عن صَبِّ الوجود في قوالب عقلية جامدة ، لكي نكون لأنفسنا نظرة إنسانية حية قوامها الرجوع إلى خبراتنا الوجودية وتجاربنا الشخصية . وهكذا نعود فنقول مع برديف : إن الفلسفة لا يمكن أن تكون بيولوجية ، أو سيكولوجية ، أو اجتماعية ، وإنما هي أولاً وبالذات أنثروبولوجية ؛ بمعنى أنها بحث في الإنسان ، والمعنى ، والمصير ، أو على الأصح معرفة للوجود في الإنسان ومن خلال الإنسان^(١) .

٢٢ — فإذا ما تساءلنا الآن عن معنى قول الكثيرين بأن الفلسفة لا بد من أن تكون إنسانية ، كان رد موريس بلوندل M. Blondel على هذا التساؤل أنه ليس يكفي أن نأتي بالإنسان إلى مدرسة الفيلسوف ، بل لا بد لنا أيضاً من أن نأتي بالفيلسوف إلى مدرسة الإنسان . وما دام على الفيلسوف ، أن يحيا وينمو باعتباره إنساناً ، فإنه لا بد لحياته الإنسانية من أن تدخل في صميم فلسفته بوصفها جزءاً لا يتجزأ من تلك الفلسفة . والواقع أننا لو سلمنا بأن الحياة العملية نفسها هي مصدر خصب من مصادر المعرفة ، لكان علينا أن نقيم فلسفتنا على « الفعل » Action ، بما فيه من ثراء روحي وديناميكية فعالة . وتبعاً لذلك فإن على الفيلسوف أن يسير الحياة البشرية في حركتها المستمرة وموجاتها المتلاحقة ، حتى يقف على تلك القوى الروحية الفعالة التي تعمل عمالها في صميم الإرادة الإنسانية . ولسنا نريد في هذا الصدد أن نتابع موريس بلوندل في رحلته الكشفية الهائلة التي استطاع خلالها أن يلاحق الإرادة الإنسانية في سعيها الدائب نحو التعالي المستمر ، ولكن حسبنا أن نقول إن صاحب « فلسفة الفعل » قد أظهرنا على أن الفلسفة وثيقة الصلة بالحياة ، وأن النظر لا يمكن أن يفصل عن العمل ،

N. Berdiaeff : " Cinq Méditations sur l'Existence. " Aubier, (١) 1936, pp. 34—35.

وأن في وسع الفيلسوف أن يستخلص الكثير من الدروس والتعاليم بالرجوع إلى سير الإنسانية العام^(١).

والواقع أن الفلسفة لم تقطع صلتها يوماً بالحياة ، فقد حرص معظم المفكرين منذ بداية التفكير الفلسفي على إشباع حاجة الإنسانية إلى أخلاق عملية ، إلى جانب اهتمامهم بإشباع حاجتها إلى النظر العقلي . وما دام النظر والعمل هما كواجباً ، العملة ، أو ما دامت العلاقة بينهما هي كالعلاقة بين الصورة والمادة في فلسفة أرسطو ، فليس في وسع الفيلسوف أن يصرف النظر عن وجوده الشخصي ، لكي يخلق في سماء المجردات ، أو لكي ينشر أجنحته في مملكة الماهيات ، وإنما لا بد للفيلسوف من أن يتخذ من تجاربه الشخصية نقطة انطلاق ، وأن ينفوس في طيات وجوده الذاتي حتى يعثر في قرارته على نقطة ارتكازه . وليست ثورة الوجوديين على فلسفة الأفسكار ، وفلسفة الأشياء ، سوى مجرد صدى لهذا الاهتمام السائد لدى مفكرى القرن العشرين بتوثيق الصلة بين الفلسفة والحياة . فالوجوديون إنما يأخذون على الفلسفة التقليدية أنها كثيراً ما أغفلت الإنسان ، لحساب فلسفة العالم أو فلسفة الآثار العقلية . ولكن الفلسفة — كما يقول كيركجارد — لا تنحصر في ترديد أقاويل وهمية ونظريات خرافية لموجودات وهمية أو كائنات خيالية ، بل هي حديث نوجهه إلى كائنات واقعية أو موجودات حقيقية من دم ولحم . فليس المهم إذن (في رأى أبى الوجودية الحديثة) أن نعرف الإنسان على العموم ، أو أن نفسر الإنسان بصفة مجردة ، بل المهم أن نعرف هذا الموجود الفردي ، وأن نلقى بعض الأضواء على وجوده الواقعي . والمنهج الحقيقي الذي يحتضنه الفيلسوف الوجودي إنما هو ذلك المنهج

Maurice Blondel : " L'Action " , t. II., Alcan, 1937, (١)

pp. 9—11.

التحليل الذى يعتمد على فهم المواقف الفردية والحالات المُشَخَّصة . ومعنى هذا أننا لن نستطيع أن نتوصل عن طريق بعض المبادئ العامة المجردة إلى فهم إنسان معين ، يعيش فى حقبة معينة ، وينتسب إلى حضارة معينة ، ويستند إلى تاريخ شخصى بعينه ... إلخ .

حقاً لقد حاول بعض الفلاسفة — من أمثال هيجل — أن يفسروا كل شيء ، ولكن من المؤكد أن المفتاح الذى يفتح جميع الأبواب لا بد من أن يكون زائفاً ! وليس المهم فى نظر كيركجارد أن نفسير الأشياء ، بل المهم أن نعيشها . ومن هنا فلن الفيلسوف الوجودى لا يزعم لنفسه القدرة على إدراك الحقيقة الموضوعية ، الكلية ، الضرورية ، الشاملة ؛ بل يقنع بحقيقة ذاتية ، جزئية ، شخصية ، محدودة . وعلى حين أن فيلسوفاً مثل هيجل قد أراد أن يصوغ الوجود بأسره فى مذهب أو نظام أو نسق عقلى ، نجد أن كيركجارد يقرر أن كل ما يمكن أن يدركه المذهب أو الفكر الموضوعى ، إنما هو الوجود الماضى لـ الوجود الممكن . وليس من شك فى أن ثمة فارقاً هائلاً بين الوجود الماضى أو الوجود الممكن من جهة ، وبين الوجود الحقيقى أو الوجود الواقى من جهة أخرى^(١) . ثم يستطرد كيركجارد فيقارن بين سقراط وهيجل ، ويقرر أن فى الجهل السقراطى حقيقة أعظم من كل ما تنطوى عليه موضوعية المذهب الهيجلى بأكمله ! والسبب فى ذلك أن الحقيقة الموضوعية — على نحو ما يتصورها هيجل — إنما هى القضاء المُبرَم على الوجود ! فالوجود الذى يندرج تحت مقولة « الموضوعية » ليس من الوجود فى شيء ، أو هو بالأحرى ضرب من التشتت والتوزع والانفاس فى المجموع . والفلاسفة الهيجليون حين يُعَنَوْنَ بالتاريخ ،

Jean Wahl : “ La Pensée de l'Existence. ” Flammarion, (١)
1950. p. 25.

ويشغلون أنفسهم بما لا حصر له من المواد التاريخية ، فإنهم يعلقون أهمية كبرى على بعض المعتقدات الموضوعية التي لا أهمية لها بالنسبة إلى (فيما يقول كيركجارد) ، ما دام الأمر الوحيد الهام بالنسبة إلى إيماننا هو وجودي نفسه . وهل يستطيع المؤرخ الذي يجمع الوثائق ويمشد المعلومات التاريخية ، أن يتوصل إلى امتلاك اليقين ؟ هذا ما يجيب عليه كيركجارد بالنفي ، فإن اليقين لا يرد إلينا عن طريق شهادات المؤرخين ، بل هو إيماننا يتحقق لى من خلال علاقات الوثيقة بذاتى من جهة ، وموضوع إيمانى من جهة أخرى . وتبعاً لذلك ، فإن زعيم فلسفة الوجود يربط الحقيقة بالذات ، ويرفض فكرة الحقيقة المذهبية اللازمانية ، ويقرر أن كل ما فى وسعنا أن نتوصل إليه إيماننا هو أجزاء صغيرة من الحقيقة ، أو جوانب ضئيلة من الحقيقة ، أو على حد تعبيره « فئات الحقيقة » : *miettes de vérité* . وهكذا نجد أن كيركجارد قد ربط الفلسفة بالإنسان عن طريق تلك النزعة الذاتية التي جعله يؤكد أن الفكر الوجودى هو فى صميمه فردية ، وذاتية ، ووجود . ولكن كيركجارد يعود فيقول إنه ليس المهم أن نعمل على زيادة حظ الناس من المعرفة ، بل المهم أن نعلم الفرد كيف يكون « إنساناً » . ولن يتأتى لنا أن نعود إلى « الوجود » *existence* ، إلا إذا تحررنا من « المجرد » *l'abstrait* ، لأن المجرد لا يتصف بالوجود ؛ فى حين أن الوجود هو بالضرورة « فردى » . ولم يكن كيركجارد بناقلاً عما فى فلسفته من غمضة ، فإنه كان يعلم تمام العلم أن الفكر يلغى الوجود ، ولكنه كان يريد فى الوقت نفسه أن يتغلب على هذا الوجود^(١) . وسيكون على فلاسفة الوجود من بعد (وفى مقدمتهم كارل يسبرز) أن يحاولوا حل هذه المشكلة ، حتى يبينوا لنا كيف يمكن أن يقوم فكر وجودى لا يحيل « الوجود » إلى « معرفة » .

Jean Wahl : "Etudes Kierkegaardiennes", Vrin, 1949, pp. (١) 274—275.

٢٣ — وهنا يقول يسبرز إن « الموجود » لا يمكن أن يكون شيئاً يقبل التعريف ، لأنه ليس بموضوع يمكننا أن نحصل عنه أية معرفة موضوعية . فليس في استطاعتى أن أفسر وجودى ، أو أن أدرسه على نحو ما أدرس أى موضوع خارجى ، بل لا بدلى أن أعترف منذ البداية بأن ثمة حرباً لا هوادة فيها بين المعرفة والوجود . حقاً إن ثمة علوماً كثيرة تحاول أن تدرس الإنسان : فعلم وظائف الأعضاء يدرسه بوصفه جسماً ، وعلم النفس يدرسه بوصفه نفساً ، وعلم الاجتماع يدرسه بوصفه كائناً اجتماعياً ، ولكن ليس ثمة علم يدرسه بوصفه كائناً متكاملًا ، أعنى باعتباره « وجوداً » . وأما مهمة الفلسفة فإنها تنحصر في إظهارنا على أن الإنسان سؤال مستمر بالنسبة إلى نفسه ، وأن وجوده لا يمكن أن يكون مجرد موضوع ، وأنه في صميمه شيء أكثر من كل ما يستطيع أن يعرفه عن نفسه . فالوجود — في نظر يسبرز — إن هو إلا علامة أو أمانة من شأنها أن توجهنا نحو شيء يعدُّو كل موضوعية . وليس في استطاعة الفيلسوف أن يتحدث عن « الوجود » إلا بطريقة غير مباشرة ، أعنى أنه يستعرض أمامنا شتى ضروب المعرفة ، لكي يبين لنا أن ثمة ضرباً آخر من المعرفة هو وحده الذى يتلاءم مع الوجود . وهكذا نرى أن الفيلسوف الوجودى حين يتحدث عن الإنسان ، فإنه يريدنا على أن نتخطى كل معرفة موضوعية ، لكي نعود إلى تلك الحقيقة الأصلية التى تنبع منها أفكاره وأفعاله معاً ، أعنى تلك الحرية الوجودية التى تفلت بالضرورة من طائلة كل معرفة موضوعية^(١) .

لقد كانت الفلاسفة عند هيجل معرفة كاملة بالطلق ، فلم يكن في عالم هيجل المغلق أى موضع لإمكانية ، أو إبداع ، أو مخاطرة ؛ بل أصبح كل شيء عنده

Karl Jaspers : "Introduction à La Philosophie" Paris, Plon, (١)

Trad. Franç. par Jeanne Hersch, 1952, pp. 83—85.

معرفة ، وضرورة ، وظالماً ، وموضوعية . وأما عند يسبرز ، فإن الوجود الذى تكشف لنا عنه الفلسفة هو حقيقة مستغلقة هيبات أن تستحيل يوماً إلى موضوع ، أعنى أنه المصدر أو الأصل الذى أفكر وأعمل ابتداء منه ، دون أن يكون فى وسعى أن أراه أو أن أعرفه . وتبعاً لذلك فإن الميتافيزيقا عند يسبرز ليست « علماً » ، وإنما هى مجرد قراءة للرموز أو الشفرات التى ينطوى عاينها وجودنا . ومعنى هذا أننا لا نستطيع أن نَقْرَبَ الوجود عن طريق المنطق أو المنهج الجدلى ، بل ليس لدينا سوى الرموز والعلامات من أجل الاقتراب من سر الوجود . وعلى حين أن المذهب الهيكلى قد انتهى فى خاتمة المطاف إلى وضع موسوعة ضخمة أراد لها أن تستوعب كل شيء ، وكأن لم يعد ثمة سر ، أو كأن قد تم للفكر الانتصار على شتى ضروب التناقض ؛ نجد أن فلسفة الوجود عند يسبرز ترفض أن تتخذ لنفسها صورة مذهبية مغلقة يتم فيها وضع كل شيء فى موضعه ، وفقاً لخطة مرسومة من ذى قبل ، لأنها تؤمن باستحالة استيعاب المعرفة ، وفض كافة الأسرار ، وسبر غور الذاتية . . . إلخ . وتبعاً لذلك فقد أخذ يسبرز على الفلسفة الهيكلية أنها أرادت أن تقضى على الاستقطاب القائم بين الذاتى والموضوعى ، فلم تجد بداً من أن تضحى بالوجود فى سبيل الموضوعية . ولكن من المؤكد أنه لا قيام للوجود الإنسانى بدون حالة التعارض والتوتر ؛ فكل فلسفة تحاول القضاء على شتى ضروب التناقض إنما تقضى فى نهاية الأمر إلى القضاء على الوجود نفسه ! هذا إلى أن هيجل يقيم كل فلسفته على فكرة « الكل » أو « المجموع » ، فى حين أن « الكل » لا يمكن أن يكون موضوعاً للمعرفة . . . والسبب فى ذلك أن العالم (على نحو ما يتصوره يسبرز) ممزق لا أثر فيه للانسجام أو الوحدة ، أعنى أنه ينطوى على الكثير من مظاهر النقص ، والفوضى ، والاقسام ، والفشل . إلخ . وإذا كان الفيلسوف الوجودى لا يقنع بتلك الصورة

التي يقدمها لنا هيجل عن العالم ، فذلك لأن هذه الصورة إنما توحى إلينا بالانتصار العام على شتى مظاهر النقص الكامنة في التجربة ، في حين أن الفلسفة الحقيقية (مثلها كمثل الفن وما عداه من أوجه النشاط البشري) لا بد من أن تقترن بضرب من الشعور المستمر بالقلق أو التوتر^(١) .

والواقع أنه مادامت الحياة البشرية لا تكاد تنفصل عن المخاطرة ، فإن الفلسفة أيضا لا يمكن أن تخلو من طابع « المخاطرة » . أليست هناك جرأة فكرية كبرى في أن يحاول الفيلسوف عن طريق الفكر أن يتخطى تلك الهوة العميقة التي تفصل الحقيقة الوجودية عن الفكر ؟ ألسنا نلاحظ في حياتنا الفكرية أن « المقول » لا يمكن أن ينكشف دون أن ينكشف لنا في الوقت نفسه خصمه اللدود ، ألا وهو « اللامقول » ؟ وإذن أفليس الأجدر بنا أن نُقلع عن التماس « المطلق » ، والبحث عن امتلاك « الوجود » ، من أجل الاقتصار على محاولة قراءة تلك الرموز أو الشفرات التي تنطوي عليها حياتنا البشرية ؟ ... إن الكثيرين ليريدون للفلسفة أن تستحيل إلى علم صارم ، بينما يريد لها غيرهم أن تصوغ لنا الوجود بأسره في إطار مذهبي ، وأما عند إسبرز فإن الفلسفة ليست صناعة نظرية ، ولا لهواً فكرياً ، ولا عملاً فنياً ، ولا قصيدة شعرية ، بل هي بمثابة السبيل الذي يقتادنا إلى ذاتنا . والفلسفة إنما تبدأ في اللحظة التي يعزم فيها المرء على أن يُعيد الحياة إلى ذلك ينبوع الحى الذى يكن في أعماق وجوده ، وحينما تصح عزيمته على العودة إلى ذلك السبيل الذى يتأدى به نحو قدسٍ أقداه ! ولن يتسنى لنا أن نكسب حياتنا صبغة فلسفية إلا إذا أخذنا على عاتقنا أن نضع حداً لما في وجودنا من تشتت ، وتوزع ، وغفلة ؛ لكي نرتد

Jean Wahl : " La Pensée de l'Existence ", Paris, Flammarion, 1951, pp. 62—63. & 196—198. (١)

إلى ذواتنا محققين عملية الاستجماع الذهني *Recueillement* ، واضعين نصب أعيننا أن نتمتع ذواتنا ، ونتدبر ماضينا ، ونسبر غور إمكانياتنا .

وربما كان إنسان العصر الحديث أحوج اليوم إلى التفلسف منه إلى أى شيء آخر : فقد أصبحت حياته الروحية أترأ بعد عين ، بسبب انهماكه في مشاغل العيش وهموم المادة . ولئن كان الدين يدعو الإنسان أيضا إلى « التأمل » ، ويهيب به أن يستغرق في « العبادة » ، إلا أن « التأمل » الفلسفي يختلف اختلافا كبيرا عن « التأمل » الديني . فليس للتأمل الفلسفي أى موضوع للعبادة ، أو أى مكان مقدس ، أو أية صورة محددة ، وإنما هو في صميمه جهد إرادي يرمى إلى تعمق الذات ، عن طريق الارتداد إلى تلك الأغوار السحيقة التي يشعر فيها المرء بأننيته . وحين ينعكس الفكر على ذاته ، فإنه قد يشعر بما في وجوده من تصدع ونقص وتبناه ، وعندئذ قد ينكشف أمامه « المتكالي » *le transcendant* بوصفه تلك الحقيقة التي هو في حوار مستمر معها ، والتي هي الأصل الذي صدرت عنه حريته ووجوده على السواء . وهذا المعنى قد يصبح أن نقول إن التفلسف يعلمنا كيف نحيا ، ولكنه يعلمنا أيضا كيف نموت : لأنه إذ يكشف لنا عما في الوجود الزماني من جزع ومخاطرة وعدم اطمئنان ، فإنه يُظهرنا على أن الحياة إن هي إلا محاولة ، وأن الوجود البشري إن هو إلا سالك أو عابر طريق ^(١) !

حقا إن الفيلسوف ليس وحده في صحراء الوجود : فإن التفلسف ليس حواراً مع الذات فقط ، بل هو حوار أيضاً مع الآخرين ، ولكن الفيلسوف يعلم أننا جميعا سالكون ، وأنه ليس في وسعنا أن نعبر أو أن نتجاوز ذلك الموقف الزماني .

Karl Jaspers : "Introduction à la Philosophie", Paris, Plon, (١)
trad. franç. par J. Hersch, 1962, pp. 165—181.

الذى نحن متلبسون به ! فلا بد للفيلسوف إذن من أن يعود إلى التراث الفلسفى القديم ، على نحو ما أسهم فى تكوينه الفيثاغوريون ، والرواقيون ، والمسيحيون ، وكيركجارد ، ونيتشة ، حتى يتحقق من أن للتجربة الإنسانية حدودها ، ونقائصها ، وأخطاءها ، وعثراتها ، وشفراتها ، ورموزها . . . والتأمل الفلسفى هو الذى يكشف لنا عن قدرة الفكر ، فإن الإنسان لا يكون إنساناً إلا حين يشرع فى التفكير ، ولكن التأمل الفلسفى أيضاً هو الذى يظهرنا على نقص كل معرفة علمية . والواقع أن البحث الفلسفى إنما يبدأ عند الحدود النهائية للتفكير العلمى ، أعنى ذلك التفكير الموضوعى الذى يَنْصَبُّ على الظواهر الطبيعية والمستويات المادية والتخطيطات الاقتصادية . حقا إنه ليس فى وسع « العقل » أن يكشف لنا بوضوح عن حقيقة أهدافنا فى الحياة ، وماهية الخير الأقصى الذى نزرع نحوه ، وطبيعة تلك الحقيقة المتعالية التى نحن على اتصال بها ، وجوهر تلك « الحرية » التى قد مُنِحَتْ لنا على سبيل الهبة ؛ ولكن من طبيعة البحث الفلسفى مع ذلك أن يحاول السعى نحو بلوغ حدود المعرفة العقلية ، وكأنما هو يجد لذة كبرى فى أن يتلظى بنيران « اللامعقول » !

أما إذا قيل إن الفيلسوف قلما يحيا وفقاً لما ينادى به من تعاليم ، كان رد يسبرز على هذا أنه ليس لدى الفيلسوف مذهب متكامل ، بحيث لا يكون عليه سوى أن يطبق مجموعة من المبادئ العامة على ما يعرض له من حالات خاصة أو وقائع جزئية ؛ وإنما الحقيقة أن الأفكار الفلسفية لا تحتل أى تطبيق ، لأنها هى فى ذاتها وقائع حية تشيع فى الحياة العقلية للفيلسوف فتجمله يحيا وجوده الخاص . وتبعاً لذلك فإن من المستحيل أن نفصل موقف الإنسان عن فلسفته ، فى حين أننا نستطيع أن نفصل الإنسان عن معارفه العلمية . وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول إن المعارف العلمية متعلقة بموضوعات خاصة قد لا تكون

لها أهمية حيوية بالنسبة إلى كل فرد منا ، في حين أن المشكلة التي تقلق بال
الفيلسوف هي مشكلة الوجود نفسه . فهي مشكلة عامة تَقُصُّ مضجع كل واحد
منا على حدة . ولكن ليس يكفي أن نتعقل في أذهاننا أية فكرة فلسفية نادى
بها هذا الفيلسوف أو ذاك ، بل لا بد لنا من أن نسترجع في باطن ذواتنا حياة
ذلك الفيلسوف الذى تعقلها في صميم وجوده الفلسفى ، حتى نستطيع أن نحيا تلك
الفكرة الفلسفية بعمق^(١).

٢٤ — وأخيراً قد يكون في وسعنا أن نقول إن العلاقة وثيقة بين الفلسفة والوجود البشري ، لأن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يشعر بأن وجوده أحجية تتحداه ، وتناوشه وتقض مضجعه ، وتقلق باله ، ولا تنفأ تدعوه إلى إماطة اللثام عن سرها ! وليس من الضروري أن يكون المرء فيلسوفاً حتى يدرك أن ثمة « سرّاً » ، وأنه لا يعرف كل شيء عن هذا السر ، وأنه لا بد له من أن يلتمس حلاً لهذا الإشكال الأليم الذى تلبس بوجوده ؛ ولكن الفيلسوف هو أكثر الناس شعوراً بما في وجوده من غموض ، وإشكال ، والتباس . ومعنى هذا أن الفيلسوف هو الرجل الذى يتمتع بأكبر قسط ممكن من « الحساسية الوجودية » ، نظراً لأن ذهنه مفتوح لكل ما في الوجود من حوله ، وقلبه متناغم مع كل ما يتردد في صدر الطبيعة من آلام وآمال

حقاً لقد قال أفلاطون إن أكثر الناس يسرون نياما ، في حين أن الفيلسوف وحده هو الرجل المتيقظ ، ولكن ربما كان الأدنى إلى الصواب أن نقول إن الفيلسوف هو أكثر المخلوقات وعياً وتيقظاً . وليس التأمل الفلسفى (كما لاحظ شوبنهاور من قبل) سوى ضرب من « الدهشة الأليمة » التى تطرق عقل الفيلسوف وقلبه ، حينما

Karl Jaspers : « Introduction à la Philosophie » Paris, Plon, (١)
trad. franç. par J. Hersch, 1952, pp. 195-181.
(فلسفة - ٧)

يتحقق من أن العالم ليس حقيقة منسجمة متوافقة ، وأن القيم ليست قوى متعابة متآلفة ، وأن الألفة ليست متحققة بين الفكر والوجود ، كما وقع في ظن الكثيرين . وإذن فإن ما يدفعنا إلى التفلسف ، إنما هو إدراكنا لما في الوجود من ألم وإخفاق وفشل وشر أخلاق^(١) .

أما إذا قيل لنا إن بين الألم والشر الأخلاق علاقة متبادلة قوامها العدالة ؛ أو إنَّ من شأن الخير دائماً أن يقوم بالتعويض عما في الحياة من آلام وشرور ، فإن هذا لن يمنعنا من أن نرى في « الشر » شيئاً بغيضاً في حد ذاته ، أعنى شيئاً ما كان ينبغى أن يكون على الإطلاق ! وتبعاً لذلك فإن ما يخلع على الدهشة الفلسفية كل قيمتها ، وحدتها ، وسورتها ، إنما هو الشر الأخلاقي ، والألم ، والفشل ، والموت . وليس ثمة إنسان لم تقلق باله يوماً مشكلة الشر ، فإن الموجود الذي ينشد السعادة بطبعه ، ما كان ليأخذ الألم على أنه واقعة مخضة أو ضرورة لا محيص عنها ! وحسبنا أن نرجع إلى تاريخ البشرية في كل زمان ومكان ، حتى نتحقق من أن هذه المشكلة الميتافيزيقية الكبرى قد أثارت لدى الإنسان قلقاً عنيفاً لم تنجح شتى النزعات الشككية أو النقدية في أن تهدئه أو أن تخفف من غلوائه . والواقع أننا لا نتساءل فقط « لم وجد العالم ؟ » ، بل نحن نتساءل أيضاً : « لماذا كان العالم حافلاً بكل تلك الشرور ؟ »^(٢)

ولا يتفلسف الإنسان لأنه يشقى ويتألم فحسب ، بل هو يتفلسف أيضاً لأنه يمل ويسأم . وقد يبدو لنا أن الحيوان أيضاً يضيق ذرعاً بما تفرضه عليه من قيود ، ولكن الحقيقة أن الحيوان لا يعرف السأم ، حتى حينما تسكرن حياته رتيبة آلية

(١) ذكرنا إبراهيم : « مشكلة الإنسان » ، القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٥٩ ، الفصل الخامس ، ص ١١٨ — ١١٩ .

(٢) A. Schopenhauer : « Le Monde comme Volonté et comme Représentation » tr. Burdeau, Alcan t. II. pp. 305—306.

لا أثر فيها للتنوع أو الجدة . وربما كان السبب في ذلك أن فكر الحيوان قلما ينشغل بما ينقصه ، أعنى بما ليس كائنًا بالفعل ، أو ما كان يمكن أن يكون ، أو ما ينبغي أن يكون . وأما عند الإنسان ، فإن كل واقعة نفسية إنما تتمثل في مجرى الشعور على ضوء الواقعة الأخرى المقابلة لها : لأن المرض يذكرنا بالصحة ، والألم يثير في أذهاننا فكرة السرور ، والموت يولد لدينا الرغبة في الخلود ، وهم جراً . ومن هنا فقد لا نكون مغالين إذا قلنا إن فكرة الغياب l'idée d'absence تلعب دوراً كبيراً في صميم حياتنا النفسية ؛ حتى لقد ذهب البعض إلى حد القول بأن « الأفكار السلبية » — كالشر ، والعدم ، والاضطرب ، وما إلى ذلك — هي الأصل في نشأة التفكير الفلسفى . أليس شقاء الضمير البشرى هو السر في تفتُّق ذهن الإنسان عن النظريات الأخلاقية ، والتأملات المثالية ، والمدن الفاضلة ؟ وإذن أفلا يحق لنا أن نقول إن الإنسان يتفلسف لأنه يقلق ، ويفشل ، ويمرض ، ويتألم ، ويشقى ، ويدرك أن وجوده قد حيك من نسيج القناء ، ويعرف أنه لا محالة ذائق الموت ؟ أو بعبارة أخرى ، ألا يمكننا أن نقول إن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يتفلسف ، لأنه الحيوان الوحيد الذى يعانى القلق والجزع والهم والانشغال والسأم والخوف من الموت ؟ .

الفصل الرابع

خصائص الروح الفلسفية

٢٥ — لأن كانت الفلسفة ظاهرة بشرية عامة تميز الإنسان بوصفه كائناً ناطقاً ، إلا أن الفلاسفة — مثلهم في ذلك كمثل الشعراء — مخلوقات نادرة لا تجود بها الطبيعة إلا لماماً ! وعلى الرغم مما ذهب إليه كانت من أن « مهمة أستاذ الفلاسفة لا تنحصر في تعليم تلاميذه بعض الأفكار الفلسفية ، بل تنحصر في تعليمهم كيف يفكرون » ، إلا أن العقلية الفلسفية في صميمها قلما تكتسب عن طريق التعلم ! ومن هنا فقد ذهب البعض إلى أن الروح الفلسفية هي أقرب ما تكون إلى المزاج أو الميل الشخصي ، بحيث قد يصبح لنا أن نقول إن الميل إلى الفلسفة هو كالميل إلى الرياضة البدنية ، أو كالولع بالموسيقى ، أو كالكلف بالرسم . الخ^(١) . فلا بد لنا إذن من أن نحاول الوقوف على الخصائص المميزة للروح الفلسفية ، حتى نتعرف على تلك العناصر المشتركة التي جعلتنا ندخل تحت مقولة « الفيلسوف » شخصيات متنوعة من أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو والقديس أوغسطين والقديس توما الأكويني والفارابي وابن سينا وبيكون وديكارت وكانت وهيغل وشوبنهاور وكيركجارد ونيتشه وبرجسون ووليم جيمس وهيدجر وسارتر . الخ .

وهنا نجد أن أول خاصية تتميز بها الروح الفلسفية إنما هي الرغبة العارمة في البحث والسعى المستمر نحو المعرفة . فالفلسفة بمعناها الواسع هي البحث ،

F. Grégoire : - Les Grands Problèmes Métaphysiques - (١)
P. U. F., 1945, p. 8.

والتفلسف إنما يعنى أن ثمة أشياء لازال علينا أن نراها أو أن نقولها . وأما حينما يقع في ظن المرء أن كل شيء يمكن أن يقال قد قيل ، وأنه لم يعد في وسعنا سوى أن نعود إلى هذا الموقف أو ذاك من المواقف الفكرية السابقة ، فإن من المؤكد أن المرء عندئذ إنما يفلق أمام فكره كل سبيل إلى التفلسف . ولهذا فقد ذهب بعض مؤرخي الفلسفة إلى أن « أى مذهب ميتافيزيقي عظيم لم يصدر يوماً عما تقدم عليه من مذاهب ميتافيزيقية سابقة ، بل هو قد صدر عن اكتشاف جديد للعالم » . ومعنى هذا أن الفلسفة إنما تولد من جديد على يد كل فيلسوف ، لأن الإبداع الفلسفي هو أشبه ما يكون بالفعل التاريخي — *acte historique* — على حد تعبير هنري جوييه^(١) . ولكن المهم أن الفيلسوف لا يملك سوى أن يعمد وضع المشكلات لحسابه الخاص ، مدركاً في الوقت نفسه أنه مهما فعل ، فإنه لن يكون سوى مجرد مبتدئ دائماً أبداً ! ولعل هذا هو ما أراد ميرلوبونتي أن يعبر عنه حينما قال : « إن ما يكون الفيلسوف إنما هو تلك الحركة المستمرة التي تقوده من المعرفة إلى الجهل ، ثم من الجهل إلى المعرفة ، مع ما يقترب بها من ثبات في صميم تلك الحركة »^(٢) . فالفيلسوف هو الباحث الذي لا يقنع بأى حل نهائى ، والروح الفاسفية إنما هى تلك الروح التساؤلية التي ترفض أن تقبّع في داخل أية معرفة مطلقة ، واثقة دائماً أبداً من أنه لا يمكن أن تكون الفلسفة هى الشيء الوحيد الذي يعرف نهاية ، في عالم لا ينتهى فيه أى شيء على الإطلاق !

حقاً إن المذاهب الفلسفية كثيراً ما تبدو لنا بصورة قواقع يسكنها الفلاسفة ؛ ونحن نعرف كيف أن القوقعة قلما تسمح لنا بأن نتكهن بنوع تلك الحياة

H. Gouhier : « La Philosophie et son Histoire » Vrin, (١)
1948, pp. 17. & 99.

M. Merleau-Ponty : « Eloge de la Philosophie » NRF, (٢)
1953, p. 11.

الخفية التي كان يحياها الحيوان في داخلها ، ولكننا لو تجاوزنا المذاهب ، لتحقيقنا من أن الفيلسوف إنما هو ذلك الرجل الذي يشعر بأن الحقائق متنافرة ، وإن كانت في الوقت نفسه متأسكة ، فهو يبحث دائماً عن العقدة التي تتجمع عندها خيوط الحقيقة ، ويحاول أن يمسك بها جميعاً على نحو ما تتمثل في صميم العالم ، آخذاً على عاتقه أن يقول كل شيء ، متوخياً في حديثه الوضوح والصرامة . وليس من شأن الفيلسوف أن يمدح الناس ، فإن الروح الفلسفية في صميمها هي أعدى أعداء الكذب والتضليل والكتمان وسوء الطوية . ومن هنا فإن الفيلسوف لا يستبقي لنفسه الشكوك ، من أجل أن يعلن على الناس الحلول اليقينية ، كما يفعل الراشدون في تعاملهم مع الأطفال حينما يخفون عنهم بعض الحقائق ، بل هو يأخذ على عاتقه أن يواجهنا بالحقيقة ، حتى ولو كانت نسبية ، أو متعارضة ، أو مُلتبسة ! فالروح الفلسفية أحرص على اجتناب الوقوع في شرك المشكلات الزائفة والمسائل الموضوعية وضماً سيئاً ، منها على الوصول إلى نتائج قاطعة وحلول نهائية وآراء حاسمة . وإذا كان الفيلسوف كثيراً ما يبدو في وسط الجماعة بمظهر الرجل الخطير الذي يهدد كيان المجتمع ، فما ذلك إلا لأنه يأبى لنفسه دائماً أن يكون مجرد صدى لعصره ، أو مجرد أسير لمجتمعه . حقا إن أصداء العصر لا بد من أن تتردد في مذاهب الفلاسفة ، كما أن فلسفاتهم لا بد من أن تتلون بلون الإطار الحضاري الذي عاشوا في كنفه ، ولكن شخصية سقراط أو ديكارت أو كانت أو هوسرل لم تتحدد إلا برفضها لليقين السائد ، واستنكارها للبداية الساذجة ، وتمرداها على أسرار الحقائق السهلة اليسيرة ! ومن هنا فقد كان الفيلسوف في كل زمان ومكان موضع شبهات الجماعة ، فكان مصير سقراط الإعدام ، وكان مصير جيوردانو برونو الحرق ، وكان مصير ديكارت العزلة والنفي ، وكان مصير اسبينوزا الطرد من الجميع . . . الخ . ولا زال الفيلسوف إلى يومنا هذا موضع توجس واشتباه من جانب الجماعة : فإن الناس يعلون حق العلم أنه ليس ثمة « أرثوذكسية »

في الفلسفة ، وأن الفيلسوف كثيراً ما يجعل من « التمرد » لسان حاله . وحينما وقف سقراط يدافع عن نفسه أمام قضاة قائلين : « أيها الأثينيون ، إنني مؤمن ، ولكن لا ككل أولئك الذين يهتمونني » ، فإنه لم يرد بهذه العبارة أن يقول إن إيمانه أعظم من إيمان غيره من الناس ، بل هو قد أراد أن يبين لقضاة أن إيمانه من نوع خاص ، وأنه لا يمكن أن ينسب للإيمان نفس الدلالة التي ينسبها إليه غيره من عامة الناس !

٢٦ — والواقع أننا لو رجعنا إلى تاريخ الفلسفة ، لأقنينا أن الفلسفة قد اختلقت في أذهان العامة من الناس بالإلحاد ، لجرد أنهم قد وجدوا في شخص الفيلسوف رجل التساؤل ، والإنكار ، والانفصال ، والخطورة : ولا غرو ، فإنه ليس من طبيعة الروح الفلسفية أن تقنع بما بين أيدي أهل عصرها من حقائق ومعتقدات ومعارف ، بل هي لا بد من أن تضع كل هذا موضع الشك ، حتى يقنسى لها أن تعيد بناء من جديد فتقيمه على دعائم نقدية يقرها العقل . . . وهذه العملية النقدية التي يأخذ الفيلسوف على عاتقه أن ينهض بها لحسابه الخالص . إنما هي الحركة التي تعرضه لخطر العزلة الفكرية ، إذ يبدو في وسط الجماعة بتظهر المخلوق الشاذ الذي لا يدين بالولاء لروح عصره ودين جماعته . « ومن هنا فقد شبه القبيادس (في محاوره المأدبة) سقراط بالحية تارة ، والسحرة الراشدة تارة أخرى ؛ ولا شك أن السم الزعاف والمغناطيسية الكهربائية قد يستعملان أحيانا بمثابة علاج أو دواء ، ولكن المدينة لن تلبث أن تتوجس خوفاً في نهاية المطاف من أمثال تلك الصفات الطبية التي لا تخلو من شذوذ أو انحراف^(١) . وهكذا كان مصير سقراط الموت ؛ لأنه أفسد الشباب ، أو دعا إلى عبادة آلهة جديدة ، أو ادعى لنفسه معرفة أعظم مما كان يتمتع به أهل عصره ، بل لأنه حاول أن يقيم

١) Cf. Gusdorf: «Traité de Métaphysique» Colin, 1956, p. 78.

علاقته بالحقيقة على نحو جديد ، بعد أن فطن إلى أنه ليس ثمة معرفة مطلقة « *savoir absolu* » . وعلى الرغم من أن سقراط كان يدعو إلى إطاعة القوانين ، فضلا عن أنه هو نفسه كان نموذجا للمواطن الصالح ، إلا أن أسلوبه في إطاعة القوانين كان في نظر أهل أثينا بمثابة ضرب من المقاومة أو المعارضة ! وما كان للأثينيين أن يفتخروا لسقراط طريقته في التعامل معهم ، وهى تلك الطريقة التى كانت تشككهم دائما أبداً في أنفسهم ، وتجعلهم يتوجسون خيفة من التعامل معه ! ومن هنا فقد بدا سقراط للأثينيين « ملحداً » في حين أنه كان يؤمن بالدين مثلهم ، ويدين بالولاء للمدينة مثلهم ، ولكنه كان يؤمن بالدين والمدينة إيمانا روحيا ، في حين أنهم هم لم يكونوا يؤمنون بهما إلا إيمانا صورياً ، أو بالأحرى حرفياً *à la lettre* . وتبعاً لذلك فقد عجز قضاء سقراط عن فهم موقفه ، لأنهم لم يستطيعوا أن يتلاقوا معه فوق أرض واحدة مشتركة ! أليست أرض العامة من الناس هى أرض السذاجة ، والاعتقاد الراسخ ، والتسليم الأعمى ، في حين أن أرض الفلاسفة هى أرض المعاني ، والتفسير العقلى ، والتجربة الميتافيزيقية ؟ فكيف لا تنثور المدينة على الفيلسوف ، وهى ترى فيه خصما خطيراً يناقش الإيمان ، ويخضع الدين للعقل ، ويحاول أن يبرر إطاعة القوانين بمجموعة من الأدلة الفلسفية ، في حين أنها هى تريد الإيمان للإيمان ، وتدعو إلى احترام القانون دون تقديم أسباب ، وتتطلب من الناس الخضوع والتسليم دون أى قيد أو شرط ^(١) ؟ إذن فليذهب الفيلسوف إلى الجحيم ، وليعلم الجميع أن المدينة واقعة بالمرصاد لكل من تحدته نفسه بأن يزعم يقينها في دينها أو قانونها !

يبد أن مصير سقراط الأليم ما كان ليحول دون ظهور فلاسفة جدد يحاولون بدورهم أن يعينوا الناس على أن ينظروا إلى الوجود من خلال منظار جديد .

M. Merleau-Ponty : « *Eloge de la Philosophie* »; NRF., (١)
1953, pp. 52-53.

وهكذا ظهر ديكارت بمنهجه الفلسفى القائم على الشك ، وظهر كانت بمنهجه النقدى القائم على التفرقة بين الظاهرة والشيء فى ذاته ، وحاول كل منهما أن يوقف الإنسان العادى من سباته الدوجماطيقى ، وأن يرسم له طريقاً جديداً للوصول إلى الحقيقة . ونظر الناس إلى ما بين أيديهم من حقائق ، فلم يلبثوا أن فطنوا إلى أن عليهم أن يعيدوا النظر فى كل ما درجوا على التسليم به حتى تلك اللحظة ! وهل كان فى وسع البشرية أن تعيش بعد ظهور ديكارت أو كانت ، كما كانت تعيش قبل ظهورها ؟ ألم يثبت لنا كل من ديكارت وكانت مرة أخرى أن الحقيقة إنما تنحصر دائماً فى البحث عن المعنى ، وأن الوهم إنما يكن فى الاستسلام للموضوع ؟ ألم يحىء الشك والنقد مؤكدين لضرورة البحث ، ومعاودة وضع المشكلة ؛ مثلهما فى ذلك كمثل التهم السقراطى ؟ ألم يكن ظهور ديكارت أو كانت فى تاريخ الفكر البشرى بمثابة تأكيد جديد لتلك الخبرة الميتافيزيقية التى تتحقق عن طريقها من « لا واقعية الموضوع » ، على نحو ما يتمثل فى شتى المعطيات المادية والعقلية والاجتماعية التى قد تبلورت على شكل « تصورات جمعية » ؟ وإذن أفلا يحق لنا أن نقول إن الروح الفلسفية فى صميمها إنما هى ذلك الناقوس الذى يدق بين الحين والآخر معلنا أن الإنسان هو سيد المعنى ، وأن الطبيعة لا تكفى نفسها بنفسها ، وأن التاريخ ليس هو المطلق ، وأن الموضوع ليس هو الوجود ، وأن المجتمع ليس هو كاتم سر الحقيقة ؟ ... أجل ، ولكن الإنسان يريد أن يركن إلى حقيقة ثابتة ، وهو يريد أيضاً أن يقبع فى عالم مستقر ، ومن ثم فإنه يريد للسؤال أن يستحيل إلى إجابة حاسمة ، ويتمنى على الله لو استحال البحث المستمر إلى إيمان راسخ ! ومن هنا فإنه كثيراً ما تتكفل الجماعة بتحديد معتقداتنا ، وتجميد مفهوماتنا ، وتعبيد مسالكنا ، حتى لا نتطرف فى الرأى ، أو تهوّر فى الحكم ، أو ننحرف عن جادة السبيل ! حتى إذا ما ظهر فى شوارع

للدينة ذلك الثرثار الخطير الذى يحترف مهنة التسكع العقلى ، لم يلبث الناس أن أدركوا أنهم أسرى لمجموعة من الحقائق الزائفة والبيئات الكاذبة ، وأن سقراط فى زناته قد يكون أقل عبودية من أسريه أنفسهم^(١) !

٢٧ — والحق أن الغالبية العظمى من الناس إنما تستمد آراءها بطريقة لا شعورية من الجماعة التى تعيش بين ظهرانيها . ولما كانت هذه الآراء هى فى العادة وليدة الإيماء (لا التفكير المنطقى) ، فإنها تبدو لأصحابها واضحة كل الوضوح ، حتى أن أى ظل من الشك يُلبَقى حولها ، لابد بالضرورة من أن يولد لديهم شعوراً حاداً بالدهشة والاستغراب . ولكن الروح الفلسفية تعلم حق العلم أننا حيناً نكون بإزاء فكرة تبدو واضحة بيّنة ، لدرجة أن مجرد التعرض لمناقشتها يُعَدُّ فى نظرنا أمراً غير مشروع أو عملاً غير مرغوب فيه ، فإن هناك احتمالاً كبيراً فى أن تكون هذه الفكرة زائفة أو واهية أو متنافية مع العقل ، وبالتالي فإنها قد لا تستند إلى حقيقة ثابتة بيّنة كما يتوهم العامة من الناس^(٢) . وإذا كان المجتمع كثيراً ما يضيق ذرعاً بالفيلسوف ، فما ذلك إلا لأن الروح الفلسفية قوة خطيرة تنقل بالخاص من عهد « الأسطورة » lo mythe إلى عهد « التفكير » réflexion . وعلى حين أن « العالم » فى عهد الأسطورة يتخذ صورة « كل » عضوى موحد ، فلا يكون ثمة موضع لأى شذوذ فردى ، أو أية أصالة شخصية ، بل تكون الكلمة النهائية للتقليد ، والرأى الحاسم للجماعة ، نجد أن « العالم » فى عهد « التفكير » يستحيل إلى جمهرة كبيرة من المشكلات ، فلا تكون هناك أجهزة فكرية هائلة تسيطر على عقول

Gusdorf : « Traité de Métaphysique » Paris. Colin, (١) 1956, p. 138.

Cf. J. H. Robinson : « The Mind in the making », Watts, (٢) 1940 Ch. 11., pp. 29-30.

الأفراد ، بل يصبح من حق كل فرد أن يعيد تكوين العالم لحسابه الخاص ، وأن يقيم لنفسه أنظمة خاصة من القيم أو المعايير . وبينما نجد أن الوعي الأسطوري لا يندesh لشيء ، ولا يتعجب لأي أمر ، لأنه يرى أن لا جديد تحت الشمس ، وأن ليس في الحاضر شيء لم يكن قائماً منذ البداية ، نلاحظ أن نشأة الوعي الفلسفي لا بد من أن تقترن بعملية يقظة فكرية ينهض معها الإنسان من سبات السكون الأسطوري ، فلا يرى كل شيء عادياً أو طبيعياً أو مألوفاً ، بل يضع كل شيء موضع البحث ، ويدع للقلق سييلاً يتسلل من خلاله إلى أكثر المسائل وضوحاً وأظهرها بساطة !

حقاً إن الإنسانية ستظل نحن دائماً أبدأً إلى ذلك العصر الذهبي الذي لم يكن فيه الهمُّ قد تسال بعد إلى العالم ، ولكن من المؤكد أنه ما دام التفكير الفلسفي قد عرف سبيله إلى رأس المخلوق البشري ، فلن يكون في وسعه أن يتخلى عن مهمة تمعل الوجود ، وفهم العالم ، وتحديد مركزه في الكون . وتبعاً لذلك فإن التجربة الفلسفية لا بد من أن تتخذ بادئ ذي بدء صورة تساؤل حاد ملوهم الدهشة والتعجب والاستغراب . وهذا بسكال مثلاً يتساءل في خطراته عن حقيقة وضعه في الوجود فيقول : « لماذا كانت معرفتي محدودة ؟ ولماذا مُرِصْتُ على هذه القامة القصيرة ؟ ولماذا حُدِّدَ عمري بمائة سنة وليس بألف ... ؟ »^(١) ثم هذا ليبنتس ينظر إلى مشكلة الخلق فلا يجد بداً من أن يتساءل بدوره قائلاً : « لماذا وُحِدَ شيء ، بدلاً من أن يكون ثمة عدم ، وعدم فحسب ؟ » . . . إننا نستطيع بلا شك أن نرد على تساؤل بسكال بأن نحيله إلى دراسات علماء الأجنة ، ونظريات أهل علم الوراثة ، وبحوث علماء الحياة في مجال الشيخوخة ، وكذلك

Pascal : « Pensées » , Edition Brunshwieg, Paris, (١)
Nelson, 1943, No 208., p. 144.

قد يكون في وسعنا أن نرد على تساؤل ليبنتس بأن نحيله إلى أحدث النظريات العلمية في تفسير أصل الكون ، ولكن من المؤكد أنه حتى إذا تهيأ للعلم يوماً أن يتوصل إلى تفسير طريقة تداخل الظواهر ، وتأثيرها بعضها في البعض الآخر ، وتوقفها بعضها على البعض الآخر ، فإنه لن يستطيع أن يوقفنا على السبب في ظهورها ، والحكمة في تكونها ، والفرض من وجودها . ومن هنا فقد اقترنت الروح الفلسفية بأداة الاستفهام الكبرى « لماذا » ؟ ، حتى لقد شبه بعضهم الفيلسوف بالطفل الصغير الذي لا يكاد يكف عن إثارة السؤال تلوا السؤال ولا غرو ، فإن الفيلسوف يصر على أنه لا يرى سوى ظلمات ، حيث لا يرى غيره سوى أضواء ! ويأبى الناس إلا أن يروا في الوجود كتاباً مفتوحاً يفسر نفسه بنفسه ، في حين يحاول الفيلسوف أن يصور لنا الوجود بصورة النقوش الميروغليفية التي تتطلب التفسير ، أو الشفرات الغامضة التي تحتاج دائماً إلى من يفك رموزها ؟ وربما كان في استطاعتنا أن نقول مع شوبنهاور : « إن الشخص الذي يتصف بالروح الفلسفية إنما هو ذلك الإنسان الذي يملك القدرة على التعجب من الأحداث المألوفة وأعمال الحياة العادية ، فيتخذ موضوع دراسته من أكثر الأشياء عمومية وابتدالاً . . . وكلما قل حظ المرء من الذكاء بداله الوجود أقل غموضاً وأدنى سرية . ومعنى هذا أن كل شيء إنما يبدو للرجل العادي أمراً طبيعياً يحمل في ذاته تفسير أصله ونوعه وغايته . . . » ^(١) يروى في هذا الصدد عن الفيلسوف الفرنسي الحديث مين دي بيران (Maine de Biran) (١٧٦٦ — ١٨٢٤) أنه كان يتمتع بقدرة هائلة على إبداء الملاحظات الطريفة ؛ والاهتمام

Schopenhauer : « Le Monde Comme Volonté et Comme
Représentation » trad. franç. par A. Burdeau, Paris, Alcan, t.
II., pp. 294—295.

إلى الكثير من الحقائق الجديدة ، نظراً لأنه كان يعجب كثيراً لما درج الناس على حساباته سهلاً بسيطاً ، كما كان يتوقف طويلاً عندما اعتاد الناس أن يغفلوا ما فيه من تعقيد وغموض . ولا شك أن الوعي الميتافيزيقي (سواء أكان ذلك عند ديكارت ، أم عند بيران ، أم عند هوسرل) إنما يبدأ في اللحظة التي يفصل فيها الفيلسوف عن « الموضوع » لكي يعيد النظر إليه ويقوم بتحديد موقعه منه . فالروح الفلسفية لا بد من أن تخلع على « الموضوع » شيئاً من الغرابة أو الجدة أو السرية ، لأنها تعلم حق العلم أن ليس ثمة شيء يمكن اعتباره شيئاً بذاته ، وأن ليس هناك أمر يمكن القول بأنه حقيقة أكيدة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، بل كل ما في الوجود جدير بأن يكون موضع نظر ومحل اعتبار من جديد ، ما دام على الفيلسوف أن يبدأ دائماً من جديد ! وعلى حين أن الرجل العادي يميل بطبعه إلى قمع حبه للاستطلاع ، وكبت رغبته في التساؤل ، نجد أن الفيلسوف لا يكاد يكف عن إيقاظ المشكلات النائمة ، وإثارة المسائل المستكنة في أوكارها ، وتأليب الضمائر الفارقة في سكونها حقاً إن هذه الدهشة الفلسفية ليست وقفاً على الفيلسوف ، فإننا قد نلتقي أحياناً بأطفال صغار يثيرون أعماق المشكلات الميتافيزيقية ، ولما يبلغ الواحد منهم السابعة من عمره ، ولكن الملاحظ عادة أن هذه الدهشة سرعان ما تتبدد بمجرد ما يمضي الإنسان في طريق نموه ، فلا يلبث الرجل الناضج أن يصبح متكيفاً مع العالم الذي يعيش فيه ، وبذلك يضعف حبه للاستطلاع وتقل حدة استجاباته لما في الوجود من مواقف جديدة . وأما لدى الفيلسوف ، فإن الظاهر أن هذا التكيف النفسي مع الواقع قلما يتحقق على الوجه الأكمل ، وبالتالي فإن الروح الفلسفية قد تبدو في نظر بعض الباحثين من أمثال بياجيه Piaget أو ليفي بريل Lévy Brühl أشبه ما تكون بعقلية بدائية تعيش في عالم ما قبل المنطق ! ولكن الواقع أن

روح التقليد والاتباع والمسايرة ضرورية للإنسان العادى الذى ليس لديه متسع من الوقت للحكم على كل تصرف ، والتردد قبل اتخاذ أى موقف ، ولهذا فقد كان من الضرورى لكل فرد أن يفكر ويعمل ، كما يفكر ويعمل غيره من الناس . وأما بالنسبة إلى الفيلسوف ، ذلك الخلق الشاذ الذى لا يجد حرجاً فى أن يبدأ دائماً من جديد ، فإن إدراك الواقع لابد من أن يقترن بصدمة ميتافيزيقية تحول بينه وبين التكيف مع الحقيقة السائدة ، أو التوافق مع الروح الشائعة . وتبعاً لذلك فإن الفيلسوف لابد من أن يجد فى الحياة العادية ضرباً من النوم أو الرقاد أو الوسن^(١) ! وهكذا تجبى الفلسفة فتعلم الإنسان أنه لا زال عليه أن ينظر ، ويتمعجب ، ويفتح ، ويبحث ، ويتردد ، ويتعثر ، ويتخبط ، ويختبر ، ويتساءل ، ويستكشف ، واثقاً دائماً أبداً من أنه لن يكون ثمة حل نهائى يتكفل بالقضاء على كل فلسفة ! وهذا لسنج Lessing يعبر عن ميل الروح الفلسفية إلى مواصلة البحث فيقول : « لو أن الله وضع الحقائق كلها فى يمينه ، ووضع فى يساره شوقنا المستمر إليها ، وإن أخطأناها دائماً ، ثم خيرنى ، لما ترددت فى اختيار ما ييسره ، فأتأله « يا أبانا ؟ رحمتك ، إن الحق الخالص لك وحدك » !^(٢)

٢٨ — والواقع أننا لو شئنا أن نحدد أهم خصائص الروح الفلسفية ، لكان فى وسعنا أن نقول إنها روح البحث المستمر ، والحرية الفكرية ، والتسامح العقلى ، والرغبة الدائمة فى الحوار مع الآخرين . فلن تكن ثمة فلسفة أولاً

Gabriel Marcel : « Du Refus à l'Invocation », NRF., (١)
1940, p. 89,

(٢) مجموعة مؤلفات لسنج ٢٥ ، ص ٢٧١ . (تقلاص « تاريخ الفلسفة فى الإسلام »
لدى بورترجة أبى ويدة ص ٢٥٩) .

إن لم يكن هناك شك في قيمة المعارف المحصَّلة ، ورفض لشتى الآراء المسبقة ،
ورغبة عارمة في معاودة البحث من جديد . ولن تكون هناك فلسفة ثانياً إن
لم يكن هناك شعور بالحرية ، وإيقان بأن الحق فوق القوة ، واعتراف بأن
العلاقات البشرية ينبغي أن تقوم على التفاهم والتسامح لا على التضاصم والتنازع .
ولعل هذا هو ما عناه أحد الباحثين المعاصرين حينما كتب يقول : إن الفلاسفة
لا تبدأ إلا حينما يتهيأ للبشر أن يفتزلوا عن روح العنف والشدّة ، لكي يستعصوا
عنها بروح التفاهم والمودة^(١) . وعلى الرغم من أن تاريخ الفلسفة لم يَحُلْ في يوم ما
من الأيام من مظاهر التعصب والعداء والمشاغبة ، حتى لقد ذهب بعضهم إلى أن
في الإمكان تسجيل هذا التاريخ في عبارات الكبرياء المجروحة ، والعداء الشخصي
والخصومات المذهبية ، إلا أنه من المؤكد أن الروح الفلسفية لم تسكن في يوم ما
من الأيام روحاً انعزالية محيياً بمنأى عن المجتمع ، والتاريخ ، والعالم . . . فليس
الفيلسوف — كما يتوهم البعض — مجرد مخلوق غريب يعزف عن العالم ، وينفر
من الناس ، وينطوى على نفسه ، ويحيا على هامش التاريخ ، بل هو إنسان
واقعي يعرف أنه لا يحيا إلا بالآخرين ومع الآخرين ، ويعلم أنه بمفرده ليس شيئاً
على الإطلاق ! حقا إن حب الحكمة قد يدفع بالفيلسوف إلى احتقار العالم
أو ازدراء المجتمع ، ولكن الفيلسوف يحاول مع ذلك أن يستخلص من الوجود
خير ما فيه ، وأن يكشف لنا عما في العالم من قيم كامنّة وأسرار دفينّة . فالفيلسوف
لا ينفصل عن إطاره التاريخي إلا لكي يتعقله ويحسن الحكم عليه ، وهو لا ينفصل
بنفسه عن مجتمعه إلا لكي يتمكن من النظر إليه والعمل على تقويمه ، وهو لا يحيا

Eric Weil : « Logique de la Philosophie » Vrin, 1950, (١)
Ch. I. & II.

بمعزل عن عالمه إلا لكي يحاول تحديد موقفه منه وتعميق صلاته به . وتبعاً لذلك فإن الروح الفلسفية في صميمها إنما هي حوار مع الذات، والعالم ، والآخرين ، بحيث قد يكون في وسعنا أن نقول مع يسبرز إنه ليس ثمة فلسفة بدون وصال وحوار ومبادلة .

والحق أننا لو أنعمنا النظر إلى اليقين الموجود لدينا عن الوجود الحقيقي ، لوجدنا أن هذا اليقين إنما يتأكد عبْرَ تلك العلاقة الحية التي تجدد فيها الحرية نفسها وجهاً لوجه أمام ما عداها من حريات . فليست الروح الفلسفية بمثابة عالم مغلق على ذاته ، بل هي حقيقة حية تؤثر وتتأثر ، تسائل وتجاوب ، تقنع وتقتنع . وعلى الرغم مما ذهب إليه شوبنهاور وكيركجارد (وغيرهما من الفلاسفة) من أن الحقيقة لا تنبع إلا من أعماق الذات ، وأن الإنسان لا يفهم تماماً سوى ذاته ، وأن الأفكار الفلسفية العميقة لا تنبعث مطلقاً عن الحوار مع الغير أو التفكير المشترك^(١) ، إلا أن أشد الفلاسفة تمرداً على الماضي ، وأكثرهم ضيقاً بمذاهب السابقين ، ما كان يستطيع أن يكون مذهب الفلاسفة دون أي حوار مع الماضي ، أو دون أدنى اتصال بالآخرين . حقا إن الفيلسوف لا بد من أن يشعر بأن عليه أن يقيم كل شيء من جديد ، فإن من طبيعة الفلسفة أن تتولد من جديد على يد كل فيلسوف ، ولكن من المستحيل على الفيلسوف أن يضرب صفحاً عن ماضى التفكير البشري كله ، وكأن عقله قد استحال إلى صحيفة بيضاء لم يخط عليها الماضى حرفاً واحداً ! بل إننا حتى لو افترضنا جدلاً أن فيلسوفاً ما قد نجح في التحرر من شتى تأثيرات الماضي ، فإن من المؤكد أن مثل هذا الفيلسوف لا بد من أن يجد نفسه مضطراً إلى نقل تفكيره إلى الآخرين بالصورة التي تسمح لهم

Schopenhauer : « Philosophie et science de la Nature », (١)
Alcan, 1911, p. 135.

بأن يفهموه . والواقع أن الفلسفة بطبيعتها تراث يقبل الانتقال من جيل إلى آخر ،
فهي لا بد من أن تعبر عن نفسها بالصورة التي تمكنها من إسماع صوتها للآخرين .
وآية ذلك أن فلاسفة الإنكار والثورة والتمرد ، حتى حينما أطلقوا على أنفسهم
اسم محطى الأصنام ، لم يجدوا بدا من أن يحاولوا صياغة أفكارهم باللغة التي
يفهمها أهل عصرهم . ومادامت الفلسفة إنما هي حديث الإنسان للإنسان ، وحوار
الإنسان مع الإنسان ، فإنه لا يمكن أن تقتن الروح الفلسفية الحقبة بالتمصّب
أو المداة أو الاستبداد بالرأى .

إنما لانكسر بطبيعة الحال أن كثيراً من المؤلفات الفاسفية لم تكتب
إلا لتبرير موقف شخصى ، أو مواجهة خصومة أدبية ، أو الدفاع عن آراء مسبقة ،
ولكن من المؤكد أن الفيلسوف الذى يصطنع منهج التبرير العقلى إنما يصطنعه
بوصفه إنساناً ، لا بوصفه فيلسوفاً . فالإنسان العادى هو الذى يزداد تمسكاً بآرائه
السابقة حينما يحاول أحد أن يثبت له خطأها ، والإنسان العادى هو الذى لا يتورع
عن إبداء غضبه واستيائه بمجرد ما توضع آراؤه ومعتقداته موضع البحث والمناقشة ،
والإنسان العادى أيضاً هو الذى يوحد بين آرائه الخاصة وكرامته الشخصية ،
فيتعصب لأفكاره دفاعاً عن نفسه ، ويدافع عن معتقداته ذوداً عن كرامته
الشخصية ؛ وأما الفيلسوف فإنه يريد أن يرى الحقائق كما هي ، لا كما يقول بها
مذهب معين أو رأى خاص ، ومن ثمّ فإنه ليس على استعداد لأن يحرق البخور
لأصنام المجتمع ، أو لأن يعفر جبهته أمام أوثان الماضى ، أو لأن ينحنى فى ذلّة
وصغار أمام بعض القوى العاشمة . حتا إن للحرية الفكرية تكاليفها ، فإنها
ترفع عنا تلك اليد التى تقود زمامنا ، وتخلّى بيننا وبين أنفسنا ، فلا نلبث أن نجد
أنفسنا مضطرين إلى أن ننظر لأنفسنا وبأنفسنا ، بعد أن كان مثلنا كمثل الأعمى
الذى يمسك بيده آخر ، ولكن الروح الفلسفية إنما هي روح المبصر الذى يريد

أن يتحقق من كل شيء بنفسه ، فليس في وسع الفيلسوف أن يركن إلى أية سلطة ، أو أن يطمئن إلى أى رأى سابق ، أو أن يقتصر على تبرير أية عقيدة محددة . ولعل هذا هو ما عناه الفيلسوف الألماني دلتاي حينما كتب يقول : « إن الفلسفة لم تكن سمة شخصية ، أو ضرب من المزاج ، لأننا اعتدنا أن ننسب إلى الفيلسوف القدرة على تحرير العقل من التقليد ، والعقيدة ، والرأى السابق ، وسيطرة الأهواء الغريزية . بل حتى من أسر الظروف الخارجية التهريية ... »^(١)

وإذا كان تاريخ التفكير الفلسفي حافلا بالشواهد الحية والأدلة البينة على شجاعة الفلاسفة ، فما ذلك إلا لأن الخوف هو أعدى أعداء الروح الفلسفية الحقيقية في كل زمان ومكان . والواقع أننا إذا كنا كثيراً مانجزع لإثارة بعض المشكلات الفلسفية الهامة ، فذلك خشية أن يقتادنا البحث إلى التخلي عن أفكارنا السابقة أو الخروج عن معتقداتنا المألوفة . ولكن هذا الخوف نفسه دليل قوى على أننا نشك في صحة تلك الأفكار والمعتقدات ، ومن ثم فإننا نخشى أن نفحصها في ضوء الحقائق العقلية والأدلة الفلسفية . ومعنى هذا أن الخوف إنما هو في صميمه مظهر للشك والجهالة ، في حين أن الشجاعة الفكرية هي الشرط الأول لكل نزاهة علمية وإن الفيلسوف ليعلم حق العلم أن الشجاعة هي أول ضرورة من ضرورات التفكير الحر ، فهو لا يرتد فزعاً أمام شتى التيارات الرجعية التي قد تتورق في وجهه ، بل نراه يتقدم نحوها بكل قوة وإقدام ، لكي يجهز عليها بكلتا يديه ، غير آبه بتلك الجليف الحية التي يقذف بها في زوايا التاريخ ! ومهما كان من أمر تلك النزعة اليقينية التوكيدية التي وقع تحت تأثيرها بعض المفكرين ، فإن الغالبية العظمى من أهل الفكر قد وجدت في الجهل والتعصب

F. H. A. Hodges : « Wilhelm Dilthey », Selected (١)
Passages, London, Kegan Paul, 1944, p, 148.

وضيق الأفق سموماً خبيثة تقضى على كل إنتاج فلسفى . وتبعا لذلك فإن الفلاسفة الحقيقيين إنما هم أولئك الذين يأخذون الحذر حتى من عيونهم وعقولهم ، فلا يترددون فى أن يبدأوا دائماً من جديد ، فاحصين إحساساتهم ، وممتحنين استدلالاتهم . أما أولئك الذين يكتفون بأن يركنوا إلى الراحة والهدوء ، وأن يسلنوا على الملأ قائلين : « لقد وجدنا ! لقد وجدنا ! » ، فهؤلاء هم عباد الأوهام الذين لا يستطيعون أن يعيشوا إلا على فتات الماضى ! وإن الفلاسفة يشعرون بأن الرغبة فى التحكم فى العقول ، هى أسوأ بكثير من الرغبة فى التحكم فى الجسوم ، فهم يتحامون بأنفسهم عن موجهى الأفكار ، وقادة الضمائر ، وصانعى العقائد ، ولكنهم لا يجدون حرجاً فى أن يتعارضوا أو يتناقضوا فيما بينهم ، فإن تعدد الآراء فى نظرهم هو مظهر من مظاهر الخصب والثراء ، ولكن بشرط أن يحترم كل منهم آراء غيره ، حتى يتكون من حوارهم الفلسفى مجتمع فكرى جديد يقوم على التفاهم والتوافق ، لا على الأرثوذكسية أو الإجماع .

٢٨ — وهنا قد يحق لنا أن نقف وقفة قصيرة عند صفة « الاستقلال » Indépendance التى اعتاد كثير من الباحثين أن ينسبوها إلى الفيلسوف ، بوصفه ذلك المخلوق الفريد الذى يحتقر العالم ، ويزدرى المجتمع ، ويتمرد على التقاليد ، ويشذ على المألوف ! ولا شك أن فعل التفلسف إنما ينطوى (بمعنى ما من المعانى) على ضرب من الصراع الذى يقوم به المرء فى شتى الظروف من أجل المحافظة على استقلاله الباطنى . ولكن المشكلة إنما تنحصر على وجه التحديد فى فهم معنى هذا « الاستقلال » ، فقد وقع فى ظن البعض أن الروح الاستقلالية التى يتميز بها الفيلسوف هى السر فى بقاء الفاسفة بضاعة كالية لا يتبادلها إلا أهل الفراغ والبطالة والكسل ، ممن يحبون على هامش التاريخ ! ونحن نعرف كيف كان الأقدمون يتصورون الفيلسوف بصورة الإنسان الحر

الذى يتمتع باستقلال تام ، فكانوا يتوهمون أن الفيلسوف رجل زاهد قد تحرر من شتى الحاجات المادية والفرائز الجسدية والمطالب الحيوية ، وكانوا يربطون التفلسف بالشجاعة ، فيقررون أن الفيلسوف رجل شجاع قد استطاع أن يفضح أكاذيب الأساطير ويبدد ما تبثه الأديان في عقول الناس من مخاوف ، وكانوا يظنون أيضاً أن الفيلسوف بطبعه كائن انغزالي لا يتدخل في السياسة ولا يهتم بشئون الدولة ، بل يحيا بمنأى عن الجماعة ، في سلم عميق وطمأنينة تامة ، وكأنما هو مواطن للعالم بأسره ! ولكن هذه الصورة الفريدة التي اقترنت زمناً طويلاً بشخصية الفيلسوف التقليدى ، لم تلبث معايبها الخفية أن استبانَت للكثيرين حينما ظهر لهم أن مثل هذا الاستقلال الفلسفى لم يكن يخفى وراءه سوى مشاعر الكبرياء والصلف والغرور وإرادة القوة وعدم الاكتراث بالناس وروح العداة نحو باقى الفلاسفة . . . إلخ . ومن هنا فقد جاءت مذاهب دعاة الاستقلال الفلسفى فى كثير من الأحيان مذاهب « توكيدية » قطعية ، مليئة بالأنانية وحب الذات ، مفعمة بآيات العدوان أو الدفاع عن النفس ! ولا غرو ، فإن الفيلسوف حينما يترك العنان لأفكاره ، أو حينما يقتصر على الخضوع لمعتقداته بدلا من السيطرة عليها ، فإنه عندئذ إنما يقع ضحية لذلك الاستقلال الفلسفى المزعوم الذى قد يُصوّر له أنه يتمتع بحرية مطلقة ، أو أن فى وسعه أن يبقى مستقلا تماما عن كل شيء !

ولكننا نخطئ خطأ جسيما لو أننا خلطنا بين الموقف الفلسفى والموقف الجمالى esthétique : فإنه لا يمكن أن يستوى فى نظر الفيلسوف أن يكون هذا الذى يراه حيوانا أو مجادا أو إنسانا ، كما أنه لا يمكن أن يكون الهدف الأسمى للفيلسوف هو تنويع تجاربه وتعدد خبراته وتعميق إحساساته (كما هو الحال مثلا بالنسبة إلى طالب المتعة الفنية) . فليست الروح الفلسفية بمثابة روح

انطوائية أو عقلية انعزالية تلقى كل شيء بضرب من اللامبالاة أو عدم الاكتراث ، كما كان الحال بالنسبة إلى بعض الشخصيات الرواقية في العصر اليوناني أو الروماني ، وإنما الروح الفلسفية في صميمها روح استقلالية تخرج الاتصال بالانفصال ، وتربط الحرية بالعائق ، وتعرف أن الاستقلال عن العالم لا يكون إلا بالاعتماد عليه من جهة ، وتجاوزه أو العلو عليه من جهة أخرى .

فالفيلسوف (كما يقول يسبرز) هو الرجل الذي يعلم أنه لن يكون حراً إلا إذ كانت هناك موجودات أخرى حرة مثله ، لأنه لا يمكن أن تقوم حرية في الخلاء ، بل لابد من أن يكون ثمة اتصال بين الحريات ، حتى يتسنى لكل منها أن تحدد موقفها بالنسبة إلى ما عداها من الحريات . ومعنى هذا أنه لا قيام للحرية إلا بصراعها ضد القهر أو الضرورة أو الإلزام ، لأنه لو اختفت العوائق تماماً ، أو لو هزمت الضرورة نهائياً ، لكان في هذا موت محقق للحرية نفسها .

وليس هناك أدنى معنى للحديث عن روح الاستقلال ، اللهم إلا إذا كنا منذ البداية متمزجين بالعالم ، فإن « الاستقلال » إنما يعني التصرف نحو العالم ، كما لو كنا فيه دون أن نكون منه ! ولعل هذا هو ما عناه أرسطوبس حينما قال قديماً : « إنني أملك ، ولكنني لست مملوكاً » ، أو ما عبر عنه القديس بولس في إحدى رسائله حينما كتب يقول : « فلنملك » ، ولكن كما لو كنا لا نملك ^(١) !

والحق أنه مهما وقع في ظن الفيلسوف أنه يتمتع باستقلال تام ، فإنه لابد من أن يظل مستنداً إلى العالم ، معتمداً على الآخرين ، مفتقراً إلى الحقيقة المتعالية . وعبئاً يحاول المفكر الرواقي أن يحرر نفسه من أسر الضرورات

Cf. K. Jaspers : « Introduction à la Philosophie », Plon, (١) 1951. trad. franç. par J. Hersch, pp. 159-160.

الطبيعية ، ومطالب الحياة المادية ، ومستلزمات التعامل الاجتماعى ، فإنه لا بد من أن يظل خاضعاً لشروط الحياة البشرية بوصفها موقفاً خاصاً ينطوى على الكثير من مظاهر النقص والخطأ والانحراف . فليس فى استطاعة الفيلسوف أن يخرج تماماً عن إطاره الحضارى ، أو أن يتنكر لصميم وجوده الطبيعى ، أو أن يتحرر نهائياً من كل إيسار اجتماعى ، بل لا بد له من أن يقيم استقلاله الروحى على دعائم موقفه البشرى نفسه ، أعنى ابتداء من تلك الشروط الأولية التى تفرضها عليه حياته العادية بوصفه مخلوقاً بشرياً . وحسبنا أن نرجع إلى تاريخ التفكير البشرى نفسه ، حتى نتحقق من أن الإنسان لم يستطع يوماً أن يتغلب على ما فى وجوده من شر ، ونقص ، ونسيان ، وغفلة ، ودنس ، وخطيئة ، وسوء طوية . . . إلخ . وحينما ننمن النظر فيما ورد بالتوراة عن الخطيئة الأصلية ، وما ذكره هيجل عن انحطاط الإنسان واغترابه عن ذاته ، وما قاله كيركجارد عن وجود عنصر شيطانى فى صميم وجودنا ، وما ذهب إليه بعض علماء الاجتماع من أننا أسيرو مجموعة من الأيديولوجيات ، وما أكدته علماء النفس بكل قوة عن وجود عقد نفسية فى أعماق الذات البشرية ، فإننا لن نتردد فى أن نسلم مع يسبرز بأنه لا يمكن أن يكون الفيلسوف حرة محضة تملك من الاستقلال ما تستطيع معه التغلب على سائر شروط الموقف البشرى .

أما إذا أصر البعض على نسبة ضرب عن الاستقلال الروحى إلى الفيلسوف ، فليكن معنى هذا الاستقلال أن الروح الفلسفية الحقة لا تقنع بالانتماء إلى أية مدرسة من المدارس الفكرية ، ولا تزعم لنفسها أنها قد وجدت فى أية حقيقة فلسفية تعبيراً نهائياً عن الحقيقة الوحيدة الكلية الشاملة ، ولا تريد لنفسها أن تظل مستعبدة لأفكارها ، أسيرة لمعتقداتها . وليس من شأن الروح الفلسفية الصحيحة أن تقف عند جمع بعض المعارف الفلسفية ، وإنما هى ترمى دائماً أبداً إلى تعمق

البحث الفلسفي في صميم حركته الديناميكية الفعالة . وإذا كان فيلسوف مثل ديكارت قد بالغ في تمرده على سلطة القدماء إلى الحد الذي استطاع معه أن يقول : « إنني لا أريد أن أعرف حتى ولا ما إذا كان ثمة بشر قد عاشوا على ظهر البسيطة قبل » ، فإن فيلسوف القرن العشرين لم يعد يجاهد بمفرده في سبيل الوصول إلى الحقيقة ، وتحقيق المصير البشري ، بل هو قد أصبح يفهم أنه لا بد له من الحوار مع الآخرين ، والتعاون مع أشباهه من الباحثين . فالفيلسوف المعاصر يحاول جاهداً أن يتمثل شتى دروس الماضي ، ويفتح أذنيه لسماع صوت إخوته في الإنسانية ، ويدع المجال مفتوحاً لشتى الممكنات . وهكذا أصبحنا نرى أن إنسان العصر الحديث لم يعد يؤمن بانتصار الفيلسوف الرواق وسكينته وطمأنينته السلبية ، بل هو قد أصبح يعلم حق العلم أنه هيات للوجود البشري (حتى ولو كان فيلسوفاً) أن يحوكل ما في وجوده من مظاهر القلق والتوتر والصراع والتناقض . والتمزق والانقسام . . . إلخ . فليست الروح الفلسفية بمثابة قضاء تام على شتى الانفعالات ، وانتصار محقق على كافة الأهواء ، بل إن الفيلسوف نفسه لا يدرك ما هو كائن إلا من خلال الدموع والابتسامات والغبطة الروحية . حقاً إننا نهتدي إلى ذواتنا حينما نتكهن من السمو بأنفسنا فوق مستوى الخضوع للأهواء والاستسلام للانفعالات ، ولكن هذا لا يعني قط أننا نستطيع خنق هذه الأهواء أو الإجهاز نهائياً على كل تلك الانفعالات . فالفيلسوف مخلوق يحاول أن يكون إنساناً ، وهو يعرف أنه لا سبيل له إلى بلوغ مرحلة الاستقلال الحقيقي إلا إذا هو بدأ أولاً بتعمق موقفه البشري . وهكذا ينتهي يسبرز إلى القول بأن فعل التفلسف إن هو إلا عملية مستمرة تتدرب خلالها على هذا الاستقلال ، دون أن يكون في وسعنا يوماً أن نزع لأفئسنا أو للآخرين أننا قد توصلنا بالفعل إلى امتلاكه !^(١)

(١) Cf K. Jaspers : « Introduction à la Philosophie » pp. 192-194.

٣٠ — وثمة خاصية أخرى تتميز بها الروح الفلسفية عامة ، وفلاسفة العصر الحديث خاصة ، وتلك هي النزعة التأملية réflexive التي ينعكس فيها الفكر على ذاته ، لكي يسبر غور إمكانياته ، ويتعرف على مآلديه من قدرات . فالفيلسوف هو ذلك المفكر الذي يتركز جانب كبير من تفكيره حول «الفكر» نفسه . حقاً إن الناس جميعاً يفكرون ، فإن التفكير يكاد يكون هو الظاهرة النفسية الوحيدة التي لا تنقطع في مجرى الشعور البشرى ، ولكن الفيلسوف هو وحده الذي يشغل نفسه بمعرفة طبيعة الفكر وقدرته وحدوده ومظاهر نقصه . . إلخ . وقد يخطر على بالنا أحياناً أن نتساءل عن طبيعة عملية «التفكير» ، كما يفعل مثلاً علماء النفس حينما يعرضون لدراسة هذه الوظيفة ؛ ولكننا قلنا نجارى فلاسفة المعرفة في اهتمامهم بالمشكلة النقدية ، فنحن أنفسنا بالبحث في سبل المعرفة ومدى قدرة العقل على فهم الوجود . . . إلخ . ولعل هذا هو ما قصد إليه الشاعر الألماني الكبير جوته Goethe حينما قال لصديقه شيلر Schiller « إننى لا أفكر في الفكر على الإطلاق » ! . . . فإذا ما تساءلنا الآن عن السر في اهتمام المفكر بظاهرة التفكير كل هذا الاهتمام ، كان رد البعض أن الفيلسوف يريد أن يمتحن تلك الأدوات التي يستخدمها في المعرفة ، حتى يتأكد قبل الشروع في استعمالها من أنها صالحة للوظيفة التي جُعِلَتْ لها ، في حين يقرر البعض الآخر أن الفيلسوف يشعر بإعجاب شديد نحو تلك القدرة البشرية الفائقة التي اختصت بها الطبيعة دون غيره من المخلوقات ، فهو لا يملك سوى الارتداد إلى ذاته من أجل فحص تلك الهبة العظيمة التي جادت بها عليه الآلهة ! وحتى حين يخطر على بال الإنسان أن ينتقص من قدر العقل البشرى ، فإنه عندئذ إنما يستعين بالفكر نفسه في سبيل إثبات عجز الفكر عن المعرفة ، وقصوره عن إدراك الحقيقة ، وكأن في وسع العقل أن يعرف حدوده ، أو أن يقف على مالا سبيل له إلى إدراكه !

والواقع أن أخذاً لا يمكن أن يفكر ، دون أن يخطر على باله يوماً أن في وسع الفكر أن يرتد إلى ذاته ، أو أن في استطاعة التأمل العقلي أن ينصب على عملية التأمل ذاتها . وسواء ذهب الفيلسوف إلى أن العقل لا يستطيع أن يدرك حدوده ، أم قال مع إسبرز بأن « التفلسف نفسه لا يحيا إلا على الحدود » : بمعنى أنه متجه بتمامه نحو ما يمكن داخل حدود العقل من جهة ، وما يمتد فيما وراء تلك الحدود من جهة أخرى ، فإن من المؤكد أن « مشكلة الفكر » لا بد من أن تتمثل للروح الفلسفية بوصفها أولى مشكلات التفكير الفلسفي . ولما كان الفكر بطبيعته متجهاً في العادة نحو شيء آخر غير ذاته ، فإن سواد الناس لا يهتم بمشكلة الفكر ، خصوصاً وأن ارتداد الفكر إلى ذاته : أو انعكاسه على نفسه ليكاد يبدو ظاهرة شاذة غير طبيعية . ومع ذلك ، فإننا قد لانجانب الصواب إذا قلنا إن هذه الظاهرة نفسها لمى من السمات الهامة التي تميز الفيلسوف عن غيره من عامة المفكرين ، لأن الفيلسوف هو المفكر الذي لا يكاد يكف عن امتحان قدرته الذهنية وسبر أغوارها والعمل على إدراك حدودها . وقد تبدو هذه المهمة في الظاهر عبثاً لا طائل تحته ، فإن دراستي لأدواتي في المعرفة لا تكفي بحال لإظهارى على طبيعة موضوعات المعرفة ذاتها ، وكيف تتركب وتنظم فيما بينها ؛ ولكن من المؤكد أن تصحيح طريقي في النظر إلى الأشياء قد يكون هو الكفيل بإعانتى على إدراك الأشياء على حقيقتها . حقاً إننى حينما أعمد إلى دراسة حجم النظارة التي أضعها على عيني ، ونوع العدستين المركبتين فيها ، وطريقة انكسار الأشعة على كل منهما ، فإننى لن أستطيع أن أتوصل عن هذا الطريق إلى فهم وظيفة الإبصار من حيث هى كذلك ، فضلاً عن أن هذه المعرفة (حتى ولو تهيأت لى) لن تعينى على رؤية الأشياء الواقعية على ما هى عليه . ولكن من الواضح أن اهتمامى بمراجعة العدسة التي أنظر من خلالها إلى الوجود ستكون هى الكفيلة بتصحيح وضع الأشياء أمام ناظرى . وليس معنى هذا بطبيعة الحال أن أقصر كل همى على

دراسة عدستى نظارتى ، أو إزالة ما علق بهما من غبار ، مغفلا تماما حقيقة تلك الأشياء التى أراها من خلالها ، بل لابد لى من أن أهتم بمنظارى بالقدر الذى يعينى على الرؤية الصحيحة .

وإذا كانت الروح الفلسفية فى عصرنا الحاضر قد أخذت تنصرف عن البحث فى المعرفة من أجل الاقتصاد على البحث فى الوجود ، فذلك لأن عدداً كبيراً من المفكرين المحدثين الذين وقفوا كل جهودهم على دراسة الملكة العارفة لم يستطيعوا من بعد أن يهتدوا إلى الطريق الموصل إلى الواقع . وهكذا جاء برجسون ، وشر ، وهيدجر ، وغيرهم ، فحاولوا أن يعيدوا إلى الإنسان الحديث قدرته على معرفة الوجود الحقيقى ، بعد أن لاحظوا أنه قد ضل السبيل إلى الواقع ، بسبب اعتقاده بوجود هوة غير معبورة بين الذات والموضوع . وتبعاً لذلك فقد ذهب هؤلاء إلى أن الفيلسوف يخطئ بالضرورة حين يحاول الانتقال من المعرفة إلى الوجود ، فإن الإنسان لا ينتقل إلى الوجود ، بل هو يبدأ منه . ومعنى هذا أن الروح الفلسفية المعاصرة لم تعد تقيم ضرباً من التعارض بين المعرفة والوجود ، وكأن الوجود هو مجرد موضوع تنصبه فى مقابل الذات العارفة ، بل هى أصبحت تعد المعرفة نفسها ضرباً من الوجود ، ما دامت الذات العارفة هى أولاً وقبل كل شيء ذات موجودة متصلة فى أعماق الواقع .

وإذا كان البعض قد خلط بين الفلسفة والتأمل الذاتى (أو الاستبطان) ، فتصور أن وعى الفيلسوف مستغرق بتمامه فى مضمون هذا الوعى ، وكأن فى وسع الفيلسوف عن طريق التأمل الذاتى أن يقبض بجمع يديه على وجوده الخاص بوصفه حقيقة معطاة ، فإن من واجبنا أن نقرر أن الذات ليست نشاطاً تأملياً مجرداً ، وإنما هى فاعلية ملتزمة *engagée* . وتبعاً لذلك فإن الفيلسوف لم يعد مخلوقاً انزالياً يحيا فى باطن قوقته ، بل هو قد أصبح موجوداً متفتحاً يفهم

أن ذاته لا تقوم إلا بفضل تلك العلاقات التي تربطها بالأشياء والأشخاص والعالم والتاريخ ، فتجعل منها حقيقة متماسكة مع الوجود بأسره . ولهذا يقرر بعض الوجوديين أن المشكلة الفلسفية الأولى لا تنحصر في أن نسائل أنفسنا عن طبيعة « الوعى » أو « الشعور » ، وإنما لابد لنا من أن نسائل الوعى نفسه عن طبيعة باقى الموجودات ، من حيث إن الشعور متجه بالضرورة نحو العالم الخارجى من جهة ، ونحو الموجودات الأخرى (حية كانت أم عاقلة) من جهة أخرى .

وإن الروح الفلسفية لتعرف أن الفلسفة الحقيقية لم تبدأ إلا يوم قال سقراط عبارته الخالدة : « أيها الإنسان اعرف نفسك » ولكنها ترى أن الشعور بالذات هو في صميمه شعور بفاعلية ، فهي لا تحاول أن تعرف نفسها على نحو ما تعرف أى موضوع من الموضوعات . والواقع أن بين معرفتى لذاتى ، ومعرفتى لأى موضوع ، من البون الشاسع مثل ما بين ممارستى لقدرة على أن أتصرف فيها ، وإدراكى لواقعة ليس على سوى أن أقبليها على نحو ما هى معطاة لى . فالشعور بالذات إنما يمضى فى اتجاه مضاد للتأمل الذاتى أو الاستبطان ، لأن عملية التأمل الباطنى تضطرنى إلى أن أجعل من ذاتى « منظرأ » تأمله على الطريقة النرجسية ، فأتجه ببصرى نحو ماضى حتى أعرف من أنا . وعندئذ يكون اتجاهى نحو موجود أنا لم أعد كائن ، فى حين أن الشعور بالذات يتجه دائماً نحو ما لى من قدرات ، أعنى نحو قوى هى فى حد ذاتها ليست بشيء ما لم أضعها موضع الاستعمال ، وبالتالي فإن شعورى بذاتى فى هذه الحالة إنما يتجه نحو موجود أنا لست بكائه بعد ، ولكنى أستحيل إليه فى كل لحظة بشرط أن أريد ذلك... وهكذا قد يكون فى وسعنا أن نقول إن الروح الفلسفية لا تتصور الذات على غرار الموضوع ، بل هى تفهم أن الذات فى صميمها فعل لا يكف عن التحقق ، فهى تبغى من وراء معرفتها لذاتها ، خلقها لذاتها . وليس فعل الفيلسوف بمثابة عملية

« استبطان » وإنما هو بالأحرى شعور بالذات ، والشعور بالذات هو من بين جميع أفعال التفكير (كما قال لافل) ذلك الفعل الأوحد الذى يسمح لنا بأن ننفذ إلى ينبوع الوجود الأصل ، فنذكر الوجود فى صميم عملية تكونه . وإذن فإن الروح الفلسفية روح مرنة متفتحة ، تدرك وجودها بوصفه حقيقة متغيرة هيئات أن تصبح مكتملة مغلقة ؛ فهى لا تملك سوى أن تواصل البحث دون توقف أو انتهاء ، عالمة أن الفلسفة هى كالوجود عملية « تعال » مستمرة ، وأن الحقيقة الفلسفية إنما هى فى صميمها عبارة عن بحث دائم عن « المعنى » .

٣١ — وأخيراً قد يحقّ لنا أن نقيم موازنة سريعة بين كل من الروح الفلسفية والروح العلمية ، حتى نعرف إلى أى حدّ يستطيع التفكير العلمى أن ينفذ إلى نطاق الدراسات الفلسفية . وهنا نجد أن الخاصية الأولى التى تتميز بها الروح العلمية هى خاصية البحث الحرّ : فإن العالم لا يقيم دعاويه على أية سلطة *autorité* ، دينية كانت أم اجتماعية ، بل هو ينأى بنفسه عن كل شهادة *témoignage* كائنة ما كانت ، مكتفياً بالخضوع ليقين العقل وصرامة المنهج التجريبيّ . ولا شك أن الفيلسوف حين يحرص على الاستناد إلى سلطة العقل وشهادة التجربة ، فإنه إنما يتحلّى بتلك الروح العلمية التى تقوم على البحث الحرّ والاستقلال العقليّ .

أما الخاصية الثانية التى تتميز بها الروح العلمية ، فهى النزعة الموضوعية التى تقوم على اعتبار « الواقعة » *le fait* مصدراً ، وقاعدة ، ومعيّاراً ، ومحكاً ، لكل معرفة . ومعنى هذا أن العالم يحترم الواقعة ، ويخضع كل شيء لحكم التجربة ، ويستبعد من دائرة بحثه كل ما لا يقبل القياس . والعلل التى يبحث عنها العالم ليست قوى غيبية ، أو إرادات خارقة للطبيعة ، أو موجودات سحرية خفية ، بل هى علاقات قابلة للتحقق ، بين وقائع قائمة فى العالم . أما الروح

الفلسفية ، فإنها لا تنفع بالتجربة الحسية ، بل هي تريد أن توسع من نطاق « التجربة » ، لكي تدخل فيها شتى خبراتنا البشرية . وقد سبق لنا أن رأينا أن الفلسفة — هي في جانب من جوانبها — وصف للتجربة الروحية التي يعيشها الفيلسوف ، بما فيها من عناصر وجدانية ، وأخلاقية ، ودينية ، وفنية ، وعقلية . . . إلخ . ولكن من المؤكد أن الفيلسوف مضطر إلى أن يَخْلَع على تجربته الروحية طابعاً كلياً ، وبالتالي فإنه لا بد من أن يجد نفسه ملازماً بترجمة تلك التجربة أو التعبير عنها في ألفاظ عقلية مفهومة من الجميع . وهنا قد يقال إن التفكير العلمى موضوعى لا شخصى ، في حين أن التفكير الفلسفى ذاتى شخصى . ولعل هذا ما حدا ببعض الباحثين إلى القول بأنه : « لو لم يحقق هذا العالم المعين ذلك الكشف المعين ، لحققه من بعد عالم آخر ... فهذا مندل Mendel مثلاً يكتشف قوانين الوراثة ، دون أن يعلم بأمره أحد ، ولكن هذه القوانين لم تلبث أن اكتُشِفَتْ بعد أربعين سنة ، على يد ثلاثة من العلماء فى آن واحد . أما التحفة الشعرية التي لم تُكْتَبْ ، فإنها لن تُكْتَبَ على الإطلاق » . وما يَصْدَق على التحفة الشعرية قد يَصْدَق أيضاً على المذهب الفلسفى ، فإن مذهب كل فيلسوف — فيما يرى أصحاب هذا الرأى — إنما يحمل طابعه الشخصى . ولكن الصبغة الجمالية التي يتصف بها كل مذهب فلسفى قد لا تكفى — فى نظرنا — لهدم طابعه الموضوعى . وآية ذلك أن الفيلسوف ما كان ليَخْطُ حرفاً واحداً ، لو أنه كان مقتنعاً بأن كل ما يكتبه نسبي بالقياس إليه . فأنالاستطيع أن أقول حقيقة ما ، وأن أعدّها فى الوقت نفسه حقيقتى وحدى : لأننى حين أعترف بها كحقيقة ، فإننى أعدّها فى الوقت نفسه حقيقة موضوعية مطلقة . وعلى ذلك ، فإن الفيلسوف لا يرمى فى الأصل إلى صياغة مذهب فكرى جميل ، أو نسق عقلى منسجم ، بل هو يَهْدِف أولاً وبالذات إلى بلوغ الحقيقة ، ولهذا فإنه يتطلب

الموضوعية ، ويلتزم لغة العقلية ، ويحرص على الوصول إلى « الكلى » .

والروح العلمية أيضاً تفكير نقدي يقوم على التمييز والضبط والمراجعة والدقة والصرامة . فالعالم لا يتقبل أى حكم إلاّ بعد أن يتساءل عن قيمته ، وهو لا يأخذ بأى فرض إلاّ بعد أن يتثبت من صحته عن طريق التجربة . ولهذا فإن العقلية العلمية هي بالضرورة عقلية منهجية تحرص على ربط الظواهر التي تريد تفسيرها بظواهر أخرى داخلة ضمن نطاق التجربة ، وتحاول دائماً أن تكون من مجموعها منظمة واحدة مطردة الحدوث . ونظراً لهذا الطابع النقدي الذي تتصف به الروح العلمية ، فقد ذهب البعض إلى أن العلم هو أولاً وبالذات « منهج » في التفكير ، بغض النظر عن « الموضوع » الذي يطبق عليه هذا المنهج . وليس من شك في أن التفكير الفلسفي هو أيضاً تفكير نقدي : فإن الفيلسوف حريص على التمييز بين الموضوعات المتشابهة ، فضلاً عن أنه يستند دائماً إلى استدالات عقلية صارمة ، لا يستخرج فيها من المقدمات إلا ما يترتب عليها من نتائج . وبهذا المعنى يمكننا أن نقول إن الروح الفلسفية هي في صميمها تفكير منهجي دقيق ، رائده الاهتمام بالتنظيم المنهجي ، وشعاره التسلسل المنطقي ، وقاعدته البداهة والوضوح . ومن هذه الناحية قد يكون في وسعنا أن نقول إن الروح الديكارتية تسم بطابعها التفكير العلمي كما تسم التفكير الفلسفي أيضاً .

وإذا كانت النزعة المذهبية هي أعدى أعداء الروح الفلسفية ، فربما كان في استطاعتنا أن نقرر أيضاً أن المعرفة العلمية تتصف هي الأخرى بالطابع النسبي ، الديناميكي ، الديالكتيكي . وهنا يبدو لنا تهاافت تلك النظريات العلمية التي يتمسك بها بعض الباحثين ، دون أن يمرضوها لاختبارات الضبط والمراجعة ، أو دون أن يضعوها تحت محك التجريب والمقارنة . وأما الروح العلمية الصحيحة فهي الروح الجدلية (الديالكتيكية) التي تعود دائماً إلى التحقيق التجريبي ،

لكي تصحّ مفاهيمها ، في ضوء ذلك الحوار المستمر بين « القيني » *concret* و « المجرد » *l'abstrait* ؛ بين « الواقع » و « الدهن » ؛ بين « التجريبي » البعدي *aposteriori* و « الأولي » القبلي *apriori* . وهكذا يحى الواقع فيثير جملة من الاعتراضات في وجه ذلك العقل العلمى القائم بالفعل ، وعندئذ لا يلبث هذا العقل أن يجد نفسه مضطراً إلى مواجهة تلك الاعتراضات ، والرد عليها بظريات جديدة ، لكي يعود إليها من جديد معدّلاً ومصحّحاً ، وهلمّ جراً . . . وإذن فإن من طبيعة العلم — مثله في ذلك كمثل الفلسفة — أن يظل دائماً ناقصاً غير مكتمل ، اللهم إلا إذا استحال إلى نزعة مذهبية توكيدية تمسك ببعض النظريات المتسقة المتناسكة ، على الرغم من كل تكذيب قد يحى به الواقع .

وهكذا نرى أن الروح العلمية — مثلها في ذلك كمثل الروح الفلسفية أيضاً — روح دياكتيكية تعشق المخاطرة ، وتبغض المطلق ، وتنفر من الثبات . حقاً إن كثيراً من العقول تميل إلى التعلق بالسكون واليقين والراحة الفكرية ، ولكن العالم والفيلسوف يؤثّران مخاطر البحث ومغامراته ، على أى امتلاك رخيص لبعض الحقائق الوهمية . فما يجمع بين العالم والفيلسوف إنما هو الشجاعة الفكرية ، ومحبة الحقيقة ، والنزاهة العقلية ، والأمانة العلمية ، والتسامح والتواضع . . . إلى آخر تلك الصفات الأخلاقية التي لا يمكن أن يستغنى عنها باحث يؤمن بقيمة العلم ، ويوقن بكرامة الإنسان . . . ولكننا لا يمكن أن نقنع بهذه الموازنة السريعة بين الروح العلمية والروح الفلسفية ، بل لا بدّ لنا من أن نستعرض بالتفصيل تلك الصلات الدياكتيكية المعقدة التي تجتمع بين العلم والفلسفة ، حتى نفهم على وجه الدقة طبيعة ذلك « الصراع الودى » الذى طالما نشب بينهما .

المفصل الخامس

بين العلم والفلسفة

٣٢ — إذا كنا قد حاولنا فيما سلف أن نحدد مفهوم « الفلسفة » ، وأن نتميز بعض خصائص الروح الفلسفية ، فربما كان من واجبنا الآن أن نحدد مفهوم « العلم » ، خصوصاً وقد أتينا فيما مضى على ذكر بعض خصائص الروح العلمية ، حتى يتسنى لنا أن نقف على الصلات الحقيقية التي تجمع بين « العلم » و « الفلسفة » . وسنحاول فيما يلي أن نقف وقفة قصيرة عند أشهر التصورات الذائعة للعلم ، حتى نتبين أوجه الشبه والخلاف بين كل من المعرفة العلمية والمعرفة الفلسفية . وهنا نجد أنه ليس أيسر من أن يقال إن العلم هو ضرب من المعرفة التي يحصّلها الإنسان عن العالم الخارجي . ولكننا لو عدنا إلى تراثنا العربي القديم لوجدنا أن العرب كانوا يقيمون تفرقة واضحة بين « العلم » و « المعرفة » : فالتوحيدى مثلاً يقرر في إحدى مقابساته « أن المعرفة أخص بالحواس والمعاني الجزئية ، في حين أن العلم أخص بالمعقولات والمعاني الكلية »^(١) . وقد قال غيره إنه لا يجوز أن يقال عن الله إنه « يعرف » أو إنه « عارف » ، بل ينبغي أن يقال عنه إنه « يعلم » أو إنه « عالم » . وهذه التفرقة الأولية بين « العلم » و « المعرفة » تدلنا على أن العرب قد فطنوا إلى ضرورة التمييز بين المعرفة الحسية العادية ، والعلم العقلي المنظم .

ونحن نستعمل في حياتنا العادية كلمة « العلم » دون أن نهتم بتحديد مدلولها ،

(١) أبو حيان التوحيدى : « المقابسات » ، طبعة السندوي ، القاهرة ١٩٢٩ ، ص ٢٧٢ (المقابلة ١٧٠) .

فنفقول مثلاً عن تفكيرنا إنه « علمي » ، أو نزعم لأنفسنا أن معتقداتنا « علمية » ، أو نقرر بكل نحر أننا نحيا في « عصر العلم » . وكثيراً ما نتوهم أننا أسمى بكثير من أسلافنا ، لأننا نملك تلك الحقيقة النهائية الحاسمة التي يمدنا بها العلم ، بينما كان أسلافنا عبيداً للأوهام والخرافات والأساطير ! ومن هنا فإننا نصف النظريات الحديثة في الفيزياء أو علم الأحياء بأنها « علمية » ، بينما نرفض إطلاق هذه التسمية على شتى النظريات القديمة التي كانت سائدة في مضمار الدراسات الطبيعية أو البيولوجية . وكثيراً ما يستعين أهل الصناعة وأصحاب البيوتات التجارية بكلمة « العلم » في الإعلان عن منتجاتهم ، فزاهم يتحدثون عن الأساليب « العلمية » في تسميد الأرض ، أو تنظيف الملابس ، أو تطيبب الجسم ، أو قص الشعر ، أو حتى قراءة الطالع ! ولا شك أن أمثال هذه الدعايات إنما تهدف من وراء استخدام كلمة « العلم » إلى إقناع الناس بمدى فاعلية المنتجات التي تعلن عنها ، بوصفها ثمرة لدراسة علمية أكيدة ، واختبارات معملية ناجحة .

ولكن على الرغم من هذا اللبس الكبير الذي يحيط بكلمة « العلم » ، فإن من المؤكد أن هذه الكلمة تشير في العادة إلى أية طريقة منظمة في البحث ، أو إلى أية منتجات صناعية فعالة تترتب على مثل هذا الأسلوب العقلي في البحث . فالعلوم — كما قال الفيلسوف الأمريكي المعاصر نيجل Nagel — هي الحس المشترك نفسه ، ولكن في صورة منظمة مُصنَّفة^(١) . Sciences are simply organized or classified common sense . وهذا التعريف يربط العلم بالحس المشترك ، فيقرر أن الصلة وثيقة بين المعرفة العلمية المنظمة وبين الإدراك الحسي العادي ، بدليل أن تاريخ التفكير العلمي نفسه يشهد بأن علم الهندسة.

E. Nagel : « The Structure of Science » N-Y., Harcourt, (١)
1961, p. 3.
(٩ — فلسفة)

قد نشأ عن مشكلات قياس الأرض ومسح الحقول ، كما نشأ علم الميكانيكا عن المشكلات التي أثارها الفنون المعمارية والحربية ، وعلم الأحياء عن مشكلات الصحة البشرية والتربية الحيوانية ، وعلم الكيمياء عن المشكلات التي أثارها صناعات المعادن والصباغة ، وعلم الاقتصاد عن مشكلات إدارة البيوت والتنظيم السياسى . . . الخ . فالفنون العملية — فيما يرى أصحاب هذا التعريف — هي التي عملت على ظهور العلوم وترقيتها ، ومن ثم فإن الصلة وثيقة بين الحس المشترك الذي يدرك العالم الخارجي ، والمعرفة العلمية المنظمة التي تصنف معلوماتنا العادية وتفسرها . ونحن لا ننكر أن مطالب الحياة العملية كانت عاملا من العوامل الهامة التي عملت على تنشيط التفكير العلمى ، كما أننا لا ننكر أن العلوم تمثل أجهزة منظمة من المعارف ، ولسكننا نلاحظ أولا أن المعرفة العلمية أعم بكثير من المعارف الحسية العادية ؛ لأنها لا تقتصر على ملاحظة الأشياء التي تهمننا (إنتاج حقلنا أو زيادة غلتنا مثلا) بل هي تعدو هذه المجالات العملية ، لكي تتخذ صبغة نزيهة عديمة الغرض ، فتشمل ملاحظات أكثر عمومية واتساعا . هذا إلى أنه ليس يكفي أن تكون المعلومات التي يجمعها الباحث منظمة أو مصنفة أو مبوبة ، لكي ندخلها في عداد المعارف العلمية ، فإن السائح الذي يزور مجاهل إفريقية قد يجمع في أوراقه معلومات منظمة مبوبة عن الأماكن التي يرتادها ، كما أن أمين المكتبة قد يفهرس ماتحت يده من كتب ومؤلفات في قوائم منظمة مصنفة ، دون أن يعدّ الجهد الذي يقوم به الواحد منها « علما » بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة . وربما كانت الصعوبة الحقيقية التي تحول دون قبولنا لهذا التعريف أنه لا يحدد لنا على وجه الدقة ماهو نوع التنظيم أو التصنيف الذي يميز العلوم عما عداها من ضرب المعرفة البشرية الأخرى .

فحسب ، بل المهم هو ربطها والعمل على تفسيرها أيضاً . ولهذا قد وصف بعضهم العلم بأنه مجرد « تفسير منهجي يقوم على تنظيم المعرفة وتصنيفها » . ومعنى هذا أن السمات المميزة للبحث العلمى هى التفسير ، وإقامة علاقات الارتباط أو التوقف بين القضايا التى قد تبدو فى الظاهر غير مترابطة ، والعمل على تنظيم العلاقات القائمة بين عناصر المعرفة المتباعدة أو المشتتة بطريقة منهجية واضحة . فالنيل الأعلى الذى يهدف إليه أى علم إنما هو الوصول إلى درجة عليا من « التفسير المنهجي » systematic explanation ، حتى يتحقق له ربط معلوماته بطريقة استنباطية دقيقة ، كما هو الحال فى الهندسة البرهانية أو علم الميكانيكا . ولعل هذا ما حدا بالعالم الرياضى الكبير أينشتين Einstein إلى القول بأن : « موضوع أى علم ، سواء أكان هو العلم الطبيعى أم علم النفس ، إنما هو تنظيم تجاربنا والربط بينها على صورة نسق منطقي » : The object of all science, whether natural science or psychology, is to co-ordinate our experiences and to bring them into a logical system. (The Meaning of Relativity). والجديد فى هذا التعريف أنه يُبرز أهمية التنظيم المنطقي فى مجال العلم فيبين لنا أن هدف العلوم المختلفة لا يقف عند تفسير الظواهر بإرجاعها إلى بيّنات يمكن ضبطها أو التثبت من صحتها ، بل هو يمتد أيضاً إلى ربط شتى تجاربنا من أجل وضعها فى نسق منطقي محكم . فالعلم يكشف لنا عما تنطوى عليه الظواهر من « أنماط علاقات » ، لكي لا يلبث أن يقوم بعملية « توحيد » unification يحاول فيها التأليف بين هذه العلاقات على صورة « نظام استنباطي » يجعل منها مبادئ منطقية دقيقة صارمة .

وقد اهتم كارل بيرسون Karl Pearson بتحديد وظيفة العلم فى كتابه المشهور « Grammer of Science » . فنراه يقول : « إن وظيفة العلم هى تصنيف الحقائق ، والتعرف على ما بينها من تنابع ، والكشف عن دلالتها النسبية » .

«The classification of facts, the recognition of their sequence and relative significance, is the function of science» .

ثم يستطرد بيرسون فيحدث عن الاتجاه العلمى لكى يصفه لنا بأنه « عادة تكوين الأحكام بالاستناد إلى الوقائع وحدها ، دون التأثير بالوجدان الشخصى ، أو دون الوقوع تحت تأثير الأهواء الذاتية الخاصة » . والملاحظ فى تحديد بيرسون لوظيفة العلم أنه ينص على أهمية عملية « التصنيف العلمى » ، ولكنه لا يقتصر على الإشارة إلى ضرورة تنظيم الوقائع ، بل هو يشير أيضاً إلى ضرورة التعرف على ما بينها من تتابع أو تعاقب أو تسلسل ، مع الاعتراف بما لكل واقعة منها من دلالة نسبية أو معنى محدود . وفضلاً عن ذلك ، فإن هذا الباحث حريص أيضاً على إبراز النزعة الموضوعية فى العلم ، فنراه ينص على أهمية استبعاد الأحكام التحيزية ، والعمل على تكوين عادة النزاهة الفكرية التى تقوم على التحرر من الوجدان الشخصى . ومعنى هذا أن الروح العلمية تفرض على صاحبها القيام بمجهود شاق فى سبيل العمل على « استبعاد ذاته » self-elimination من شتى الأحكام التى يقوم بإصدارها .

وربما كان فى وسعنا أيضاً أن نشير إلى تعريف سليفان J. W. Sullivan للعلم فى كتابه القيم : « أسس العلم الحديث » : « The Bases of Modern Science » حيث نراه يقول : « إن المقصد الأسبى للعلم هو أن يقدم لنا وصفاً رياضياً شاملاً للظواهر ، فى عبارات تشمل أقل عدد ممكن من المبادئ والحقائق العقلية » . وربما كان من بعض مزايا هذا التعريف الجديد للعلم أنه ينص على أهمية صياغة المعارف العلمية فى صورة رياضية دقيقة ، فبين لنا أن الرياضيات هى اللغة الوحيدة التى يمكن أن ينطق بها العالم ، لأنها تركز فى رموزها قدراً هائلاً من النتائج ، فضلاً عن أنها تكشف لنا عن وجود انسجام حقيقى بين طبيعة الكون نفسه من جهة ، ولغة الرياضيات الدقيقة الصارمة من جهة أخرى . هذا إلى

أن سليشان يشير أيضاً إلى ضرورة الالتجاء إلى أقل عدد ممكن من « المبادئ »
 فينص بذلك على أهمية « عامل البساطة » simplicity factor الذى يقضى
 باختيار أبسط التفسيرات ، واستخدام أقل قسط ممكن من المفاهيم العقلية .

٣٤ — والظاهر أن التقدم الهائل الذى أحرزته الرياضيات فى السنين
 الأخيرة قد أدى إلى إحداث تغير شامل فى مفهوم « العلم » ؛ فلم يعد المهم
 فى البحث العلمى هو مجرد الملاحظة أو الملاحظة ، بل أصبح المهم هو رد وقائع
 الحس إلى أرقام تقرأ على مرقم ومقاييس ، وترجمة الظواهر الطبيعية إلى لغة
 الرسوم البيانية واللوحات الفوتغرافية التى تجعل منها مجرد رياضة تطبيقية . وتبعاً
 لذلك فقد ذهب بعض فلاسفة العلم إلى أن مشكلة المعنى meaning قد جاءت
 فاحتلت مكان الصدارة بدلاً من مشكلة الملاحظة observation ، إذ تحقق
 العلماء من أن إمدادات الحس sense-data إنما هى أولاً وقبل كل شيء
 مجرد رموز : symbols . وهذا الفهم الجديد للعلم هو الذى حدا ببعض الباحثين
 إلى القول بأن بناء المعرفة البشرية لم يعد يقوم على مجموعة هائلة من التقارير
 الحسية أو الملاحظات التجريبية ، بل أصبح يقوم على وقائع هى فى صميمها مجرد
 رموز ، وقوانين هى منها بمثابة المعانى أو الدلالات : facts that are symbols
 and laws that are their meanings . وهكذا أصبحت الوقائع العلمية فى نظر
 هؤلاء مجرد صياغات رمزية ، وصارت القوانين مجرد دلالات رياضية . ومعنى
 هذا أن النزعة الرمزية : symbolism قد جاءت فاحتلت مكان النزعة التجريبية
 وبذلك أصبح فهم العلم يقتضى العمل على تحليل الرموز اللغوية التى يقوم عليها
 بناء كل علم من العلوم . وبعد أن كان مفتاح العلم فى العصور السابقة هو تلك
 « المعطيات الحسية » التى كانت توصف بالصلابة والجود ، أصبح مفتاح العلم

اليوم إنما يكن فيما تنطوى عليه « الرمزية » من قوة ومتانة^(١)

بيد أن بعض فلاسفة العلم — من أمثال بَشَلَار Bachelard — حريصون على تفسير العلم بالرجوع إلى مفهومي النزعة الواقعية réalisme والنزعة العقلية rationalisme ، فترام يقولون إن العالم لا يدرك الوجود بأسره ككتلة واحدة متماسكة ، لا عن طريق التجربة وحدها ، ولا عن طريق العقل وحده . وليس تاريخ العلم في نظرم سوى تلك المحاورة التي دامت قرونًا عدة بين « العقل » و « العالم » أو بين « النظرية » و « التجربة » . فليس في وسعنا أن نعدّ العالم حقيقة متباعدة ، متماسكة ، غُفلاً ، لا معقولة ، بل لابدّ لنا من أن نقرر منذ البداية أن الواقع العلمي هو على صلة دياالكتيكية بالعقل العلمي . وسواء نظرنا إلى العلوم التجريبية أم العلوم الاستنباطية ، فإننا لابد من أن نلتقي بهذا الحوار الدياالكتيكي بين النزعة الواقعية والنزعة العقلية في نطاق كل نشاط علمي . ولهذا يقرر بشلار « أنه بمجرد ما ينظر الباحث إلى جوهر النشاط العلمي ، فإنه سرعان ما يتحقق من أن النزعة الواقعية والنزعة العقلية تتبادلان النصائح فيما بينهما إلى غير ما حد^(٢) . ومعنى هذا أن الصلة وثيقة بين التجربة والنظرية : لأن العالم الذي يحرب في حاجة دائماً إلى أن يستدل ، كما أن العالم الذي يستدل في حاجة دائماً إلى أن يحرب . فليس ثمة منهج تجريبي صرف ، أو منهج عقلي صرف ، بل لابد لكل علم من أن يستند إلى التجربة والنظرية معاً . بل ربما كان الأدنى إلى الصواب أن نقول إن الإنسان في حاجة إلى نظرية لكي يلاحظ لوقائع ، كما أنه في حاجة إلى وقائع لكي يركب النظرية . فليس العلم مجرد

Susanne A. Langer : « Philosophy in a New Key » , (١)
Mentor Book, p. 29.

G. Bachelard : « Le Nouvel Esprit Scientifique » , P.U.F., (٢)
1946, pp. 6 & 9.

ملاحظة ، أو تجريب ، أو تحليل ، بل هو أيضاً تعميم ، وتفسير ، وتركيب .
ولهذا يقرر بشلار مرة أخرى أن « التفكير العلمى الحقيقى . . . هو ذلك الذى
يقراً المركب فى البسيط ، وينطق بالقانون بمناسبة الواقعة ، ويتحدث عن القاعدة
حين يكون بصدده المثال »^(١).

٣٥ - والواقع أننا لو اقتصرنا فى تعريفنا للعلم على القول بأنه تلك النزعة
الوضعية التى تهدف إلى ملاحظة الوقائع ، لكان فى هذا التعريف خاطئ شنيع
بين المعرفة العلمية الدقيقة والمعارف الحسية الموهومة . وآية ذلك أن مفاهيم العلم
تختلف اختلافاً جوهرياً عن مفاهيم النزعة التجريبية التى تتوقف عند ما يقدمه لنا
الإدراك الحسى العادى من موضوعات منفصلة مشتتة . وهكذا نجعل النزعة
التجريبية نقطة ابتدائها هى تسجيل الوقائع البينة ، على حين يجب العالم فيفضح
تلك البيانات الكاذبة ، لكي يعمل على اكتشاف القوانين الخفية . ولعل هذا
هو ما حدا بيشلار إلى القول بأنه : « لا علم إلا بما هو خفى »^(٢) ، ولنضرب
لذلك مثلاً فنقول إن واقعة دوران الأرض لم تصبح واقعة علمية عن طريق
الملاحظة الحسية العادية ، بل هى أصبحت كذلك حين تقدمت المعارف العلمية
فأصبح فى وسعها أن تهدم سائر الأدلة الحسية المباشرة على ثبات الأرض ! ومعنى
هذا أن دوران الأرض حول الشمس إنما هو « فكرة » قبل أن يكون .
« واقعة » ؛ ما دامت هذه الواقعة لا تحوى فى الأصل أية صبة تجريبية ، ولكن
العقلية العلمية قد استطاعت أن تضع هذه الواقعة فى موضعها داخل مجال عقلى
من الأفكار ، فاستحالت فكرة دوران الأرض إلى واقعة علمية بمعنى الكلمة .

G. Bachelard : « Le Nouvel Esprit Scientifique ». P.U.F., (١)
1946, pp. 6 & 9.

G. Bachelard : « Le Rationalisme Appliqué », P.U.F., (٢)
1949, pp. 83 & 123.

ولم تلبث هذه الفكرة أن طبقت في مجالات عديدة ، فكان في تطبيقها قضاء مُبرَم على النظرية القديمة القائلة بثبات الأرض . ولا شك أنه حين تندرج الواقعة في شبكة من « الأسباب العقلية » *raisons* فإنها عندئذ تأخذ مكانها بين غيرها من الوقائع العلمية المتماصة للتمسكة بالمتسلسلة بطريقة متينة يقينية . وعن طريق هذا التسلسل المتصور بطريقة عقلية منظمة ، تجمّع الوقائع الشاذة فتكتسب صبغة شرعية بوصفها « وقائع علمية » بمعنى الكلمة ^(١) .

بيد أن هذا لا يعنى أن يكون العلم في صميمه مجرد « تأمل خالص » : فإن نظرة واحدة يلقيها المرء على النشاط العلمى لمى الكفيلة بأن تقنعه بأن العلم في جوهره جهد أو عمل ، وأن العقاية العلمية في صميمها عقلية عاملة أو فعالة . ولسنا نعى ألا أهمية في العلم على الإطلاق للنظر أو الفهم أو التأمل ، بل كل مانعنيه أنه لا قيام للعلم بدون التركيب أو البناء أو الإنشاء . والواقع أن النشاط العلمى هو في آن واحد نظريات *théories* وأجهزة أو أدوات *instruments* ، فلا يمكن أن يقوم التفكير العلمى على نزعة عقلية صورية مجردة كلية ، بل هو لا بد من أن يقوم على نزعة عقلية مرنة ، عيضية ، مفتوحة *rationalisme ouvert* . ولا بد لفلسفة العلم من أن تراعى ذلك الحوار الشيق الذى يتم في نطاق المعرفة العلمية بين « العقل » و « التكنية » ، حتى تفهم كيف أن العقل العلمى مضطر دائماً إلى تقبل شتى التحديدات الجديدة التى تجمّع له من قبيل التجربة . ومن هنا فإنه لا يمكن أن تقوم في نطاق العلم سوى « نزعة عقلية تطبيقية » *appliqué* تظل وثيقة الصلة بكل ما يستجد في مجال التجريب من خبرات جزئية خاصة . وإذا كانت العقلية العلمية بطبيعتها عقلية مرنة لا تكاد تكف

G, Bachelard : « Le Rationalisme Appliqué », P. U. F., (١) 1949, pp. 38 & 123.

عن الحركة والتقدم ، فذلك لأن التفكير العلمى لا بد بالضرورة من أن يفيد من أخطائه وعثراته ، فضلاً عن أنه لا يشعر بذاته إلاّ من خلال تلك الخطوات التى تتخذ للعمل على تطبيقه . وتبعاً لذلك فإنه لا بد من ربط العلم بالتطبيق ، ما دامت الصلة وثيقة بين العقل والتجريب .

غير أن الفلاسفة العمليين من أنصار المذهب البرجماتى قد غالوا فى تأكيد أهمية الجانب التكنيكي فى العلم حتى لقد كتب جون ديوى يقول : « إنما العلم فن تطبيقى أو مشروع عملى »^(١) . وحتى القوانين العلمية التى يُفترض فيها أن تبنى مفسرة للظواهر الطبيعية إنما هى فى نظر ديوى مجرد وسيلة لإجراء صفقات ناجحة مع الموجودات العينية ، أعنى أنها أسلوب ناجع فى التعامل مع الوقائع الحسية ، أو هى — على حد تعبير هذا الفيلسوف الأمريكى — طريقة خاصة لتنظيم علاقاتنا بالطبيعة . فليس العلم فى نظر فلاسفة البرجماتية اكتشافاً تدريجياً للعلاقات الموضوعية الكامنة فى صميم الواقع ، وإنما هو مجرد طريقة عملية ناجحة للوصول إلى تحقيق بعض الأغراض البشرية النافعة . وإذا كان كثير من الفلاسفة قد اهتموا بالكشف عن أهمية « النظرية » فى مجال العلم ، فإن ديوى يأبى إلا أن يجعل من العلم مجرد صناعة تطبيقية . ولهذا فإن ديوى يفسر التقدم العلمى بأنه سلسلة من البحوث التى ظهرت لحل بعض المشكلات العملية الخاصة : فقد واجهت البشر فى كل زمان ومكان معضلات عملية اضطرتهم إلى ابتكار حلول تطبيقية ، فكان من ذلك أن تقدمت المعرفة العلمية ، واتسعت رقعتها ، وتعددت مكاسبها . ولكن ديوى ينسى أو يتناسى أن العلم ليس مجرد صفقة تجارية يعقدها الإنسان مع الطبيعة ، بل هو أيضاً نشاط عقلى يقوم به الإنسان من أجل بناء عالم يكون على صورة العقل نفسه . فليس العلم مجرد مشروع عملى يحققه الإنسان

John Dewey • Essays in Experimental Logic • N-Y., (١)
1916, p. 413

لبلوغ أهداف خاصة أو تحصيل نتائج معينة أو جنى ثمار محددة ، بل هو مخاطرة فكرية هائلة يقوم بها ذلك الكائن الناطق الذى يعشق الصعاب ويهوى المجاهل ، لكن يستمتع بلذة الفهم ، ويستمرىء عذوبة الكشف عن المجهول ! حقاً إنه لا بد من أن تكون للعلم غاية ، ولكن العالم حين يعمل ، ويجاهد ، ويشقى ، فإنه إنما يريد من وراء هذا كله أن يرى ، أو على الأقل (كما قال بوانكاريه) أن يتمكن غيره يوماً من أن يروا^(١) .

٣٦ - فإذا نظرنا الآن إلى تاريخ التفكير البشرى ، ألقينا أن تطور الفلسفة قد ارتبط إلى حد كبير بتطور العلم . ولو أننا رجعنا إلى بعض محاورات أفلاطون (مثل محاولة مينون أو محاولة تيتاتوس) لنحققنا من أن اكتشاف الفيثاغوريين لبعض الحقائق الرياضية قد كان أصلاً من الأصول الهامة التى صدرت عنها نظرية أفلاطون فى المثل . ولا نرانا فى حاجة إلى القول بأن فلسفة ديكارت مدينة بالكثير من أصولها لما وصل إليه العلم على يد جاليليو وبعض معاصريه . ولو أننا ألقينا نظرة على مذهب ليبنتس لتبين لنا أن من المستحيل علينا أن نفهم هذا المذهب إن لم نعمل حساباً للتقدم الذى أحرزه حساب التفاضل والتكامل فى عصر ليبنتس . وهكذا الحال أيضاً بالنسبة إلى فيلسوف مثل هيوم ، أو فيلسوف آخر مثل كانت ، فإنه لولا تأثير نيوتن لما حاول هيوم أن يبحث فى مجال الذهن عن قانون مماثل لقانون الجاذبية السائدة فى مجال الطبيعة ، ولولاه أيضاً لما حاول كانت أن يجد أسساً عقلية يقيم عليها اكتشافات نيوتن أو أن يبحث عن دعائم قوية يسند إليها بناء الفلسفة والعلم معا . ولو شئنا أن نعدد الأمثلة على وجود تعاون وثيق بين العلم والفلسفة ، لما وجدنا حداً نقف عنده فى بيان الصلات المتبادلة بين العلماء والفلاسفة ، خصوصاً فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

Cf. Henri Poincaré : «La Valeur de la Science» Flam- (١) marion, 1908, p. 275.

ولكن على الرغم من وجود علاقات وثيقة بين العلم والفلسفة ، فإن من الضروري مع ذلك أن نميز بينهما موضوعاً ومنهجاً . وهنا نجد أولاً أن موضوع العلم عموماً (وحينما نقول العلم فإننا قد نعنى على وجه الخصوص علم الطبيعة) لا يدع مجالاً للتقدير الشخصى أو الحكم الذاتى : فنحن نقيس سرعة الأجسام أثناء سقوطها ، والنسب المختلفة لطواهر الاحتراق مثلاً ، وهذه الأقيسة واحدة بالنسبة إلى الجميع . وأما فى مجال الفلسفة ، فإن من الواضح أن تقدير شدة أية عاطفة ، أو مدى وضوح أية برهنة ، يتوقف غالباً على الحالة النفسية لكل فرد منا على حدة ، كما هو الحال مثلاً بالنسبة إلى المؤلفات الفنية أو الأدبية . وإذا صح ما قاله لدانتك Le Dantec من أن « العلم لا يكون إلا بما يقبل القياس ^(١) » ، فإن الفلسفة ليست من العلم فى شيء ، لأن موضوعها بطبيعته لا يقبل القياس . وفضلاً عن ذلك ، فإن اكتشافات العلوم قد لا تغير فى كثير أو قليل من حياتنا الأخلاقية ، ومن هنا فإننا قد لا نجد صعوبة فى تقبلها والأخذ بها . وأما بالنسبة إلى الفلسفة ، فإن وجود الله أو عدمه ، وتمتع الإنسان بالحرية أو خضوعه للجبرية ، هى بلا شك من الحقائق التى قد توجه سلوكنا وتتجسم فيه . وتبعاً لذلك فإن من الصعوبة بمكان فى كثير من الأحيان أن نتقبل بعض نتائج الفلسفة ، إذ أن مثل هذه النتائج قد تستلزم ضرباً من الاستعداد الأخلاقى .

وبينا يمشى العالم نحو الحقيقة بذهنه ، يقول أفلاطون إن الفيلسوف لا بد من أن يتجه نحو الحقيقة بكل نفسه ، كما يتوجه الفنان نحو الشيء الجميل بكل جوارحه . وإذا صح ما يقوله البعض من أن الأسلوب هو الشخص نفسه ، فقد يكون من الصحيح أيضاً أن نقول إن الفلسفة هى الإنسان نفسه . وإذا كان الشخص يعمل من العالم رجلاً فنياً فى دائرة اختصاصه ، فإن الفيلسوف

• Il, n'y a de science que du mesurable », a dit Le Dantec (١)

الجدير بهذا الاسم ليس مجرد إنسان فنى قد تخصص فى دائرة بعينها ، إذ الفلسفة ليست من التخصص فى شىء . والواقع أن الإنسان ليس « مرتبطاً » engagé بالعلم ، بل إن كل ما بينه وبين العلم من ارتباط لا يكاد يعدو كونه عاملاً أو موضوعاً يدرسه العلم . وعلى العكس من ذلك نجد أن الإنسان مرتبط كل الارتباط بفلسفته ، وهو لا يتفلسف باعتباره فيلسوفاً ، بل باعتباره إنساناً . وما الفلسفة فى حقيقة الأمر سوى العمل على إعادة خلق حياتنا وفقاً لما تقتضى به « الإنسانية » ، أعنى وفقاً لمقتضيات العقل .

ومع ذلك فإن الفلسفة جديرة بلقب « العلم » ، لأن اهتمام الفيلسوف بالتفسير العقلى هو بلا شك خاصية تميزه عن كل من الفنان والأديب . وإذا كان العلم الحقيقى هو العلم بالعالم ، فإن الفيلسوف جدير بلقب العالم أكثر من أى إنسان آخر . والواقع أن الفيلسوف يلاحظ ، لالكي يصف ، ولكن لالكي يفهم ؛ وإذا كانت العاطفة قد تؤثر أحياناً على أفكاره ، فإن ما يرمى إليه الفيلسوف عادة إنما هو الفكر العقلى المحض (أعنى أن مثله الأعلى دائماً هو التفكير النزيه الخالص) . هذا إلى أن الفيلسوف ، فى بحثه عن العلل ، كثيراً ما يضى إلى أبعد مما يضى إليه العالم : إذ بينما يتوقف العالم عند العلل المباشرة مفسراً الظواهر بعضها ببعض (فيفسر الغليان بالحرارة ، والحرارة بالاحتراق ... إلخ) ، نرى الفيلسوف يبحث دائماً عن العلل الأخيرة (أو العلل القصوى) .

٣٧ — وقد يكون فى وسعنا أن نقول إن العلم والفلسفة يقدم كل منهما للآخر خدمات جليلة ، على الرغم من كل تعارض ظاهرى بينهما . والحق أن تلك النظرات السطحية إلى العلم والفلسفة هى الأصل فى القول بوجود تعارض جوهرى بينهما ، ولكننا لو أنعمنا النظر لوجدنا أن الفيلسوف كثيراً ما يجعل من الوقائع التجريبية نقطة بدايته . حقا إن من الواجب علينا دائماً أن نرفض

كل نزعة علمية متطرفة scientisme يكون من شأنها تأليه العلم وجعله ضرباً من « المطلق » ، ولكن من واجبنا أيضاً أن نتذكر أن التجربة هي نقطة البدء في كل معرفة جدية . وإذا كان الفلاسفة قد دأبوا حيناً من الزمن على الاكتفاء بمعطيات التجربة العامة المبتذلة ، فإن من المؤكد اليوم أن الاستعانة بالمكتشفات العلمية الصحيحة كفيلاً بأن تعين الفيلسوف على تحقيق قسط كبير من التقدم . وليس من شك في أنه لم يعد في استطاعة أحد اليوم أن يعرض لدراسة مشكلة ميتافيزيقية خطيرة كمشكلة طبيعة الحياة دون أن يكون ملماً بالكثير من المعارف البيولوجية ، كما أنه لم يعد في وسع أحد أن يقوم بدراسة أو فهم العلاقات الموجودة بين النفس والبدن دون أن يكون قد أخذ بقسط وافر من علم وظائف الأعضاء — أو الفسيولوجيا — .

أما إذا نظرنا إلى العالم نفسه ، فإننا نلاحظ أنه يسلم ببعض المبادئ الفلسفية (كمبدأ العلية أو مبدأ الحتمية) دون أن يحرص على مناقشتها ، تاركاً للفيلسوف مهمة البحث عما لها من قيمة . هذا إلى أنه إذا كان العالم يتوقف في العادة عند الحال المباشرة ، فإن الفيلسوف يواصل عمله بأن يبحث عن اللل النهائية أو اللل القصوى . فضلاً عن ذلك ، فإن الفيلسوف يهتم بملاحظة طرق العلماء في البحث ، محاولاً أن يستخلص منها للأجيال المقبلة ، منهجاً أو أدوات جديدة للبحث تكفل لهم إحراز نجاح مطرد . . .

وقد قيل : « إن خير أمانة للروح الفلسفية أن يهوى المرء شتى العلوم » . وربما كان في وسعنا أيضاً أن نقول : « إن خير أمانة للروح العلمية أن يحب المرء الفلسفة » . وليس بالأمر العسير أن ندلل على صحة ما نقول ، فإن نظرية واحدة يلقبها المرء على تاريخ الفلسفة والعلم منذ أيام ديكارت حتى أيام هنري بوانكاريه لم تكن الكفيلة بإظهارنا على أواصر الصداقة القائمة بين العلم والفلسفة .

وقد يقع في ظن البعض أن الفلسفة تأمل عقلى عقيم ، بينما العلم دراسة عملية تطبيقية ، ولكن الواقع أن كلا من العلم والفلسفة هما في أصلهما نظر *spéculation* يُقصدُ منه المعرفة للمعرفة . فليس الغرض من العلم مجرد « القدرة » على التحكم في الطبيعة ، كما ذهب بيكون ، بل إن من شأن العلم أيضا أن يكشف عن الحقيقة ، وأن يزيد من كرامة العقل البشرى . وقد لاحظ بعض المفكرين أنه كلما كانت بحوث العلماء نزيهة شاملة غير مغرضة ، كانت التطبيقات العملية المترتبة على أنظارتهم العقلية أبعد مدى وأوسع مجالا . والواقع أن ما يميز الروح العلمية على وجه التجديد إنما هو الإيمان بالحقيقة ، والإخلاص المتزج بالنزاهة الفكرية ، والصبر في البحث ، والتواضع العميق الذي لا يخلو من اعتراف بسعة المشاكل ، والحس الدينى الذى ينطوى عليه شعور العالم بما فى الطبيعة من جلال يستحق الإعجاب . وحينما يقول بلوندل — مثلا — إن روح العلم لا تسكاد تزداد عن علم الروح ، فإنه يعنى بذلك أن العلم من خلق تلك الروح الإنسانية التى تظل دائما أسمى وأرقى من كل ما تحقق من كشوف علمية وتطبيقات عملية ، بحيث قد يكون فى وسعنا أن نقول إن العلم يستمد قيمته من ذلك العقل الإنسانى الذى يؤكد نفسه فى كل خلق أو إبداع أو اختراع علمى .

٢٨ — بيد أن بعضاً من الفلاسفة — مثل أوجست كونت ، وهربرت سبنسر ، وبرتراند رسل — يريدون للفلسفة أن تصبح علمية نحضة . ونحن نجد مثلا أن أوجست كونت — فى قانونه المسمى بقانون الأطوار الثلاثة — يقف على الفلسفة العَصْرَ الوسيط ، فيجمل من الميافيزيقا همزة الوصل أو حلقة الاتصال بين العصر الدينى والعصر العلمى . والحق أن كونت نفسه لم يكن إلا مجرد فيلسوف ؛ وهو قد قدّم لنا فلسفة وضعية أراد لها أن تكون فلسفة علمية . والفكرة الأساسية فى المذهب الوضعى هى رفض كل ما للمعرفة الفلسفية من أولوية

واستقلال *autonomie* ، من أجل إخضاعها إخضاعاً تاماً مطلقاً للمعرفة العلمية .
 ثم جاء رسل فحاول من جديد أن يجعل الفلسفة تابعة للعلم وقال إن على الفلسفة
 أن تستمد من علوم الطبيعة كل ما تصدر من أحكام . ومعنى هذا أن للثقل
 الأعلى للفلسفة لابد من أن يكون مثلاً علمياً محضاً ، لأن مجال البحث في الفلسفة
 لا ينبغي أن يتجاوز دائرة المشكلات التي لم يتحكم العلم بعد في دراستها بطريقة
 علمية محضة . فليس من مهمة الفلسفة — فيا يرى رسل — سوى أن تمهد الطريق
 أمام العلم . وتبعاً لذلك فإن من واجبنا أن نستبعد من دائرة الفلسفة كل نزعة
 رومانتيكية وكل نزعة صوفية . وإياه لمن العبث أن نلتبس لدى الفلسفة « دواء
 شافيا لكل آلامنا العقلية » ، بل ربما كان الأجدى علينا أن نتممق في صبر
 وتواضع دراسة المشكلات الفلسفية واحدة بعد الأخرى . (« التصوف والنطق »
 الفصل ١ ، ٦) .

يبد أن ثمة موضعاً للتساؤل عما إذا كان من الممكن حقاً أن تكون ثمة
 فلسفة علمية بمعنى الكلمة — على نحو ما أراد رسل — أو ما إذا كان قيام
 الفلسفة نفسها رهناً بامتلاكها لطريقة خاصة في المعرفة تكون متمايزة عن كل
 أسلوب علمي في المعرفة . وهنا يقول برديف — أحد فلاسفة الوجود الروسين —
 إن النزعة العلمية للمتطرفة *scientisme* عاجزة كل العجز عن تفسير واقعة العلم ،
 بل مجرد إمكان قيام معرفة إنسانية ، لأن مجرد وضع المشكلة يعدو هو نفسه
 حدود العلم . والواقع أن كل شيء — في نظر النزعة العلمية للمتطرفة —
 هو بطبيعته موضوع ، بما في ذلك الذات نفسها ، فإنها هي الأخرى ليست
 سوى مجرد موضوع ضمن غيرها من الموضوعات — . ولكن الحق أنه لا يمكن
 أن تكون ثمة فلسفة علمية ، لأن لموضوع الفلسفة مناهج مختلفة كل الاختلاف
 عن مناهج العلم أو العلوم الوضعية ، ولأنه لمن الحال تماماً أن نستخلص من

المُعْطَيَات الوضعية بطريقة مباشرة فلسفةً ما بمعنى الكلمة . فالفلسفة العلمية - فيها يرى برديف - هي في صميمها إنكار لكل فلسفة ، ولما للفلسفة من أولوية أو أسبقية . وهكذا يَخْلُصُ برديف إلى القول بأن « فلسفة العلوم هي فلسفة أولئك الذين ليس لديهم شيء يقولونه على الإطلاق في الفلسفة »^(١) .

ولكن هل يكون معنى هذا أن ليس ثمة علاقة أصلاً بين الفلسفة والعلوم ؟ هذا ما يجيب عليه برديف بقوله إن العلم نفسه قد نشأ عن الفلسفة ، كما أنه قد شَبَّ وترعرع في أحضانها ، ولكن الطفل لم يلبث أن تَمَرَّدَ على أمه ، وكان الفلسفة لم تَكُنْ يوماً هي الأصل في كل معرفة علمية . ويستطرد برديف فيقول : إنه ليس في وسع أحد يفكر أن على الفلسفة أن تسير تطور العلم ، وأن تضع نتائج العلوم المختلفة موضع الاعتبار ، ولكن هذا لا يَنْبَغِي في نظره أن تَنْبَغِي الفلسفة أسيرة للعلوم الجزئية في تأملاتها العليا ، أو أن تعمل على محاكاة تلك العلوم مأخوذة في ذلك بسحر النجاح الخارجى الذى أحرزته تلك العلوم .

« إن الفلسفة هي المعرفة ، ولكن من المستحيل أن نوحِّدَ بين هذه المعرفة وبين المعرفة العلمية . . . والحق أن الفلسفة هي نَسِيجٌ وَحْدَهَا sui generis ، فليس في وسعنا أن نردها إلى العلم أو إلى الدين » . ولئن كانت الفلسفة بمعنى ما من المعاني قَرَعاً من فروع المعرفة ، أو جانباً من جوانب الثقافة ، إلا أنها في صميمها ثقافة روحية قائمة بذاتها ، وهي مستقلة عن كل من العلم والدين ، على الرغم من كل ما يجمع بينها وبين العلم والدين من روابط وثيقة معقدة . وقد يكون من خطأ الرأى أن نتصور أن مبادئ الفلسفة تتوقف بتامهما على نتائج العلم أو على تقدم المعارف العلمية ، فإن الفلاسفة في الحقيقة لا يستطيعون أن تنتظر العلم حتى تأخذ نفسها بما حقق من كشف . هذا إلى أن العلم نفسه في تغير مستمر ،

(١) « حجة تأملات في الوجود » ، ترجمة فرنسية ، ص ٢١ .

إن نظرياته وفروضه لا تثبت على حال ، كما يظهر مثلاً بالنسبة إلى علم الطبيعة الذى اختلفت عليه أخيراً تقلبات هائلة وثورات شاملة . أما بالنسبة إلى الفلسفة فإن أحداً لا يستطيع أن يزعم أن نظرية أفلاطون في المثل (مثلاً) قد أصبحت عتيقة بالية بسبب الاكتشافات العلمية الحديثة ، كما أن أحداً لا يجرؤ على القول بأن منطق هيجل أو منهجه الجدلى قد صار في خبر كان بسبب ما أحرزه العلم من تقدم . فالفلسفة لا تخضع لمنطق التقدم العلمى أو التطور التاريخى ، لأنها ترتبط — في جانب منها — بما هو أزلى *éternel* .

ومهما حاول بعض الفلاسفة المحدثين — مثل هُوسرل *Husserl* مثلاً — أن يجعلوا من الفلسفة نفسها « علماً » ، فإن الفلسفة لا بد أن تظل حكمة أو محبة للحكمة . وذلك لأن الفلسفة إنما تقوم أولاً وبالذات على التجربة الروحية والأخلاقية . وإن الفلسفة لتحاول أن تعرف الوجود في الإنسان ومن خلال الإنسان ، فهي تجدد في الوجود البشرى حلاً لمشكلة المعنى *meaning* ، في حين أن العلم يعرف الوجود في استقلال عن الإنسان أو بمنأى عن الذات البشرية . والوجود في نظر الفلاسفة هو « الروح » ، وأما الوجود في نظر العلم فهو « الطبيعة » . ولئن كانت علوم الحياة ، والنفس ، والاجتماع تدرس الإنسان أيضاً ، إلا أنها لا تدرسه إلا باعتباره موضوعاً يَنْدَرُجُ تحت مملكة الطبيعة . أما الفلسفة فإنها تدرس الإنسان باعتباره ذاتاً (*self - subject*) أى باعتباره مفتوحاً إلى ملكوت الروح . وإذن فإن الفلسفة تَنْفَرُّ من كل نزعة موضوعية تريد أن تحيل الوجود البشرى إلى « شئ » أو « موضوع » . ومن هنا فإن برديف يقرر أن الفلسفة هي معرفة الروح على ما هي عليه في ذاتها ، لا على نحو ما تتجلى موضوعياً في الطبيعة . وبهذا المعنى تكون الفلسفة أيضاً هي معرفة المعنى ، والمشاركة في هذا المعنى . وهكذا يذهب دعاة هذا الرأي (من الوجوديين بصفة خاصة) (١٠ — فلسفة)

إلى أن الفلسفة بالضرورة لا بد من أن تكون ذات صبغة أنثروبولوجية ، لأن الفلسفة ترى العالم من وجهة نظر الانسان ، في حين أن العلم يرى العالم مستقلا عن الانسان . وكل محاولة من أجل تخلص الفلسفة من هذا الطابع الانساني أو الأنثروبولوجي لا بد من أن تنتهى إلى القضاء على الفلسفة نفسها^(١).

٣٩ - غير أن القرن العشرين قد شهد حركة فكرية جديدة أراد دعاؤها أن يُلْحَقُوا المنطق بالرياضة ، وأن يُوثَقُوا الصلة بين الفلسفة والعلم ، وتلك هي حركة « الوضعية المنطقية » التي حمل لواءها أهل « حلقة فينا » من أمثال هان Hahn ، وفيتجنشتين Wittgenstein ، وكارناب Carnap ، ورينباخ Reichenbach في النمسا ، ثم آير A. J. - Ayer من بعد في إنجلترا . والرأى الذى ذهب إليه هؤلاء أنه إذا أُريد للفلسفة أن تتخلص نهائياً من كل ما تنطوى عليه دراساتنا من لبسٍ وغموض ولفو وتضارب في الآراء ، فإنه لا بد لها من أن تتسلح بأسلحة « التحليل المنطقي » ، حتى يتسنى لها أن تضفى على تفكيرها خصائص المعرفة العلمية ، ألا وهي : الوضوح ، والتماسك الداخلى ، والقابلية للفحص ، والتكافؤ ، والدقة ، والموضوعية . فليس للفلسفة من مهمة في نظر دعاة الوضعية المنطقية سوى العمل على ربط اللغة بالتجربة ربطاً علمياً ، وصياغة الواقع الخارجى صياغة منطقية . ولما كانت لغة الحياة العادية مليئة بالغموض والاشتباه ، في حين أن المثل الأعلى للعلم هو الدقة والوضوح ، فإن على الفلسفة أن تحاول التمييز بين الغامض والواضح ، وأن تقوم بتحليل العلاقات الخارجية القائمة بين المعانى ، حتى تتوصل عن هذا الطريق إلى القضاء نهائياً على المشكلات الزائفة والمفاهيم الخاطوية والتصورات الكاذبة .

Nicolai Berdyaev : • The Destiny of Man • London, (١)
Geoffrey Bles, third editon, 1948, pp. 1-9.

وهنا يفرق الوضعيون المناطقة بين نوعين من القضايا : قضايا تحليلية ، وقضايا تجريبية ؛ أو عبارات منطقية ، وعبارات واقعية . ومعنى هذه التفرقة أن المعرفة للبشرية نوعان : معرفة ترتبط بقواعد اللغة ، ومعرفة ترتبط بأمور الواقع . والأولى منهما تتمثل في قضايا المنطق والرياضة والمسائل اللغوية ؛ في حين تتمثل الثانية منهما في قضايا العالم الخارجى أو الواقع التجريبى . وأما ما يخرج عن هذين النوعين من المعرفة فهو أدخل في باب العاطفة منه في باب المعرفة ، لأنه لا يمكن أن يكون سوى مجرد تعبير انفعالى لا شأن له بالقضايا المنطقية أو التحليلية من جهة ، ولا بالقضايا التجريبية أو الواقعية من جهة أخرى . فإذا ما نظرنا الآن إلى القضايا التى يفترض فيها أنها تنصب على الواقع ، ألفينا أن أمثال هذه القضايا لا يمكن أن تكون ذات معنى أو دلالة إلا إذا كان فى الإمكان تحقيقها أو التثبت من صحتها . ومعنى هذا أن أية قضية يراد بها وصف أى موقف واقعى إنما تكون ذات دلالة حينما يكون فى وسعنا أن نحدد السبيل أو السبل التى يمكن عن طريقها الفصل فى صحتها أو كذبها . « والمعيار الذى نستخدمه لاختبار صحة التقريرات الظاهرية عن الواقع إنما هو (كما يقول آير) معيار التحقق verifiability : فنحن نقول إن عبارة ما هى فى الواقع ذات دلالة بالنسبة إلى شخص ما ، حينما يكون فى وسع هذا الشخص أن يتحقق من صحة تلك القضية ، أعنى حينما يكون على علم بالملاحظات التى تتكفل بإرشاده إلى طريقة تقبل تلك القضية بوصفها صادقة ، أو رفضها بوصفها كاذبة » ^(١) ويضرب آير لذلك مثلاً فيقول إن العبارة القائلة : « هناك جبال فى الجانب الآخر من القمر » عبارة ذات معنى ، على الرغم من أنه قد لا تكون تحت أيدينا فى الوقت الحاضر السبل المواتية للتحقق من صحة أو كذب تلك القضية . والسبب فى ذلك أنه ليس

A. J. Ayer : « Language, Truth and Logic », Gollancz (١)
London, 1948, p. 35.

ما يمنع من أن تكون هذه العبارة قابلة للتحقق مبدئياً ، مادام في وسعنا أن نتصور بناء سفينة تحترق الفراغ على مدى واسع وبالسعة الكافية . أما إذا قلنا « إن الله موجود » ، بمعنى أن ثمة كائناً فائقاً للطبيعة هو الذى أوجد العالم وخلق الكائنات ، فإننا عندئذ إنما نتفوه بعبارة فارغة من كل معنى ، لأننا نقرر قضية لا تحتمل الصدق أو الكذب ، ولا تقبل التحقق على أى نحو مما من الأنحاء . وما دمنا لا نستطيع أن نحدد (حتى ولا مبدئياً على الأقل) نوع الإجراءات أو العمليات التى يمكننا القيام بها من أجل التحقق من صحة أو كذب تلك القضية ، فإن قولنا بأن « الله موجود » لن يكون سوى لفو فارغ لا معنى له . وهكذا الحال أيضاً بالنسبة إلى سائر العبارات الميتافيزيقية ، فإنها لا تخرج عن كونها قضايا نطلقها على أشياء أو أحداث تعدو دائرة الحس ، أعنى أنه ليس لها أدنى علاقة مباشرة بالملاحظة الحسية ، فلا مجال للحكم عليها بأنها كاذبة أو صادقة ، وبالتالي فإن من واجبنا أن نقرر أنها أشباه قضايا ، أو مجرد أقوال فارغة من كل معنى . ولعل هذا هو ما عناء كارناب حينما كتب يقول : « إننا حتى لو سلمنا بأن ثمة شيئاً يعدو دائرة التجربة ، فإن هذا « الشيء » بحكم ماهيته نفسها ، لن يكون موضوعاً يقبل الصياغة أو التعقل أو البحث الفلسفى »^(١) . ويمضى آير إلى حد أبعد من ذلك فيقول : « إن كل قضايا الميتافيزيقا إن هى بالضرورة إلا لفو فارغ لا معنى له ، مادام المهدف الذى ترمى إليه الميتافيزيقا هو أن تصف لنا حقيقة تكمن فيما وراء التجربة . . . والواقع أن هذا الذى لا نستطيع أية ملاحظة تجريبية أن نتحقق منه هو مما لا يمكن اعتباره قضية على الإطلاق . فالمسألة الرئيسية للميتافيزيقا : ألا وهى القول بوجود حقيقة فائقة للحس ، ليست فى حد ذاتها بقضية . . . وإنما تنشأ الميتافيزيقا عن رغبة الناس

R. Carnap : - La Science et la Métaphysique - , Paris (١)
Hermann, 1934, pp. 36.37.

في الامتداد بعواطفهم وانفعالاتهم إلى ما وراء حدودها المشروعة ، فترائم يُعَبَّرُون عنها على صورة نظريات ، ويقدمونها على شكل وقائع موضوعية . . . ولكنهم عندئذ لا يقرُّون في الواقع أى شيء ، وإنما يُعَبَّرُون في الظاهر بصيغة عقلية ، عن بعض الانفعالات أو العواطف التي تترجم عن نفسها عادة من خلال الأعمال الأدبية والفنية ^(١) .

من هذا نرى أن أنصار الوضعية المنطقية يريدون للفلسفة أن تتخلَّى عن مهمة بناء المذاهب الميتافيزيقية ، وأن تدعَّ العلم التجريبي مهمة البحث في الظواهر التجريبية ، لكي تقنع هي بتحليل اللغة وإيضاح معرفتنا التجريبية بترجمتها إلى قضايا تنصبُّ على « المضامين الحسية » sense-contents . فليس من شأن الفلسفة في نظر دعاة الوضعية المنطقية أن تتعدَّى التحليل المنطقي للمفاهيم والرموز العلمية ، بل لا بد لها من أن تقف عند حدود المعطيات الحسية ، حتى تكشف لنا عن قيمة الصدق في التركيب اللغوي بالرجوع إلى إمكانية التحقيق التجريبي المباشر . ولكن أصحاب هذه النظرة ينسَوْنَ أن القول بوجود ضرب من التوافق بين الواقع الخارجي التجريبي وقواعد المنطق التحليلي مسألة فلسفية ليس ما يبررها فالوضعيون المناطقة يسلون ضمناً بأن السلامة المنطقية في التركيب اللغوي ضمان على الصدق الموضوعي ، في حين أنه ليس ما يدعونا إلى الافتراض سلفاً بأن طبيعة الواقع الخارجي ينبغي أن تتفق مع تعريفاتنا المنطقية المحدودة . هذا إلى أن دعاة الوضعية المنطقية حينما يهيئون بالتجريب المباشر في حدود المعطيات الحسية ، فإنهم ينسَوْنَ أن القوانين العلمية العامة هي صياغات تجريدية عامة لا تشير إلى معطيات حسية مباشرة ، وبالتالي فإنها

Ayer : «Language, Truth & Logic» 2 edition, 1948 pp. (١)
45-49 .

لا تنطوي على مضامين واقعية يمكن الحكم عليها بأنها صادقة أو كاذبة بالرجوع إلى العالم الخارجى . فضلا عن ذلك ، فإن مستويات التجربة والطبيعة لمى من التركيب والتعقد ، بحيث يستحيل أن نطبق عليها تلك التقسيمات المنطقية المجردة التى قد يرتاح لها الوضعيون المناطقة لجرد كونها بسيطة واضحة . بل إننا حتى لو نظرنا إلى تلك الأحكام الاخبارية التى نُصَدِّرها عادة على الطبيعة ، لوجدنا أنها قلما تخلو من تلك اللغة الوجدانية (شعرية كانت أم تصويرية) التى يدعون أنه لا مجال لاتهامها عقد النظر إلى عالم التجربة والعمل على وصفه . ويأبى الوضعيون المناطقة إلا أن يطبقوا منهجهم التحليلى المبسط حتى على التعبيرات الدينية والأخلاقية والفنية ، فى حين أن هذه كلها دلالات حية تنطوى على شُخْطَاتٍ وجدانية وحضارية تعدو شتى العلاقات المنطقية . فنحن هنا لسنا بإزاء بعض الحدود المنطقية ، بل نحن بإزاء كائنات حية تضطلع بوظائف اجتماعية خاصة فى مجال حضارى إنسانى وتبعاً لذلك فإن نظرية الوضعيين المناطقة فى « العلاقات الخارجية » external relations قد بقيت عاجزة عن فهم « الموقف الفنى » وإدراك « الدلالة الجمالية » ، لأنها وَقَفَتْ عند حدود التحليل المنطقى للتعبيرات الفنية ، دون أن تتخطى الدلالة اللغوية والعلاقات المنطقية من أجل النفاذ إلى طبيعة الظاهرة الجمالية بوصفها دلالةً مجاليةً من نوع خاص .

. . . ولقد وقع فى ظن الوضعيين المناطقة أن المثل الأعلى للفلسفة هو « العلم » بدقته ووضوحه ، ولكنهم حين مضوا يبحثون عن « الوضوح » من خلال المنطق الرياضى ، لم يلبثوا أن وجدوا أنفسهم مضطرين إلى التضحية بجانب من الحقيقة التحريية . وهكذا افترض الوضعيون — دون أدنى مبرر — أن الوضوح إنما يحصل عن طريق التحليل ، أعنى عن طريق تجزئة المعانى وفصلها بعضها عن بعض على صورة مركبات أصلية مزعومة . ولكن إذا كانت

حياتنا التجريبية العادية لا تخلو من غموض ، فإن من المؤكد أن هذا « الغموض » نفسه هو جزء أصيل من أجزاء تجربتنا ، مثله في ذلك كمثل الوضوح الشكلي الذي يتحدثون عنه . ولو أننا افترضنا أن « الوضوح الشكلي » formal clarity يمكن دائماً (بصورة ما) من وراء تجاربنا الغامضة ، لكان في هذا الافتراض خروجٌ على الروح التجريبية ، لأننا عندئذ نتطلبُ من « التجريبي » أن يخضع دائماً « للمنطقي » . ومعنى هذا أنه إذا كان في التجربة شيء نرى بوضوح أنه غير قابل للتحليل ، فإن افتراضنا عندئذ لإمكان تحليله تحليلًا تجريبيًا تامًا سوف يكون بلا شك افتراضًا كاذبًا ليس ما يُبرره . وفضلاً عن ذلك ، فإن الوضعيين المناطقة لا يؤخذون تماماً بين المنطق والتجربة ، بل هم لا يريدون أن يفسروا الواحد منهما بالاتجاه إلى الآخر ، ولكن نزعتهم التجريبية المنطقية لا يمكن أن تكون « تجريبية » و « منطقية » معاً ، اللهم إلا إذا افترضتُ — دون أدنى تفسير — أن هذين المركبتين المختلفين للمعرفة يتعاونان فيما بينهما تعاونًا وثيقًا . حقاً إن الوضعيين المناطقة لا يفسرون لنا السرفى وجود مثل هذه الرابطة القوية بين التجربة والمنطق ، لأنهم يخشون أن يقتادهم هذا التفسير إلى حظيرة التفكير الميتافيزيقي ، ولكن من المؤكد أنهم حين يتطلبون من « التجريبي » أن يكون خاضعاً لما هو « منطقي » فإنهم في الحقيقة يضعون مُسَلِّمةً ميتافيزيقية لا يهتمون بالعمل على فحصها أو تبريرها^(١) .

وأخيراً يلاحظ بعض النقاد أن في مذهب الوضعيين المناطقة خجراً على التفكير الفلسفي ، لأن دعاة هذا المذهب يقصرون الفلسفة بأسرها على حقيقة واحدة يختصونها بمعنايتهم ، ألا وهي حقيقة التجربة العلمية : وكأنَّ إيس ثمة

A. J. Bahm : «Philosophy; An Introduction», Wiley, (١)
New-York, 1953, ch. VIII, pp. 115—116.

معرفة بشرية أخرى يمكن أن تكون -جديرة بهذا الاسم- فيما وراء حدود المعرفة الموضوعية ؛ ولكنهم بذلك إنما يحصرون مجال المعرفة البشرية في نطاق ضيق لا يكاد يعدو حدود التصورات التجريبية ، في حين أن التجربة البشرية أوسع بكثير من كل تلك التحليلات اللغوية والأحكام التقريرية التي يقصرون عليها كل مهم . ولئن كان الوضعيون المناطقة حريصين على تجنب كل حكم من أحكام القيمة ، إلا أنهم مضطرون إلى افتراض حكم تقوى أولى ، ألا وهو ذلك الحكم الذي يتخير منذ البداية بـ«بداً واحداً» — دون سواء — من أبعاد «المقولة» intelligibility . ولا شك أن هذا التحديد الأصلي لدائرة البحث العلمى لهو فى صميمه تحديد ليس ما يبرره علمياً . وكل ما يمكن التذرع به من أجل تبرير هذا الاختيار ، لا يكاد يعدو بعض الاعتبارات البرجماتية التى هى أدخل فى باب المنفعة والفائدة العملية منها فى باب العلم أو المعرفة الموضوعية . وإذن فإن هذه النزعة الوضعية الجديدة لا تخرج عن كونها فلسفة قاصرة تستند إلى ميتافيزيقا ضمنية ، ما دامت تتوجس بطريقة أولية قلبية من كل ما يندرج تحت نطاق العاطفة والفن والأدب . ولا شك أن هذا التوجس إنما يدل بوضوح على أن ههنا تصوراً خاصاً للحقيقة والإنسان قد افترض سلفاً دون أدنى مبرر كاف .

٤٠ — وليس الوضعيون المناطقة هم وحدهم — بين الفلاسفة المعاصرين — الذين يريدون أن يقرّبوا الفلسفة من العلم ، بل إن عدداً غير قليل من مفكرى العصر الحاضر يريدون للفلسفة أن تظل تابعة للعلم . فهذا ريفو (مثلاً) يتحدث عن ارتباط الفلسفة بالعلم فيقول : « إن الفلسفة لتعتمد اعتماداً كلياً على المعطيات التى تقدمها لها العلوم ... ومن هنا قد أصبح لزماً على المرء اليوم ، إذا أراد لفلسفته أن تكون فلسفة ناجحة مجدية ، أن يكون هو نفسه عالم رياضيات ،

وعالم طبيعة ، وعالم أحياء ، وباحثاً سيكولوجياً ، وباحثاً لغوياً ، ومؤرخاً
للملح . . . ومعنى هذا أن الفلاسفة الوحيدين الذين يمكن اعتبارهم متخصصين
بمعنى الكلمة في عصرنا الحاضر إنما هم علماء الطبيعة ، وعلماء الكيمياء ، وعلماء
التاريخ الطبيعي ؛ والمؤرخون ، والباحثون اللغويون ، وكل أولئك الذين يحملون
نقطة انطلاقهم هي الدراسة الدقيقة لبعض الوقائع الجزئية من أجل الانتقال
بعد ذلك نحو صياغة بعض فروض ذات صبغة عامة^(١) . وهذا هوَ بُهْدُ
يحاول أن يلتقي لنا بعض الأضواء على الصلات الوثيقة التي تجمع بين العالم
والفيلسوف فيقول إن من شأن العلم والفلسفة أن يتبادلا النقد ، وأن يمد كل
منهما الآخر بالمواد الخصبة التي تسمح له بالتقدم . وعلى حين أن المذهب الفلسفي
يقوم بمهمة توضيح الحقيقة الملموسة التي يجردها العلم ، تبيء العلوم فتتخذ مبادئها
من تلك الوقائع الملموسة التي يقدمها المذهب الفلسفي . وليس تاريخ الفكر سوى
القصة التي تروى لنا مدى نجاح هذا المشروع المشترك أو فشله .^(٢) ويتحدث
هويتهد في موضع آخر عن دور الفلسفة النظرية فيقول « إن مهمتها إنما تنحصر
في تكوين إطار متناسك منطقي ضروري من الأفكار العامة التي تسمح
لنا بأن نفسر كل عنصر من عناصر تجربتنا »^(٣) . ومعنى هذا أن للمعطيات
العلمية أهمية كبرى في تكوين مذهب ميتافيزيقي عام ، وإن كان هويتهد يعترف
بأن العلم يكوّن عن الأشياء نظرة جزئية ، فلا بد للفلسفة من أن تحاول التعبير
عن تلك الجوانب الواقعية من التجربة التي قد يغفلها العلم . ولعل هذا هو
السبب في التجاء هويتهد إلى شعراء من أمثال وردسورث Wordsworth

-
- Rivaud : « Histoire de la Philosophie » t. I, P. U. F. (١)
1948, pp. VII—VIII.
A. N. Whitehead : « Adventures of Ideas » Pelican Book, (٢)
1949, p. 137.
A. N. Whitehead : « Process and Reality » New-York, (٣)
1929, p. 4.

وشلى Shelley من أجل تكملة فلسفته النظرية التي أراد لها أن تجيء بمثابة وصف شامل للتجربة .

ولكننا إذا كنا لانجد حرجاً في أن نقول مع هويته بضرورة قيام تعاون وثيق بين الفلاسفة والعلماء ، خصوصاً وأن التفكير في العلوم سيظل دائماً أبداً لإحدى اللهاى الرئيسية التى تقع على عاتق الفيلسوف ، إلا أننا لا نُقرُّ بحالٍ ما يقوله ريفو من أن الفلسفة تعتمد اعتماداً كلياً على الإمدادات التى تقدمها لها العلوم

حقاً إنه لا بد لكل فيلسوف من أن يتفلسف ابتداء من تلك الحقيقة الموضوعية التى تقدمها له حالة العلم فى عصره ، ولكن فعل التفلسف نفسه إنما يقوم على التساؤل حول علاقة الموضوع العلمى بالوجود ككل . فليس من طبيعة الفلسفة أن تختلط بالبحوث الجزئية التى تجرى على مستوى « الموضوع » ، اللهم إلا إذا أريد لها أن تتنازل عن مطلبها الرئيسى ألا وهو « الوجود » L'Être . هذا إلى أننا لسنا ندري كيف يتسنى للفيلسوف أن يجمع فى شخصه بين عالم الرياضة ، وعالم الطبيعة ، وعالم الأحياء ، وعالم النفس ، والنفوس ، والوُرخ ، فى الوقت الذى نشهد فيه التخصص يزداد يوماً بعد يوم ، بحيث لم يعد فى وسع أى عالم رياضى أن يزعم لنفسه أنه محيط بالرياضة كلها ، كما أنه لم يعد فى وسع أى عالم طبيعى أن يدعى الإلمام بالفزياء كلها إلخ . بل إننا حتى لو اقتصرنا على النظر إلى الفزياء وحدها ، لوجدنا أن أصحاب التجريب وأهل النظر الذين يضطلمون بدراسة مشكلة واحدة بعينها قلما يتفهمون فيما بينهم ! أما ما يزعمه ريفو من أن الفلسفة الحقيقية هى - سارة عن تلك الفروض الواسعة التى يخاطر بوضعها أمثال هولاء العلماء ، فإن من التوكيد أنه ينطوى على خلط تام بين مهمة العالم ومهمة الفيلسوف . ولو كان قصد ريفو من هذه العبارة الإشارة إلى تلك النظريات الفلسفية التى قد يضعها العلماء أحياناً للتأليف بين فروضهم العلمية ، فربما كان

في وسعنا أن نقول في الرد عليه إن أمثال هذه النظريات العامة التي يضعها بعض العلماء في خاتمة أبحاثهم العلمية كثيراً ما تنجىء ضعيفة مُتَهَاوِة لا تتناسب على الإطلاق مع العبقرية العلمية التي صاغتها . وهذا ما لاحظته بشلار في دراسته لآراء العلماء الفلسفية ، مما حذّاه به إلى القول بأن فلسفة العالم قلما تكون بمثابة خلاصة أمينة لعلمه . وآية ذلك أن العالم حين يعمد إلى وضع مذهب فلسفي يجمع فيه نظراته العلمية ، فإنه قد يصوغ في فلسفته آراء علمية قديمة كانت نقطة انطلاقه في شبابه ، أو قد يقع تحت تأثير بعض الدوافع الأولى التي اقتادته إلى البحث العلمي ، بحيث إنه قلما يدين العالم بتلك الفلسفة العريضة التي ينطوي عليها علمه . ونظراً لهذا النقص الذي يثوبُ اليأملات الفلسفية لدى المتخصصين ، فقد ذهب بشلار إلى القول بأن « العلم لا يملك تلك الفلسفة التي هو جدير بها »^(١).

والحق أنه إذا كان العصر الحاضر قد شهد كثيراً من النزعات العلمية المتطرفة Scientismes التي أراد دعايتها أن يلغوا الفلسفة لحساب العلم ، فإنه قد يكون من الخطأ أن نحمل العلم نفسه مسئولية انتشار تلك المزايم العلمية العريضة . وحسبنا أن نفود إلى تاريخ العلم نفسه ، لكي نتحقق من أن التطورات العلمية الأخيرة في ميادين الرياضة والمنطق والفيزياء والميكانيكا وعلم الأحياء قد أفضت بالكثير من العلماء إلى الاعتراف بأن التجربة العلمية إن هي إلا تجربة إنسانية لا بد من عمل فيها حساباً لعقل المجرب نفسه . فلم يعد في وسعنا اليوم أن نتحدث عن عالم مكتمل يكمن خلف الظواهر الحسية ، ويتكفل التقدم العلمي بنزع طابعه الإنساني شيئاً فشيئاً ، حتى يجعل منه بمرور الزمن موضوعاً واقعياً خالصاً ، بل أصبحنا نرى أن العلماء أنفسهم لم يعودوا يجدون أي حرج في أن يُهَيَّبُوا بالفيلسوف نفسه من أجل فهم ما تبكشف عنه خبراتهم العلمية

G. Bachelard : « Matérialisme Rationnel » P. U. F., (١)
1953, p. 20.

الجديدة عن حقائق جزئية لا تتوافق مع مجموع الحقائق القديمة . وهذا لوى
دى بروي (مثلا) يعترف بأن العلم مضطرب إلى أن يُقحم في مجال نظرياته مفاهيم
ذات صبغة ميتافيزيقية كالزمان والمكان والموضوعية والعلمية والقردية
الح . . . ثم يستطرد هذا العالم القرنسي الكبير فيقول إنه على الرغم من أن العلم
يحاول أن يحدد تلك المفاهيم دون التورط في أية مناقشة فلسفية ، إلا أنه لا بد
من أن يجد نفسه مضطراً إلى الخوض في صميم التفكير الميتافيزيقي ، دون أن يكون
لديه أدنى شعور واضح بذلك ، وتلك بلا شك أسوأ طريقة من طرق التفكير
الميتافيزيقي !^(١) فلم تعد الهوة إذن غير معبورة بين الفلسفة والعلم ، بل أصبح
العلماء أنفسهم يعترفون بأن علوم المادة والطبيعة آخذة في اكتساب صبغة إنسانية
تزداد يوماً بعد يوم ، في الوقت الذي لا زال فيه النهج التجريبي هو المثل الأعلى
لكثير من أهل العلوم الإنسانية ! ولكن التطورات الأخيرة التي استجذبت
على العلوم الإنسانية كعلم النفس ، والتاريخ ، وعلم الاجتماع ، قد جاءت مخيبة
لظنون الكثيرين من أنصار الوضعية الساذجة ، إذ تبين لهم بوضوح أن الحقيقة
البشرية المعقدة لا تخضع لتنظيمات آلية مبسطة ، لا تراعى فيها نوعية الفوارق
الصغيرة . ومن هنا فقد تحقق كثير من أهل الدراسات الإنسانية من أن التجربة
البشرية لا يمكن أن تفهم في كليتها إلا بالاستناد إلى مسؤولية معقدة
intelligibilité complexe لا تدع للقوانين والصيغ الرياضية سوى قيمة
ثانوية تقف عند حد بيان العلاقات والنسب وأوجه الترابط فقط . وهكذا اتضح
أن « الدِّرعة العلمية المتطرفة » لم تسكن سوى مجرد حديث خرافة أملاه على بعض

L. de Broglie : « Au-delà des mouvements—limites (١)
de la science », article dans « Revue de Métaphysique et de Morale »,
1947, p. 278.

المتحمسين من الفلاسفة في القرن الماضي إعجابهم الشديد بما أحرزه العلم من تقدم ! .

٤١ - إن كثيراً من الباحثين ليؤكدون أنه لا بد للفيلسوف من الإلمام بالحركات العلمية والوقوف على شتى ضروب التقدم التي تحرزها العلوم ، ولكن هذا لا يعنى في نظرنا أن تكون الفلسفة مجرد خادم أمين للعلم يعيش على فتات موائد العلماء ، وإلا لكان مصير كل فلسفة مصير الفروض العلمية المتبعة التي يقذف بها التاريخ إلى زوايا النسيان ! وحسبنا أن نتذكر كيف حاول كآنت أن يسبغ على فزياء نيوتن قيمة فلسفية حاسمة ، فلم يلبث التاريخ نفسه أن أظهرنا على أن هذه الفيزياء لم تكن سوى مجرد مرحلة من مراحل تطور العلم . والحق أن الميتافيزيقا ليست مجرد مركب هائل يضم فيه الفيلسوف نتائج العلوم الجزئية بعضها إلى البعض الآخر ، وإنما هي بالأحرى نظرة كلية تستقي عناصرها من شتى مظاهر التجربة البشرية ، شرعية كانت أم أخلاقية أم دينية أم علمية . فالفيلسوف الحقيقي لا يرضى لفلسفته أن تكون مجرد « تأليف مذهبي » يقوم على نتائج بعض العلوم الجزئية ، فضلاً عن أنه لا يسلم أصلاً بأن القضايا العلمية هي أهم القضايا أو أغناها أو أقربها إلى الحقيقة ، بل هو يحاول دائماً أن يقيم فلسفته الميتافيزيقية على أساس متكامل يستوعب (على قدر الإمكان) شتى مظاهر التجربة البشرية فلا يُغفل التجربة العلمية ، ولكنه لا يُغفل أيضاً الخبرات الفنية والأخلاقية والاجتماعية والدينية للحياة الإنسانية . ولعل هذا هو ما حاول هو يتهد أن يلتزمه في مذهبه الميتافيزيقي حينما قدم لنا فلسفة عضوية تقوم على مراعاة شتى أوجه المخاطرة الكونية الكبرى ؛ بما فيها من تطور وتغير وثبات وتداخل . الخ . فلم يحاول هذا الفيلسوف الانجليزى العظيم أن يقيم مذهبه الميتافيزيقي على نتائج علمية صرفة أو مقولات تجريبية خالصة ، بل هو قد شاء منذ البداية أن يدخل

في صميم فلسفته شتى مقومات الوجود الإنساني ، حتى يحىء تفسيره مُستوعباً لتجريدات العلم وخبراتها الشخصية التي لا يَنْهَضُ العلم بتفسيرها . وهكذا قدم لنا هذا العالم الكبير دليلاً حياً على اقتناع العالم نفسه بعدم كفاية علمه ، ما دام من المؤكد أن للتجربة البشرية أوجهاً عديدة لا يحيط بها العالم مهما كان من سعة نظره وُغْنَقِي بصيرته^(١) .

والواقع أننا كثيراً ما ننسى أن العالم نفسه ليس سوى إنسان يعيش في حِقْبَةٍ تاريخية بعينها ، وَيَتَلَقَّى من عصره توجيهاته وشتى مظاهر اهتمامه . فالأتجاه العام للتاريخ البشرى هو الذى يوجِّه ضمير العالم كما يوجه ضمائر غيره من الأفراد العاديين أو من الفلاسفة والفكرين . ومعنى هذا أن العلم لا يملك ، ولم يملك يوماً ، ميزة سحرية تجعل منه موجه للبشرية ورائدها وكاتم أسرارها . وإنما تتلقى الإنسانية توجيهاتها من الضمير البشرى العام على نحو ما يتمخض عنه التطور التاريخي في كل حقبة من الحقبة . وآية ذلك أن العالم الذى يخرج منتصراً من معمله ، لا يجد في ضميره العلمى ما يسمح له بالتحكُّم في تلك القوى الجبارة التي وضعها العلم بين يديه . وهكذا أُصيب بعض العلماء الرياضيين والطبيين والفنيين بضرب من الذهول الفكرى ، على أثر توصلهم إلى اكتشاف أسرار القنبلة الذرية ، فوقفوا حَيَارَى أمام تلك الإمكانيات الضخمة التي ستترتب على اكتشافاتهم بالنسبة إلى مستقبل النوع البشرى ! ولم تكن تلك « الحيرة » سوى مجرد صَدْمَةٍ ميتافيزيقية شعر بها هؤلاء العلماء لأول مرة حينما وجدوا أنفسهم بإزاء مشكلة بشرية هائلة هيئات لعلهم وحده أن يتكفل بحلها . والمُشَاهَد عادةً أنه لا بد لكل اكتشاف علمي جديد من أن يَضَع تَوَازَنَ الحضارة موضع السؤال ، فتُثَارُ المشكلة الميتافيزيقية من جديد ، إذ يصبح على الإنسانية أن تعيد تنظيم قِيَمِهَا

Cf. J. G. Brennan : « The Meaning of Philosophy » (١)
Harper, New—York, 1953, pp. 213—215.

وأن تراجع الحكم على معاييرها . وهذا ما حدث مثلاً في مجال العلم الحديث حينما ظهرت المهندسات اللا إقليدية ، والفزياء الذرية ، ونظريات التلقيح الصناعي . . . إلخ . فالميتافيزيقي إنما هو ذلك الإنسان الذي تتجه نحوه كل الأنظار في اللحظات الحرجة من التاريخ ، وكأن البشرية تَلْتَمِسُ عنده التفسير الصحيح لما يجري تحت أعينها من مشاهد لم تصد تملك من أمرها شيئاً ! وهكذا استدار الجميع نحو الفيلسوف لكي يستطلعوه الرأي بخصوص نظريات لافوازييه ، وريمان Riemann ، ودارون ، وأينشتين ، وكان الفيلسوف هو الرجل الذي يملك جواباً لكل شيء ، أو كأننا لا بد للفيلسوف من أن يتنبأ بكل حركة علمية قبل حدوثها ، فيعدّ لكل أمرٍ عُدَّتُهُ ١ .

حقاً إننا كثيراً ما نسخر من الميتافيزيقا ، وننددُ على الميتافيزيقيين ، ونزري بالمذاهب الميتافيزيقية ، ولكننا نعلم مع ذلك أن الميتافيزيقي إنما هو ذلك الرجل الذي يملك القدرة على تقرير حق الشخص البشري في وجه شتى المحاولات التي يراد من ورائها النزول بالذات إلى مستوى الموضوع . فلسيت الميتافيزيقا مجرد تأملات فلسفية عقيمة تقيمها على صرح الغريزة أو الأسطورة أو الفن أو العلم ، بل هي نقد أصيل لشتى القيم من أجل العمل على تنظيمها جميعاً فيما بينها بالنظر إلى الوجود الإنساني نفسه . وإذا كان أهل التخصص لا يتلاقون فيما بينهم (لأن العالم يرفض شهادة الشاعر ، والشاعر يظهر سُخْطَهُ على العالم . . إلخ) ، فإن من شأن الميتافيزيقي أن يعمل على تحقيق ضرب من التلاقى بين سائر المعنيين بأمر الإنسان ، واثقاً دائماً أبداً من أن الحقيقة لا تنشق من تجميع المعارف أو إضافتها بعضها لبعض ، وإنما هي تتحقق بفعل التكامل والتنظيم الذي تُراعى فيه الأبعاد الرئيسية للحياة البشرية . ومعنى هذا أن مهمة الفيلسوف إنما تنحصر في تزويدنا بتفسير متكامل للوجود الإنساني ، حتى يتحقق ضرب من التوافق

بين شتى التفسيرات الجزئية أو القراءات الخاصة التي يقدمها لنا كل متخصص في دائرة اختصاصه عن الوجود ككل أو العالم البشري في مجلته . ولكن ما دامت القيم ليست بالوقائع التي يمكن الحصول عليها أو انتزاعها من صميم الأشياء ، فلن يستطيع الإنسان أن يقنع بالتفسير العلى للوجود ، أو أن يطمئن إلى قراءة الوضعية المتطرفة لنصوص الطبيعة ! وهكذا نجد أن الإنسان لا يمكن أن يستغنى عن الميثافيزيقا اللهم إلا إذا استطاع يوما أن ينصرف عن الاهتمام بالقيم ، وأن يتحول نهائياً عن الانشغال بالمشكلة البشرية نفسها .

والواقع أن العالم وَخْدَه لا يمثل الإنسان ، والشاعر وحده لا يملك حَقَّ التكلم باسم الوجود البشري ، ورجل الدين وحده لا يستطيع أن يزعم أنه قد احتكر المصير الإنساني ، وأهل الصناعة أو التخطيط الاقتصادي لا يستطيعون أن يدَّعوا أنهم هم وحدهم الذين يملكون حق تحديد مستقبل البشرية ، وإنما لا بد من أن يُضاف إلى كل هؤلاء ذلك « الإنسان الكلى » الذي يرفض دائماً أبداً أن يُسَقَطَ من حسابه أو أن يلغى من اعتباره أية إمكانية (مهما كانت تافهة أو ضئيلة) من إمكانيات التجربة البشرية . . . أما هذا « الإنسان الكلى » الذي تخصص في عدم التخصص ، فهو الفيلسوف الميثافيزيقي الذي يبحث عن « الكل » ، وينشد « الوحدة » ، ويتطلب « التكامل » . . إلخ . ونحن نعلم أن الغالبية العظمى من الناس ليسوا بعلماء أو شعراء أو فنانين أو مهندسين أو رجال دين ، وإنما هم بشر عاديون يَهْمُهُم أن يكونوا لأنفسهم نظرة صادقة عن الإنسان ، وحكما صحيحاً على القيم ، فليس من شأن الفلسفة أن تخاطب قوماً بعينهم ، أو طائفة خاصة من أهل التخصص ، بل لابد لها من أن تخاطب الإنسان العادى ، على نحو ما كان يفعل سقراط قديماً حينما كان يُحَدِّث العامة من الناس في الشوارع والطرقات ! وقد يستطيع الإنسان العادى أن يستغنى

عن المعارف العلمية ، لأنها معارف خاصة جزئية تستلزم ضرباً من التخصص ولا ترتبط بمصير الإنسان من حيث هو إنسان ، ولكنه لن يستطيع أن يستغنى عن المعارف الفلسفية ، لأنها معارف كلية عامة لا تستلزم أى ضرب من التخصص بل ترتبط بمصيره الشخصى من حيث هو إنسان . و « الإنسان » الذى يتحدث عنه الفيلسوف ليس إنسان العالم الطبيعى ، أو المؤرخ ، أو عالم النفس ، أو الطبيب ، بل هو الإنسان المتكامل الذى لا يَصِفُهُ أى واحدٍ من هؤلاء ، لأنه فيما وراء الطبيعة والتاريخ والسلوك التجريبي والجهاز العضوى . . الخ . وهكذا نَخْلُصُ إلى القول بأن ثمة « فلسفة » ، لأن هناك حاجة إلى قيام دراسة شاملة تمتد فيما وراء سائر العلوم الجزئية والدراسات الخاصة ، لكي تضطلع بمهمة تحقيق الوحدة والترايط والتكامل فيما بينها جميعاً ، فتعيد النظر إلى سائر المعانى ، وتَحْكُمُ فيما بينها بالاستناد إلى الشخص البشرى نفسه .^(١)

Cf. G. Gusdorf : « Traité de Métaphysique » Colin, Paris, (١) 1956. pp. 98—101.

الفصل السادس

بين الفلسفة والأدب

٤١ — إذا صحَّ ما يقوله البعض من أن الفلسفة وليدة العقل والخيال معاً ، وأنه لابد للميتافيزيق من أن يُدخَلَ في حسابه خبرات الشعراء والفنانين ، فإنه قد لا يكون علينا من حرج إذا نحن قربنا الفلسفة من الأدب . ولو أننا أخذنا بالعبرة للأثورة التي تقول : « العلم نحن ، والفن أنا » ، لجاز لنا أن نقول إن الفلسفة أقرب إلى الفن منها إلى العلم . وآية ذلك أن تقدم العلم يمتد دائماً على طول خط مستقيم ، إذ تنضاف المعارف الجديدة إلى جملة المعارف المحصلة ، بينما تستبعد التصورات القديمة التي لم تعد تتفق مع ما استجد من كشاف علمية ، في حين أن الأعمال الفنية الحديثة لا تستلزم بالضرورة استبعاد غيرها من الأعمال الفنية السابقة ، لأن لكل طراز قيمته ، كما أن لكل عصر فني دلالة . وأما الإنتاج الفلسفي ، فإنه يحتل مركزاً وسطاً بين الإنتاج العلمي من جهة ، والإنتاج الفني من جهة أخرى : لأنه وإن لم يكن هناك إلا حقيقة واحدة (نظرياً على الأقل) ، إلا أن الحلول الفلسفية لا تفقد قيمتها ، بل تظل محتفظة بشيء من ذلك « المجد الخالد » الذي تتصف به روائع الفن^(١) . ومن هنا فقد يصح أن نقول إن في الفلسفة من « الطابع الذاتي » ما يذنو بها من الفن ، خصوصاً وأنه ليس في وسعنا أن نتصور فلسفة بدون فلاسفة ، بينما قد يكون في وسعنا أن نتصور علماً بدون علماء !

(١) K. Mannheim : «Essays on the Sociology of Knowledge» , Kegan Paul & Routledge, London, 1952. p. 10.

ولكن ، ألا تفتقص من قدر الفلسفة حيناً نمزج بينها وبين الفن ؟ ألم يجد بعض خصوم الفلسفة من مطعن يوجهونه نحو الميتافيزيقا سوى قولهم بأنها ضرب من الشعر ؟ ألم يذهب بعض دعاة الوضعية المنطقية إلى أن الفلاسفة شعراء ضلّوا سبيلهم ، أو موسيقيون عَدِمُوا كل موهبة موسيقية ؟ ألم يقل أحد الفلاسفة المعاصرين إن الميتافيزيقى يخلط العلم بالفن ، فيقدم لنا إنتاجاً جيناً لا هو بالعلم ، ولا هو بالأدب ؟ ! إذن ، فكيف يَحَقُّ لنا أن نتحدث عن صلة الفلسفة بالأدب ، فى حين أن كل القرائن تدلنا على أن ثمة فارقاً كبيراً بين الإنتاج الفلسفى والإنتاج الفنى^(١) ؟

... الحق أن أشد الفلاسفة تشيئاً للأدب لا بد من أن يجد نفسه مضطراً إلى الاعتراف بأن ثمة هُوَّةٌ كبرى تفصل العمل الفلسفى عن العمل الأدبى : فإن الغرض من العمل الفنى هو إرضاء حساسية القارئ وإشباع ذوقه الفنى ، بينما الغرض من العمل الفلسفى هو البحث عن الحقيقة ، والعمل على الاهتداء إلى المعرفة . ومن هنا فقد تستطيع ضروب الإنتاج الشعرى أن تعيش جنباً إلى جنب ، لأن فى وسع القارئ أن يَسْتَوْعِبَ أشد النزعات الفنية تبايناً ، فى حين أن أى مذهب فلسفى يظهر إلى عالم الوجود ، لا بد من أن يَتَجَهَّأ أولاً وقبل كل شيء نحو القضاء على ماعداه من مذاهب ، مثله كمثل سلطان مستبد لا يكاد يتولى مقاليد الحكم حتى يقضى على خصومه ! ولعل هذا هو ماعناه الفيلسوف الألمانى المشهور شوبنهاور حيناً قال : إن الإنتاج الشعرى لا يتطلب منا سوى أن نندمج مع صاحبه ، لكى نذوق فنه ونتجاوب معه (ولو إلى حين) ، بينما يرمى الإنتاج الفلسفى إلى قلب أسلوبنا فى التفكير رأساً على عقب ، وكأنما هو يتطلب منا أن نعد شتى الفلسفات التى وجدت من قبله مجرداً كاذباً وأوهاماً ، لكى نبدأ

R. Carnap : «La Science et la Métaphysique», Hermann, (١)
Paris, 1934., p. 44.

من جديد معه ، محاولين أن نكتشف الوجود في ضوء ما يقدم لنا من معارف جديدة ! ويستطرد شوبنهاور في تمييزه بين الفيلسوف والشاعر فيقول : إن ما يرمى إليه الشاعر من وراء إنتاجه الفني هو إتحافنا بمجموعة من الصور اللفظية التي تصور لنا أشكالاً من الحياة ، ونماذج مختلفة من المواقف البشرية ، وأنماطاً متنوعة من السمات الشخصية ، وإن كان في وسع كل منا من بعد أن يفسر تلك الصور الفنية وفقاً لما يتمتع به من مقدرة ذهنية خاصة .

ففي استطاعة الشاعر إذن أن يُشَبِّعَ أناساً مختلفي الميالات إلى حد بعيد ، بدليل أن الإنتاج الشعري يَرَوُّقُ للعاقل والمجنون على السواء ! وأما الفيلسوف فإنه لا يصور لنا الحياة على هذا النحو ، بل هو يعرض علينا أفكاراً مكتملة واضحة المعالم ، استطاع بقدرته العقلية النفاذه أن ينتزعها من صميم الحياة ، ثم هو يتطلب من قارئه أن يمضي معه في التفكير إلى الحد الذي وصل إليه ؛ فليس بدعاً أن يظل جمهوره بالضرورة محدوداً إلى أقصى درجة . والواقع أن الشاعر أشبه ما يكون بالرجل الذي يقدم لنا مجموعة من الأزهار ، في حين أن الفيلسوف أشبه ما يكون بالرجل الذي يضع بين أيدينا خلاصة رحيق تلك الأزهار^(١) .

٤٢ — بيد أننا لو رجعنا إلى تاريخ الفلسفة ، لتحققنا من أن الصلة قد كانت وثيقة جداً في الفلسفة اليونانية القديمة بين الفلسفة والأدب ، أو بين الميتافيزيقا والشعر . ولعل من هذا القبيل مثلاً ما رواه بعض مؤرخي الفلسفة عن السوفسطائيين من أنهم كانوا يستشهدون بهوميروس ، ويلتمسون في أشعاره تأييداً لمذهبهم في التنير الدائم للأشياء . ولم يكن الفلاسفة السابقون عليهم بأقل اهتماماً منهم .

A 'Schopenhauer: «Philosophie et Science de la Nature», (١)
trad. franç. A. Dietrich, Paris, Alcan, 1911, pp. 132—138.

بالشعر ، فقد كان معظم الفلاسفة الطبيعيين الأولين شعراء أو أنصاف شعراء . ونحن نعرف كيف أن انكسمندريس قد صاغ معظم آرائه الفلسفية في عبارات شبه شعرية ، كما أننا نعرف أيضاً كيف أن برمنيدس زعيم المدرسة الإيلية قد نظم قصيدة طويلة رائعة أودعها خلاصة تفكيره الميتافيزيقي . حقا إن فيلسوفاً مثل أفلاطون قد حمل بشدة على هزبود وهوميروس ، ولكن من المؤكد مع ذلك أن أفلاطون هو الذى مزج الشعر بالفلسفة إلى أعلى درجة ، فضلاً عن أن الأفلاطونية هى التى سمحت للكثير من الشعراء — خلال العصور التاريخية المتعاقبة — بأن يجدوا منفذاً إلى الميتافيزيقا . وأما فى العصور الوسطى ، فإننا نجد لدى فلاسفة الإسلام اهتماماً كبيراً بالتعبير عن أعمق المعانى الفلسفية فى أساليب شعرية أو صياغات رمزية . . . إلخ . ولعل من هذا القبيل مثلاً ما فعله ابن سينا حينما صاغ فى قصيدة مشهورة ، مذهبَه الفلسفى فى خلود النفس ، وهى القصيدة التى يقول فى مطلعها :

هبطت عليك من الحلّ الأرفع ورفقاء ذات تعزّز وتمنّع

ومن هذا القبيل أيضاً ما فعله الفيلسوف الأندلسى المشهور ابن طفيل فى روايته « حى بن يقظان » حيث نراه يصطنع الطريقة الرمزية للتعبير عن أسمى المعانى الميتافيزيقية . كذلك وجد بين مفكرى الإسلام فلاسفة أدباء كأبى حيان التوحيدى الذى وصفه ياقوت فى « معجم الأدباء » بأنه « فيلسوف الأدباء ، وأديب الفلاسفة » ، وهو مفكر ممتاز « مزج الأدب بالحكمة ، والتصوف بالفلسفة ، فولد من هذا المزيج هذبة خاصة لم يسبق إليه » . وأما فى العصور الحديثة : فقد كان ديكارت نفسه أول من نفذ بالفلسفة إلى عالم الأدب ، إذ انصرف عن كتابة الفلسفة باللغة اللاتينية المدرسية ، مستعملاً فى بعض مؤلفاته لغة أخرى يفهمها عامة الشعب ، ألا وهى اللغة الفرنسية . ومنذ ذلك الحين ، أخذت الفلسفة تنزل

إلى الميدان الأدبي ، ولم يعد الفلاسفة مجرد أساتذة مَدْرَسِيِّين ، بل صاروا محروصون على صياغة مؤلفاتهم بصورة فنية . وهكذا ظهرت في عالم التأليف الفلسفي كتب عديدة تقوم على الصياغة الأدبية ، أو الابتكار الفني ، فقدم لنا كيركجارد مذكرات شخصية ، ووضع لنا نيتشه وجيو وأونامونو Unamuno أشعاراً فلسفية ، وأصبح كثير من الفلاسفة المعاصرين مثل جبريل مارسيل ، وجان بول سارتر ، وألبير كامى ، وسيمون دى بوفوار وغيرهم يعمدون إلى التعبير عن أفكارهم الفلسفية من خلال المواقف المسرحية والمشاهد الروائية والأفلام السينمائية ... إلخ .

ومع ذلك ، فإننا نلاحظ أن برجسون ، ذلك المفكر الممتاز الذى وجد فى الرواية والأعمال الفنية (بل والأنظار الصوفية أيضاً) مصادر قيمة من شأنها أن تقوى مألدى الفيلسوف من حدس ، فضلاً عن أنه هو نفسه كان واحداً من خيرة الكتاب المحدثين فى الفلسفة ؛ نقول إن هذا الفيلسوف الكبير لم يحاول يوماً أن يقدم لنا إنتاجاً أدبياً . وربما كان عذر برجسون فى ذلك أنه لم يكن يتصور أن يكون فى وسع المؤلفات الأدبية التى تستمد كل قيمتها مما تتصف به من جمال فنى ، أن تظل محتفظة مع ذلك بشيء من تلك « الكلية » L'universalité التى هى أخص خصائص الفلسفة . ولكن هذا لم يمنع الأدباء أنفسهم من أن يقدموا لنا أعمالاً فنية ذات صبغة فلسفية ، فكان أن حظى كل من فاليرى Valéry ، وأندريه جيد Gide ، ومارسل بروست Proust ، ورلكه Rilke وشارل مورجان Morgan وغيرهم بتقدير الفلاسفة واهتمام مؤرخى الفلسفة ، حتى لقد أصبحنا نجد فى المصنفات الفلسفية نفسها إشارات عديدة إلى بعض النماذج الفلسفية من تفكير هؤلاء الأدباء . وهذا هو الفيلسوف الإنجليزى الكبير هويتهد ينص صراحة على ضرورة الالتجاء إلى الشعراء (من حين إلى آخر) من أجل التعبير عن بعض المعانى الفلسفية العميقة ، فراه

يقول بصريح العبارة « إن مجرد خلود الشعراء لمهو الدليل للمادى القاطع على أنهم يعبرون عن حدس إنسانى عميق ، استطاعت الإنسانية بمقتضاه أن تنفذ إلى ما فى الواقعة الفردية من طابع كلى شامل » . فلم يجد هوايتهد أى حَرَج فى أن يُهَيِّبَ بخبرات شعراء من أمثال شلى أو وردزورث من أجل تكملة ما فى الخبرة العلمية من نقص ، ولم يتردد هيدجر فى أن يشغل نفسه بدراسة شعر هيلدرلن Hoelderlin من أجل الكشف عما ينطوى عليه من دلالة ميتافيزيقية ، ولم يشأ ميلوبونتى أن يكتم عنا تأثره بسيزان Cézanne ، فراح يتأمل تجربته الفنية لكى يزيح لنا النقاب عن سرها الفلسفى ، ولم يغب عن ذهن ألبير كامى Camus ما هنالك من صلة وثيقة بين تأملاته الفلسفية وخبرات بعض الشعراء والروائيين ، فراح يحدثنا عن بعض شخصيات دوستوفسكى وكافكا Kafka وغيرهم . . . إلخ .

٤٣ - والواقع أننا لو رجعنا إلى تاريخ التفكير الفلسفى فى بلد كفرنسا مثلاً ، لوجدنا إن القرابة كانت وثيقة دائماً أبداً بين الفلسفة والأدب ، فمن الناحية الشكلية ، نلاحظ أن الحوار ، والمسرحية ، والرواية ، والشعر ، والمقال على وجه الخصوص ، كثيراً ما كانت هى وسيلة التعبير المفضلة فى عرض الآراء الفلسفية عند المفكرين الفرنسيين . بل إننا حتى لو نظرنا إلى بعض الأدباء الفرنسيين من أمثال بلزاك ، أو فكتور هيجو ، أو بول فاليرى ، فإننا لا نملك سوى أن نعترف لهم بمقدرة فلسفية كبرى تقصُر دُونَهَا بعض أفكار الفلاسفة أنفسهم . ولكن على حين أن الأدب هو الذى كان يحتل الميدان الفلسفى منذ نحو خمسة وعشرين عاماً فى فرنسا ، حتى لقد كان الفلاسفة يحاولون التملُّص من سطوة الأدب ، والتمرد على هذا الاحتلال الأدبى ، ملاحظ اليوم أن الحال قد صار على خلاف ذلك تماماً ، إذ أصبحت الفلسفة هى التى تحتل الميدان الأدبى ،

حتى لقد أصبحت صيحات الأدباء تتعالى معلنة احتجاج أصحابها على تطّفل الفلسفة على الأدب وافتحامها لميدانه ! وربما كان السر في جَوْرِ الفلسفة على الأدب في بلد كفرنسا هو اتساع الجمهور الفلسفي بشكل لم يسبق له نظير : فقد أصبحت الفلسفة عند الفرنسيين (خصوصاً على أعقاب الحرب الأخيرة) شغلا شاغلا لشقى طبقات المجتمع ، ومن ثم فقد تعددت المجلات الفلسفية ، وكثرت الندوات الأدبية والفكرية ، ولم تعد الفلسفة مجرد دراسة خاصة يضطلع بها قوم من المتخصصين ، بل أصبحت حديث الناس في الطرقات والمقاهى والحوانيت ! ولكن قد يكون من السذاجة أن تتوهم أن حاجات الجمهور هي التي خلقت هناك هذا النوع الجديد من الأدب الفلسفي أو الفلسفة الأدبية ، وإنما يجب أن نلاحظ أن الذوق العام يظل بمثابة ظاهرة مختلطة غير محدّدة المعالم إلى أن يبيح الكتاب أنفسهم فيحدّدونه ، إن لم نقل بأنهم هم الذين يستحدّثونه إلى حد ما^(١).

بيد أننا قد لا نجانب الصواب إذا قلنا إن السر في تقرب الفلسفة من الأدب في عصرنا الحاضر ، إنما هو على وجه التحديد اهتمام الفلاسفة بالعودة إلى الإنسان ، وحرصهم على الرجوع إلى التجربة البشرية الحية بما فيها من عمق وواقعية وثراء . فلم يَعدْ « الإنسان » في نظر الفلاسفة المعاصرين حقيقة مركبة تنقسم إلى « إنسان عارف » ، و « إنسان صانع » ، و « إنسان متدين » ، و « إنسان اقتصادى » ، ... بل أصبح الإنسان في نظرهم نسيجاً بشرياً لا يقبل التجزئة ، لا مجرد مركب (أو صياغة) تتألف من كل تلك الوجوه العديدة من وجوه النظر . وبعد أن كان ما يهيمُّ الفلسفة في الإنسان حتى نهاية القرن التاسع عشر إنما هو

(١) Cf. E. Bréhier : Transformation de La Philosophie Française , Paris, Flammarion, 190—192.

وظائفه ، بما فيها وظائف المعرفة ، والوظيفة السياسية ، والوظيفة الأخلاقية ، أعنى كل ما يمكن أن يكون موضوعاً لقاعدة عامة كلية ، أصبح الإنسان بلحمه ودمه هو موضوع اهتمام الفلاسفة في القرن العشرين . وبعد أن كانت مسائل المصير الشخصي ، والقلق أمام الموت ، والعلاقات الشخصية مع الآخرين ، وما إلى ذلك من موضوعات إنسانية ترتبط بالأم الفرد وآماله ، مجرد مسائل يتركها الفيلسوف عن طيب خاطر لرجل الدين أو المصلح الأخلاقي ، أصبحنا نجد لدى الفلاسفة المعاصرين أحاديث مسهبة عن بطلان العالم ونقص الوجود البشرى وفناء الحياة الإنسانية وإخفاق الوجود لذاته ، كما هو الحال مثلاً لدى سارتر في كتابه المشهور « الوجود والعدم » . ومن هنا فإنه لم يكن من المستغرب أن تتلاقى الفلسفة مع الأدب ، ما دام الموضوع الرئيسى للأدب بصفة عامة ، والرواية بصفة خاصة ، إنما هو الإنسان . غير أن الأدب المعاصر لم يَمُدَّ يقف من الإنسان موقفاً موضوعياً على نحو ما كان يفعل فلوبر ، أو موقفاً تهكمياً ساخراً على نحو ما كان يفعل أناتول فرانس ، كما أنه لم يعد يهتم بأن يقدم لنا عن الإنسان دراسات اجتماعية طويلة الباع على نحو ما كان يفعل بلزاك أو إميل زولا ، بل هو قد أصبح يقدم لنا عن الإنسان صورة واقعية ملموسة ، تُصَوِّرُهُ لنا في إطاره الاجتماعى المُبْتَدَلِ ، أو تصفه لنا في جوه العائلى اليومي ، فتكشف لنا عن عمق أهوائه ورذائله وشقى مظاهر نقصه ؛ وتجرده من وظائفه الاجتماعية لكي تضعه وجهاً لوجه أمامنا على نحو ما هو في صميم علاقاته بذاته ، والطبيعة ، والآخرين . ولعل هذا هو ما أرادت سيمون دى بوفوار أن تُعَبِّرَ عنه حينما كتبت تقول : « إن لسكل تجربة إنسانية بُعْداً سيكولوجياً خاصاً . ولكن على حين نجد أن الباحث النظرى يستخلص تلك المعانى محاولاً دائماً أن يُكَوِّنَ منها مركباً عقلياً مجرداً ، نرى أن الروائى يُعَبِّرُ عنها تعبيراً حياً بأن يضمها

في سياقها الفردى الواقى . وإذا كان بروسث مثلاً يبدو عملاً سقيماً باعتباره تلميذاً لريبو Ribot ، حتى أننا نكاد نَجْزِمُ بأنه لا يأتى بجديد على الإطلاق ، فإنه بوصفه روائياً أصيلاً يكشف لنا عن حقائق جديدة لم يستطع أى باحث نظرى في عصره أن يشير ضمناً أو صراحة إلى أى معادل مجرد لها^(١) .

٤٤ — غير أن بريه يعود فيقول إنه يجدر بنا ألا نمضى في التقريب بين الفلسفة والأدب إلى نهاية الشوط ، إذ أن من المؤكد أن الشيء الرئيسى في الأدب (على العكس من الفاسفة) إنما هو الفن ، ما دمنا نشد فيه المتعة لا الحقيقة ، ونتوخى اللذة الفنية لا التعليم العقلى . فالأديب إنما يقدم لنا عملاً فنياً نرتاح إليه ونستمتع به ونستغرق فيه ؛ وهو إذا حاول أن يحشد في عمله الفنى أدلة عقلية أو براهين فلسفية أو مذهباً مجرداً ، فإنه قد يفسد عندئذ كل ما فى عمله الفنى من ذوق أدبى . ومعنى هذا أنه ليس أفسد للعمل الفنى ، موسيقياً كان أم أدبياً . أم تشكيمياً ، من أن يتخذ صورة قضية يظهر صاحبها بمظهر الباحث الذى يسعى جاهداً فى سبيل الحصول على أدلة أو براهين لتأييد مذهب أو فضلاً عن ذلك فإنه قد يكون من حَظَلِ الرأى أن تقارن عمق الفكرة لدى الأديب بعمقها لدى الفيلسوف : فإن عبقرية بلزك لا تقارن بعبقرية أوجست كونت ، كما أنه لا وجه للموازنة بين عمق تهوفن وعمق هيجل . حقا إن ثمة أعمالاً أدبية نجد فيها أن الروائى قد استحال إلى مفكر دىالكتيكي ، كما أن ثمة أعمالاً فلسفية نجد فيها أن المفكر دىالكتيكي قد استحال إلى روائى ، ولكن من المؤكد أن مثل هذه الأعمال إنما هى الدليل القاطع على أن عصرنا الحاضر لا يخلو مع الأسف من ذوق ردىء ، وفهم سيء ، وميل إلى الخلط أو أما القرابة الحقيقية

Simone de Beauvoir : «L' Existentialisme et la Sagesse» (١)
des Nations», Paris, Nagel, 1948, p. 114.

التي تجمع بين الفلسفة والأدب فهي تلك التي تتمثل في اهتمام كل من الفيلسوف والأديب بمصير الإنسان ، ومواقفه البشرية ، وقيمه الأخلاقية ، وصراعه ضد شتى القوى اللاإنسانية . . . إلخ . ولا غرو ، فإن الإنسان لم يَمُدَّ اليوم في نظر الفيلسوف المعاصر نهاية أو خاتمة ، وكأنما هو تاج الخليقة ورأس الموجودات الحية جميعاً ، بل أصبح مجرد بداية أو قدرة على المبادأة Initiative ، وبالتالي فإن النظرة البيولوجية لم تعد كافية من أجل فهم حقيقة الإنسان . فلم يعد الفيلسوف يَعتَبرُ الإنسان بمثابة الحلقة الأخيرة في سلسلة التطور الحيواني ، كما كان يفعل أرسطو قديماً وأنصار مذهب التطور حديثاً ، ولم يعد أحد يفسر لنا اليوم الإنسان المتمددين بالاستناد إلى الإنسان البدائي ، بل أصبح الرجل العادي نفسه يفهم أن الرواى أقدَرُ على تعريفنا بالإنسان من العالم البيولوجي ، وأن المخلوق البشرى ليس بمثابة خاتمة أو نهاية ، وإنما هو (على نحو ما يبدو لنفسه بشكل مباشر) مقدمة أو بداية .

وأما إذا اعترض البعض على تقريبنا للفلسفة من الأدب ، بدعوى أن الفيلسوف لا بد من أن يظل أسيراً لمذهب واحد بعينه هو مذهبه ، في حين أن الأديب ليس ملزماً بأن يَبْقَى حَبِيسَ أى عمل فنى يبذره ، كان ردنا على ذلك أن القول بوجود فن منفصل عن صاحبه هو في صميمه قول مردود . فليس بصحيح ما يقولونه من أن الفيلسوف قابع داخل مذهبه ، في حين أن الفنان مائل أمام عمله الفنى ، بل الصحيح أن كلا من الفيلسوف والفنان على صلة وثيقة بفلسفته أو فنه . وإذا كان من الحق أن أى فيلسوف لا يمكن أن يَضَعَ أكثر من مذهب واحد ، فإن من الحق أيضاً أن أى فنان لا يسير في العادة إلا عن شئ واحد ، ولكن على أنحاء عديدة أو بصور مختلفة . . . ومعنى هذا أن مثل الفنان كمثل للفكر ، من حيث إن كلاهما يرتبط بإنتاجه ، ويلتزم به ،

ويحقق فيه ، ويتحدد من خلاله . وكثيراً ما يحىء العمل الفني بمثابة تركيب أو بناء ، فيكون عمل الفنان عبارة عن إنتاج هائل ضخيم تسوده حقيقة فنية واحدة . وإذا كان بعض عظماء الفنانين قد يبدوون لنا أحياناً مملّين ، فما ذلك إلا لأن لديهم فكرة واحدة يكررونها برتابة في كل أعمالهم الفنية . وإذن فإن الشُّقَّة ليست ببعيدة إلى الحد الذي يتصوره البعض ، بين الفلسفة والفن ، أو بين التفكير الفلسفي والإنتاج الأدبي . وآية ذلك أنه لم يعد في وسعنا اليوم أن نفصل أية فلسفة عن صاحبها ، بعكس ما كان يفعل الأقدمون حينما كانوا ينسبون إلى فلسفة كل فيلسوف طابعاً كلياً يجعلها مستقلة عن فردية صاحبها . وهذا كتاب « الأخلاق » لاسبينوزا قد يبدو لنا في الظاهر مؤلفاً لا شخصياً وكأنما هو لا يحمل أى أثر من آثار شخصية صاحبه ، ولكننا لو أنعمنا النظر إليه في بعض جوانبه ، لتحققنا من أنه لا يخرج عن كونه اعترافاً فلسفياً منظماً مسهباً . فالفكر المجرد لا بد من أن يرتد في خاتمة المطاف إلى القاعدة المحسوسة التي قام عليها ، والفيلسوف العقلي قد لا يتحدثنا عن نفسه ، أو قد لا يروى لنا تاريخ حياته ، ولكن نظراته إلى الكون لا بد من أن تنقل إلينا صورة صادقة لشخصيته ، وطرأه السيكلوجي ، وأسلوب حياته . وهكذا الحال بالنسبة إلى كبار الروائيين ، فإنهم لا يقدمون لنا قضايا يبرهنون عليها ، أو موضوعات يحاولون التدليل على صحتها ، وإنما هم يحاولون أن يضعوا بين أيدينا أحداثاً إنسانية تنطوي على معانٍ فلسفية ، وكأنما هم مضطرون بحكم طبيعة إنتاجهم الفني نفسه إلى أن يقدموا لنا نظرات خاصة إلى الوجود . ومن هنا فقد كان بلزاك وستندال ودوستويفسكي وبروست ومالرو وكافكا وغيرهم روائيين فلاسفة ، وإن كانت فلسفاتهم قد بقيت مطوية خلال مجموعة من المواقف البشرية التي

عاشتها شخصياتهم الروائية الخالدة^(١). ثم جاء سارتر فلم يشأ لشخصياته الروائية أن تظل بمثابة مخلوقات سلبية يدرسها النقاد ويحللون سماتها ويفسرون تصرفاتها، بل قدم لنا روايات فلسفية تضطلع فيها الشخصيات الروائية نفسها بمهمة تفسير المعنى التصوري *Signification conceptuelle* الذي تحمله. فالشخصيات الروائية عند سارتر تقول هي نفسها كل ما يراد لها أن تقوله، وكل ما يمكن أن يقوله عنها الآخرون! ومعنى هذا أنها لم تعد بمثابة موضوعات دراسة ينثرها الروائي هنا وهناك، وإنما هي قد أصبحت بمثابة شخصيات واعية تفهم ذاتها وتنفذ سلوكها وتعلق على تصرفاتها. وهكذا قد يكون في وسعنا أن نقول إن الرواية الفلسفية لم تعد تنتظر من النقاد أن يعترفوا على شخصياتها أو أن يدرجوها تحت بعض الأنماط الشخصية العامة، بل هي قد أصبحت تقوم بهذه المهمة لحسابها الخاص، دون أن تنتظر من أي ناقد فني أن يحىء فيتأولها أو يفسرها أو يضطلع بشرحها!

٤٥ — وهنا يعود الفلاسفة التقليديون إلى الاعتراض على هذا الخلط السارترى بين الفلسفة والأدب، أو بين الميتافيزيقا والرواية، فيقولون إن سارتر يقدم لنا عملاً لا هو بالفلسفة ولا هو بالأدب! وحجة هؤلاء أن في نفاذ الروح الأدبية إلى التفكير الفلسفي انهياراً للفلسفة نفسها: لأن الفكر الذي يلجئ إلى الرمز والتشبيه والخيال هو فكر غامض لم يستطع بعد أن يستبين ذاته، ولأن الرمز لا يخرج عن كونه قناعاً يرتديه المذهب الغامض الذي لم ينبج بعد في التعبير عن نفسه بأسلوب واضح صريح! ولكننا لو عدنا إلى تاريخ الفلسفة نستفتيه الرأي بخصوص هذه الدعوى لألقينا أن الفلسفة منذ عهد أفلاطون

Albert Camus : *«Le Mythe de Sisyphe»*, Paris, Gallimard, 1942, (Philosophie et Roman), pp. 133—138. (١)

حتى يومنا هذا ، لم تستطع يوما أن تستغنى عن الخيال ، أو أن تتخلى نهائيا عن الشعر ، لأن حكماء البشرية قد فطنوا من قديم الزمان إلى أن الحقيقة قلما تتجلى سافرة بينة ، وإنما هي كثيراً ما تتخفى وراء الأساطير والخرافات والرموز والأقاصيص والحكم الشعبية . ومن هنا فقد ذهب البعض إلى أنه مهما حاول الفيلسوف أن يُحَكِّم عقله في كل شيء أو مهما خيل إليه أن فلسفته هي نظر عقلي خالص ، بل مهما أراد أن يجعل من فلسفته علماً دقيقاً محكماً ، فإنه لابد من أن يجد نفسه محمولا على أجنحة الخيال إلى عالم تختلط فيه الحقيقة بالشعر ، ويتمزج فيه الواقع بالثال ! وهل استطاع الإنسان — فيما يقول هؤلاء — أن يقيض يوما على الحقيقة بجمع يديه ، حتى يزعم لنفسه أنه قد اجتاز مرحلة الخيال ، أو أنه ليس في فلسفته سوى البدهة والوضوح والنظر العقلي الخالص ؟ .

بيد أن الوجوديين حينما يأخذون بهذه النظرة في التقريب بين الأدب والفلسفة ، فإنهم لا يريدون بذلك أن يقحموا الخيال على دائرة التفكير الفلسفي ، وإنما هم يريدون أن يعبروا عن شتى « المواقف الميتافيزيقية » التي يجتازها الإنسان بالأسلوب الروائي الذي يتناسب مع ما للوجود البشري من طابع تاريخي درامي . حقا إن ثمة فلاسفة يزددون أسلوب التعبير الروائي ، ولا يرون موضعاً للمزج بين الفلسفة والرواية ، ولكن هؤلاء — فيما تقول سيمون دى بوفوار — إنما هم أولئك الفلاسفة الذين يفصلون الماهية عن الوجود ، ويحتقرون « المظهر » بوصفه دون « الحقيقة المستترة » ! وأما إذا عرفنا أن « المظهر » نفسه « حقيقة » ، وأن « الوجود » إنما هو حامل « الماهية » ، وأنه لا سبيل إلى فصل الابتسامة عن الوجه الباسم ، ومعنى الحدث عن الحدث نفسه ، فهناك لابد لعياننا الفلسفي من أن يعبر عن نفسه من خلال اللُحْج الحسية والبوارق المادية التي تنبعث من العالم الأرضي نفسه . وتبعاً لذلك فإن

التفكير الوجودى لا يريد أن يعبر عن نفسه من خلال البحوث الفلسفية والدراسات الفنونولوجية فحسب ، بل هو يلتجئ أيضاً إلى الروايات والقصص والمسرحيات يلتمس فيها تعبيراً حياً خصباً عن شتى تجارب الإنسان الوجودية بوصفه « موجوداً ميتافيزيقياً » .^(١)

والواقع أن الوجودية فى صميمها إن هى إلا جهد يراده التوفيق بين الموضوعى والذاتى ، بين المطلق والنسبى ، بين اللازمى والتاريخى . . . إلخ . والوجودية أيضاً إنما تهدف إلى إدراك الماهية فى صميم الوجود ، فليس بدعاً أن نراها ترحب بالرواية ، مادامت الرواية هى التى تسمح للفيلسوف بأن « يقف على الانبثاق الأصلى للوجود فى حقيقته الكاملة النوعية التاريخية » (على حد تعبير سيمون دى بوفوار .) . ولا تنحصر مهمة الكاتب الروائى فى استغلال بعض الحقائق السابقة المحصلة فلسفياً ، فى دائرة العمل الأدبى ، وإنما تنحصر مهمته فى الكشف عن « مظهر » معين من مظاهر التجربة الميتافيزيقية ، ألا وهو ذلك « المظهر » appearance الذى لا سبيل إلى تبيانته على أى نحو آخر ، نظراً لِمَا لَهُ من طابع ذاتى ، جزئى ، درائى . وما دامت « الحقيقة » — فيما يرى الوجوديون — لا تُدْرَكُ عن طريق العقل وحده ، فإن أى وصف عقلى لا يمكن أن يقدم لنا عن « الواقع » صورة صادقة مكافئة . ولهذا يحاول الوجوديون أن يُبْهَرُوا عن الواقع فى شتى مظاهره ، على نحو ما ينكشف لهم من خلال تلك العلاقة الحية التى تربط الإنسان بالعالم ، وهى تلك العلاقة التى يقولون عنها إنها فى صميمها فعل وعاطفة ، قبل أن تكون فكراً وتصوراً^(٢) .

(١) ذكرى إبراهيم . مقدمة للترجمة العربية لمسرحية « جلسة سرية » لجان بول سارتر حار النشر المصرية . ص ٧ (والترجمة للأستاذ مجاهد عبد المنعم مجاهد) .

(٢) Simone de Beauvoir : « L' Existentialisme et la Sagesse » (٢) des Nations , Nagel, 1949, pp. 119—120.

من هذا نرى أن الرواية *le roman* في نظر الوجوديين ليست دخيلة على الفلسفة ، بل هي تعبير حي عن ذلك « البُعد الميتافيزيقي » الذي لا يمكن للموجود البشري إلا أن يتحرك عبره . وإذا كان من المستحيل أن نتصور رواية أرسطاليسية ، أو اسينوزية ، أو لينتسية ، لأنه ليس للذاتية أو الزمانية أى موضع في مذهب أرسطو أو اسينوزا أو لينتس ، فإنه ليس من الغريب أن تكون ثمة رواية سارترية ، مادامت وجودية سارتر هي في صميمها فلسفة تؤكد بكل قوة ما للتجربة من طابع ذاتي ، جزئي ، درامي ، تاريخي ، زمني . وحينما يستبعد بعض الحداثين « الرواية الفلسفية » ، فإنهم بذلك إنما يعبرون عن فهم خاطئ للفلسفة ، وكأن الفلسفة في نظرهم لا يمكن أن تكون إلا مذهباً مركباً مكتملاً مكتفياً بذاته . وأما إذا تصورنا الفلسفة على أنها مخاطره روحية يحيا فيها المفكر ضروباً مختلفة من التجارب الوجودية ، فإننا لن نجد حرجاً في أن نعبّر عن تلك المخاطرة بأسلوب روائي تنكشف من خلاله مواقف الإنسان بإزاء العالم والآخرين . بل إننا حتى إذا رفضنا أن نسلم بذلك « البُعد الميتافيزيقي » الذي ينكشف من خلاله قلق الإنسان ، وجزعه ، وتمرده ، وخوفه من الموت ، وحينئذ إلى الوجود ، وتعطّشه للمطلق ، فإننا لن نستطيع أن ننكر أن لكل تجربة إنسانية (كما سبق لنا القول) « بُعْداً سيكولوجياً » معيناً قد لا ينجح في الكشف عنه إلا الفلاسوف المتعمق المتبصر . وبينما نجد أن الباحث النظري يحاول أن ينتزع تلك المعاني بطريقة مجردة ، وأن يؤلف فيما بينها على نحو عقلي محض ، نجد أن الروائي يحاول أن يعبر عنها تعبيراً حياً مُشخّصاً ، بأن يضعها في سياقها الفردي أو الجزئي أو الواقعي . وتبعاً لذلك فلن الوجوديين يُملَقون أهمية كبرى على « الرواية الميتافيزيقيّة » بوصفها كشفاً عن الوجود بأسلوب حي مشخص لانكاد نجد له نظيراً في أى أسلوب آخر من أساليب التعبير . وآية ذلك

أن المسرحية أو الرواية إنما تظهر لنا الإنسان والأحداث الإنسانية في علاقاتها بمجموع العالم ، فتبين لنا أن الوجود البشرى كائن منذ البداية في العالم ، وأن وجوده إنما ينقضى في داخل هذا الإطار الخارجى الذى يعيش فيه . وما كان الإنسان « موجودا ميتافيزيقيا » إلا لأنه يضع نفسه دائما ككل *dans sa totalité* بإزاء العالم نفسه ككل ، فيواجه العالم في كل لحظة ، ويركب عاله الخاص ابتداء من بعض المواقف الوجودية الخاصة . وحينما يقول بعض الوجوديين إن لكل حدث إنسانى دلالة ميتافيزيقية ، فإنهم يعنون بذلك أن الإنسان يجد نفسه في كل حدث من الأحداث « ملتزما » *engagé* بأسره ، في العالم بأسره . وهكذا يكتشف المرء من خلال تجاربه الوجودية حضوره أمام العالم ، واستناده إلى ذاته وحدها ، ومقاومة الذوات الأخرى له ، واختياره لنفسه بمقتضى حريته الخاصة . . . إلخ . ولا شك أن هذه الحقائق الميتافيزيقية التى تنكشف للإنسان مقترنة يعواطف الألم واللذة والخوف والقلق والجزع والاهبة والرجاء والأمل (وما إلى ذلك) إنما هى جميعا مما تستطيع الرواية أن تُعبّر عنه بأسلوب واقعى حتى قد لا ترقى إليه أهمق الدراسات الفلسفية أو البحوث الفنونولوجية . وهكذا يخلص الوجوديون إلى القول بأن مسرحية « جلسة سرية » قد تكون أقوى تعبيراً عن بعض آراء سارتر الفلسفية من كتابه « الوجود والعدم » ، كما أن روايته المسماة « بالفتيان » قد تكون أقرب إلى الفهم من كتابه « التخييل » ، وهلم جرا . ولعل هذا هو ما حدا ببعض النقاد (من أمثال كامبل) إلى تقديم فلسفة سارتر على صورة عرض مستقى من رواياته وكتبه الفلسفية معاً ، على اعتبار أننا هنا بإزاء « أدب فلسفى » ^(١) .

٤٦ — وأخيراً قد يحق لنا أن نقف وقفة قصيرة عند رأى بعض الوضعيين

R. Campbell - J. P. Sartre, *Une Littérature Philosophique* (١)
 «bique» Paris, Pierre Ardent, 3me édition, 1947.
 (١١ - فلسفة)

الناطقون الذين يأخذون على دعاة الميتافيزيقا أنهم يمزجون الفلسفة بالفن ، فيقدمون لنا مذاهب خاوية ليست من الحقيقة في شيء ، في حين أن مهمة الفلسفة أن تحل المفاهيم العلمية تحليلاً لغوياً منطقياً صارماً . وهنا نجد أن الميتافيزيقا في رأى أصحاب هذا المذهب إن هي إلا عمل فنى لا أثر فيه لاستقراء الوقائع ، بل دعائمه الخيال ، ورائده التعبير عن المثال ! فالميتافيزيقيون ليسوا سوى شعراء ضلوا سبيلهم ، وبالتالي فإنهم لم يعودوا يقدمون لنا قصائد يعترفون بأنها من نسج خيالهم ، بل صاروا يضعون بين أيدينا مذاهب منمقة تستر تحت رداء كاذب من الأدلة والبراهين العقلية ، دون أن تكون في صميمها سوى مجرد أمشاج من الخرافات والأساطير ! وحسبنا أن ندقق النظر في تلك المذاهب الميتافيزيقية ، حتى نتحقق من أنها لا تخرج عن كونها ملاحم شعرية يُعَبِّرُ أصحابها عن إحساسهم بالوجود أو شعورهم بالحياة . ولكن الموسيقى (فيما يزعم كارناب) قد تكون أقدر من الفلسفة على أداء هذه الوظيفة ، لأن الموسيقى مجردة من كل عنصر موضوعي ، فهي تستطيع أن تعبر عن إحساسنا بالحياة بوسائل أنقى وأطهر . ولنضرب لذلك مثلاً فنقول إن الفيلسوف حين يضع مذهباً واحدياً ، فإنه إما يريد من وراء هذا المذهب الميتافيزيقي الخاص أن يعبر عن إحساسه بما في الحياة من توافق أو انسجام ؛ ولكن من المؤكد أننا نجد في موسيقى موزار Mozart تعبيراً أوضح وأعمق عن هذا الشعور نفسه . أما حينما يترجم الميتافيزيقي عن إحساسه بما في الوجود من صراع أو مجاهدة أو بطولة ، بأن يقدم لنا مذهباً ثنائياً ، فإنه عندئذ إنما يُظهِرُنا بشكل قاطع على أن موهبة بهوفن تنقصه ، فهو لا يملك من القدرة ما يستطيع معه أن يصول ويحول في الميدان المناسب ! وهكذا يقرر كارناب أن الميتافيزيقيين إن هم إلا موسيقيون عَدِمُوا كل موهبة موسيقية ولكنهم يعرضون عن هذا النقص بأن يتجهوا نحو مجال النظريات ،

من أجل إظهار براعتهم في الربط بين الأفكار والمفاهيم ، فاليتافيزيقي مخلوق منحرف لا يستغل ذكاه في ميدانه الصحيح (ألا وهو العلم) ، فضلا عن أنه لا يتجه بحاجة إلى التعبير وجهتها الطبيعية فينصرف نحو الفن ، وإنما نراه يخلط بين النزعتين ، فيقدم لنا إنتاجا لا تستفيد منه المعرفة العلمية بشيء ، ولا ينطوي في الوقت نفسه إلا على تعبير ناقص مُشوَّه عن إحساسنا بالحياة^(١)

يبد أن أصحاب هذا الرأي ينسون أو يتناسون أن الفلسفة ليست فنا ينشد التعبير ، وإنما هي دراسة عقلية تبني المعرفة . حقا إن لكل مذهب فلسفي (كما لاحظ لالو وسوريو) تكوينه الإستطقي الذي يجعل منه سينفوقية لها موضوعها وإيقاعها وانسجامها ووخذتها الزمانية ، ولكن هذه الصيغة الشكلية التي تسم بطابعها كل مذهب فلسفي لا تُبَرِّرُ الخلط بين العمل الفلسفي والعمل الفني . وليس يرضى الفيلسوف أن يقال له إن مذهب قطعة موسيقية رائعة أو ملحمة شعرية هائلة ، وإنما هو يريد دائما أن يقاس مذهبه بقياس الحق لا الجلال ، وأن يحكم على فلسفته بمعايير الصدق والكذب ، لا بمعايير الحُسن والقُبْح . فليس في استطاعتنا إذن أن نُلْحِقَ الفلسفة بالفن ، اللهم إلا إذا تصورنا أن كل تلك الأجهزة الفكرية التي يستخدمها الفيلسوف من أجل إظهارنا على الحقيقة إن هي إلا أُنْفَمَةٌ زائفة تُخَفِّي وَرَاءَهَا بَعْضَ الْمَاشِعِ الدَّائِيَةِ والتجارب الخاصة . ونحن لا نَشْكُ في أن وراء « الفيلسوف » إنما يَكُنْ دائما « الإنسان » ، ولكن « الإنسان » لا يَفْنَى بالضرورة « الشاعر » أو « الفنان » ، بل هو قد يَفْنَى أيضا الباحثُ العقلي الذي يواصل مخاطرته الروحية بأمانة وإخلاص ، محاولا أن يتفهم معنى الكون وغاية المصير ، دون أن يقتصر على تنويع تجاربه أو تعديد خبراته أو استمراء حياته . . .

R. Carnap : " La Science et la Métaphysique " trad. (١)
franç. Paris, Hermann, 1944, p. 44.

الفصل السابع

بين الفلسفة والدين

٤٧ - إذا كان البعض قد شاء أن يجعل من الفلسفة شيئاً في ذاته ، وكان في الإمكان أن يكون ثمة تاريخ مجرد للمذاهب ، أو « تاريخ للعقل الخالص » على حد تعبير كانت ، فربما كان من واجبنا أن نقرر على العكس من ذلك أنه ليس ثمة حد فاصل يسمح لنا بأن نعزل آراء الفلاسفة وأفكارهم ومذاهبهم عن جوهر الروحي ويثمتهم الأخلاقية ووسطهم الاجتماعي . حقا إننا قد نتوهم أن تاريخ الفلسفة إن هو إلا تاريخ مجرد للأفكار والمذاهب ، ولكننا لو أنعمنا النظر إلى تاريخ الفلسفة لتحقيقنا من أنه قد يكون من العسير ، إن لم يكن من المستحيل ، أن نفصله عن تاريخ غيره من أنشطة الحياة الروحية الأخرى . فليس ثمة حدود حاسمة تفصل الفلسفة عن العلم أو الفن أو الدين أو الأخلاق أو السياسة ، بل هناك تدّاخل مستمر بين كل تلك الجوانب المختلفة من النشاط الحضاري ، بحيث قد لا يكون في وسعنا أن ننسب إلى الفلسفة أي مظهر من مظاهر الاكتفاء الذاتي . هذا إلى أننا لو استقرينا تاريخ الفلاسفة ، لتحقيقنا من أن ثمة فلاسفة كانوا علماء ، وآخرين كانوا مصاحين اجتماعيين (كأوجست كونت مثلا) ، وطائفة كانت تحترف مهنة التوجيه الأخلاقي (كالفلاسفة الرواقيين) وأخرى كانت تشغل بالخطابة والوعظ (كالفلاسفة الكلبيين) . . إلخ . فلم يكن الفلاسفة جميعاً مفكرين انزاليين يحترفون مهنة التفكير النظري ، كما كان الحال بالنسبة إلى ديكارت أو كانت ، بل لقد قام بينهم رجال دين ، وأهل جدل ، ودعاة ثورة ، ورجال سياسة . إلخ . وتبعاً لذلك فإن مكانة الفلسفة من

نفس كل فيلسوف قد اختلفت بحسب اتجاهه الفكرى العام ، فضلا عن أن قيمتها بالنسبة إلى كل عصر من العصور قد اختلفت بحسب موضعها في صميم التنظيم العقلى العام لكل عصر على حدة^(١) .

والواقع أن الفلسفة (كما لاحظ المؤرخ الفرنسى إميل بُوْترو) قد نشأت في جانب منها عن الدين ، فليس في وسعنا أن نستبعد من عداد المذاهب الفلسفية كل تلك الفلسفات التي مزجت بين النظر العقلى والإيمان الدينى . حقا إن ما يميز الفلسفة عن الدين — كما يُقال عادة — هو استنادها إلى سلطة العقل وَخَذَهُ ، ولكن من المؤكد أن إيمان الفيلسوف الدينى كثيراً ما يتسلل إلى صميم تفكيره العقلى ، فلا يجد مؤرخ الفلسفة بداً من أن يعترف بأن الفيلسوف قد صدر في جانب من تفكيره عن أنوار الوحي . وما دام الفيلسوف إن هو إلا إنسان ، فليس بدعاً أن نراه يدخل في صميم مذهبه العقلى عناصر كثيرة يرتد بعضها إلى الدين ، وبعضها الآخر إلى العاطفة . هذا إلى أننا لو عدنا إلى تلك المشكلة الكبرى التي طالما أثارت الكثير من الخصومات حول علاقة الإيمان الدينى بالتفكير العقلى ، لوجدنا أن ما كان يُعدُّ في عصر ما من العصور مجرد عقيدة دينية لم يلبث أن استحال في عصر آخر إلى مذهب فلسفى . والعكس صحيح أيضا ، فقد كان ديكارت يُعدُّ لا مادية النفس بمثابة حقيقة فلسفية تقبل البرهنة ، بينما نجد أن لوك لا يرى في هذه القضية سوى مجرد حقيقة دينية . ولم تكن فكرة الحياة الأبدية في الأصل سوى مجرد فكرة دينية ، ولكننا نجدها تستحيل على يد فيلسوف مثل اسبينوزا إلى مذهب فلسفى يقوم على أسس ميتافيزيقية ديكرتية . فليس في وسعنا أن نستند إلى واقعة استقلال الفلسفة (في العصور الحديثة) عن كل سلطة دينية ، من أجل الاقتصار على عرض آراء الفلاسفة

E. Bréhier : •Histoire de la Philosophie• t. I. I., Alcan. (١)
1938, pp. 8—9.

بوصفها مذاهب عقلية مجردة ، بل لا بد لنا من أن نحاول الربط بين كل مذهب فلسفى وبين الجوهر الروحى الذى تنسبته صاحبه ، حتى نستطيع عن هذا الطريق أن نفهم كل فلسفة فى داخل إطارها الحضارى ، فلا نرى فيها سوى مجرد محاولة من أجل تنظيم القيم تنظيماً طبقياً يتلاءم مع حالة العلم ، والدين ، والفن ، والحياة الأخلاقية أو الاجتماعية ، فى بيئة كل فيلسوف على حدة .

حقاً إن الفلسفة لم تنشأ إلا يوم آمن الإنسان بقدرة العقل على المعرفة ، ولكن تطوّر التفكير الفلسفى لم يلبث أن اقتاد الفلاسفة إلى إثارة مشكلة حدود المعرفة العقلية ، فنشأت من ذلك قضية استقلال الفلسفة ، وإلى أى حد يحق لها أن تضى فى معالجة المشكلات الإلهية النامضة ، ومسائل ما بعد الطبيعة للعقيدة . ولئن يكن الكثير من الباحثين اليوم قد لا يجد أى موضع لإثارة مشكلة العلاقة بين الفلسفة والدين ، إلا أن مؤرخ الفلسفة الذى يحاول أن يقدم لنا صورة صادقة لتطور التفكير الفلسفى عبر التاريخ ، لا بد من أن يجد نفسه مضطراً إلى أن يخوض فى وصف تلك العلاقات المركبة التى طالما جمعت بين التفكير الفلسفى والتفكير اللاهوتى . فإذا عرفنا أن الفلسفة لا زالت تحتل مكانة كبرى بين الدراسات الإنسانية التى يهتم بها رجال الدين فى كل بقاع العالم ، وإذا تذكرنا أن عدداً غير قليل من الفلاسفة المحدثين والمعاصرين لم يكونوا فى بداية عهدهم سوى مجرد علماء فى اللاهوت ، وإذا علمنا أيضاً أن بعض التيارات الفلسفية للمعاصرة (كالحركة التوماسية الجديدة) لا تخرج عن كونها إحياء لبعض فلسفات الفصور الوسطى ، أمكننا أن ندرك أهمية التعرض لدراسة مشكلة العلاقة بين الفلسفة والدين . ومهما كان من أمر تلك الحركات الإلحادية التى انتشرت فى بعض بلدان أوروبا على أثر الحرب العالمية الثانية ، فإننا لن نستطيع أن نفهم جوهر الكثير من التيارات الفلسفية المعاصرة إن لم نبدأ أولاً بدراسة التطورات الحضارية الأخيرة التى اختلفت على الروح الدينية فى تلك البلاد .

٤٨ — ولو شئنا أن نستعرض تاريخ العلاقات القائمة بين الدين والفلسفة منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا ، لكان علينا أن نرتد إلى تلك الأساطير الدينية والخرافات السحرية التي ذهب الكثير من الباحثين إلى أنها كانت الأصل في نشأة التفكير الفلسفي . بيد أن فلاسفة اليونان الأقدمين لم يلبثوا أن تحقّقوا من أن تلك الأساطير الدينية لا تخرج عن كونها خيالات بشرية اصطنعها الناس (على صورتهم ومثالهم) لوصف الآلهة . ولعل هذا هو ما عناه إكسثوفان حينما كتب يقول : « إن الناس هم الذين استحدثوا الآلهة ، وخلقوا عليها هيئتهم وعواطفهم ولغتهم . ولو كان في وسع الثيرة أن ترسم لنا صورة لآلهتها ، لصورت لنا الآلهة ، على صورتها ومثالها ! ونحن نعرف كيف نسب هوميروس وهزiod إلى الآلهة ، كل ما هو موضع تحقير وملامة في نظر الناس » . فلم يشأ هذا الفيلسوف اليوناني القديم أن يخلع على الآلهة صفات البشر ، بل ذهب إلى تنزيه الله بوصفه عقلاً محصاً كله بصر وكله فكر . وأما جماعة السوفسطائيين فقد استحلوا لأنفسهم التهمك على الآلهة والتندر على الأساطير الدينية ؛ وإن كان يروى عن بروتاغوراس أنه قال : « ليس في استطاعتي أن أعرف ما إذا كان الآلهة موجودين ، فإن أموراً كثيرة تحول بيني وبين تلك المعرفة ، لعل أهمها غموض المسألة وقصر الحياة البشرية » . ولكن على الرغم من أن كل فلاسفة اليونان تقريباً قد آمنوا بقدرة العقل ، فكانوا يعالجون كثيراً من المشكلات اللاهوتية بالأدلة المنطقية والبراهين العقلية ، فضلاً عن أنهم لم يضعوا أمام العقل أى حد في الحكم على صفات الآلهة وأعمالهم وعلاقاتهم بالناس ، إلا أننا نلاحظ مع ذلك أن أفلاطون وأرسطو قد أخذوا بالمعتقد التقليدي الذي كان ينسب الألوهية إلى السماء والكواكب ، كما أنهما قد حاولا أن يلتمسا في الكثير من الأساطير الدينية بعض آثار التفكير الفلسفي ، وكأنهما قد أخذتا على عاتقهما أن يوفقا بين الفلسفة والديانة الشعبية . ولم يلبث الرواقيون أن فطنوا إلى ما وراء الأساطير

والخرافات والطقوس الدينية من معان رمزية ، فحاولوا أن يفسروا الديانة الشعبية تفسيراً فلسفياً ، وذهبوا إلى أن سائر المعتقدات الدينية والطقوس الشعبية إن هي إلا صور متنوعة لحقيقة واحدة ، مادام من شأن العقل الكلى أن يتجلى على أشكال عديدة مختلفة بحسب اختلاف عقول الناس^(١) .

ثم جاء الأفلاطونيون الجدد بنظريتهم الميتافيزيقية في « الواحد اللامتناهي » ، فذهبوا إلى أن الله عال على جميع الأشياء (بما في ذلك العقل والحياة نفسها) ، ولكنهم رأوا في الوقت نفسه أنه لا بد من إدخال نظام طبقى من الموجودات المتوسطة فيما بين الأشكال الدنيا والأشكال العليا من الوجود . وليست الديانة الشعبية في نظرهم سوى هذا المجال الوسيط الذى بنقلنا من المحسوس إلى المعقول ، بفضل ما تنطوى عليه تلك الديانة من أساطير وتقاليد وطقوس وعبادات ورموز سحرية . . . الخ . فالآلهة الشعبية ، بوصفها كائنات ناقصة لا تخلو كمثلنا من ضعف ، من شأنها أن تمد أيديها إلينا لكي ترفعنا نحو الإله الأسى . ولا شك أن من بعض أفضال العبادات الشعبية على الإنسان أنها تحولته عن الاهتمام بالمحسوس من أجل الاتجاه به نحو اللامادى ، فهى بذلك إنما تؤدي دوراً فلسفياً هاماً فى العلو بالإنسان نحو العالم العقلى . ولكن المهم أن الفلسفة اليونانية فى عهد أفلاطون لم تلبث أن وقعت تحت تأثير الديانات الشرقية بفكرتها عن الخلاص أو النجاة ، فنشأت منذ ذلك الحين مشكلة تاريخية كبرى هى مشكلة العلاقة بين العقل والنقل ، ومدى تأثير المسيحية على الفلاسفة . والواقع أن مجيء الوحي وانضمامه إلى العقل فى تقرير الحقيقة ، كان سبباً فى إثارة مشكلة جديدة لم يكن يعرفها رجال الفلسفة اليونانية ، فإن الديانة اليونانية لم تكن سوى ديانة طبيعية

(١) Emile Boutroux : « Science et Religion dans la philosophie contemporaine » Paris, Flammarion, 1947, pp. 5—7.

تقوم على النظر إلى الطبيعة والإنسان ، في حين أن الديانة المسيحية قد بدت منذ البداية ديانة روحية فائقة للعقل ، فلم يكن بد من أن يتصدى أنصار هذه الديانة الجديدة للدفاع عن الإيمان وإثبات معقولة العقيدة المسيحية .

ولسنا نريد أن نستعرض سائر الآراء التي أدلى بها فلاسفة المسيحية من أجل التوفيق بين العقل والنقل ، ولكن حسبنا أن نشير إلى آراء ثلاثة منهم على الأقل ، ألا وهم القديس أوغسطين ، والقديس أنسلم ، والقديس توما الأكويني . والأول منهم هو صاحب العبارة المشهورة : « العقل يسبق الإيمان ، والإيمان يسبق العقل ، وأنا أؤمن لكي أتفكر » . ومعنى هذه العبارة أنه لا بد للإنسان أن يمتحن الإيمان بعقله قبل أن يسلم به . فإذا ما ضمن صحة العقيدة الدينية التي فحصها مبدئياً ، كان عليه أن يسلم بالأسرار التي تتضمنها مجرد تسليم ، ثم تبيء بعد ذلك مرحلة التمقل الفلسفي للدين ، فيرتفع الإنسان من مرحلة الإيمان الساذج إلى مرتبة فهم هذا الإيمان وتفكر معتقداته . ولعل هذا هو ما عناه أوغسطين حينما قال في عبارة أخرى له : « معاذ الله أن يكون خضوعنا لما يعلمه الإيمان ، حائلاً دون التماس علة الإيمان ، لأنه لولا العقل لما كان في وسعنا أن نؤمن . » — وأما الرأي الذي ذهب إليه القديس أنسلم فهو أنه ليس في وسع العقل بمفرده أن يصل إلى تلك الحقائق التي يقدمها لنا الوحي ، مهما كان من دقة بحثه ، وصحة برهانه . وتبعاً لذلك فإن الحقائق الدينية لا بد من أن تكون هي نقطة البدء في بحثنا . ولكن من الخطأ البالغ — مع ذلك — أن يقتصر المرء على الإيمان الساذج الذي لا أثر فيه للفهم والتفكير ، فإن في استطاعة العقل أن يبرهن على صحة أعقد المسائل الدينية وأكثرها غموضاً . وإذن فإن العقيدة — في نظر أنسلم — ليست سوى قوة يستعين بها العقل من أجل فهم حقائق الكون فهماً عقلياً . وأما القديس توما الأكويني فإنه

يذهب إلى أن العقل والوحى وسيلتان من وسائل المعرفة ، وهما قد صدرا عن أصل واحد مشترك ، فإن الله هو الذى أودع العقل فى الإنسان ، وهو الذى أعلن للناس حقائق الوحى . ولما كانت « الحقيقة لا يمكن أن تتعارض مع الحقيقة » ، لأن القضيتين المتناقضتين لا بد أن تكون الواحدة منهما صادقة بالضرورة ، والأخرى كاذبة بالضرورة ، فإن الحقيقة لا بد من أن تكون واحدة . وإن كانت كذلك ، فقد لزم أن يكون العقل والإيمان سبيلين يؤديان إلى تلك الحقيقة الواحدة . ولكن الإنسان لا يستطيع أن يصل عن طريق العقل وحده إلى كافة الحقائق الدينية ، لأن بين هذه الحقائق ما يمتنع على العقل الوصول إليه ، فلا بد من أن يضاف الوحى إلى العقل حتى يتسنى للإنسان إدراك تلك الأسرار الفائقة للعقل . وإذن فإن العقل والنقل ليسا نقيضين ، بل هما يمثلان خطوتين متتاليتين تكمل الواحدة منهما الأخرى فى مجال المعرفة . وليس للإنسان محيص عن الوحى يكمل به قواه الطبيعية الناقصة العاجزة بذاتها عن الوصول إلى الحقائق العليا . حقاً إن فى استطاعة العقل أن يتوصل إلى إثبات وجود الله ووحدانيته وخلود الروح ، ولكن ثمة حقائق أخرى هى دون متناول العقل ، كالتثليث والخلق فى الزمان . . . الخ ومعنى هذا أن هناك حقائق يستطيع العقل بالاشتراك مع الوحى أن يتوصل إلى معرفتها ، فى حين أن ثمة حقائق أخرى يختص بها الوحى ، فلا يكون فى وسع العقل أن يرقى إلى فهمها . ولكن فى كلتا الحالتين ينبغى أن تكون حقائق الإيمان — فيما يرى القديس توما الأكوينى — أول ما نصدق به .

٤٩ — . . . من كل ما تقدم يتبين لنا أنه إذا كانت الروح اليونانية لم تفكر يوماً فى تحديد نطاق العقل ، ولم يخطر على بالها يوماً أن للمعرفة البشرية حدوداً وقيوداً تحول دون امتدادها إلى كل شيء ، أو تطاولها على شئ صنوف

المعرفة ، فإن الروح المسيحية التي سادت في العصور الوسطى قد أخذت تنادى بقصور العقل البشرى عن الإحاطة بالكثير من مسائل ما يعد الطبيعة ، حتى لقد خضعت الفلسفة للدين خضوعاً تاماً في القرن الثالث عشر الميلادي ، بدليل انتشار العبارة اللاتينية المشهورة القائلة بأن « الفلسفة إن هي إلا خادمة لـعلم اللاهوت » . *"philosophia ancilla theologiae"* . ولم يختلف موقف فلاسفة الإسلام من مشكلة العقل والنقل عن موقف فلاسفة المسيحية : فقد ذهب قوم منهم إلى أن النظر العقلي المستقل عن الوحي لا يعد سبيلاً مشروعاً لمعرفة الشئون الإلهية ، بينما ذهب آخرون إلى أن ثمة ديناً عقلياً هو فوق الأديان جميعاً ، فحاولوا أن يعمدوا إلى استنباطه بطريقة عقلية خالصة . . . إلخ . ولئن كان معظم فلاسفة الإسلام قد حاولوا التوفيق بين الفلسفة اليونانية والعقيدة الإسلامية ، إلا أننا نلاحظ أن كثيراً من علماء الكلام كانوا يعوّلون على العقل أكثر مما كانوا يعوّلون على نصوص القرآن ، حتى لقد ذهب بعض مؤرخي الفكر الإسلامي إلى القول بأن المتكلمين هم فلاسفة الإسلام الحقيقيون . وآية ذلك أن بعض هؤلاء المتكلمين قد نادوا بوجود شريعة فطرية عقلية تسبق الوحي ، وهذه الشريعة النابعة من فطرة العقل البشرى هي التي جعلت من المعتزلة فلاسفة عقليين يسلّمون بوجود ديانة عقلية ، وينادون بأن المعارف كلها معقولة بالعقل ، واجبة بنظر العقل^(١)

بيد أن هذه النزعة العقلية التي اصطفت بها بعض الحركات الكلامية لم تلبث أن استهدفت لكمة عنيفة من جانب الإمام الغزالي الذي حل بشدة على كل المذاهب الفلسفية والكلامية ، بحجة أن أصحابها قد وقعوا في الكثير من

(١) الشهرستاني : كتاب « الملل والنحل » طبعه لندن ١٨٤٦ م ، ص ٤٠ — ٤١ ،

التناقض والعجز والتهافت في محاولتهم إقامة العقائد الدينية على أساس عقلى صرف . والظاهر أن الغزالي قد فطن إلى أن المشكلة الدينية لا يمكن أن تحل عن طريق العقل ، وإنما هي تتطلب ذوقاً باطنياً يستطيع المرء عن طريقة أن ينفذ إلى جوهر الحقيقة الدينية . ومن هنا فقد اصطبغ تفكير الغزالي بصبغة صوفية جعلته يقرر أن المعرفة لا تنهياً للموجود البشرى إلا بنور يقذفه الله في قلب المؤمن . ولم يكتف الغزالي بالدعوة إلى « إلبام العوام عن علم الكلام » ، بحجة أن النظر العقلى في أمور الدين بحر عظيم ينبغى ألا ينزله العامى ، وإنما زاه يبالغ في تقرير عجز العقل عن الإحاطة بأسرار العالم الروحانى فيقول « إن حقيقة الخالق أمر بعيد عن مقدرة العقل ، لأنه كيف يستطيع الجزء أن يرى الكل ؟ هل تستطيع الكبد في جسم الإنسان مثلاً أن تحيط إدراكاً بحقيقة شكل الإنسان الخارجى وهى جزء داخل فيه ؟ إن كل ما تدركه الكبد هو وجود تلك المواد التى تمر بها كل يوم فتحولها إلى إفرازات دون أن تدرى من أين جاءت ولا أين تذهب . العقل أيضاً يرى الأحياء كل يوم تدور دورتها دون أن يدرك من أين جاءت ، ولا إلى أين تذهب . فالحقيقة العقلية أو العلمية لا تتجاوز الكائنات التى تمر بالحواس ؛ ومن يحمل العقل أكثر من قدرته ، فهو إنما يريد منه المستحيل ، كمن يطلب إلى الكبد مضغ الطعام » .

وإن ابن خلدون لم يتفق في هذا مع الإمام الغزالي ، لأنه يرى أن كل من حاول أن يحيط بالله تعالى وصفاته ، فقد عجز وأخطأ ، لأنه هو نفسه ذرة من ذرات الوجود ، فكيف تحاول الذرة أن تحيط بالكل ؟ حقا « إن العقل (على حد تعبير ابن خلدون) ميزان صحيح ، فأحكامه يقينية لا كذب فيها ؛ غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة ، وحقيقة النبوة ، وحقائق الصناعات الإلهية ، وكل ما وراء طوره ، فإن ذلك طمع في محال . ومثال ذلك

مثال رجل رأى الميزان الذى يوزن به الذهب ، فطمع أن يزن به الجبال . فهذا لا يُدرك على أن الميزان فى أحكامه غير صادق ، لكن العقل قد يقف عنده ، ولا يتعدى طوره حتى يكون له أن يحيط بالله وصفاته ، فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه . وتفتن فى هذا الغلط من يقدم العقل على السمع فى أمثال هذه القضايا ، وقصور فهمه واضمحلال رأيه . فقد تبين لك الحق من ذلك . وإذا تبين ذلك فلفل الأسباب إذا تجاوزت فى الارتقاء نطاق إدراكنا ووجودنا ، خرجت عن أن تكون مدركة ، فيضل العقل فى بيداء الأوهام وبحار وينقطع ^(١) . ولا يكتفى ابن خلدون بأن يؤكد عجز العقل عن إدراك أسرار الإيمان ، بل إننا لنراه يوغل فى النزعة الحسية إلى الحد الذى يقرر معه استحالة البرهنة على شيء لا يشهد له الحس ، لأن المعرفة عنده إنما تُكتسب عن طريق الإدراك الحسى ، والعقل يصدق فى تفكيره متى انصب على الجزئيات ، ويكتسب اليقين عن هذا الطريق وحده ، فإذا تجاوز العقل هذا الميدان عجيز عن الإحاطة بالكائنات وعللها البعيدة .

وليس فى وسعنا أن نستعرض فى استعراض آراء مفكرى الإسلام فى علاقة الفلسفة بالدين ، وإنما حسبنا أن نقرر أن معظم هؤلاء المفكرين قد ذهبوا إلى ضرورة تحديد نطاق العقل ، وتقديم حقائق الوحي على ظنون الفلاسفة ، والاعتراف بأن الوحي قد كفى الإنسان عناء البحث الطويل الشاق . ولعل من هذا القبيل مثلاً ما أورده أبو حيان التوحيدى على لسان أحد الفلاسفة من أنه قال : « لو كان العقل يُكتفى به لم يكن للوحي فائدة ولا غناء ؛ على أن منازل الناس متفاوتة فى العقل ، وأنصباؤهم مختلفة فيه ،

(١) ابن خلدون : « المقدمة » ، طبعة القاهرة ، سنة ١٩٣٠ ، فصل فى علم الكلام ، ص ٣٨٦ .

فلو كنا نستغنى عن الرّوح بالعقل كيف كنا نصنع ، وليس العقل بأسره لواحد منا ، وإنما هو لجميع الناس . ^(١) ولكن التوحيدى نفسه يعود فيقرر في موضع آخر أن « التوحيد » في الشريعة لم يَصِفْ من شوائب الظنون وأمثلة الألفاظ ، بينما نراه يصفو من كل هذه الرموز البشرية القاصرة في الفلسفة ^(٢) . ومعنى هذا أن التفكير الفلسفى قد يكون أقرب إلى إدراك حقيقة « التوحيد » من كل ما اعتاد الأوائل أن ينسبوه إلى الذات الإلهية . ومع ذلك ، فإن « ما ينطق به الناموس ، قريب مما يسمع في النفوس . » ، فليس ثمة تعارض بين الحكمة والشريعة ، مادامت الفلسفة هي صورة النفس ، والديانة هي سيرة النفس . . . وكما قال أحد الصوفية : إن النُقْبَ كثيرة ، والعروس واحدة . ^(٣) بل لقد ذهب بعض فلاسفة الإسلام من أمثال ابن رشد إلى أن الشرع نفسه قد أوجب النظر في الموجودات بالعقل ، وأن مقصد الحكماء هو بعينه المقصد الذى حثنا عليه الشرع ، بدليل قول الله تعالى : « فاعتبروا بأولى الأبصار ؛ أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض . . . » . ولكن هذا الرأى اقتاد أصحابه إلى العمل على تأويل القرآن بما يتفق مع مرامى الحكمة النظرية ، بدعوى « أن الحق لا يضاد الحق ، بل يوافقه ويشهد له » . وتبعاً لذلك فقد راح ابن رشد يوفق بين الحكمة والشريعة ، على الرغم من كل خلاف ظاهرى بين آراء الفلاسفة ونصوص القرآن ، فكان يتأول كل ما يخالف ظاهر الشريعة وفقاً لقانون التأويل العربى . وهكذا انتهى ابن رشد إلى القول بأن « الحكمة صاحبة الشريعة ، والأخت الرضيعة ، وهما المصْطَحِبَتَان بالطبع ، المتحابتان بالجواهر

(١) انظر « الغابسات » لأبى حيان التوحيدي ، طبعة القاهرة ، حسن السندونى ، ١٩٢٩ ، ص ٤٩ . ٥٠ (مقدمة للفترة العربية) .

(٢) المرجع السابق : ص ٢٥٧ .

(٣) المرجع السابق : ص ٢٠٠ .

والغريزة . ولا شك أن مثل هذا الرأي (كما لا حظ بعض مؤرخي الفلسفة في الإسلام) من شأنه أن يجعل الصِّدْأَة للفلسفة على الدين ، مادامنا سنَجبر الدين على ألا يصطدم بالفلسفة إطلاقاً ، وما دام ثمة تسليم ضمنى بأن الفلسفة هي أسمى صورة من صور الحق ، وأنه لا بد من تأوُّل كل نصوص قرآنية تخرج في ظاهرها على المعرفة البرهانية . ولعل هذا هو ما عناه دى بور حينما كتب يقول : « ولكن يبدو على هذا الرأي مظهر من الإلحاد ، فالدين الحق لن يرضى بأن يقر للفلسفة بالمكان الأول في بيان الحقائق . وكان طبيعياً أن يحاول متكلمو الغرب كما حاول إخوانهم^١ في المشرق أن ينهزوا القرص ، فلا يقر لم قرار حتى ينزلوا الفلسفة ، فيجعلوها خادمة لعلم الكلام »^(١) .

٥٠ — وأما في عصر النهضة فقد حدثت ثورة فلسفية كبرى أدت إلى استقلال الفلسفة عن اللاهوت ، خصوصاً وأن مفكرى هذا العصر من أمثال نيقولا دى كوزا : Nicolae de Cusa ، وجيوردانو برونو G. Bruno ، وكامبانلا Campanella قد أعلنوا بمذاهبهم الجديدة ثورتهم على الماضى ، وانفصلهم عن أرسطو ، وتمردهم على الفلسفة المدرسية التقليدية . 'حقاً لقد اقترنت حركة النهضة بظهور الإصلاح الدينى ، وانبثاق فجر الكشف العلمية ، ولكن من اللؤكذ أن إحياء التراث اليونانى القديم من جهة ، وقيام بعض النزعات الشككية من جهة أخرى قد عملا أيضاً على ازدهار الفلسفة واستقلال التفكير الفلسفى عن الإيمان الدينى . ونحن نجد أن مفكراً مثل مونتني Montaigne يُعرِّف الفلسفة بقوله إنها هي الشك بعينه ، ويجعل من التفلسف عملية تساؤل مستمرة عبَّر عنها بعبارة الخالدة : « ماذا عساى عارف ؟ » (Que Sais-je) .

(١) دى بور : « تاريخ الفلسفة في الإسلام » ترجمة محمد عبد الهادى أبى ريدة سنة ١٩٣٨ ، ص ٢٦٧ .

وعلى الرغم من أن مونتني يعترف بأننا قد خُلِقْنَا لسكى نقشد الحقيقة ونسعى في إثرها ، إلا أنه يضيف إلى هذه العبارة أن امتلاك الحقيقة هو دون متناولنا ، لأنه يستلزم قدرة أعظم مما نمتلكه نحن البشر الضعفاء ! ولم يلبث بيكون وديكارت أن أعادا إلى الفلسفة استقلالها ، بعد أن صرحا بضرورة وضع الدين خارج نطاق الأنظار العقلية فكان قيام الفلسفة الحديثة رهنا بانفصالها عن علم اللاهوت ، واستقلالها عن الروح المدرسية . ولكن على الرغم من أن بيكون قد ذهب في كتابه « مكانة العلوم وتقدمها » إلى القول بأننا « إذا أردنا أن نطبق على العقل البشرى أسرار الديانة الإلهية ، فإن كل جهودنا لا بد من أن تذهب أدراج الرياح . وإذن قَلْبُكَ لِلدين ما للدين » ، إلا أننا نراه في موضع آخر يعود إلى التقريب بين الفلسفة والدين فيقول : « إن قليلا من الفلسفة قد يتجه بعقل المرء نحو الإلحاد ، وأما العمق في التأمل فإن من شأنه بالضرورة أن يقتاد عقول الناس نحو الدين » . وهذا ديكارت نفسه يقرر في كتابه « المقال عن المنهج » أنه ينبغي لنا ألا نتقبل شيئا على أنه حق ما لم تثبت ببداهة العقل أنه كذلك » ، ولكنه يعود فيقول في كتابه « مبادئ الفلسفة » : « إن من واجبنا أن نتخذ لنا قاعدة معصومة أن ما أوحى به الله هو أوثق بكثير من كل ماعداه » . ويمضي ديكارت إلى حد أبعد من ذلك فيقول « إن ثمة حقائق اختص بها العقل الإنساني ، ففي وسعه أن يستعمل فيها بمطلق حريته ما آتاه الله من قوى وملكات ، وتلك هي حقائق الفلسفة . أما حقائق التنزيل التي هي موضوع علم اللاهوت ، فإنه ليس في وسع الإنسان أن يخوض فيها اللهم إلا بنعمة إلهية خارقة للطبيعة » .

وأما الفيلسوف الألماني كانت فقد فصل بين الفلسفة والدين فصلا مطلقا ، بحجة أن كل المحاولات التي تبذل من أجل استخدام العقل استخداما نظريا

في دائرة اللاهوت إن هي إلا محاولات عقيمة لا تجدى بطبيعتها شيئاً ، ولا توصل في النهاية إلى نتيجة عقلية مقبولة . ونحن نعرف كيف حاول كانت في كتابه « نقد العقل الخالص » أن يبين لنا استحالة البرهنة على وجود الله أو البرهنة على عدم وجوده ، لأن هذه القضية تخرج عن دائرة التجربة الممكنة ، فهي بالتالي تعدو حدود المعرفة البشرية بأسرها . حقا لقد عاد كانت إلى فكرة الله في كتابه « نقد العقل العملي » ، ولكنه لم يقم بذلك الدين في نطاق الفلسفة ، بل هو قد اقتصر على افتراض وجود الله ، بوصفه مسألة أخلاقية ضرورية . تستلزمها طبيعة مذهبه الأخلاقي . ولكن كانت يعود فيقرر في مقدمة الطبعة الثانية لكتابه « نقد العقل الخالص » أنه لم يعمد إلى القضاء على المعرفة الميتافيزيقية . التوكيدية إلا لكي يحل السبيل أمام « الإيمان » . فلم تكن الاعتبارات الدينية غائبة عن ذهن كانت حينما وضع دعائم مذهبه النقدي ، بل هو قد أراد منذ البداية أن يلتمس الإيمان أسساً قوية يستطيع عن طريقها أن يوفق بين ملكوت الطبيعة وملكوت الحرية الأخلاقية . ولا شك أن التريبة الدينية التي تلقاها كانت منذ صباه هي التي أملت عليه احترام القانون الأخلاقي ، والدعوة إلى ضرب من الإيمان العقلي ، دون التقيد بأي طقوس أو فرائض دينية .

فإذا ما انتقلنا إلى هيجل ، ألفينا أنه يضع الدين جنباً إلى جنب مع الفن ، فيقرر أنه فن باطنى يصور لنا الحقيقة الإلهية من الداخل عن طريق الشعور الباطنى ، في حين أن الفن بطبيعته إنما يمثل لنا الحقيقة الإلهية في صورة خارجية . عن طريق الشعور الجمالى . حقا إن الدين هو الابن الطبيعى للفن لأنه يقوم مثله على الخيال وال عاطفة ؛ ولكن الفارق بين الدين والفن أن الدين يقيم ضرباً من التعارض بين الطبيعة والله ، في حين أن الفن يحاول دائماً أن يوحد بين ما هو طبيعى وما هو إلهى . فالدين إنما يقوم على الثنائية : لأنه يتصور الله على أنه - (١٣) مشكلة الفلسفة -

موجود خارجي بالقياس إلى كل من الكون والبشرية ، مادام الله هو الموجود المتعالى الذي يسمو بطبيعته فوق العالم ، ولكن الروح البشرية لا ترى في الثنائية سوى حالة مؤقتة ، فهي لا بد من أن تجد نفسها مضطرة عن طريق الفلسفة والعلم إلى أن ترد الثنائية المؤقتة إلى الوحدة . ولما كان الدين والعقيدة لا يخرجان عن كونهما مجموعة من الرموز التي تقوم على الخيال ، فإن الروح البشرية لا يمكن أن تجد فيها شفاءً ومنعماً . هذا إلى أن الروح تنصف بالحرية ، فهي لا تستطيع أن تقنع بالدين الذي يريد أن يفرض عليها من الخارج مجموعة من العقائد ، كما أنها لا يمكن أن تتقبل فكرة الله بوصفه مجرد سلطة خارجية تتعارض مع شعورها بالحرية . وتبعاً لذلك فإن الروح إنما تنزع نحو الفلسفة ، لأنها عندئذ إنما تحقق حريتها وشعورها بذاتها وخضوعها لنفسها ، فلا يكون ثمة شيء خارجي بالقياس إليها ، ولا يكون ثمة ما يتعارض مع حريتها . وهكذا يخلص هيجل إلى القول بأن الفلسفة هي الفكر نفسه وقد ارتد إلى نفسه ، ونفذ إلى صميم ذاته ، فاستطاع أن يتحقق من أنه هو الذي يكون ماهية الأشياء . وإذا كان هدف الفيلسوف هو الشعور بالطلق ، فذلك لأن المطلق باطن في الشعور ، أو هو الشعور نفسه بوصفه الحقيقة الوحيدة التي لا يوجد خارجها شيء . وتبعاً لذلك فقد أراد هيجل أن يعلو على سائر الأديان وسائر الفنون ، لكي يتوصل إلى « المطلق » من خلال فلسفته الواحدة التي أراد لها أن تذيع علينا سر الوجود .

أما الفيلسوف الدنمركي كيركجارد (الذي نعهده الأب الروحي لسائر فلاسفة الوجود) ، فقد أراد أن يهاجم الميكانية ويعارض الفلسفة ، لكي ينتصر للوجود ويدافع عن التجربة الدينية . وإذا كان كيركجارد قد حمل بشدة على كل حكمة عالمية (أو كل فلسفة) ، فذلك لأنه ارتأى أنها هي التي تحول بيننا وبين رؤية

ما يعتمد أمام أبصارنا من آفاق لا متناهية . حقاً إن الرجل الغنى الذى يمضى فى الظلام راكباً سيارته لا بد من أن يرى فى ضوء المصابيح ما لا يراه الرجل الفقير الذى يسير على قدميه ، ولكن من المؤكد أنه لن يرى تلك النجوم المتألقة التى تلمع فى السماء من فوقه ! والواقع أن فعل التفكير فى نظر كيركجارد إنما يعنى الانصراف عن الوجود ، فالفيلسوف الذى ينبجح تماماً فى تحقيق مهمة التفكير إنما يصل فى خاتمة المطاف إلى حالة خواء يكاد فيها أن يكف عن الوجود ! وقد سبق لنا أن رأينا كيف أقام كيركجارد ضرباً من التعارض بين « الفكر » و « الوجود » ، فليس بدعاً أن نراه يحمل على الفلسفة ، ويشقطن فى الحكم على سائر المذاهب العقلية التى تريد فهم الإيمان أو تبرير الدين أو تفسير الحقيقة الدينية . وحجة كيركجارد فى ذلك أن الإيمان يتطلب من المرء أن يتخلى عن عقله ، وأن المسيحية هى على النقيض تماماً من كل نظر عقلى ، كما أن الإيمان بطبيعته لا بد من أن يكون طاهراً تقيماً خالياً من كل معرفة ! وليس الله فى نظر كيركجارد فكرة نبرهن عليها ، بل هو موجود نعيش فى علاقة معه . ومعنى هذا أن وجود الله إنما يثبت عن طريق الصلاة ، لا عن طريق الأدلة العقلية . وكل محاولة يراد بها جمل المسيحية ديانة معقولة لا بد من أن تؤدى فى نظر كيركجارد إلى القضاء عليها تماماً : لأن الإيمان لا يحتاج إلى برهان ، إن لم نقل بأن البرهان هو الخصم اللدود للإيمان . وهكذا نجد أن كيركجارد قد انتصر للدين على الفلسفة ، باعتبار أن الدين خبرة حية ووجود حقيقى ، فى حين أن الفلسفة نظر عقلى ومذهب موضوعى^(١) .

(١) Cf. E. Gilson : « L' Etre et L' Essence » , Vrin, 1948
Ch. IX p. 247.

٥١ — وما دمنا قد أشرنا إلى نظرية أحد أئمة التفكير المسيحي البروتستانتي في الصلة بين الدين والفلسفة ، فقد يكون في وسعنا أيضاً أن نتوقف قليلاً عند نظرية أحد أئمة الفكر المسيحي الكاثوليكي المعاصر في الربط بين الفلسفة والدين ، ألا وهو المفكر الفرنسي مورييس بلوندل Maurice Blondel (١٨٦١ — ١٩٤٩) . وهنا نجد أن بلوندل يريد أن يحذرننا من خطر الوقوع في ذلك التطرف الذي طالما استهدفت له الفلسفة حينما أرادت أن تحمل من نفسها « سيدة » متسلطة على الحكمة ، بدلا من أن تكون مجرد « خادمة » طليعة لها : تحبها وتخدمها وتتعلق بها . ومعنى هذا أن علينا أن نعيد إلى الفلسفة روحها الأولى ونزعها القديمة ، فنهيب بها أن تعود إلى تواضعها الأصلية ، وندعوها إلى أن تحذر كل تطرف عقلي ، وتتطلب منها أن تعترف بقصورها الطبيعي ، ونضطرها إلى أن تحدد بناييمها الخاصة وحدودها الذاتية ، ونلزمها بأن تتعرف على مطالبها وحاجاتها ورغباتها وآمالها . . . ولن نقوم للفلسفة فأئمة الأهم إلا إذا ضمنا لها أن تبقى بمنأى عن شتى النزعات الخاطئة التي تريد أن تخلع عليها سلطة خاصة أو قدرة ذاتية ، وكأنما هي تتمتع باكتفاء ذاتي تستطيع معه أن تحيا منفصلة عن سائر مشروب النشاط البشري . حقا إن للفلسفة قيمة حضارية كبرى بوصفها علما عقليا ، وحياة روحية ، وفكرا حيا ، وثقافة خصبة ، ولكن التفكير الفلسفي لا يخرج عن كونه مظهرا من مظاهر الحضارة الانسانية ، وأفرادا من الروافد العديدة التي تغذي المجرى الأصلي لنهر الحضارة . وإذا كان للفلسفة دور كبير تضطلع به في تاريخ الحضارة العامة ، فذلك لأنها تظهرنا على أن الفكر الانساني قاصر بالضرورة ، وبالتالي فإنها تدعونا إلى أن نتجه نحو الواقع الحي الذي نستطيع أن ننزع منه نورا يرشدنا نحو غايتنا القصوى في الحياة . وعلى ذلك فإن الفلسفة هي التي تحول دون تأليه الفكر لنفسه ، وهي التي تظهرنا

على ضعف النظر العقلى وقصوره ، وهى التى تصرفنا إلى الكشف عن مطالب الحياة العملية وارتياح مسالك الفعل ، فتمهد بذلك السبيل للإيمان ^(١) .

وإذا كان البعض قد تصور أنه لا بد للفلسفة من أن تستقل بذاتها ، وتكتفى بنفسها ، وكأنما لا بد لها من أن تقوم « فى ذاتها » ، فإن بلوندل يقرر على العكس من ذلك أن الفلسفة لا تستطيع أن تنهض بتفسير كل شيء ، لأنها تشتمل فى باطنها على هوة فارغة لا بد من أن تبنى قوة أخرى فتسدها وتتكفل بملء فراغها . . . ومهما كانت درجة التقدم التى قد تحرزها بعض المذاهب الفلسفية ، فإنها لا يمكن أن تصل إلى الحالة التى تصبح عندها مكتفية بذاتها ، قادرة وحدها على أن تقدم لنا النور الضرورى لتوجيه فكرنا وتحديد غايتنا . وتبعاً لذلك فإن بلوندل يريد للفلسفة أن تلتزم حدودها الخاصة ، فلا تزعم لنفسها الحق فى الانفصال عن الدين ، ولا تدعى أن لها حدوداً ثابتة تجعل منها مملكة مستقلة قائمة بذاتها . وليس أمعن فى الخطأ من أن يزعم بعضهم أن كل شيء قد قيل : فإن شيئاً من هذا لن يحدث يوماً ، مادام نطاق الفكر الفلسفى لا بد من أن يبقى مفتوحاً دائماً ، على الرغم من تلك المذاهب الفلسفية التى تريد أن تغلق الفلسفة على ذاتها .

لقد قال برتولو Berthelot : « إنه لم يعد هناك سر » ، بينما ذهب جيو Guyau إلى أن الدين صائر حتماً إلى الزوال ، وأن المستقبل سوف يشهد أكيداً نزعة لادينية خالصة ؛ ولكن تاريخ الفلسفة — فيما يقول بلوندل — سوف يثبت لنا مرة أخرى أن الفكر الإنسانى لن يستطيع أن يصيب نجاحاً مطلقاً فى سبيله إلى كشف الحقيقة ، وأنه ليس من حق الفيلسوف أن يغلق بابه على نفسه ، مدعياً أن لفلسفته استقلالاً كاملاً . وإذا كان أنصار فكرة التقدم

M. Blondel « La Pensée », Alcan, 1934, t. II. pp. (١)
206—207.

يريدوننا على أن نتصور عصرًا ذهبيًا يمكن أن يتحقق فيه حلم الفلسفة بالاستقلال التام ، فإن من واجبنا (فيما يرى بلوندل) ألا نُؤخِّدَ بهذا الوهم الكاذب ، لأن القصور الذي ينطوى عليه الفكر الانساني ليس بظاهرة ثانوية عارضة ، وإنما هو حقيقة جوهرية ثابتة تدخل في صميم تكوين العقل البشرى ومعنى هذا أنه لما كان الفكر بطبيعته ناقصًا ، فإنه لن يكون في وسعنا يوما أن نتوصل إلى إقامة « فلسفة قاطعة » تكون بمثابة عالم كامل من الماهيات الثابتة والتصورات المطلقة . وهكذا نجد أنه لا بد لنا من أن نربط الفلسفة بغيرها من مظاهر الحياة الروحية للبشرية (بما في ذلك الدين) ، مادام من المستحيل أن تكون ثمة « فلسفة في ذاتها » : philosophie en soi .

حقا إن الانسان قد يتوهم أنه يستطيع أن يجد في ذاته وبذاته كل الحقيقة الضرورية اللازمة لتوجيه حياته ، ولكن النور الذي لا بد من أن يرشدنا في طريق حياتنا لا يمكن أن يكون هو نور العقل وحده . وما أصدق القديس أوغسطين حينما يصف قصور العقل البشرى فيقول : « إن من يبدو له أنه قد شارف النهاية ، إنما هو في الواقع لم يكده يعدو مرحلة البداية » . ألا تظهرنا التجربة على أنه بمجرد ما تحاول الفلسفة أن تستقل بذاتها وتكتفى بنفسها ، فإنها سرعان ما تستحيل إلى مذهب عقيم مشوّه لا يكفي لتوجيه حياتنا ؟ وإذن أفلا يحق لنا أن نقول إن الفلسفة تثير — بمقتضى حقها الطبيعي المشروع — كثيراً من المسائل الحيوية المتعلقة بمعنى الحياة وغاية المصير ، ولكنها — وإن حددت مضمون هذه المسائل — تظل دائماً عاجزة عن القيام بحلها حلانها ثمة ، لأنها لا تستطيع بمفردها أن تفصل في تلك المشكلات الكبرى التي تعدو حدود العقل البشرى . وتبعاً لذلك فإن موريس بلوندل يهيب بالدين ، لأن الدين في نظره هو الذي يأخذ بيد الفلسفة في فهمها لمعنى الكون وسر الوجود وغاية المصير .

وليس معنى هذا أن بلوندل يريد أن يزج باللاهوت في نطاق الفلسفة ، أو أنه يريد أن ينكر على الفلسفة أصالتها الشخصية وقدرتها الخاصة بقيمتها الحقيقية في دراسة مشكلة المصير البشرى ، وإنما كل ما هنالك أنه يريد للفلسفة أن تكون على استعداد دائماً لتلقي سائر الأنوار التي تجيء للعقل من قبل الإيمان . وبعبارة أخرى يقرر بلوندل أن على الفلسفة دائماً أن تفتح أبوابها لكل مامن شانه أن يساعدها على حل مشكلاتها وتفهم معضلاتها . فليس في استطاعة الفيلسوف أن يصرف النظر عن الدين ، أو أن يقف منه موقف الحياد ، ما دام من شأن الفلسفة أن تهتم بدراسة المشكلة الكلية الشاملة للوجود والفكر والحياة ؛ بل لا بد للمشكلة الدينية من أن تدخل في صميم الدراسة الفلسفية ، بوصفها تلك المشكلة الجوهرية التي قد تعيننا على تفهم ديناميكية النشاط البشرى نفسه .

ولسنا هنا بمعرض الحديث عن « فلسفة الفعل » على نحو ما عرضها لنا موريس بلوندل ، وإنما حسبنا أن نقرر أن هذا الفيلسوف المسيحي لم يخطئ في مذهبه بين العقل والنقل ، ولكنه أراد أن يبين لنا أن في استطاعة الفلسفة أن تقتادنا إلى تقرير وجود « مبدأ فائق للطبيعة » دون حاجة إلى استلزام أنوار الوحي . فلم يكن قصد بلوندل أن يقسم الدين على الفلسفة ، وإنما كان قصده الوصول إلى إثبات « ما فوق الطبيعة » بالاستناد إلى المنهج الباطنى الذى تأخذ به الفلسفة الطبيعية . فليس من تناقض بين الفلسفة والدين ، لأنه ليس بصحيح أن الواحد منهما يؤمن بمبدأ باطنى صرف ، فى حين أن الآخر يؤمن بمبدأ متعال محض ، بل الصحيح أن الديانة الفاتكة للطبيعة إن هى إلا صرخة طبيعية تتردد أصدأوها فى أعماق الضمير . وتبعاً لذلك فإن بلوندل لا ينسب إلى الفلسفة موقفاً وسطاً بين العلم والدين ، وكأنما هى تدرس طائفة من الموضوعات الخاصة التى تحتل مركزاً وسطاً بين الوقائع العلمية والوقائع الدينية ، وإنما هو ينسب

إلى الفلسفة مهمة العمل على توضيح الرابطة التي تربط هذه بتلك ، وإظهارنا على استحالة تقرير الواحدة منهما دون الأخرى . ومعنى هذا أنه ليس من شأن الفلسفة أن تضع « موجودات » تقوم هي بتحديد شروطها ، أو أن تفترض وجود « وقائع » تضطلع هي بمهمة إثباتها ، وإنما لابد للفلسفة من أن تسير سيرها الطبيعي من العلم إلى الدين ، فتنتقل بنا من المجال الطبيعي إلى المجال الفائق للطبيعة . وصفوة القول إنه ليس ثمة « فلسفة في ذاتها » بل هناك حكمة متواضعة ، أو محبة للحكمة ، وهذه بطبيعتها لا يمكن أن تظل بمنأى عن كل نور ديني ، لأن الفلسفة إذا استقلت أو حاولت الاستقلال ، فإنها لن تكون . عندئذ سوى مجرد « مذهب » ، أعنى أنها لن تكون هي الفلسفة بالمعنى الكلى الذى يفيد الاستغراق .

٥٢ — وأخيراً قد يكون فى وسعنا أن نشير إلى موقف الفلاسفة الوجوديين من الدين ، وكيف أنهم أرادوا أن يخلصوا الفلسفة من فكرة « الله » ، على اعتبار أن الله قد مات (على حد تعبير نيتشه) أو أنه كان يحدثنا ثم صمت (على حد تعبير سارتر) ، فلم يعد فى وسعنا الآن سوى أن نلس منه جثة هامدة ! ولكننا مع ذلك لو أنعمنا النظر إلى فلسفة سارتر لاستطعنا أن نقول مع بريه إنها تنتهى فى خاتمة المطاف إلى « لاهوت » *théologie* لا إله فيه ! ومعنى هذا أن وجوديه سارتر إن هي إلا فلسفة رجل متدين فقد إيمانه بالله ، ولكنه لم يفقد نزوعه نحو الله ، فبقى فى صميم فكره حنين غامض نحو ذلك الوجود الذى أحال غيابه ككل الفلسفة الوجودية السارتريّة إلى جو قائم لا بارقة من أمل فيه ^(١) .

غير أن سارتر لم يُغن بدراسة مشكلة العلاقة بين الفلسفة والدين ، لأنه

(١) ذكرى إبراهيم : « مشكلة الإنسان » ، مكتبة مصر ، مشكلات فلسفية رقم ٢ ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٢٥٨ .

لفترض ضمناً أنه حتى لو وُجِدَ ذلك الإله الذى يحدثنا عنه الدين ، فإن وجوده لن يغير شيئاً ، مادامت مشكلة الفلسفة الأولى إنما هى مشكلة الوجود الإنسانى ، لا الوجود الإلهى . وأما الفيلسوف الذى اهتم بالدفاع عن الفلسفة ضد هجمات علماء اللاهوت فهو المفكر الفرنسى الممتاز ميرلوبونتي الذى أراد للفلسفة أن تكون بحثاً حقيقياً لا سراباً واهياً . وقد لاحظ ميرلوبونتي أن معظم الفلاسفة المعاصرين لم يعودوا يهتمون بإثبات وجود الله ، على نحو ما كان يفعل القديس توما الأكويني أو القديس أنسلم أو ديكارت ، وإنما أصبحوا يقتصرون على بيان تهافت القائلين بإنكار وجود الله ، إما بالبحث عن ثغراتٍ تسمح لهم بأن يهتدوا إلى منافذ يعمدون منها إلى تلك الفلسفات الإنكارية مفهوم الوجود الأسمى أو واجب الوجود ، أو بأن ينسبوا إلى أصحاب تلك المذاهب نزعة إلحادية تكون هى الكفيلة فى نظرهم برفض فلسفاتهم . ولكن من المؤكد أننا حينما نرفض مذهباً لجرد أنه إلحادى (فما يرى ميرلوبونتي) ، فإننا عندئذٍ إنما ننظر إلى الفلسفة من وجهة نظر عالم اللاهوت . وحسبنا أن نتذكر أن أعق الفلاسفة إيماناً فى العصر الحديث — ألا وهو اسبينوزا — قد استهدفَ تهمة الإلحاد . والظاهر أن رأى العام هو على استعداد دائماً لأن ينسب تهمة « الإلحاد » إلى كل فكر حرٍّ يحاول أن يغير من مفهوم « الشيء المقدَّس » sacré أو أن يخلع عليه دلالة جديدة . ومن هنا فإن الفلسفة التى تعتمد إلى إلقاء الأضواء على الحقيقة القدسية لا بد من أن تظهر للناس بمظهر الهرطقة أو الإلحاد أو التجديف^(١) .

فهل نقول مع ميرلوبونتي إنه لا شأن للفلسفة بالدين ، لأن الفلسفة

(١) M. Merleau-Ponty; «Eloge de la philosophie», Galli-mard, 1953, p. p. 63—65.

هى البحث الحر النزيه الذى لا يريد أن يعود إلى أى تقليد سابق أو أن يدافع عن أى اتجاه دينى محدد ؟ أم نقول مع جبريل مارسل إن الفيلسوف لا يستطيع أن يتخلى عن موقفه البشرى بوصفه إنساناً يعتقد ديناً معيناً ويتنفس هواء روحياً من نوع خاص ؟ ... هل نقول مع ديدرو *Didérot* : « إن لَدَيَّ نوراً واهياً ضعيفاً ينير الطريق أمامى وسط ظلمات غابة الحياة الكثيفة ، ولكن ما هى إلا أن يظهر فى الأفق عالم لاهوتى حتى يتبدد أمام ناظرى آخر خيط من نور » ؟ أم نقول مع تولستوى : « إننى أعتقد أن ما يفسر علاقة الإنسان بالكون ليس هو العلم ولا الفلسفة ، بل هو الدين » ؟ ... يبدو لنا أن تاريخ الفلسفة نفسه شاهد على ما بين الفلسفة والدين من علاقات وثيقة ، حتى لقد ذهب بعض الباحثين إلى أن الدين ميتافيزيقا تلقائية ، فى حين أن الميتافيزيقا هى دين عقلى أو تأملى *Réfléchio* . بل إننا لو أنعمنا النظر فى مذاهب كبار الميتافيزيقيين من أمثال أفلاطون وأرسطو وأفلوطين وديكارت وليبنيتس وكانت ، لوجدنا أنهم يُلخصون فى أفكارهم ، ويصوغون فى كتبهم ، كل ما حققه الوعى الدينى للبشرية من ضروب التقدم ، فضلاً عن أنهم يَسْتَبِقُونَ المستقبل فيَتنبأون فى كتاباتهم بضروب أخرى من التقدم فى مضمار الوعى الدينى . ولكن شوبنهاور يفرق بين نوعين من الميتافيزيقا أو النظر الفلسفى : ميتافيزيقا تنطوى فى ذاتها على بَيِّنَتِهَا ، وهذه هى الميتافيزيقا العقلية التى تستند إلى التأمل والتفكير ، وميتافيزيقا أخرى بَيِّنَتُهَا خارجة عن ذاتها ، وتلك هى المذاهب المسلم بها تحت اسم « الأديان » . فالدين فى نظر شوبنهاور ليس إلا مذهباً ميتافيزيقياً يقوم على بَيِّنَةٍ خارجية ، لأنه يستند بالضرورة إلى « الوحي » . وقد ظلت الأديان متحكمة أمداً طويلاً فى الميل الميتافيزيقى الموجود لدى الإنسان ، فكان من آثار ذلك أنبقى هذا الميل أسيراً لبعض المعتقدات الدينية الشعبية . ومعنى هذا أن

تأخر الميتافيزيقا — في رأى شوبنهاور — إنما يرجع إلى أن الأديان قد وقفت حجر عثرة في سبيل تقدمها . ولن يتسنى للميتافيزيقا أن تحرز أى تقدم ملموس ، اللهم إلا إذا تهيأ لها أن تتحرر من تلك المعتقدات الشعبية الضئيلة التي طالما أريد لها أن تتكيف معها وتدافع عنها وتسير في ركبتها . وليس أعجب من خصوم الميتافيزيقا ، فإنهم « يبدأون بأن يؤثِّقوا أَرْجُلَنَا وأذرعنا ، ثم هم يسخرون منا بعد ذلك إذا نحن لم نستطع أن نحقق شيئاً أو أن نخطو خطوة واحدة ^(١) » . ثم ينتهى شوبنهاور إلى ضرورة تخلي الفلسفة عن دراسة مشكلة الله فيقول : « إن الفلسفة لا تهتم بدراسة شيء آخر سوى العالم ؛ وهي إذا كانت قد تركت الآلهة وشأنهم ، فإنها لا ترجو من الآلهة سوى أن يدعَوْها أيضاً هي وشأنها ^(٢) » .

يَبْدُو أن شوبنهاور ينسى أو يقنأسى أن فكرة « الله » قد لعبت دوراً كبيراً في معظم المذاهب الفلسفية ، حتى لقد أصبحت قضية « التأليه أو الإلحاد » من أهم قضايا التفكير الميتافيزيقي . هذا إلى أن « فلسفة الدين » قد أصبحت جزءاً لا يتجزأ من صميم الدراسات الفلسفية ، فاهتم بها مثلاً من بين المعاصرين ولهم جيمس ، وبرجسون ، وشرر ، وهوبتيد ، وستينا ، ورويس ، وهوكينج ، وماكس أوتو ، وغيرهم . . . والظاهر — كما لاحظ المفكر الفرنسي المعاصر برادين — أن الفلسفة لم تحزم أمرها يوماً على أن تستقل عن الدين استقلالاً نهائياً حاسماً . حقاً لقد كان هذا في كل حين هو مقصدها الأصلي ، ولكنها لم تعرِف يوماً ، أو لعلها لم ترِد يوماً ، أن تمضي في هذا السبيل حتى نهاية الشوط ^(٣) !

Cf. Schopenhauer : « Philosophie et Science de La Nature » (١)
Trad. Franç. Par Dietrich, Alcan, 1911. pp. 144—145.

Schopenhauer : « Le Monde comme Volonté et comme Représentation » p. 322.

Pradines : « L'Esprit de La Religion » Aubier, Paris, (٢)
1945, p. 15.

الفصل الثامن

بين الفلسفة والأخلاق

٥٣ — إذا كنا قد تحدثنا في الفصول الثلاثة السابقة عن صلات الفلسفة بكل من العلم والفن والدين ، فإن من واجبنا الآن أن نعرض لدراسة صلة الفلسفة بالأخلاق ، خصوصاً وأن المشكلة الخلقية قد احتلت جانباً كبيراً من تأملات الفلاسفة في كل زمان ومكان . ونحن حين نتحدث عن « الأخلاق » فإننا لا نعنى بها مجرد دراسة للعادات والشأنات البشرية ، بل نعنى بها دراسة قواعد السلوك ، بقصد تصوير « كمال القوة العاملة » على حد تعبير مسكويه (أعظم فلاسفة الأخلاق في الإسلام)^(١) . وعلى ذلك ، فإنه ليس المهم في « الأخلاق » أن نعرف كيف يحيا الناس في الواقع ونفس الأمر ، بل المهم أن نعرف كيف ينبغي أن يحيا

حقاً إن الناس حينما يتحدثون عادة عن « الأخلاق » ، فإنهم يعنون بها في الغالب مجموعة من القواعد السلوكية التي تسلم بها جماعة من الناس في حقبة ما من الحقب التاريخية ، ولكن الفلاسفة قلما يوافقون على هذه النظرة الوصفية إلى الأخلاق ، لأنهم يذهبون إلى أن موضوعها هو فرض القواعد التي ينبغي أن يحتذيها الإنسان في سلوكه . ومن هنا فقد أبى الفلاسفة أن يجعلوا من « الأخلاق » مجرد دراسة تقريرية للعادات والطبائع والسنن والمواضعات السائدة بين الناس ، وراحوا يؤكدون أنها دراسة معيارية تنحصر مهمتها

(١) مسكويه « تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق » ، طبعة مصر ، ١٩٥٩ ،

في تشريع « القانون الخلقى » ، وتحديد « المثل الأعلى » ، وتفسير « الكمال الأدبى » . وهكذا أصبحت الأخلاق في نظرية الفلاسفة هي « نظرية المثل الأعلى » ، أو على الأصح « الدراسة المعيارية للخير والشر » .

وقد أدخل الفلاسفة التقليديون « علم الأخلاق » ضمن علومهم المعيارية الأخرى ، فوضعوها على قدم المساواة مع علم المنطق وعلم الجمال ، وقالوا بأن موضوعها هو قيمة « الخير » كما أن موضوع المنطق هو قيمة « الحق » ، وموضوع الاستطيقا (أو علم الجمال) هو قيمة « الجمال » . وكانت حجتهم في ذلك أن « الأخلاق » علم عقلى يدرس ما ينبغى أن يكون ، وأن المشكلة الخلقية بطبيعتها مشكلة نقدية تتصل بأحكام القيمة لا بأحكام الواقع . ولما كانت القيمة لا تخلو من طابع ذاتى ، فقد اصطفت الأخلاق بصيغة شخصية ، وأصبح هدف كل فيلسوف أن يبتنى لنفسه « مذهباً أخلاقياً » جديداً ، يعارض به الأخلاق القائمة ، ويحاول من ورائه أن يشرع لغيره من الناس . ولكن الفلاسفة لم يتناسوا — كما زعم البعض — أن ثمة « حقيقة خلقية » توجد في استقلال عن أحكامهم التقويمية وأن هذه « الحقيقة » تتمثل بوضوح في القواعد التى يأخذ بها الناس أنفسهم في سلوكهم العادى ؛ بل هم قد أرادوا من وراء مذاهبهم الأخلاقية أن يسهموا في تغيير قيم مجتمعاتهم ، وأن يرسموا أمام مواطنيهم سبيل الوصول إلى تطعيم الواقع بالمثل .

والحق أنه إذا كانت الصلة وثيقة بين الفلسفة والأخلاق ، فذلك لأن الإنسان هو الحيوان الناطق الذى يستطيع أن يقاوم دوافعه ، ويملك أن يضع غرائزه موضع البحث ، ويجد في نفسه من القوة ما يستطيع معه أن يمزج الواقعة بالقيمة . وقد فطن الفلاسفة من قديم الزمن إلى قدرة الإنسان على مراقبة حوافزه ، وقمع رغباته ، وتأجيل استجاباته ، وإعلاء غرائزه أو إبدائها ، فقالوا إن الوجود البشرى « حيوان أخلاقى » يستطيع أن يستبدل بنظام الحاجات

لحيوى نظام القيم للأخلاق . وحينما يقول الفلاسفة عن الموجود البشرى إنه « حيوان أخلاقى » فإنهم يعنون بذلك أنه المخلوق الوحيد لدى لا يَمْنَعُ بما هو كائن ، بل يحاول دائماً تجاوز الواقع ، من أجل الاتجاه نحو « ما ينبغي أن يكون » . ولهذا فإن الحياة الإنسانية الصحيحة إنما تتمثل بكل حدثها فى شعور الموجود الناطق بذلك التمازض الأليم القائم بين « الكائن الواقعى » بنقصة وضعفه ، و « الكائن المثالى » بكأله وسموه . ومهما أخضع الإنسان سلوكه لما تقضى به قوانين الجماعة ، فإنه لا بد من أن يظل شاعراً بما لديه من نقص . وهذا « النقص » إنما هو الدليل الأكبر على أن المثل الأعلى لا ينحصر فيما تقدمه لنا الجماعة ، أو ما يتطلبه منا الرأى العام ، بل هو « حقيقة متعالية » تتجاوز كل ما نجده فى بيئتنا أو واقعنا أو حياتنا العملية .

حقاً إن لدى الإنسان حاجات عضوية يسعى دائماً نحو إشباعها فضلاً عن أنه مضطر إلى تكييف سلوكه مع القواعد الاجتماعية التى تفرضها عليه بيئته ، ولكن « المشكلة الخلقية » (التى يتحدث عنها الفلاسفة) إنما تنور فى نفس الإنسان عندما يدرك أن « الطبيعة » لاتحدد سلوكه ، وأن « المجتمع لايجل أزماته النفسية وأنه لا بد له من أن يواجه مصيره لنفسه وب نفسه . ولو كانت الطبيعة تتكفل بتفسير كمالنا الأخلاقى ، أو لو كان المجتمع قادراً على هداية سلوكنا ، لما قامت للمشكلة الخلقية أدنى قائمة ، ولما كان ثمة موضوع للحديث عن قيمة أو قيم . ولكن الفلاسفة قد تحققوا من أن « الطبيعة » غير كافية وأن « قواعد الجماعة » ليست كل شئ ، فكان من ذلك أن أثاروا « المشكلة الخلقية » ، بوصفها مشكلة ذلك الموجود الذى لا يمكن أن يعد مجرد « موجود طبيعى » ، كما أنه لا يمكن أيضاً أن يعد مجرد « موجود اجتماعى » .

وإذا كنا قد رأينا فيما سبق أن الفلسفة قد انبعثت عن « الدهشة » ، فإننا

سنرى الآن أن « الأخلاق » أيضا قد صدرت عن ضرب من « الدهسة » .
والواقع أن مثل « الأخلاق » كمثل الميتافيزيقا ؛ من حيث أن كلا منهما
لا بد من أن تبدأ برفض بعض « البيانات » : *évidences* . ولكن على حين
أن « البيّنة » التي ترفضها الميتافيزيقا هي إمدادات الحس ، نجد أن « البيّنة »
التي تشك فيها الأخلاق هي « اللذة » *Le plaisir* ^(١) . ولو كان يكفي أن ينشد
المرء اللذة ، ويتجنب الألم ، أعنى أن يساير « الطبيعة » بصفة عامة ، لمّا لقي
مخلوق أدنى صعوبة في أن يتطبع بمكارم الأخلاق ولكن الشعور الخلقى
لا بد من أن يحىء فيظهرنا على أن « حساب اللذات » . أعجز من أن يحقق
للإنسان ما يصبو إليه من توازن نفسى ، وأن « حياة اللذة » لا يمكن أن تُفنى
إلا إلى حالة أليمة من التشتت الروحى أو التوزع النفسى . وهكذا يتخذ التفكير
الخلقى منذ البداية طابع « الإشكال الفلسفى » ، إذ يشعر الفيلسوف بأن المشكلة
الخلقية لا تحمل على المستوى الطبيعى أو البيولوجى الصرف . ومعنى هذا —
بعبارة أخرى — أن إثارة المشكلة الخلقية قد اقترنت بتحويل « بيّنة اللذة »
إلى إشكال فلسفى ، فكانت « الأخلاق » تساؤلا فلسفيا عن مدى قدره
« الطبيعة » على توجيه سلوكنا ، أو مدى تأثير « مبدأ اللذة » على اتجاه ضميرنا .

٥٤ — ولو أننا حاولنا الآن أن نستخلص بعض الخصائص المشتركة التي
اتسمت بها المذاهب الأخلاقية لدى فلاسفة مختلفين من أمثال سقراط ، وأفلاطون ،
وأرسطو ، والقديس أوغسطين ، والقديس توما الأكوينى ، واسبينوزا ، وكانت ،
وغيرهم ، لوجدنا أن كل هؤلاء المفكرين مجمعون على القول بأن الأخلاق علم
نظرى تنحصر مهمته فى الكشف عن « المثل الأعلى » . فليس الغرض من

V, Jankélévitch : « La Mauvaise Conscience », Paris, F. (١)
Alcan, Nouvelle Edition 1939, pp. 3—4.

الأخلاق — كما سبق لنا القول — وصف نظام معين من الوقائع ، بل وضع مجموعة من « المفاهيم » التي تحدّد ما ينبغي أن يكون . حقاً لقد حاول سقراط أن يخلع على الأخلاق طابعاً عقلانياً منطقياً ، فقال إن الفضيلة علم والرديلة جهل ، كما حاول اسبينوزا أن يقيم منهجه الأخلاقي على أساس المنهج الرياضي ، فصاغ الأخلاق على صورة بديهيات واستنتاجات ، ولكن كلاً منهما كان واقعاً من أن مفاهيمه الأخلاقية لا بُدّ من أن تظل محتفظة بكل قيمتها ، حتى إذا لم تكن مطابقة للواقع على الإطلاق . ولئن كان فيلسوف أخلاق مثل كانت قد ذهب إلى أن الأوامر المطلقة في الأخلاق في منزلة البديهيات في الرياضيات أو الفيزياء ، إلا أننا نراه يقرّر بصرح العبارة « أنه من العسير علينا أن نقرر ما إذا كان ثمة فعل أخلاقي حقيقي واحد ، قد أمكن يوماً أن يتحقق بالفعل في هذه الحياة الدنيا » . كذلك ذهب كانت إلى أن نفاذ أى عنصر مشتق من التجربة إلى صميم الأخلاق ، هو الكفيل بأن يفسدها تمام الإفساد . ومن هنا فقد عمد فلاسفة الأخلاق إلى التقريب بين علمهم النظرى للمعيارى وبين العلوم الرياضية ، بدعوى أن كلاً منهما إنما يتصف بصفة العلم — كما قال رنوفيه Renouvier — لأنه يستند إلى تصورات مخضّة أو مفاهيم خالصة . وكما أنه لا دخل للطبيعة في تحقق الأفكار الرياضية على وجه الدقة والإحكام ، فإنه لا دخل للتجربة أو التاريخ في تمثل القوانين الأخلاقية بصورتها المعيارية الخاصة^(١) .

وتبعاً لذلك فإنه ليس من شأن « الأخلاق » أن تعمل على اكتشاف « القوانين » — بالمعنى العلمى لهذه الكلمة — وإنما تنحصر مهمتها في تحديد

Cf. Ch. Renouvier : Science de la Morale, Paris, F. (١)
Alcan, 1869, t. I., p. v.

« القواعد » على نحو ما يفعل المنطق . ومعنى هذا أن الأخلاق في جوهرها تشريع ، فهي تضطلع بمهمة التكليف والإلزام ، لا بمهمة العلم أو المعرفة ؛ أو ربما كان الأدنى إلى الصواب أن يُقال إن المعرفة والتكليف في الأخلاق شيء واحد . وهكذا يذهب الفلاسفة إلى أن « الأخلاق » نظرية وعملية معاً ، بمعنى أنها علم وفن في وقت واحد . ولكنها في رأيهم علم من طراز خاص ، لأنها « علم معياري » لا يكتفى بمجرد وصف ما هو كائن ، بل يضع للناس « ما ينبغي » أن يكون . ومن هنا فقد أخرج الفلاسفة « الأخلاق » من نطاق العلم الموضوعي ، وربطوها بالدراسة الفلسفية عموماً والميتافيزيقا خصوصاً .

ويذهب الفلاسفة إلى أن هذه « القواعد » الأخلاقية إنما تقوم على طائفة من « المبادئ » principes ، بمعنى أنها « نتائج » تترتب بالضرورة على بعض « المبادئ » . ولعلّ هذا هو السرّ في اهتمام الفلاسفة بدراسة مشكلة « دعامة الأخلاق » ، فإنّ هذه المشكلة لتعدّ في نظرم بمثابة حجر الزاوية في كل الأخلاق النظرية . أما عن هذه « المبادئ » نفسها ، فقد ذهب البعض إلى أنها تستخلص عن طريق « الاستقراء » من التجربة ، بينما قرّر آخرون أنها تُكتشف عن طريق ضرب من الحدس (يشبه تلك القدرة الحدسية المستعملة في إدراك المبادئ الهندسية) ، على حين زعم غيرهم أن هذه المبادئ إنما تستنبط ابتداءً من بعض المفاهيم الميتافيزيقية الخاصة كـ مفهوم « الخير » أو مفهوم « الكمال » .

وأخيراً يلاحظ أن « الأخلاق » — في صورتها التقليدية — تطمح في أن تكون كلية مطلقة ، بمعنى أنها تريد أن تتجاوز نسبية الزمان والمكان ، لكي تتخذ طابعاً عاماً مجرداً . ولما كانت « الأخلاق » — في نظر الفلاسفة التقليديين — هي وليدة الضمير الإنساني العام ، أو العقل البشري الكلي ، فإن (١٤ - الفلدة)

أوامرها لا بد من أن تكون واحدة بالنسبة إلى البشر قاطبة في كل زمان ومكان . ومن هنا فإن الأخلاق الفلسفية تنشأ الوصول إلى مستوى « الحقيقة الإنسانية الكلية » ، كما أنها لا تتجه نحو تحديد « خيرات نسبية » ، بل تمضي مباشرة نحو تحديد « الخير بالذات » ، أو « الخير المطلق » . ولعل هذا هو السبب في استهدافها للكثير من الحملات ، خصوصاً من جانب أنصار المدرسة الاجتماعية القائمين بالنسبية ، وسنرى فيما يلي كيف حاول أصحاب « الاجتماع الخلقى » أن يفصلوا « الأخلاق » عن « الفلسفة » ، لكي يربطوها بعلم « الاجتماع » ، بدعوى أن « الظواهر الخلقية » لا تخرج عن كونها « ظواهر اجتماعية » يمكن دراستها على أنها مجرد « أشياء » ، كسكل ما عداها من الظواهر الاجتماعية الأخرى .

٥٥ — وهنا نجد أنفسنا بإزاء « أخلاق وضعية » يريد دعايتها أن يقصروا مهمة « عالم الأخلاق » على دراسة الماديات والعرف والتقاليد والآداب العامة والمثل العليا الجماعية . . . الخ . وهم يوجهون إلى أصحاب الأخلاق الفلسفية مأخذ عدة قد يكون في وسعنا أن نلخصها على الوجه التالي :

أولاً : إذا كان الفلاسفة يزعمون أن للأخلاق طابعا عقليا ، فإن هذا الطابع لا يبرر التقريب بينها وبين الرياضيات ، لأن الأخلاق ليست من خلق الذهن ، في حين أن المفاهيم الرياضية هي من وضع العقل . وما دام للأخلاق وجودها المستقل بوصفها ظاهرة واقعية خارجة عن « النظر الأخلاقي » ، فإن من خطئ الرأي أن نخلع عليها صفة عقلية بحتة . وهذا ما عبّر عنه العلامة الفرنسي ليفي بريل بقوله : « إن الأخلاق — إذا عُنِيَ بها مجموع الواجبات التي تفرّضُ نفسها على الضمير — لا تستند مطلقاً في وجودها إلى تلك المبادئ النظرية التي تُقام عليها ، كما أنها لا تتوقف أبداً على العلم الذي قد يوجد لدينا عن ذلك المجموع . . . ونحن لا نكوّن أخلاق شعب ما أو حضارة ما ،

فإن هذه الأخلاق مُكوّنة من ذى قبل ؛ وهى لم تنتظر — لكى تظهر إلى عالم الوجود — فلاسفة يمجثون فيعملون على بنائها أو هدمها : ^(١) . وإذن فإن أصحاب المدرسة الاجتماعية يرفضون كل توحيد بين ما هو « خُلُقِي » moral وما هو « عَقْلِي » rationnel ، كما يفعل الفلاسفة التقليديون حينما يوحّدون بينهما بطريقتهم الأولية القَبَلِيَّة . وفى هذا يقول أحد علماء الأخلاق الوضعية : « إن الظاهرة الأخلاقية لَمْ يَ شَىء خاصٌّ مُحدّد . . . فليس يكفى أن يروقنى مثلٌ أغلَى ، أو أن يرضى (على نحو ما من الأنحاء) عَقْلِي أو حساسيتى ، لكى أخلع عليه طابعاً أخلاقياً . » ^(٢) . ومعنى هذا أن الحقيقة الأخلاقية ليست مجرد « واقعة ذهنية » ، بل هى « ظاهرة موضوعية » يمكن ملاحظتها ، وتصنيفها ، وتحليلها ، وتفسيرها . . . إلخ .

ثانياً : يذهب دعاة « الأخلاق الوضعية » إلى أن فكرة قيام « علم معيارى » هى فى حدّ ذاتها فكرة مردودة ، لأن لفظ « العلم » لا يصدّق على أية دراسة تتدوّ حدود الوصف أو الملاحظة أو التقرير . والواقع أن العلم هو بالضرورة وَضْعِيٌّ ؛ لأنه لا يدرس إلّا ما يمكن إزجّاعه — إن بطريقة مباشرة أو بطريقة غير مباشرة — إلى وقائع أو ظواهر ، بمعنى أنه لا يبحث إلّا فيما يمكن أن يكون موضوعاً للاختبار أو التجريب . ولكن الأخلاق الفلسفية « نَظَرٌ عَقْلِي » Spéculation ، فهى أَدْخَلُ فى باب الميتافيزيقا منها فى باب العلم . هذا إلى أنه قد يكون من الخطأ الجسم أن نخلط بين البحث عن « القوانين » (وهو غرض العلم الوحيد) وبين البحث عن « القواعد » (وهو غرض الأخلاق) . حقّاً إن ثمة « علوماً تطبيقية » أو فنونا عملية ، ولكن مثل هذه الدراسات التطبيقية لا بدّ من أن تستند إلى علوم نظرية

Cf. Lévy-Bruhl : La Morale et la Science des Moeurs, (١) Ch. VII.

G. Belot : Etudes de Morale Positive, 2e éd., 1907, I., (٢) pp. 13—15.

سابقة تعرفها بالفرض المطلوب ، كما يفعل علم وظائف الأعضاء حيناً يمد الطَّبُّ بالمعارف الصحية عن الحالة السوية للجسم (ألا وهي الصحة) . . . وعلى ذلك ، فإن أصحاب الأخلاق الوضعية يقررون أنه لا يمكن أن تكون ثمة دراسة علمية ومعيارية في وقت واحد : لأنه لا بد من أن تقوم أولاً علوم نظرية محضة ، وبعد ذلك تبيء هذه الدراسات النظرية فتفتح السبيل أمام التطبيقات العملية .

ثالثاً : يقرر دعاة المدرسة الاجتماعية أن كل المحاولات التي قام بها الفلاسفة من أجل تأسيس « أخلاق عامة كلية » قد باءت بالفشل ، نظراً لأن المفاهيم الأخلاقية بعيدة كل البعد عن أن تكون على هذا النحو من البساطة ، وكأن في الإمكان استنباطها بطريقة رياضية بحتة . أما الالتجاء إلى « الحدس » — فيما يقول هؤلاء — فهو ليس أسعد حظاً من « المنهج الاستنباطي » ، لأن ما يلقاه فيلسوف الأخلاق في ضميره لا يخرج عن كونه مجرد عناصر مُتَنَزَّعة من السلوك السائد في المحيط الذي يعيش فيه . وآية ذلك أن شعورنا الخلقى (وهو ما نسميه عادة باسم « الضمير ») قد تكوّن عبر التاريخ ، على شكل شرائح متعاقبة من الأوامر والنواهي التي صدرت عن أصول متباينة في أزمنة تاريخية مختلفة ، وهم يضرّبون لذلك مثلاً بالضمير الأوروبي ، فيقولون إن جانباً منه قد حُصِّل حديثاً جداً ، وجانباً آخر منه قد صدر عن المسيحية ، بينما تنحدر جوانبه الأخرى إلى أصول أبعد من ذلك بكثير . وفضلاً عن ذلك فإن ضميرنا — كما لا حظ بيلو — لا يتكوّن فقط من تلك الرواسب التي تراكت بعضها فوق بعض عبر التاريخ ، وإنما هو يتكوّن أيضاً من مجموعة من « الضمائر الجزئية » التي يوجد بعضها إلى جوار البعض الآخر : كالضمير العائلي ، والضمير المهني ، والضمير المدني ، والضمير الإنساني . . . إلخ . وهذه الضمائر المختلفة ليست دائماً على وفاق فيما بينها ، بل كثيراً ما ينشب بينها الصراخ

أو التعارض . ومعنى هذا أن « الشعور الخلقى » لا يؤلف وحدة متماسكة ، بل هو مركب من عناصر مختلفة متباينة ^(١) .

ولو أننا أنعمنا النظر إلى الأخلاق الفلسفية — فيما يقول أنصار المدرسة الاجتماعية — لوجدنا أنها دراسة غير ذات موضوع ، لأنها تستمد عناصر بحثها من دراسات متفرقة غريبة عنها . وحسبنا أن ندقق النظر في مضمون هذه الأخلاق النظرية ، لسكى نتحقق من أنها مزيج من عناصر متنوعة متعددة الأصول ، وإن كانت هذه العناصر مختلطة أيضاً بشيء من الأخلاق الواقعية السائدة . فهذه « الأخلاق النظرية » خليط عجيب من المعتقدات الدينية ، والبحوث السيكولوجية المتعلقة بطبيعة الميول والدوافع ، والنظرات الميتافيزيقية المرتبطة بأصل الإنسان ومصيره ، والتحليلات القانونية المنصبة على طبائع الأشخاص والأشياء . . . الخ . وهذا التنوع الكبير نفسه إن هو إلا دليل صارخ — فيما يزعم أنصار الوضعية الاجتماعية — على ما فى تلك الأخلاق من لبس وفوضى وغوض .

ويمضى لى بربل إلى حد أبعد من ذلك فيقرر أنه على الرغم من التعارض الكبير الذى نجده قائماً بين المذاهب الأخلاقية المختلفة ، إلا أننا نلاحظ أنها تكاد تتفق على المناداة ببعض المبادئ والتعاليم العملية . حقا إن هذه المذاهب تختلف فى أجزائها النظرية ، « ولكنها تتفق فى القواعد والأحكام العملية التى تأخذ بها . واتفاقها فى هذه النقطة إنما يعنى أنها تبدأ بملاءمة الأخلاق الشائعة فى زمنها ، وأنها تتخذ نقطة انطلاقها من الأخلاق العملية القائمة بالفعل ، ثم تحاول من بعد أن تصبغها بالصبغة العقلية . فهى إذن تسير سيراً طبيعياً من العمل إلى النظر ، ولو أنها لا تشعر شعوراً واضحاً بهذا الانتقال ، بدلا من

G. Belot : «Etudes de Morale Positive», 1907, pp. 68-70 (١)

أن تسير في الاتجاه العكسي (أى من النظر إلى العمل) . وليس للمثل الأعلى الذى تستخلصه سوى إبراز للحقيقة الاجتماعية القائمة ، سواء أ كان ذلك فى الماضى أم فى المستقبل^(١) . وإذن فإن فلاسفة الأخلاق — فيما يرى ليفى بريل — يستمدون معظم مبادئهم من الأخلاق القائمة بالفعل ، بحيث أن أخلاقهم النظرية تبدو — فى خاتمة المطاف — بمثابة تبرير للأخلاق الشائعة ، وهى تلك الأخلاق التى سلموا بها لا شعورياً أو اعتنقوها ضمناً .

رابعاً : يأخذ دعاء الأخلاق الوضعية على الفلاسفة التقليديين أنهم يستندون دائماً إلى مُسَلَّمات postulates يفترضون صحتها منذ البداية ، دون أن يشغلوا أنفسهم بالبحث فى مدى شرعيتها . فهم يسلّمون مثلاً بأن « الطبيعة البشرية واحدة فى كل زمان ومكان » ، وهذه المسألة وحدها هى التى تسوّغ لهم تلك النظرة العقلية المجردة إلى مفهوم « الإنسان » بصفة عامة ، وهى التى تسمح لهم بأن يستخلصوا كل ما يستخلصونه من قواعد كلية عامة . والواقع أن فلاسفة الأخلاق يؤمنون بوجود « ماهية بشرية ثابتة » ، فهم لذلك يُشرعون للإنسانية قاطبة ، دون أن يقيموا أى وزن للظروف أو المناسبات أو الأزمنة أو الأمكنة أو الأجناس أو الأفراد . . . إلخ . هذا إلى أن الغالبية العظمى منهم تفترض أن الضمير أو الشعور الأخلاقى يؤلف لدى كل منا « وحدة متماسكة » ، وكأن أوامر الضمير المختلفة هى مجرد تطبيقات مختلفة لإلزام أخلاقى واحد .

بيد أن هذين المبدأين — فيما يقرر أهل المدرسة الاجتماعية — مبدآن فاسدان : لأنه ليس ثمة « إنسان فى ذاته » homme en-soi يمكن أن نقيم على أساسه مجموعة من الحقائق الأخلاقية الثابتة التى لا تكون محل نزاع

Lévy Bruhl. « La Morale et la Science des Mœurs ». (١)
Ch. I., § II & III., Ch. II., § I.

أو مناقشة . وقد أثبتت لنا الإثنوجرافيا Ethnographie (وهي عبارة عن دراسة لأحوال الشعوب ومظاهر نشاطها) أن للشعوب البدائية أساليب خاصة في الإحساس أو الشعور ، والتعلل أو التفكير ، والتصرف أو السلوك ... إلخ . وكل هذه الأساليب قد تختلف — إن في كثير أو في قليل — عما اعتدنا نحن أن نسير عليه في تفكيرنا وتصرفنا . ولعل هذا ما عناه عالم الاجتماع الفرنسي دور كايم حينما كتب يقول : « إن كل عصر وكل مجتمع إنما يضمن تحت مفهوم « الإنسان » ، إسان هذا العصر أو ذلك المجتمع . وإذا كان من الحق أن اليوناني قديماً لم يكن يحسب للبربرى أى حساب ، فإن من الحق أيضاً أن الرجل الأوروبي — اليوم — إنما يعتقد أن الإنسان هو على وجه التحديد إنسان هذا المجتمع الغربي المسيحي ... »^(١) .

٥٦ — تلك هي أهم المآخذ التي وجهها أنصار الأخلاق الاجتماعية الوضعية إلى أصحاب الأخلاق الفلسفة التقليدية وربما كانت الحجة الرئيسية التي يستند إليها دعاة « الاجتماع الخلقى » هي أن « الوقائع الخلقية » ظواهر اجتماعية تنصف بالشيئية ، والضغط أو الجبرية ، والخير أو الترغيب ، مثلاً في ذلك كمثل سائر الظواهر الاجتماعية الأخرى . حقاً إن « الظاهرة الأخلاقية » واقعة نوعية تحتل في صميم الحياة الجمعية مكانة خاصة لما لها من سلطة ، وإلزام ، وقُدسية ، ولكنها — فيما يقول دور كايم — ظاهرة اجتماعية تقوم على قوانين استقرائية موضوعية ، ويمكن دراستها بشتى الأساليب المنهجية الدقيقة . ومعنى هذا أن التغير الذي قد يطرأ على نظرة الناس إلى الخير والشر ليس مجرد حدث اعتباطي يعمل على ظهوره الصدفة البحتة ، كما أنه ليس محض تغير فكري تسبب في

(١) ذكرها إبراهيم « مشكلة الإنسان » ، القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٥٩ ،

حدوثه مذاهب الفلاسفة أو نظريات المفكرين ، وإنما هو واقعة حتمية ضرورية يمكن التعرف على أسبابها بالرجوع إلى الظروف الاجتماعية التي تعمل عملها في هذه البيئة أو تلك . ولكثنا حتى لو نظرنا إلى المذاهب الأخلاقية التي يضعها الفلاسفة أنفسهم ، لوجدنا — فيما يقول دعاة المدرسة الاجتماعية — أنها هي الأخرى ضرب من « الوقائع الخلقية » ، لأنها ظواهر اجتماعية تعتبر عن آمال المجتمع الغامضة ونوازع الخفية التي لا زالت في دور الاختار^(١).

والواقع أننا لو عدنا إلى المذاهب الأخلاقية التي ظهرت في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، لوجدنا أنها جميعاً كانت تحاول وضع أخلاق علمية تماكي في طابعها الموضوعي شتى العلوم الوضعية الحديثة . فهذا رنوفيه Renouvier يحاول في كتابه « علم الأخلاق » (١٨٦٩) أن يستعير من الرياضيات نموذجاً للحقيقة الخلقية ، وهذا روه Rauh يسعى جاهداً في سبيل توثيق الصلة بين الأخلاق والعلم في كتابه « التجربة الخلقية » (١٩٠٣) . ولم يلبث كلٌّ من ليفي بريل في كتابه « الأخلاق وعلم العادات » (١٩٠٣) ، وألبير بايه Bayet في كتابه « الأخلاق العلمية » (١٩٠٧) ، وبلو Belot في كتابه « دراسات في الأخلاق الوضعية » (١٩٠٧) أن حملوا بشدة على الطابع الشخصي للأخلاق الفلسفية ، آمليين أن يجعلوا من الدراسة الأخلاقية علماً يقوم على التحديد الموضوعي . وهكذا أصبح للأخلاق طابع علمي لا شخصي ، وصار الإنسان في نظر الوضعيين مجرد شيء يُدرّس من الخارج ، وكأنما هو « موضوع » تحدّد سلوكه تحديداً عالياً .

بيد أن « علم الوقائع الخلقية » حينما ينفذ بنا إلى مملكة العلم ، فإنه إنما يريد

E. Durkheim : « Sociologie et Philosophie », Paris, (١)
P. U. F., 1951, pp. 112—114.

أن يوقر علينا ضرورة « الاختيار » Option ، وكأن ليس في السلوك لحظة فردية متوقف على قرارنا الشخصي . ولكن علماء الأخلاق الوضعية ينسَوْنَ أو يتناسَوْنَ أن هذا « الاختيار » أمرٌ ضروري لا مندوحة عنه ، وأنا « ملتزمون » Engagés دائماً في صميم الخضر ، أعنى في غمار ذلك الواقع الشخصي الذي لا يكف عن التكوّن ، والذي يضع مصيرنا الخاص نفسه موضع المخاطرة في كل لحظة . وعبثاً يحاول الاجتماعيون أن يهيبوا بنا أن نأخذ أنفسنا بقواعد المجتمع ، أو أن نعمل على مسابقة قيم الجماعة ، فإننا لا نملك سوى أن نظل فريسة للعالم ، وأن نختار بالضرورة بين المعاني العديدة الممكنة للحدث événement ، ذلك المعنى الذي يتناسب معنا ، أو الذي يحىء على صورتنا ومثالنا . ونحن حين نختار معنى الحدث ، فإننا نختار عالمنا ، ونختار أيضاً أنفسنا . وليست المحاولة الاجتماعية التي تقوم بها المدرسة الوضعية من أجل صبغ الأخلاق بالصبغة العلمية سوى صورة مُقَنَّعة من صور « التجزئية الميتافيزيقية » التي تجعل الفرد خاضعاً لمصير سابق محتوم ، بحجة أنه لا خلاص للإنسان إلا بالاندماج في نظام علوى يضمن له السلامة الأخلاقية . وهكذا تنأى الأخلاق الاجتماعية بالشخص الإنسانى عن ملكة الحرية والاختيار وتفسير المصير ، لكي تدعوه إلى السمو بنفسه نحو مستوى الكلية المجردة ، حيث يكون في وسعه أن يتخلص من كُلِّ مسئولية . وليس من شك عندنا في أن مثل هذه المذاهب الأخلاقية الموضوعية إنما هى في الواقع مجرد تعبير عن سلوك التملص أو الفرار أو الهروب évation .

حقاً إن دور كاييم لا يدعونا إلى التخلي عن ذواتنا ، من أجل الاندماج في حقيقة إلهية متعالية ، ولكنه يدعونا إلى التمسك بنظام من القيم المحددة من ذى قبل ، فضلاً عن أنه يجعل من « المجتمع » حقيقة متعالية ليس على الفرد سوى التمسك بها أو التطلع إليها أو التسامى نحوها . وسواء قلنا بمذهب أخلاقى يعتمد

على « العقل » ، أم قلنا بمذهب أخلاقى يعتمد على « المجتمع » ، فإننا فى كلتا الحالتين ننادى بأخلاق مجردة تردّ الجانب الشخصى فى الحياة الخلقية إلى « ضمير الغائب » ، وتجهل من « الحرية الشخصية » مجرد حقيقة سلبية محضة . فالسلوك الخلقى ، عند المفكرين الاجتماعيين ، إنما هو مجرد تنازل عن الذات ، واتجاه نحو النظام ، وكأن نمة نسفاً جاهزاً من القيم يتكفل بحلّ كل المشاكل التى قد تنشور فى باطن الوجود البشرى . وهكذا تصبح كل مهمة الإنسان أن يندمج فى هذه « النظام العقلى » ، سواء أكان هو « المجتمع » ، أم « التاريخ » ، أم « العقل الجمعى » ، لكى يتمتع بالطمأنينة النفسية ، والتكامل الروحى . وكما كان أصحاب الأخلاق الدينية يحاولون أن يظهروا الوجود البشرى على أن نمة « حقيقة إلهية متعالية » تضمن له سلامة التفكير والسلوك ، نجد أن أصحاب « الأخلاق الاجتماعية » يحاولون أن يوفروا على الإنسان كل استعمال شاق للإرادة أو القدرة على المبادرة initiative ، لكى يهيموا به أن يلائم بين سلوكه وما تقضى به أوامر الجماعة . وفات هؤلاء وأولئك أن إنكار حق الشخص البشرى فى التصميم والتقرير الحرّ ، إن هو إلا إنكار للأخلاق نفسها .

وحسبنا أن نرجع إلى ذواتنا ، لكى نتحقق من أن كلاً منا لا بد من أن يجد نفسه فى هذا العالم مندجاً دائماً فى « موقف » خاص . فنحن لسنا بإزاء حجج عقلية أو أسباب معقولة لا يكون علينا سوى أن نقدر قيمتها المنطقية ، بل نحن نجد أنفسنا « ملتزمين » ، مندجين فى لحظة معينة من لحظات تاريخنا الخاص . وقد لا يكون فى وسع الفرد أن يسيطر تماماً على تلك اللحظة ، بل هو بشعر بالأحرى أنه مرتبط بها ، معانق لها ، مأخوذ فى حبائها وبيت التصيد بالنسبة إلى كل واحد منا هو أن يجد لنفسه نَجْرجاً ؛ ولكننا هنا لسنا بإزاء نَجْرج عقلى ينحصر فى نطاق التفكير ، وكأننا بإزاء حلّ نظرى لمشكلة عقلية ،

بل نحن يلزأ مخرج وجودى يرتبط بإمكانية الحياة نفسها : لأن علينا أن نلتصق
لجسمنا ونفسنا فرصة مستقبلية نخاطر فيها بتحقيق ذاتنا ، وإثمين من أنه لا بد
لنا من أن « نوجد » ، على الرغم من كثافة وجودنا الواقعى ، وعلى الرغم من
تناقض مطالبنا الباطنية^(١) .

٥٧ — والواقع أننا إذا كنا نحرص على ربط الأخلاق بالفلسفة ، فذلك لأن
« المشكلة الخلقية » فى نظرنا هى أولا وبالذات مشكلة شخصية تتصف بالطابع
التاريخى الدرامى الذى تتصف به أية خبرة أخرى معاشة *Expérience vécue* .
ومهما فعل فيلسوف الأخلاق التقليدى ، أو عالم الاجتماع الوضعى ، فإنه لن
يستطيع أن يضع نفسه موضع الشخص الذى يجد نفسه ملزما بأن يفصل فى
مشكلة حياته . حقا إن الفيلسوف التقليدى وعالم الأخلاق الاجتماعية قد
يستطيعان أن يقدمآ لمثل هذا الشخص بعض القواعد العامة أو التعديلات
الكلية ، ولكنهما يخطئان بلا شك لو توهمآ أنهما يستطيعان أن يصوغا
« الحقيقة الخلقية » فى قوالب عامة مجردة تصلح لكل فرد ، وتنطبق على كل
حالة . وذلك لأنه ليس ثمة قانون عام يصلح لكل المواقف ، بحيث لا يكون
على أى فرد منا سوى أن يستخلص منه بطريقة استنباطية صرفة بعض تعديلات
نوعية أو نصاب خاصة لكل حالة فردية . ويمضى بعض الفلاسفة الوجوديين
إلى حد أبعد من ذلك ، فيقررون أن الفيلسوف نفسه لا بد من أن يظل مقيدا
بموقف معين ، بحيث إنه قلما يستطيع أن يرى الأشياء إلا من وجهة نظره
الشخصية الخاصة . فليس فى وسع الفكر أن يتخلص من تلك الظروف المعينة
التي تحدد تفكيره الشخصى ، وبالتالي فإن كل تقرير أخلاقى لن يكون
— بطبيعة الحال — سوى وجهة نظر معينة فى الحكم على الأخلاق .

Cf. E. Gueudorf : « Traité de l' Existence Morale » ، (١)
Paris, Colin, 1949, pp. 40-41.

وربما كان من بعض أفضال الفلسفة الوجودية على الأخلاق أنها قد أظهرتنا على ما للعامل التاريخي الدرامي من أهمية كبرى في كل أخلاق فردية . فالوجوديون يؤكدون أن الفرد لا يحيا في عالم مجرد متحرر من كل سياق تاريخي ، بل هو إنما يفصل في مصيره الشخصي وسط ظروف لا سبيل إلى تحديد بداهة . وحين يحقق الفرد فعلا أخلاقيا ، فإنه إنما يقوم بضرب من « الحظارة » في الحاضر والمستقبل ، مستخدما ما لديه من « حرية » . وليست « الحرية » التي يتحدث عنها هؤلاء من قبيل « الاستقلال الذاتي » الذي تحدث عنه كانت ، وإنما هي حرية موجود مجاهد يعمل في مشقة ، ويصارع نفسه والعالم والآخرين . وإذا كانت الحرية عند كانت ترادف « العقل المنتصر » الذي استطاع أن يسيطر على ذاته وعلى الكون ، فإن الحرية عند الوجوديين تساوي « الذات المجاهدة » التي تجدد نفسها فريسة لنفسها وللعالم ، فتحاول جهد طاقتها أن تحقق حياتها بوصفها صنعة يدها .

وهكذا نرى أن الأخلاق الوجودية تقوم على الاعتراف بأولوية ضمير التكلم ، وتدعو إلى تأسيس السلوك على الحرية الشخصية . وليست الحرية — في نظر الوجوديين — حقيقة جاهزة أو معطى من معطيات الحس ، بل هي كسب يحصل كل يوم ، دون أن يستحيل إلى حصيلة ثابتة . ومعنى هذا أنه إذا أراد المرء أن يكون حرا ، فإن عليه أن يسعى جاهدا دائما أبدا في سبيل الانتقال من مملكة « الطبيعة » إلى مملكة « الأخلاق » . ولكن الحرية لا بد من أن تظل ناقصة غير مكتملة ، لأنها دائما في صيرورة مستمرة ، فضلا عن أنها مزعزة باستمرار مفتقرة إلى مزيد من الاستقرار . ومع ذلك فإن هذه الصيرورة نفسها هي التي تخلع على وجودنا معنى ، كما أن ذلك التزعزع إنما هو الذي يكشف عما لدينا من إمكانيات لا بد لنا من العمل على تحقيقها . ولعل

هذا ما أرادت سيمون دي بوفوار أن تعبر عنه حينما كتبت تقول : « إن الحرية تبدو لنا دائماً على صورة حركة تحرر . . . وحينما يريد الإنسان أن يحقق لوجوده النجاة (أو الخلاص) — وهو وحده الذى يستطيع أن يقوم بهذا الفعل — فلا بد له من أن يسمو بما لديه من تلقائية أصلية إلى مستوى الحرية الأخلاقية ، بأن يتخذ من نفسه غاية يعمل على الكشف عما تنطوى عليه من مضمون خاص . فريد في نوعه » .

وليس من شك في أنها مهمة شاقة بالنسبة إلى الإنسان أن يأخذ على عاتقه حريته الخاصة ، بما تنطوى عليه من شكوك ومخاطر ومغامرات ؛ ومن هنا فقد ظهرت محاولات كثيرة — في نطاق المذاهب الأخلاقية — من أجل التخلص من تلك الحرية ، سواء بالخضوع لقانون أخلاقي ، أم بالامتثال للحقيقة إلهية ، أم بإطاعة عقيدة دينية ، أم باحترام معيار ميتافيزيقي ، أم باعتناق تنظيم حزبي . وكل هذه المحاولات إنما تخفي وراءها رغبة ضمنية في الاقتصار على الطاعة والخضوع ، بدلا من العمل على الابتكار وخلق الذات . ولكن أتى أخلاق تهدف إلى القضاء على « الذاتية » أو استبعاد « الحرية » أو إنكار الشخص البشري ، إنما تفضي في نهاية الأمر إلى هدم نفسها بنفسها . وآية ذلك أن فلاسفة الأخلاق التقليديين حين يتحدثون عن القاعدة ، والقانون ، وواجبات الذات نحو نفسها ، وواجباتها نحو الآخرين ، وواجباتها نحو المجتمع ، وواجباتها نحو الله ، فإنهم إنما يمزجون الأخلاق بضرب من التشريع الاجتماعي أو التقنين ، وكأن المشكلة الأخلاقية هي مجرد مسئولية وقواعد وجزاءات . ولكن هذا التقنين الأخلاقي لا يصدق إلا بالنسبة إلى « ضمير الغائب » : فهو لا يتضمن إلا تحديدات خارجية تنصب على سلوك موضوعي صرف . وكل ما يهدف إليه مثل هذا التشريع القانوني إنما هو صيانة النظام الاجتماعي ، وضمان سلامة صحة المجتمع . ولكن

الأخلاق الفردية لا تجدد في مثل هذه المعايير الأخلاقية سوى مجرد ظروف أو شروط موضوعية ؛ فهي ترى أن من حقها أن تتخذ بإزائها موقفا معينا ، وهي تعتمد بالتالي إلى قبولها أو رفضها أو التحايل عليها — وإذن فقد يكون في وسعنا أن نقول إن القانون أو التشريع لا يحل شيئا ، على الرغم من كل تلك الضمانات الخارجية التي يكفلها لسلامة المجتمع . والسبب في ذلك أن المشكلة الخلقية تُنقلت بطبيعتها من كل تحديد خارجي أو من كل جبرية اجتماعية ، فهي لا بد من أن تظل قائمة على أشدها ، حتى حين تتوافر إطاعة القوانين ، ومطابقة السلوك الخارجي مع معايير الحياة الجمعية^(١) .

٥٨ — وهنا يتساءل البعض فيقول : « ماذا عسى إذن أن تكون مهمة فيلسوف الأخلاق ؟ ألسنت أنا حراً في مواجهة مواقف لحسابي الخاص ، والاستناد إلى حريتي الذاتية ؟ » . وردنا على هذا التساؤل أن تدخل فيلسوف الأخلاق إنما يتم عن طريق « الاتصال غير المباشر » ؛ فإن كل مهمة هذا الفيلسوف أن يعين الناس على الشعور بظروف وجودهم الخاصة ، وأن ينير أمامهم ذلك الأفق المعين الذي يتحركون صوبه . ومعنى هذا أنه يمد لهم بالوسائل اللازمة لفهم تلك المواقف الأصلية التي يجدون أنفسهم مندمجين فيها ، فضلا عن أنه يحاول أن يحدد بعض « الثوابت » القائمة في التجربة ، مع ما يقترب بها من أساليب خاصة في الحياة « Styles de Vie » . ولكن الفيلسوف في كل هذا لا يفرض أى حل ، لأنه يعلم اليقين أن عناصر هذا المصير الفردى أو ذاك لا بد بالضرورة من أن تغيب عنه . حقا إن الفيلسوف قد يستطيع أن يقدم لنا عناصر تعيننا على

(١) ارجع إلى كتابنا « المشكلة الخلقية » مكتبة مصر ، القاهرة ، سنة ١٩٧٠ .

الاهتداء إلى الحل ، كما أنه قد يساعد الذات على أن تحقق اختيارها في ضوء معرفة أفضل وحرية أكمل ، ولكن اختيار الذات لا بد من أن يظل اختياراً شخصياً بحتاً ، كما أنه لا بد أيضاً من أن يخضع لمواقفها الذاتية الأصلية ، وإن كان من شأن اللوعى أو الاستبصار أن يزيد من درجة حريرته ومدى انقسابه إليها .

ومهما فعل فيلسوف الأخلاق ، فإن تأثيره لا بد من أن يبقى «غير مباشر» . وآية ذلك أنه لا يستطيع أن يقضى على إرادة الغير ، أو أن يضع نفسه موضعهم ، بل هو إنما يستطيع أن يؤثر عليهم كما تؤثر النماذج البشرية ، والشخصيات الروائية ، والأبطال والقديسون ، وكل من يستطيع أن يلعب دوراً أخلاقياً خطيراً في الحياة العملية الشخصية لبني البشر . وليس المهم أن نحكي هؤلاء محاكاة حرفية ، بل المهم أن نستمد من وقائع حياتهم وتصرفاتهم إلهاماً نسير في ضوئه ، أو رسالة روحية نستوحىها ونوجه سلوكنا على هديها . والشخص الذي يقلد المسيح أو يحاكي محمداً ليس هو ذلك المعتوه الذي يكرر حركاتها بطريقة آلية ، أو يردد أقوالهما عن ظهر قلب ، بل هو ذلك الشخص الحر الذي يبذل جهداً شاقاً في سبيل التعبير بسلوكه العملي عما أظهرته تلك النماذج المثالية من سمو أخلاق في صميم حياتها . وإذن فإن التأثير الأخلاقي الذي يصدر دائماً عن أمثال هذه الشخصيات الأخلاقية الكبرى إنما يتخذ طابعاً غير مباشر ، دون أن يكون في ذلك أى قضاء على قوة الابتكار الخلقى لدى الشخصيات التي تستلهمها أو تستوحىها أو تسير على هديها .

لقد كانت الفلسفة التقليدية تحاول أن توصلنا إلى أخلاق تصورية توكيدية ، تتكفل بحل كل مشاكلنا في عالم مجرد . وأما اليوم فإن مهمة فيلسوف الأخلاق لم تعد تنحصر في تخليص الإنسان من نفسه ، وحمله على تناسي همومه ، وإنما أصبحت تنحصر في العمل على إظهار كل شخص منا على حقيقة موقفه الخاص ،

حتى يتسنى له بحق أن يصبح مالكاً لزمان نفسه . فكل ما تقدمه لنا « الأخلاق الجديدة » إنما هي عناصر (أو مواد) تعين كل فرد منا على تحقيق اختياره الشخصي الذي هو واجبه الخاص . وما دام لكل موجود ذاتي متناقضاته الخاصة وأحداثه الدرامية المشخصة ، فإنه هيات للفيلسوف أن يحل لكل فرد منا مشكلته الأخلاقية الخاصة . حقا إن الفيلسوف يستطيع أن يعين كل فرد منا على أن يستجمع شتات قواه العقلية والوجدانية ، كما أنه يساعدنا على تبديد أوهامنا ودعم طاقاتنا ، ولكنه يعلم في الوقت نفسه أن « الحدث » وحده هو الذي سيولد تصميمنا الأخير ، وهو موقن تماماً بأنه ليس له على الحدث يدان^(١) !

ونحن نعرف أن الربى المستبصر في عصرنا الحاضر لم يعد يتوهم أنه يستطيع أن « يدرّب » تلاميذه بحيث يخلق منهم ما يشاء ! حقا إن بعض الوالدين لا زالوا يظنون أنهم يستطيعون أن ينقلوا خبراتهم بتمامها إلى أبنائهم ، ولكن التجربة نفسها سرعان ما تظهرهم على أنه لا سبيل مطلقاً إلى نقل الحكمة المكتسبة إلى الأجيال الناشئة . وما دام سبيل الحياة لا بد من أن يظل دائماً طريقاً خاصاً يضرب فيه كل فرد منا لحسابه الخاص ، ويخوضه دائماً بمفرده ، فإن فيلسوف الأخلاق لم يعد يستطيع اليوم أن يحاكي الربى الواهم الذي يعتقد أن خبرات الكبار حاسمة بالنسبة إلى الصغار ، وأنها لا بد من أن تقيهم وتعصمهم مواطن الزلل ! ولو كانت المشكلة الخلقية هي بهذا القدر من السهولة ، لما وجد على ظهر البسيطة سوى « الحكماء » ! ولكن فيلسوف الأخلاق يعلم حق العلم أنه لا بد لكل جيل من أن يكون لنفسه حكته الخاصة ، وأنه لا بد لهذه الحكمة

G. Gusdorf : “Traité de l' Existence Morale”, Colin, 1949, (١)
pp. 43-44.

من أن نجى ملائمة لمقتضيات عصره وطبيعة مشكلاته . ولا بد لكل فرد منا — في زمانه الخاص وموقفه الذاتي — أن يعمل على اكتشاف شروط توازنه الشخصي . ولو أننا تصورنا أخلاقاً أزلية أبدية ، فإن مثل هذه الأخلاق — إن وُجدت — لن تكون ذات فائدة كبرى بالنسبة إلى الإنسان ، لأن الإنسان — كما يقول بعض الوجوديين — مخلوق معاصر ، أو كائن واقعي . وهكذا نخلص إلى القول بأن الصلة وثيقة بين الأخلاق والفلسفة ، ولكن على شرط أن نفهم أن الأخلاق كالفلسفة مغامرة كبرى أو مخاطرة هائلة ، وأنها بطبيعتها لا بد من أن تظل مملكة ذاتية تعبر عن التزام الوجود للشخص أمام وحدته التاريخية الخاصة . فليس من شأن فيلسوف الأخلاق أن يقضى على الحرية البشرية ، بل إن من واجبه أن يعمل على إنارة السبيل أمامها . وسواء أكانت الفلسفة ميتافيزيقاً أم أخلاقاً ، فإنها في كلتا الحالتين ، إنما تخاطب إنساناً واقعياً يحيا في حقبة تاريخية بعينها ، وينسب إلى حضارة إنسانية بعينها ، ويحاول دائماً أن ينشد « الإنسانى » l'humain في « الإنسان » .

الفصل التاسع

بين الفلسفة والسياسة

٥٩ — كثيراً ما يخلو لخصوم الفلسفة أن يصوّروا لنا الفيلسوف بصورة الرجل الانطوائى الذى يحيا على هامش التاريخ ، ويفلق على نفسه باب مذهبه التأملى المجرد ، ويسد أذنيه عن سماع أصوات مجتمعه وبيئته وعصره . وحجة هؤلاء أن الفيلسوف هو رجل الفكر ، والثبات ، والمطلق ، والأبدية ؛ فليس بدعاً أن تراه ينصرف عن العمل ، والتغير ، والنسي ، والزمان . ألم يقل أفلاطون نفسه « إن الفيلسوف هو الإنسان الذى يتأمل الأزمنة جميعاً ، ولا يرى الوجود إلا ككل » ؟ ألم يحدثنا نيتشه عن مهمة الفيلسوف بقوله : « إن الغاية الأولى والنهائية للفيلسوف أن ينتصر على عمره الزمنى ، لكي يستحيل إلى موجود أبدى لا زمانى . » ؟ وإذن أفلا يحق لنا أن نقول — مع أصحاب هذا الرأى — إنه لا شأن للفلسفة بالسياسة ، مادام هدف الفيلسوف أن ينتصر على الزمان ، ويعلو على التاريخ ، وينخرط فى سلك الأبدية ؟

... الواقع أننا لو حاولنا أن نستقرئ تاريخ الفلاسفة ، لألقينا أن الفلاسفة كثيراً ما كانوا يتحدثون رجال السياسة ، حتى لقد سادت بين المؤرخين خرافة ذهبية تحكى لنا قدرة الفلاسفة المطلقة على معارضة الملوك والطغاة ، وتروى لنا كيف كان هؤلاء الفلاسفة الأبطال يقفون فى وجه الدل والاستعباد ، ويذودون عن أنفسهم بسلاح الفكر الذى يهزم كل طغيان واستبداد . وهذا ذيوجانس اللاثرمى — مثلاً — يحدثنا عن فيلسوف يونانى يدعى أنكسارخوس (يقال

عنه مع ذلك إنه كان من دعاة مذهب الشك) وقع يوماً بين يدي طاغية مستبد كان قد سبق له (أى للفيلسوف) أن سبه وأساء إليه ، فحكم عليه الطاغية بالموت وأصدر أوامره بتعذيبه وتقطيع أجزاء جسمه إرباً إرباً . . . بيد أن الفيلسوف لم يكثر بكل ما كان يقع عليه من عذاب ، بل ظل هادئاً ساكناً رابط الجأش ، حتى إذا بلغ منه الألم مبلغه ، راح يتحدى الطاغية بقوله : « إن ما تستحقه ليس إلا النشاء الخارجى لأنكسار خوس ، وأما أنكسارخوس نفسه فليس لك عليه يدان » . وهنا أراد الملك أن يخرس الفيلسوف ، فأمر بقطع لسانه ، ولكن الفيلسوف نفسه لم يلبث أن يادر إلى قطع لسانه بأسنانه ، ثم قذف به في وجه جلاده ، وكأنما هو ييصق على وجهه . . . وهكذا صور لنا أنكسارخوس بصورة الرجل القوى الذى لا يهزم ، فإنه هبّات للقوة المادية أن تسحق سلطان الفكر أو أن تخرس صوت الحق .

وهذه قصة أخرى يرويها المؤرخون عن الفيلسوف الرواقى أبكتاتوس الذى كان عبداً لأحد السادة الرومان ، فيقولون إن السيد الرومانى للمتجبر أراد يوماً أن يعذب عبده المسكين ، فوضع ساقه تحت آلة تعذيب ، وراح يضغط بشدة على جسد ضحيته . . . وظل أبكتاتوس هادئاً رابط الجأش ، ثم لم يلبث أن أنذر سيده بأن الساق سوف ينكسر بعد حين . . . وانكسر ساق أبكتاتوس بالنقل ، فلم يكن منه سوى أن ابتدر سيده بقوله : « ألم أقل لك إنه سوف ينكسر ؟ » . وهذه القصة إن دلت على شيء ، فإنما تدل على أن أبكتاتوس الأسير قد استطاع أن يهزم سيده ، بروحه المعنوية القوية التى لم يحطمها ظفیان أو تعذيب ، فكانت « الفلاسفة » سلاحه المائل الجبار ، وبذلك استطاع أن يقلب الصلة بين العبد وسيده ، وأن يثبت لسيده الازح تحت نير غضبه أنه هو السيد الحقيقي . . وهذا سقراط أيضاً فى سجنه ، يحاور قوانين المدينة ،

ويهزمها بإطاعتها والخضوع لها ، ثم يموت في سبيل الحق والعدالة والخير ، فيكون موته بمثابة انتصار أخير ، وكان لسان حاله يقول : « إنه خَيْرُ لك ألف مرة أن تكون سُقراطاً تعيشاً شقيماً من أن تحيا خنزيراً قانماً سعيداً ! » .

والظاهر أن الفلاسفة لم يقتصروا على تأكيد هذه « السيادة الفلسفية » عبر التاريخ من خلال مواقفهم الفكرية فحسب ، بل هم قد حاولوا أيضاً أن يؤكدوها من خلال صلاتهم الشخصية وعلاقاتهم الاجتماعية بالحكام والملوك وأهل السياسة . وتبعاً لذلك فقد نشأت روابط وثيقة بين الفلاسفة ورجال الدولة ، منذ عهد أفلاطون الذى نادى بضرورة توثيق الصلة بين الفلسفة والسياسة ووضع مقاليد الأمور فى يد ملك — فيلسوف ، حتى أيام هيجل الذى زعم فى وقت ما من الأوقات أن ثمة وحدة صوفية تجمع بينه وبين نابليون ! وقد ظهر لنا « الفيلسوف » عبر التاريخ بمظهر « الربى الأعظم » فكان أرسطو معلماً للإسكندر الأكبر ، وحل الفلاسفة فى القرن الثامن عشر محل آباء الكنيسة ، فتخلى أمراء الكنيسة من أمثال بوسويه وفلون عن مكاتهم الفكرية لأمراء الفلسفة من أمثال كوندياك الذى عهد إليه بمهمة تعليم ولى عهد پارما Parme . وهذا روسو — معلم أوروبا الحديثة — يُستشار بخصوص دساتير بعض الدول الصغرى ، فيضع المبادئ الدستورية الأساسية لكل من بولونيا وكورسيكا . ونحن نعرف كيف كانت الصلات وثيقة بين ديكارت والملكة كريستين ، وبين فولتير وفردريك الكبير ، وبين ديدور والملكة كاترين الثانية . . . إلخ . واليوم تعترف الديمقراطيات الحديثة بما لأهل الفكر من حق فى الوصاية على تراث الإنسانية ، فنراها تحرص على توطيد دعائم المنظمة الدولية للتعاون الفكرى ، وتعنى بتقرير دور اليونسكو فى المحافظة على حقوق الإنسان الثقافية والفكرية والحضارية بوجه عام .

٦٠ - والحق أنه قد يكون من الحديث المعاد أن تتطرق لبيان العلاقة الوثيقة التي تجمع بين الفلسفة والسياسة ، فإن تاريخ الفكر البشرى نفسه ليس شهد بكل وضوح وجلاء أن الفلاسفة لم يحبوا يوماً بمعزل عن التاريخ ، أو بمنأى عن الأحداث السياسية ، وإنما هم قد تجاوزوا دائماً مع الإطار الحضارى الذى عاشوا فيه ، أو هم - على أقل تقدير - قد حاولوا أن يعكسوا فى فلسفاتهم أصداء واقعهم الحى ، دون أن يغفلوا فى الوقت نفسه مهمة التعبير عن آمال مجتمعاتهم وأحلام مواطنيهم حقاً إن بعض المذاهب الفلسفية قد تبدوا لنا أحلاماً خيالية واهية ، أو نظرات وهمية تافهة ، وكأن لا قيمة لها مطلقاً فى صميم الحياة الاجتماعية للأفراد ، ولكننا لو أنعمنا النظر إلى المدلول الحضارى لكل مذهب فلسفى ، لنحققنا من أن الفلسفة بوجه عام إنما هى قوة تاريخية هائلة ، ولأدركنا أن تاريخ المذاهب الفكرية فى العصور الحديثة بوجه خاص إن هو إلا مرآة تعكس لنا صورة صادقة لما اختلف على البشرية من أحداث سياسية ووقائع اجتماعية وثورات اقتصادية وتغيرات حضارية . . . إلخ . وإذا كان من واجب التاريخ العام أن يدرس أفعال البشرية حتى يَرْتَقِ منها إلى العلل التى تمتد فيها وراءها ، فإن التجربة نفسها لتدلنا على أن هذه العلل لا تخرج عن كونها مجموعة من الأفكار الخلقية ، والدينية ، والعلمية ؛ وهذه جميعاً لا بد أن تجد فى « الفلسفة » أسى تعبير عنها . فاللؤرخ الذى يريد أن يفهم أى عصر من العصور لا بد من أن يجد نفسه مضطراً إلى التساؤل عن نظرة هذا العصر للعين إلى الحق ، والواجب ، والأخلاق الفردية ، والأخلاق الاجتماعية ، والمبدأ الأول لكل من الإنسان والكون ، والقوانين العامة التى تتحكم فى سير الوجود . . . إلخ . ولا شك أن المذاهب الفلسفية الكبرى التى سادت فى العصر الواحد إنما هى النماذج الحية التى تجسدها روح هذا العصر ، فهى بطبيعتها

وقائق هامة تسجل الحاضر وتعبّر عن آمال المستقبل . ولعل هذا هو ما حدا بهيجل إلى القول بأن « أكل وعى يمكن أن تحصله أية حقبة تاريخية عن نفسها ، إنما هو ذلك الوعى الذى تحصله لدى فلاسفتها » . ألسنا نجد عند سقراط وأفلاطون وأرسطو خير تعبير عن الروح اليونانية فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ؟ إننا لا ننكر بطبيعة الحال أن العبقريات الفلسفية هى أكثر النماذج للبشرية فردية ، لأنها بلا ريب أكثرها أصالة ، ولكننا نستطيع أن نقول أيضا إن العبقريات الفلسفية هى أكثر النماذج البشرية كلية ، لأنها تعكسُ بصدق وأمانة أفكار العصر الذى تعيش فيه . وحينما يعرفُ الفيلسوف ذاته على أحسن وجه ، فإنه عندئذ يعرف الآخرين أيضا على أحسن وجه ، فضلا عن أنه حينما يحاول أن يستبق المستقبل ، فإنه لا بد من أن يجد نفسه مضطرا بادئ ذى بدء إلى أن يُلخّص فى ذاته كل ما ينطوى عليه الحاضر . وحسبنا أن نلقي نظرة فاحصة إلى أخلاق أفلاطون ، حتى نتحقق من أن هذه الأخلاق تُلخّصُ من جهة أخلاق اليونان فى القرن الرابع قبل الميلاد ، ولكنها من جهة أخرى تتلوه على تلك الأخلاق وتمتد إلى ما وراءها . ففى استطاعة المؤرخ اليقظ أن يقرأ فى الأخلاق الأفلاطونية تاريخ اليونان القدماء وتاريخ اليونان الحديثين ، أعنى ماضى الإغريق ومستقبلهم . وهكذا الحال بالنسبة إلى المُشرّعين من رجال الرواقية ، فإنهم يمثلون القانون القديم والقانون الحديث على السواء ، بمعنى أنهم يجمعون فى مذهبهم بين روح المجتمع العتيق الذى يحتضر ، وروح المجتمع الجديد الذى تلوح تباشيره ^(١) .

حقا إن دعاة المادية التاريخية يصرون على القول بأن للتاريخ يسير على

A. Fouillée : « Histoire de la Philosophie », Paris, (٠)
Delagrave 13 éd, Introduction, pp. IV—V.

قدميه ، لا على رأسه ، وأن الاقتصاد — لا الفكر — هو الحرك الأول للجماعات؛ ولكننا لو دققنا النظر في حركات المجتمعات الحديثة التي تدين برأيهم ، لألفينا أن تقدم النظر العقلي لديها هو الذى يوجه سائر الأنواع الأخرى من التقدم البشرى . فليس بصحيح ما يقال من أن الحركات الفكرية هي مجرد أدوار عليا تركز فوق أساس مادي ، بل الصحيح أن تقدم الأفكار الفلسفية هو في حد ذاته معيار يقاس به التقدم التاريخي بوجه عام . ومما حاول البعض أن يقلل من أهمية « الفكر » في مضمار « السياسة » فإن من المؤكد أن « الفكر » لا بد من أن يظل بمثابة القوة الفعالة التي تمكن من وراء شتى العوامل الاجتماعية المغيرة لصفحة التاريخ . ومن هنا فقد لا نبجانب الصواب إذا قلنا إن التاريخ هو في جانب منه ثمرة لشتى ضروب الصراع القائم بين الإنكار ، إن لم نقل بأن النظر العقلي هو الذى يحرك العالم بأسره . ولم يكن فلاسفة الألمان وحدهم أول من فطن إلى هذه الحقيقة ، بل إننا لنجد أوجست كونت نفسه يؤكدها بصورة أخرى فيقول إن سير النظر العقلي هو الحرك الأساسى لشتى الحركات الاجتماعية . وهذا جون سيتورات مل أيضاً يؤكد ماذهب إليه إمام الوضعية الفرنسية فيقرر أن « تقدم النظر العقلي هو الذى تحكم بصفة عامة في كل ما أحرزه المجتمع من تقدم » بل إننا حتى لو رجعنا إلى بعض كتابات أهل المادية التاريخية (كما هو الحال مثلاً في بعض خطابات إنجلز نفسه) ، لألفينا أنهم يؤكدون أن الناس يصنعون التاريخ بكل ما لديهم من مضمون شعورى ، وأن هذا الشعور يفترض بطبيعة الحال ترقى شتى الأفكار الفلسفية والدينية والقانونية . . . الخ . فليس التاريخ في نظرهم مجرد انعكاس لتلقائى لترقى القوى المادية أو الإنتاجية ، بل هو في جانب منه ثمرة للتفاعل الديناميكي الذى يتم بين الظروف المادية والقوى الفكرية ، أعنى بين البناء السفلى الاقتصادى

والأبنية العليا الإيديولوجية^(١).

٦١ — والواقع أنه كما أن الفلسفة أثرها على سلوك الأفراد ، فإن لها أثرها أيضاً على سلوك الجماعات . وآية ذلك أن ما يحدد نشأة الجماعات ، وطبيعتها ، ومجرى تطورها ، ومستقبل أهدافها ، إنما هو ما يشيع بين أفرادها من إيديولوجيات فعالة . والفلاسفة — فيما يقول رسل — أنما هم أولئك الأفراد الذين تركز في مذاهبهم تلك الأفكار المهمة التي ظلت غامضة مستترة في الوسط الاجتماعي المحيط بهم ، فهم العلة الفعالة لتلك المعتقدات التي سوف تبنى فتشكل الحياة الاجتماعية في العصور التالية لهم . ولكنهم في الوقت نفسه ثمرة لما اختلف على مجتمعاتهم من ظروف سياسية وأحوال اجتماعية وتيارات فكرية . ومعنى هذا أن ثمة تفاعلاً مستمراً بين حياة المجتمع وفلسفات مفكره ، بحيث قد يصح لنا أن نقول إن لكل مجتمع من الفلسفات ما تتطلبه حاجاته وما يتلاءم مع مثله العليا . وتبعاً لذلك فإن مذاهب الفلاسفة لا بد من أن تكون صدى لما في المجتمع من تيارات ، سواء أكان دورها قاصراً على ترديد تلك التيارات أو تنميتها أو تعديلها أو تصحيحها أو التمرد عليها . وإلا فهل ينسئ للمجتمع ديموقراطي أن يدافع عن الحرية والعدالة والمساواة إن لم تكن أذهان مواطنيه قد تهيأت لقبول هذه الدعوة ، وإن لم يكن أفرادها على استعداد للدفاع عن فلسفاتهم ، بوصفها مسائل حيوية تستحق أن يحارب المرء في سبيلها ؟^(٢)

إن البعض ليظن أن الصلة مقطوعة بين المذاهب الفلسفية والبيئات الاجتماعية ، ولكننا لو درسنا شتى الحركات السياسية والاجتماعية دراسة عميقة واعية ،

Cf. K. Marx & F. Engels : « Etudes philosophiques ». (١)

Paris, E. S. 1951., Note de l'Editeur. pp. 11—12.

Bertrand Russell : « History of Western Philosophy », (٢)

1945 Preface.

لما كان من المستحيل علينا أن نربطها بما عاصرها أو تقدم عليها من فلسفات . ولو أننا عمدنا إلى مقارنة الحياة في البلاد الديمقراطية بنظيرتها في البلاد الفاشية ، لتحققنا من أن الفارق بينهما ليس فارقاً في المستوى العلمى أو الاقتصادى أو الآلى أو الفنى أو التربوى ، وإنما هو فارق جوهري في الأفكار والمثل العليا والأهداف التى يدين لها كل منهما بالولاء . وكثيراً ما تنجى التغيرات الاجتماعية التى تطرأ على حياة الناس وأساليبهم فى التصرف ومجرى تطورهم التاريخى ، ثمرة لإيمان بعض الأفراد بقيمة بعض الأفكار الجديدة ، أو نتيجة لاقتناع طائفة من المواطنين بإمكان قيام نظرة أخرى جديدة إلى المعايير القائمة والقيم السائدة . فليست الفلسفة تَرَكَاً أو شيئاً كالياناً بالنسبة إلى كل من استطاع أن يفهم إلى أى حد تؤثر الفلسفات المختلفة على مجرى الأحوال السياسية والمسائل العامة فى المجتمع الواحد ؛ بل إننا لنلاحظ أن رجل الدولة الماهر إنما هو ذلك الذى يَعْلَمُ جيداً أنه هيهات له أن ينجح فى قيادة الناس إن لم يبدأ أولاً بالعمل على اكتشاف فلسفاتهم الأصلية من أجل تحريكهم على العمل وإثارتهم نحو الاستجابة للملائمة . وإذا لم يكن من شأن تلك الفلسفة أن تحقق الأهداف التى يرمى إليها ، فإن من واجبه أن يحاول صرف الناس عنها أو تحويلهم نحو فلسفة جديدة يكون من شأنها أن تحقق الغرض المنشود^(١) .

وهذا هو يتهد يقارن نتائج التفكير الفلسفى بأعمال بعض رجال السياسة فيضع أفلاطون وأرسطو وديكارت وهيغل فى مصاف رجال من أمثال الاسكندر وقيصر ونابوليون وغيرهم ، مع اعترافه فى الوقت نفسه بأن كل نجاح يُحرِزهُ الفيلسوف لا يمكن مطلقاً أن يبدو فى الظاهر جليل الشأن واسع المدى ، كالنجاح الذى يحوزه القائد الحربى أو رجل الدولة . . . ولكننا مع ذلك لو نظرنا إلى للصير

Cf. A. J. Bahm : «Philosophy; An Introduction». Wiley. (١)
1954, p. 27.

المائل الذى لقيه تفكير فيلسوف مثالى غامض مثل هيغل ، راعنا ذلك الأثر الضخم الذى خلفه مذهبه السياسى . وحَسْبُنَا أن نلقى نظرة على تلك الحركات السياسية المتباينة التى صدرت عن المييجلية كالفاشية والاشتراكية الوطنية والشيوعية ، حتى نتحقق من أن الفلسفة المييجلية لا زالت قوة حية تعمل عملها ضمن القوى التاريخية التى تصنع المستقبل وتوجه البشرية . حقاً إن كثيراً من الناس يميلون إلى السخرية من تأملات الفلاسفة ، والانتقاص من قدر مدتهم الفاضلة ، والخط من قيمة أنظارتهم العقلية ، ولكن التفكير الفلسفى — سواء أراد هؤلاء أو لم يريدوا — قوة جبارة تكن من وراء شتى الانقلابات الاجتماعية الهائلة والتغيرات الحاسمة . ولئن كان خصوم الفلسفة لا يجدون أدنى صعوبة فى أن يَسْمُوا تأملات الفلاسفة بطابع الوهم أو الحلم أو الخرافة ، إلا أن هؤلاء ينسَوْنَ أو يتناسون أنه ليس يكفى لفهم الحركات السياسية والتطورات الاجتماعية أن نرجع إلى تصرفات الساسة وتديرات القادة ، وإنما ينبغى أيضاً أن نحاول فهم التقدم البشرى فى ضوء النظريات الفلسفية والمذاهب السياسية التى تمهد دائماً لما سيتمخض عنه الغد من تطورات ، وما سوف يجرى به المستقبل من انقلابات . ولنضرب لذلك مثلاً فنقول : هل يستطيع المؤرخ أن يفهم ثورة سنة ١٧٨٩ فى فرنسا على حقيقتها ، إن لم يكن على علم بتلك المبادئ الفكرية التى مهدت لاندلاع تلك الثورة ، أعنى إذا لم يكن مُلمّاً بروح الفلسفة الفرنسية فى القرن الثامن عشر ؟ أفلا يحق لنا إذن أن نقول إن المؤرخ الذى يقتصر على وصف أفعال البشرية ، دون الاهتمام بدراسة أنظارتها العقلية ، إنما يتوقف عند المعلومات الخارجية دون أن يرقى إلى علماها الباطنية ؟

٦٢ — هنا قد يعترض بعض المفكرين — وفى مقدمتهم كارل ماركس — بقولهم إن الفلاسفة التقليديين قد صرّفوا همهم إلى تفسير العالم ، فى حين أن بَيِّنَ التصيد هو أن نعمل على تغييره . وماذا عسى أن تكون جدوى الفلسفة

إذا كان كل منهما أن تجتاز بعض المفاهيم المجردة والتأويلات الغامضة ؟ بيد أن هذا النقد الماركسي إنما ينقل حقيقة جوهرية هامة ، ألا وهي أن الفكر نفسه « قوة فاعلية » هائلة . وحتى إذا لم نسلم مع خصوم الماركسية بأنه لا سبيل إلى تغيير العالم ، إن لم نحاول أن نبدأ أولاً بفهمه وتأويله على نحو تجريبي سليم ، فإنه لا بد لنا من أن نترف بأن اللغة البشرية نفسها تنطوي على ضرب من التحكم العملي في الكون ؛ مادام في « القول » تَمَلُّكٌ لخاصية عَدَدٍ أكبر من الممكنات ، وأداة فعالة للتأثير على الطبيعة والآخرين عن بعد ، وتوطيد لدعائم التواصل فيما بين الدوات ، وتثبيت لأركان العالم البشري في صميم ملكوت الطبيعة . وإذن فليس أمعن في الخطأ من إقامة ضرب من التعارض بين « حضارة العمل » و « حضارة القول » ، لأن الواحدة منهما لا يمكن أن تقوم بدون الأخرى ، فضلاً عن أنه لا سبيل إلى تصور موقف نظري أو تأملي صرف يلزاه الكون ، حتى لدى أشد الفلاسفة إغراقاً في التجريد^(١) .

أما الزعم بأن النظر العقلي كثيراً ما يقتادنا إلى آفاق بعيدة ، وينأى بنا عن الواقع العملي ، ويحملنا على أن نسترسل في تهاويل براءة من الأحلام العريضة والتصورات الخيالية ، فردنا عليه أن تجارب البشر العملية نفسها كثيراً ما أفادت من تلك الأنظار العقلية التي قد تبدو بعيدة كل البعد عن الواقع العملي . وآية ذلك أن النظر العقلي كثيراً ما فتح أمام البشرية آفاقاً جديدة لم تكن في الحسبان ، وميادين مستحدثة لم يسبق ارتيادها ، فوضع بذلك بين أيدينا إمكانيات هائلة

Cf. G. Gusdorf. «Traité de Métaphysique» Paris, Colin, (١) 1956, p. 361.

لم يكن هناك من سبيل إلى التنبؤ بها سلفاً . حقاً إن دراسة الأنظار العقلية قد تبدو في الظاهر فلسفة مجردة تنأى بنا عن العالم الواقعي ، وتقربنا من عالم آخر لعله العالم المثالي ، ولكننا ننسى عندئذ أن هذه الدراسة إنما تُقربنا من الحقيقة الحية النابضة ، مادامت العلة الحقيقية لكل حركة الواقع الحي إنما تسكن في المثل الأعلى الذي هو منه بمثابة الهدف ، أو المقصد الأسمى . ومن هنا فقد يكون في وسعنا أن نقول مع بعض فلاسفة السياسة إنه لا سبيل لنا إلى فهم تاريخ الأعمال ، إن لم نرجع أولاً وقبل كل شيء إلى تاريخ الأفكار . بل إننا قد لا نكون مغالين إذا قلنا إن بعض النظريات الفلسفية هي في صميمها وقائع حية ذات دلالة تاريخية ، مادام تاريخ التفكير الفلسفي هو مرآة صادقة لتطور المجتمع البشري وترقى « الروح الإنسانية » في صيرورتها المستمرة .

والواقع أن العلاقة وثيقة بين الفلسفة والحضارة : فإن كلا منهما سبب ونتيجة للأخرى ، بمعنى أن الحضارة نفسها وليدة الفلسفة من جهة ، وإن كانت هي بدورها التي تعود فتولد الفلسفة من جهة أخرى . وتبعاً لذلك فقد ذهب بعض الباحثين إلى أنه لا مجال للفصل إطلاقاً بين الفلسفة ودورها في صميم التاريخ الحضاري ، لأنك بمجرد ما تحاول أن تكشف عن السمات المميزة للحضارة والوظائف الخاصة التي تضطلع بها ، فقد عرفت الفلسفة ذاتها . ولعل هذا هو ما قصد إليه ديوي حينما كتب يقول : « إن الفلسفة لها قوة تاريخية حاسمة تقترن بكل تغير يطرأ على الحضارة . وهي حين تصوغ الأنماط التي ينبغي اتباعها في المستقبل ، سواء أكان ذلك في مجال الفكر ، أم في مجال العمل ، فإنها إنما تمارس دورها في صميم تاريخ الحضارة بوصفها أداة تغيير

أو إضافة أو تعديل . . «^(١) . وليس يكفي أن نقول إنه بدون الفلسفة لا يمكن أن تقوم حضارة فحسب ، وإنما يجب أن نضيف إلى ذلك أن الحضارات تختلف فيما بينها بسبب ما يفصل بينها من اختلافات فلسفية ، بحيث قد يكون في وسعنا أن نتحدث عن حضارات رومانية ، وعقلية ، وسلمية ، وعدوانية ، وصوفية ، ودينوية . . إلخ . وكثيراً ما تنكشف لنا طبيعة الفلسفة الواحدة من خلال التغيرات التي تحدثها عملياً في المدنية التي ترتبت عليها . وهنا تكون مهمة الباحث أن يَقيفَ على نوع التغيرات التي طرأت على المجتمع الواحد بعد اعتناقه للفلسفة الجديدة ، من أجل تحديد خصائص تلك الفلسفة بالاستناد إلى ما نجم عنها من تجديد في صميم البيئة الحضارية . ولكن هذا لا يعني أن الفلسفة والحضارة شيء واحد ، وإنما ينبغي لنا أن نعترف بأن التفكير الفلسفي ليس إلا مظهراً من مظاهر الحضارة الإنسانية ، فهو بالتالي خاضع لتيارات الحضارة العامة . وبعبارة أخرى يمكن القول بأن التفكير الفلسفي رافد واحد — بين روافد أخرى كثيرة — تُغذّي الجرى الأصلي لنهر الحضارة . ومع ذلك فإن لهذا الرافد قيمة حضارية كبرى بالنسبة إلى التاريخ العام للإنسانية ، نظراً لأنه لا قيام لأية حضارة بدون دعائم فكرية تستند إليها . وإذن فليس أمعَنَ في الخطأ مما ذهب إليه البعض من أننا لو حذفنا كل ما جاء به الفلاسفة ، فإن الإنسانية لن تنحسر شيئاً . أليست الفلسفة علماً عقلياً ، وحياة روحية ، وثقافة خصبة ، وفكرأ حياً ، وحكمة عالمية ؟ فكيف لا يكون لها دور كبير في صميم التاريخ العام للحضارة وهي التي طالما عدلت المثل العليا الجمعية ، وغيّرت السياسات الدولية الكبرى ، وأنارت السبيل أمام مستقبل البشرية^(٢) ؟

Cf. J. Dewey «Philosophy & Civilization». New-York (١) 1931, p. 9.

Maurice Blondel : « La Pensée » t. II. Parie, Alcan, (٢) 1934 p. 297.

اننا نعرف كيف يحاول الكثيرون أن يَنْتَقِصُوا من قَدَرِ تأملات الفلاسفة ، بدعوى أنها خيالات أفلاطونية لا سند لها من واقع ، ولكن أحداً مع ذلك لا يستطيع أن ينكر أن أسماء فلاسفة من أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو ، والقديس أوغسطين ، والقديس توما الأكويني ، والفارابي ، وابن سينا ، وابن رشد ، وديكارت ، وبيكون ، وروسو ، وفولتير ، وكانت وهيجل وماركس وإنجلز ونيتشة وغيرهم ، قد اقترنت بتاريخ الحضارة البشرية ، فلم يعد في وسعنا اليوم أن نفهم « دياكتيك » التاريخ الإنساني ، دون الرجوع إلى التراث الفكري الهائل الذي خَلَفَهُ كل أولئك المفكرين . ولئن كانت السياسة قد أصبحت اليوم علماً من العلوم ، إلا أن هذا العلم لا يستطيع أن يَسْتَفْنِي عن مذاهب الفلاسفة ونظرياتهم وأحلامهم ومدنهم الفاضلة ، لأن هذه كلها هي لُحمة الحضارة البشرية وسداها ،^١ إن لم نقل بأنها الجو الروحي الذي يتنَسَّمه الإنسان . فليس في استطاعة إنسان العصر الحديث أن ينظم عاله وكأن لم يوجد يوماً سقراط ، أو أفلاطون ، أو أرسطو ، أو ديكارت ، أو كنت ، أو هيجل ، أو ماركس ، أو نيتشة ، بل لابد لنا من أن نعترف بأن مجتمع القرن العشرين لا زال يحمل آثار كل هؤلاء ، بحيث قد يفسَّرُ تصوُّرُ النظم السياسية الحالية دون الرجوع إلى تاريخ الفلسفة .

حقاً إن خصوم الفلسفة سوف يعودون إلى الاعتراض ، فيرددون الحديث المعاد الذي يقول : « إن الذين يملكون القدرة على العمل يعملون ، وأما أولئك الذين لا حَوْلَ لهم ولا طَوْلَ ، فإنهم لا يملكون سوى الكلام والتفلسف » ! ولكن هؤلاء ينسون أو يقناسون أننا لا نستطيع أن نعمل ، وكأن ليس للأفكار أية نتائج ، فإن الأفعال هي في كثير من الأحيان مجرد ممرات لمجموعة من الأفكار . ولو كانت الأفكار مجرد ذَرَّاتٍ من الغبار تَذَرُّها الرياح ،

لما كنا في حاجة إلى أن نخلق أية أهمية على ماتكتبه الصحف والمجلات ،
وماتسجله أقلام الكتاب والأدباء ، وماتذيعه محطات الراديو والتلفزيون ،
وماتلقنه أبناؤنا في المدارس والجامعات . ولكننا نعلمُ جميعاً أن للأفكار
أهميتها في حياة الأفراد والجماعات ، بدليل أننا نحرص كل الحرص على التمييز بين
الفكرة الصائبة والفكرة الخاطئة ، أو بين الفكرة الصادقة والفكرة الكاذبة ،
أو بين الفكرة الجيدة والفكرة السيئة . . . بل إن التجربة نفسها لتشهد بأننا
حينما نسيء التصرف ، فإننا كثيراً ما نعود إلى أفكارنا محاولين فحصها وامتحانها ،
لأننا على ثقة من أن سوء تصرفنا لا بد من أن يكون راجعاً إلى خطأ في التفكير
أو القياس أو التحليل . فليس بصحيح ما يقال أحياناً من أن الأفكار قُصورُ
من الورق ، بل الصحيح أن الإيمان بالفكرة قد يهبنا من القدرة ما نستطيع معه
أن نزعج الجبال ! وآية ذلك أن الإنسان حينما يؤمن بصحة الفكرة التي يدين
بها ، فإنه سرعان ما ينظر إلى تلك الفكرة على أنها الحقيقة بعينها ، وعندئذ نراه
على استعداد للتضحية بكل شيء في سبيل تنفيذ فكرته . ولا شك أن فكرة
كل شعب عن مثال الإنسان (أو ما ينبغي أن يكون عليه المواطن الصالح) إنما
هي التي تعمل عملها في تحديد المستوى الأخلاقي لكل شعب ^(١) . وهكذا نخلصُ
إلى القول بأن أفكار الفلاسفة عن علاقة الفرد بالدولة ، وصفات الحكومة المثلى ،
ومميزات الحكم العادل ، وعلاقة الحكام بالحكومين ، وصلة القانون الوضعي
بالقانون الطبيعي ، وتوزيع السلطات ، وحقوق الأفراد وواجباتهم . . . إلخ :
كل هذا لم يضع سُدى في حياة الأمم والدول والجماعات ، بل ترددت أصداؤه
في أشكال الحكومات وأنواع التنظيمات السياسية وضروب الدساتير ومواثيق
للنظمت والميثاث . . . إلخ .

Walter Lippmann: «The public philosophy», A Mentor Book, (١)
1952, pp. 72—74.

بَيِّدَ أَنَّا لَنْ نَسْتَطِيعَ أَنْ نَفْهَمَ آرَاءَ الْفَلَسَفَةِ وَمَذَاهِبِهِمْ إِلَّا إِذَا عَمَدْنَا إِلَى وَضْعِهَا فِي سِيَاقِهَا التَّارِيخِيِّ ، فَإِنْ لِكُلِّ فِلْسَفَةٍ إِطَارُهَا الْحَضَارِيُّ الَّذِي لَا تُفْهَمُ إِلَّا فِي دَاخِلِهِ . وَلِهَذَا قَدَّ فَطَنَ الْبَاحِثُونَ إِلَى أَهْمِيَةِ تَارِيخِ الْفِلْسَفَةِ ، بِوصْفِهِ تَتَبَعًا لِنَشْوءِ الْأَفْكَارِ وَتَطَوُّرِهَا وَتَعَاقِبِهَا خِلَالَ الْحَقَبِ التَّارِيخِيَةِ الْمُخْتَلِفَةِ ، فِي ضَوْءِ الْأَحْدَاثِ السِّيَاسِيَةِ وَالْمَلَابِسَاتِ الْاجْتِمَاعِيَةِ وَالتَّغْيِيرَاتِ الْحَضَارِيَةِ الَّتِي اكْتَنَفَتْ حَيَاةَ كُلِّ شَعْبٍ . وَكَثِيرًا مَا تُعَيِّنُنَا مَعْرِفَةُ أَفْكَارِ الْعَصْرِ الْوَاحِدِ أَوْ فِلْسَفَاتِهِ ، عَلَى فَهْمِ رُوحِ ذَلِكَ الْعَصْرِ ، وَالْوُقُوفِ عَلَى اتِّجَاهِهِ الْحَضَارِيِّ الْعَامِ . وَكَأَنَّ مَعْرِفَتَنَا بِطِبَائِعِ الْأَفْرَادِ قَدْ تَكْتَمِلُ بِوُقُوفِنَا عَلَى أَفْكَارِهِمْ ، وَلِإِمْامِنَا بِمُثْلِهِمُ الْعُلِيَا وَإِحَاطَتِنَا بِنَظَرَاتِهِمْ إِلَى الْقِيَمِ ، فَكَذَلِكَ قَدْ تَكْتَمِلُ مَعْرِفَتُنَا بِطِبَائِعِ الشُّعُوبِ ، بِوُقُوفِنَا عَلَى أَفْكَارِهَا ، وَإِحَاطَتِنَا بِمُثْلِهَا الْعُلِيَا ، وَفَهْمِنَا لِنَظَرَاتِهَا إِلَى الْقِيَمِ . . . إلخ . وَإِذْنًا قَدْ لَا نَعَالَى إِذَا قُلْنَا إِنَّ تَارِيخَ الْفِلْسَفَةِ هُوَ جُزْءٌ لَا يَتَجَزَأُ مِنَ التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ الْعَامِ ، إِنَّ لَمْ نَقُلْ مَعَ تَوْسِيدِيدِسَ أَنَّ « التَّارِيخَ هُوَ الْفِلْسَفَةُ نَفْسُهَا ، وَهِيَ تُعَلِّمُ بِالْقُدْوَةِ وَالْمَثَالِ » !

الفصل العاشر

بين الفلسفة والإيديولوجيا

٦٢ — لو أننا تصفحنا الكثير من الكتب السياسية والاجتماعية التي يتداولها الناس اليوم ، لوجدنا كلمة « إيديولوجيا » *Idéologie* من بين الكلمات الهامة التي تتردد على أقلام الكتّاب المحدثين والمعاصرين . وكثيراً ما يتحدث مفكرو الغرب عن إيديولوجيات بورجوازية ، وأخرى بروليتارية ، بينما أصبح البعض يتحدث اليوم عن إيديولوجيات اقتصادية ، وإيديولوجيات سياسية ، وإيديولوجيات عنصرية ، وإيديولوجيات جنسية ، وإيديولوجيات اجتماعية .. الخ بل لقد أطلق أحد الباحثين على كتاب له في المرأة اسم « تاريخ إيديولوجية » . واتسع استعمال هذه الكلمة ، فصار الكتاب يخلطون بينها وبين « الفلسفة » ، وأصبح لزاماً علينا أن نبين — على وجه التحديد — ضروب الاختلاف والتشابه بين كل من « الفلسفة » و « الإيديولوجيا » .

ولو أننا أردنا أن نقف على الأصل في نشأة هذه الكلمة ، لكان علينا أن نرتد إلى الفكر الفرنسي دستوت دي تراسي *Destutt de Tracy* الذي استعمل هذا الاصطلاح لأول مرة عام ١٨٠١ في كتاب له سماه باسم « تخطيط لعناصر الإيديولوجيا » . وقد أراد دي تراسي بهذا الاصطلاح الإشارة إلى « العلم الذي يدرس الأفكار (بمعناها العام) ، أي العلم الذي يقوم بالبحث في وقائع الشعور ، فيعرض لتحديد خصائصها ، وقوانينها ، ونشأتها ، وعلاقتها بالعلامات التي تمثلها . . . إلخ » ^(١) . والظاهر أن كلمة « إيديولوجيا » قد ارتبطت في نشأتها

Cf. A. Lalande : «Vocabulaire Technique et Critique de (١) La Philosophie», 1951, 6^e édition, Art. «Idéologie», p. 458.

بالنزعة الحسية أو المادية التي ظهرت في فرنسا خلال القرن الثامن عشر ، فكانت « الإيديولوجيا » هي « علم الأفكار » ، وكان « المنهج الإيديولوجي » هو المنهج العلمى الوحيد الذى يسير عليه الفلاسفة في تحليلهم للأفكار ، وبمنهم عن مصادرهما . وهكذا كان « الإيديولوجيون » هم أنصار تلك الجماعة الفلسفية الخاصة التى اقتفت آثار الفيلسوف الفرنسى المادى كوندillac (١٧١٥ — ١٧٨٠) ، فاستبعدت الميتافيزيقا ، وحاولت إقامة العلوم الحضارية على أسس أنثروبولوجية وسيكولوجية .

أما كلمة « ايدولوجيين » Idéologues فقد ظهرت لأول مرة حينما أراد نابليون أن يحقّر جماعة من الفلاسفة الذين كانوا يعارضون أطماعه الاستعمارية ، فأطلق عليهم اسم جماعة « الإيديولوجيين » . ومنذ تلك اللحظة ، أصبح لكلمة « ايدولوجيا » معنى سيئ ، فلم يعد يطلق على الفيلسوف لفظ « ايدولوجى » إلا حين تصطبغ فلسفته بطابع مذهبي ينأى بها عن الحقيقة ، ويضنى عليها صبغة لا واقعية . ومعنى هذا أن الفكر الأيديولوجى قد أصبح بمثابة تأملات وهمية لا تنصب على الواقع ، وكأنما هو مجرد مذهب لا واقعى (irréelle) تكذبه شهادة الوجود الخارجى . وهكذا درج الاستعمال على تسمية أى تفكير باسم « إيديولوجيا » حين يجرى هذا التفكير — من وجهة نظر الحياة العملية — نافهاً أو عديم الشأن ، على اعتبار أن الحك الأوحد لقياس قيمة الفكرة إنما هو النشاط العملى .

ثم جاء ماركس K. Marx (١٨١٨ — ١٨٨٣) فوضع كلمة « ايدولوجيا » فى مقابل « وقائع اقتصادية » ، ونسب صفة « الايديولوجية » إلى كل ما هو متصور عقلياً ، سواء أكان عقيدة دينية ، أم مذهباً فلسفياً ، أم إيماناً أخلاقياً . . . الخ . وهكذا أصبحت « الايديولوجيات » عبارة عن تبريرات

منطقية لبعض أساليب التفكير والسلوك ، وصارت كلمة « ايدولوجيا » تنطوى على معانى الأسطورة ، والوهم ، واللغو الفارغ ، والتجريد البعيد عن الواقع . ولم يلبث الفلاسفة أنفسهم أن أصبحوا يستعينون بالطريقة الايدولوجية في تفسير آراء خصومهم ، فصار من المألوف أن تُفند الأفكار بإظهار الطابع النفعي أو المقصد الخفي الذي تنطوى عليه ، وأصبحت « الايدولوجيا » — كما يقول أحد المفكرين المعاصرين — إنما هي « الرأى الذى ينادى به خَصْصى » !^(١)

ولكن أنصار الماركسية قد وسَّعوا من مفهوم « الايدولوجيا » ، فأصبحوا يفسرون الأفكار والمذاهب بالرجوع إلى القوى الاقتصادية وعلاقات الإنتاج ، وبذلك اعتبروا جميع الأفكار مشروطة بالمواقف التاريخية ، وصاروا يفسرون المذاهب على أنها مجرد تعبير عن الطبقات الاجتماعية . ولم يلبث علماء الاجتماع أن رَجَّحوا بهذا التقابل الذى وضعه الماركسيون بين « الأفكار » و « الطبقات الاجتماعية » ، فظهرت نزعة اجتماعية متطرفة في مجال المعرفة ، وكان من آثار هذه النزعة أن تزعزعت فكرة « الحقيقة المطلقة » ، وحلت محلها نزعة نسبية من نوع خاص ، أطلق عليها أصحابها اسم « النزعة العلاقية » *relationnisme* ، أو « النزعة المنظورية » *perspectivism* . وقد شاء أصحاب هذا الاتجاه الجديد في المعرفة أن يقفوا موقفاً وسطاً بين النزعة الشككية التى لا تخلو من تناقض ، والنزعة الإيقانية التى لا تخلو من تطرّف ، فذهبوا إلى أن لكل جماعة « نظرة جزئية » خاصة إلى الواقع الاجتماعى ، وقالوا إن الأفراد الخارجين عن الجماعة يستطيعون أن يقيموا مؤلفاً يضم تلك النظرات الخاصة ، أو أنه قد يكون في الإمكان تصوّر نسق جامع يحقق التوازن بين تلك الفطرات المتعارضة .

Cf R. Aron: « L' Idéologie »; article publié dans les (١)
Recherches Philosophiques , Vol. VI; 1936 — 1937, p. 65.

ومهما يكن من شيء ، فإن الملاحظ في عصرنا الحاضر أن الصلة وثيقة بين
الايديولوجيات وحركات الجماهير ، حتى لقد أصبحنا نشهد اليوم منازعات حادة
وحملات عنيفة بين الايديولوجيات المتعارضة . ولكن الماركسية في صراعها ضد العدو
البورجوازي ، تأبى إلا أن تقرن « الإيديولوجيا » بموقف الطبقة البورجوازية ،
وكان العنصر الايديولوجي وقف على تفكير خصومهم ، أو كان تفكيرهم مُخال
تماماً من كل طابع إيديولوجي . ومع ذلك فإن الماركسيين يقررون أنه لا يمكن
أن يكون هناك « نظر خالص » في مضمار التاريخ أو السياسة ، وأن وراء كل
نظرية — كائنة ما كانت — إنما تكن دائماً وجهات نظر اجتماعية . وقد استعمل
ماركس نفسه كلمة « ايديولوجيا » للإشارة إلى ظاهرة « التفكير الجماعي »
الذي ينبثق دائماً عن مصالح اجتماعية ومواقف واقعية . فلم يكن بدّ إذن من
أن يجرى علماء الاجتماع فيطبّقوا على الماركسية نفسها هذا المبدأ عينه ، لكي
يكشفوا لنا عن الطابع الأيديولوجي الذي تنطوي عليه هذه الفلسفة ذاتها .

٦٣ — وهنا قد يعترض مؤرخو التفكير الفلسفي على هذه النزعة الاجتماعية
في المعرفة ، فيقولون : « إن من واجب المؤرخ أن يحترم الحقيقة ، فيحاول على
قدر الإمكان أن يستند إلى الوقائع وحدها ، ويعمل دائماً على تجنب كل
إيديولوجيا . » ولكن علماء الاجتماع يبادرون إلى الردّ على هذا الاعتراض
بقولهم : « إن كل صورة من صور التفكير التاريخي أو السياسي هي في جوهرها
مَشْرُوطَة بموقف المفكر الحيوي ، وأحوال الجماعة التي ينتسب إليها . »
ومعنى هذا أن الطريقة التي نسير عليها في تصوّرنا للتاريخ ، وإعادة بنا لتركيب
الموقف الكلي بالاستناد إلى بعض الوقائع المحدّدة ، إنما تتوقف إلى أبعد حدّ
على الوضع الخاص الذي يشغله المرء في صميم المجتمع . ويمضي علماء الاجتماع
إلى حدّ أبعد من ذلك ، فيقولون إن تأثير تفكيرنا بوضعنا الاجتماعي لا يعني

بالضرورة أن يجرى هذا التفكير خاطئاً ، وإنما قد يكون هذا التأثير نفسه سبيلنا إلى بلوغ حَدْسٍ سياسيّ صائب . ومن هنا فإنّ العنصر الهامّ في مفهوم « الإيديولوجيا » عندهم إنما هو هذا الكشف الجوهرى لوجود علاقة وثيقة بين التفكير السياسيّ والحياة الاجتماعية . ولعلّ هذا ما عناه ماركس حينما قال عبارته المشهورة : « إنه ليس وَغَى الناس هو الذى يُحدّد وجودهم ، بل — على العكس — إن وجودهم الاجتماعى هو الذى يحدّد وعيهم ^(١) . » فالنظرية دالّة *Function* للواقع ، وهى تؤدى إلى تحقيق ضرب خاص من الفعل ، يجرى ، فيعدّل من الواقع ، أو هو قد يفشل ، فيضطرنا إلى معاودة النظر فى النظرية السابقة . والتغير الذى يطرأ على الموقف الحالى نتيجة للفعل ، لا بُدَّ — بدوره — أن يؤلّد نظرية جديدة .

... من هذا كله يتبيّن لنا أن « الإيديولوجيات » هى « مركّبات أفكار » توجّه النشاط نحو المحافظة على بقاء النظام القائم . وقد يقع فى ظننا أن الأفكار تتولد بطريقة تلقائية ، ولكن الحقيقة — فيما يقول كارل مانهائم — أن الأفكار تتوقف توقفاً تاماً على السياق التاريخى والاجتماعى . وتبعاً لذلك ، فإنه ليس المهمّ أن نعدّ إلى دراسة الفكر المجرّد ، أو العقل الخالص ، بل المهمّ بالأحرى أن نقف على الظروف الاجتماعية الفعلية التى عملت على ظهور هذا التفكير أو ذلك الإنتاج العقليّ . وإذا كان من الحق أننا ننسب إلى جماعة بعينها ، فاذلك لمجرّد أننا ولّدنا فى كنفها ، أو لمجرّد أننا ندين بالطاعة والولاء لها ، أو لمجرّد أننا حريصون على التمسك بها والدفاع عنها ، وإنما بالأحرى لأننا نرى العالم وما فيه من أشياء على نحو ما تراه تلك الجماعة ، أعنى أننا نستخدم فى إدراكه نفس المعانى أو الدلالات التى نستخدمها تلك الجماعة فى إدراكه ^(٢) .

K. Marx - *A Contribution to the Critique of Political Economy*, Trans. by N. I. Stone, Chicago, 1913, pp. 11-12.

Karl Mannheim : *Ideology and Utopia* - London, 1936, (٢) p. 19. (Harcourt, Brace).

والواقع أن أى مفهوم جزئى ، بل أى معنى خاص ، إنما ينطوى على «بُورَة»
لخبرات جماعة بعينها ، ومن هذه الناحية قد يكون أهم شيء يمكن أن نعرفه عن
هذا الشخص أو ذاك ، إنما هو تلك الأمور التى يَعُدُّها طبيعياً عادياً ، أو تلك
المسائل التى يُسَلِّم بها ضمناً دون أدنى فحص أو مناقشة . وبالمثل قد تكون أكثر
الحقائق أهمية وأولية بالنسبة إلى أية جماعة ، إنما هى على وجه التحديد تلك الوقائع
التي تَمُدُّها الجماعة سويةً مألوفة ، أو تلك المسائل التى تعتبرها فى العادة مُحَلُولَةً قد
فُرِغَ من أمرها . حقاً إن الفكر هو أولاً وبالذات موضوع دراسة كل من علم
المنطق وعلم النفس ، ولكن من المؤكد — فيما يقول مانهايم — أنه لا سبيل إلى
فهم الفكر حقَّ الفهم ، اللهمَّ إِلَّا إذا نظرنا إليه من وجهة نظر اجتماعية ولهذا فإن
علماء الاجتماع يريدون أن يحلِّوا مشكلة المعرفة عن طريق دراسة سوسيولوجية
للفكر البشرى ، لكي يكشفوا لنا عن الحتمية الاجتماعية التى تخضع لها كل معرفة
إنسانية . وهم إذا كانوا يسايرون ماركس فى الالتجاء إلى «التحليل الأيديولوجى»
لمذاهب الفكر ، فذلك لأنهم حريصون على تأكيد أولوية «العامل الاجتماعى»
فى تحديد الاتجاهات الذهنية الغالبة على كل مجتمع . ولكنهم لا يمتنعون مع ماركس
إلى حدِّ القول بأن الطبقة البروليتارية هى وحدها التى تملك تلك القدرة السحرية
على فضح الإيديولوجيات ، بل هم يقررون — على العكس من ذلك — أن لكل
وضع تاريخى حقيقته الخاصة ، وأنه ليس ثمة طبقة اجتماعية واحدة تحتكر لنفسها
المعنى السكلى لأية حقبة تاريخية بعينها .

وهكذا أصبح السلاح الإيديولوجى سلاحاً عاماً تستعين به سائر الطبقات
فى صراعها ضدَّ غيرها من الطبقات ، بمد أن كان المفكرون الاشتراكيون يظنون

أنهم هم وحدهم الذين يملكون ميزة إرجاع التفكير البورجوازي إلى أسس إيديولوجية ، وبالتالي حق الانتقاص من قدره والظعن فيه : ولم يلبث التطوُّر الاجتماعي والفكرى أن وسَّع من رقعة الخلاف بين الإيديولوجيات المتصارعة ، فأصبحنا نشهد هذا السلاح الاجتماعي الخطير في يد سائر الطبقات تدُّود به عن نفسها ، وتظعن به خصومها ، وتُشهره في وجه كل من تحدته نفسه بالخط من شأنها . وتبعاً لذلك فقد اضطر الباحثون الاجتماعيون إلى الاعتراف بأن الفكر الإنساني ينطوى على حقيقة جزئية ضمنية في كل مرحلة من مراحل تطوره ، وأنه ليس ثمة طبقة اجتماعية بعينها تحتكر لنفسها الدلالة الكلية الشاملة للصيرورة الكونية العامة .

٦٤ — فإذا ما دققنا النظر الآن في مفهوم «الإيديولوجيا» ، ألفينا أن كارل ماركس على حق حينما يفرق بين نوعين من الإيديولوجيا : إيديولوجيا جزئية خاصة ، وأخرى كلية عامة . والنوع الأول منهما يشير إلى ذلك الموقف الشكى أو الارتياحي الذي نقتنه من أفكار خَصَّصنا أو تصوراتنا ، حينما ننظر إلى هذه الأفكار أو تلك التصورات على أنها مجرد تغطية شعورية (بدرجات متفاوتة) لطبيعة الموقف الحقيقية ، نظراً لأن الاعتراف بحقيقة الموقف لا يتلاءم مع مصالح الشخص المشار إليه . ومعنى هذا أن المفهوم الجزئي للإيديولوجيا يقتضى تفسير موقف الخصم بالرجوع إلى عامل سيكولوجي محض .

أما النوع الثانى من الإيديولوجيا فهو أوسع مدى وأكثر خطورة ، لأنه يرتبط بتفكير طبقة ، أو حقبة تاريخية ، أو فئة اجتماعية ، أو جماعة ما من الجماعات ... إلخ . وهنا تكون الإيديولوجيا عبارة عن مجموع التصورات التى تمتنعها الطبقة أو الحقبة أو الفئة أو الجماعة ، آملّة من ورائها أن تبرّر موقفها

في صميم المجتمع . والمفهوم الكلي للأيديولوجيا إنما ينصب على التكوين العام
أو السمات المشتركة التي تميز التفكير الكلي للطبقة أو الحقة أو الفئة أو الجماعة ،
فهو يحاول بالتالي أن يبين أوجه التقابل القائمة بين الموقف الاجتماعي من جهة ،
وأشكال المعرفة من جهة أخرى .

ومع ذلك فإن ثمة عناصر مشتركة تجمع بين كل من المفهوم الجزئي والمفهوم
الكلي للأيديولوجيا . وآية ذلك أن كلا منهما يرفض الاعتماد على أقاويل الخصم ،
ويحاول أن يكشف عما وراءها من مقصد خفي أو دلالة مستترة . كذلك يتفق
الاثنان على ضرورة فهم أقاويل الخصم بالالتجاء إلى منهج غير مباشر يقوم
على تحليل الظروف الاجتماعية التي أحاطت بالفرد أو بجماعته . فالأفكار
التي يعبر عنها الشخص إنما تعد في هذه الحالة بمثابة « دالة » function لوجوده .
وتبعاً لذلك ، فإن الآراء ، والقضايا ، والتقارير ، والأنظمة الفكرية هي أحكام
مُتَقَنَّةٌ ، لا ينبغي أن تُحْمَل على ظاهرها ، بل لابد من العمل على تأويلها في ضوء
الموقف المعاش الذي يحياها صاحبها . هذا إلى أن الطابع النوعي المميز للذات
يشارك مع موقفها المعاش في التأثير على أفكارها وتصوراتها وتأويلاتها . وهكذا
نرى أن المفهومين الكلي والجزئي للأيديولوجيا إنما يجملان من تلك « الأفكار
المرعومة » مجرد « دالة » للشخص الذي يقررها ، بحيث يكون تقريرها متوقفاً
على وضعه الخاص في بيئته الاجتماعية .

بيد أن هناك مع ذلك فروقاً هامة تفصل بين هذين النوعين من
« الإيديولوجيا » : فإننا نلاحظ أولاً أن المفهوم الجزئي لا ينسب الطابع
الإيديولوجي إلى كل آراء الخصم ، بل هو يقصره على مضمون تلك الآراء ،
على حين أن المفهوم الكلي ينصب على النظرة الشاملة للخصم ، بما يحيط معها

من أجهزة تصوّرية ، فيحاول أن يفهم نصوّرات الخضم على أنها مجرد ظواهر مشتقة من الحياة الجماعية التي يشارك فيها . ومن جهة أخرى ، نلاحظ أن المفهوم الجزئيّ للأيدولوجيا يقيم تحليله للأفكار على أساس نفسانيّ بحث ، في حين أن المفهوم الكلّيّ يستند دائماً إلى تحليل عقليّ أو عرفانيّ *gnoséologique* . ولنضرب لذلك مثلاً فنقول : هبّ أننا بإزاء خضم يتفوّه بالكذب ، أو يخفي جانباً من الحقيقة ، أو يحاول تشويه أى موقف واقعيّ ؛ ففي هذه الحالة قد يكون في وسعنا أن نقول إنه لا زال في إمكاننا نحن الطرفين أن نلجأ إلى معايير مشتركة للتحقق ، ما دام في الإمكان دحض الأكاذيب والكشف عن مصادر الخطأ ، بالرجوع إلى معايير مُعيّنة للتحقق الموضوعي تكون مشتركة بين كل من الطرفين . ومعنى هذا أن توجّس من أن يكون خصمي قد وقع ضحيّة لضرب من الأيدولوجيا لا يمضي إلى حدّ استبعاده من المناقشة ، ما دام هناك إطار نظريّ مشترك يمكن الاحتكام إليه . وأما حين ننسب إلى حقبة تاريخية بعينها عالماً فكرياً بعينه ، لكي ننسب إلى أنفسنا في الوقت نفسه عالماً آخر مختلفاً عنه كل الاختلاف ، أو حين تكون ثمة طبقة اجتماعية بعينها تفكر بمقولات مختلفة تمام الاختلاف عن تلك التي تستخدمها طبقتنا الخاصة ، فهناك لا نكون بإزاء مجرد حالات مختلفة أو أنواع متباينة من المضامين الفكرية ، بل نكون بإزاء أنظمة فكرية متباينة تبايناً جوهرياً ، أو بإزاء أساليب من الخبرة والتأويل مختلفة تمام الاختلاف . وإذن فنحن هنا بإزاء خلاف أساسيّ يرتدّ إلى الشكل (أو الصورة) ، لا إلى مجرد المضمون (أو للوضوع) ؛ أعني أن التباين قائم في صميم الإطار التصوّري لنوع التفكير ، بوصفه دالة للموقف المعاش الذي يُعانيه هذا الفكر أو ذاك . ولهذا يقرر ما نهائم أننا هنا في المستوى النظريّ *théorique* لا المستوى السيكلوجيّ *psychologique* المحض .

وأخيراً نجد أن المفهوم الجزئي للأيدولوجيا يقوم أولاً وبالذات على سيكولوجية المصالح ، في حين أن المفهوم الكلي يستعين بتحليل وظيفي أكثر صورية ، دون أدنى إشارة إلى البواعث السيكولوجية ، فيحصر نفسه في الوصف الموضوعي للفروق البنائية القائمة بين العمليات الذهنية المختلفة في الظروف الاجتماعية المختلفة . وإذا كان المفهوم الأول يقرر أن هذه المنفعة أو تلك هي السبب في هذه الكذبة المعينة أو تلك الخديعة الخاصة ، فلن المفهوم الثاني يقتصر على تقرير وجود تقابل *correspondance* بين الموقف الاجتماعي المعين ، ووجهة النظر الفكرية المعينة ، سواء أكانت جزئية محدّدة ، أم كلية شاملة . وإذن فنحن هنا إنما نستعيض عن « سيكولوجية المنفعة » بتحليل دقيق للتقابل القائم بين الموقف المراد معرفته من جهة ، وبين أشكال المعرفة من جهة أخرى . وفي هذه الحالة ، يكون الفرض الذي يهدف إليه التحليل هو على وجه التحديد إعادة بناء الأسس النظرية المذهبية التي تكن من وراء الأحكام الجزئية للأفراد . وبعبارة أخرى ، لا بد لنا هنا من الوقوف على المستلزمات النظرية التي يفترضها ضمناً أسلوبنا الخاص في التفكير ، فإن هذه المستلزمات لا بد من أن تكون واحدة لدى جميع الأفراد الذين ينسبون إلى طبقتي الاجتماعية ، أو الذين ينتمون إلى مجتمعي المحلي .

٦٥ — وهنا قد يحقّ لنا أن نقف وقفة قصيرة عند تاريخ مفهوم الايدولوجيا ، لكي نقف على التطور الذي أصابه عبر العصور التاريخية المتعاقبة . والواقع أنه إذا كان مفهوم هذه الكلمة لم يصبح مفهوماً دائماً متداولاً على أقلام الكتاب إلا منذ أمد قريب ، فإن الظاهرة التي يصفها لمي نفسها ظاهرة قديمة قدم التاريخ البشري نفسه . واسنا نريد في هذه المجالة القصيرة أن نأتى على تاريخ مفصل لنشأة الايدولوجيا وتطورها ، وإنما حسبنا أن نقتصر

على دراسة أصولها الحديثة . ولنقلُ بصفة عامة إننا لا نستخدم التأويل الأيديولوجي إلا حين نحاول - بطريقة واعية تفاوت شدة وضعفا - أن نكشف عما يكمن وراء أكاذيب الخصم من عوامل اجتماعية . ومعنى هذا أننا نَشْرَع في النظر إلى رأى الخصم على أنه مجرد « ايدولوجيا » ، حينما تتميز في سلوكه العام اتجاهًا خفيًا يحول بيننا وبين اعتباره مجرد كذب مقصود ، فنربط بين هذا الرأى وبين الموقف الاجتماعى الذى يكتنف صاحبه ، ونعده مجرد « دالة » لهذا الموقف الخاص . وتبعاً لذلك فإن المفهوم الجزئى للإيديولوجيا يشير إلى ظاهرة خاصة ، لا هى بالكذب الصُّراح من جهة ، ولا هى بالخطأ الناجم عن فساد (أو انحراف) الجهاز التصورى من جهة أخرى ، وإنما هى وَسْط بين هذا وذاك . فالإيديولوجيا الجزئية تشير إلى مجال خاص هو مجال أخطاء ذات طابع سيكولوجي ؛ وهذه الأخطاء - على العكس من الأغلاط المقصودة - ليست مُراداة أو متعمدة ، وليكنها تصدُر حثلاً وبطريقة لا شعورية عن بعض العلل الخاصة المحددة . وربما كان فى وسعنا أن نجد سابقة لهذا التصور الحديث للأيديولوجيا ، عند فيلسوف مثل فرنسيس بيكون فى كتابه « الأورجانون الجديد » ، حين نراه يتحدث عن الأوثان الأربعة ، ألا وهى أوهام القبيلة ، وأوهام الكهف ، وأوهام السوق ، وأوهام المسرح . وهنا يصف لنا بكون ، مصادر الخطأ الإنسانى ، فيقول إن بعضها يرجع إلى الطبيعة البشرية ذاتها ، وبعضها يرجع إلى الأفراد المعيّنين هم أنفسهم ، بينما يرتد بعضها الآخر إلى المجتمع أو العرف أو التقاليد الاجتماعية . وفى كل هذه الحالات ، تتخذ تلك الأخطاء طابع « الموائق » التى تَجِيء فتتلق السبيل أمام المعرفة الصحيحة ، أو تقف حجر عثرة فى سبيل الوصول إلى العلم الحقيقى . وليس من شك فى أن ثمة علاقة وثيقة بين كلمة « ايدولوجيا » وبين « الأوهام الأربعة » التى

استخدامها سيكون للإشارة إلى مصادر الخطأ ، فضلا عن أن سيكون قد سبق علماء الاجتماع إلى النص على اعتبار المجتمع أو التقليد الاجتماعى مصدراً (فى بعض الأحيان) لطائفة من الأخطاء . ولكننا لا نستطيع بطبيعة الحال أن نقول بوجود صلة واقعية يمكن تعقب آثارها بطريقة مباشرة عبر تاريخ التفكير البشرى ، بين نظرية سيكون من جهة ، والمفهوم الحديث للايديولوجيا من جهة أخرى ^(١) .

فإذا ما انتقلنا من سيكون إلى مفكرين آخرين مثل ما كيافى وديفيد هيوم ، ألقينا أن هذين الفيلسوفين قد حاولا إرجاع الفوارق القائمة بين آراء الناس الى اختلافات مقابلة فى مصالحهم . ومعنى هذا أن « سيكولوجية المنافع » هى المسئولة عن خداع الناس لأشباههم ، وسعيهم نحو تضليل غيرهم ، وتماديهم فى اصطناع الأكاذيب من أجل التحايل على الآخرين . ومن هذه الناحية ، قد يكون فى الإمكان أن نعد ما كيافى وهيوم من المبشرين بالنظرة الجزئية أو المفهوم الخاص للايديولوجيا . والظاهر أن كثيرين من المؤرخين المعاصرين قد أصبحوا يصطنعون هذا التحليل الأيديولوجى الخاص فى دراساتهم لأحوال الأمم والشعوب ، فلم يعد أحد يعجب حين يرى الواحد منهم يستعين بسيكولوجية المنافع من أجل إشاعة جو من الشك حول موقف الخصم ، أو من أجل العمل على الخط من قيمة بواعثه والانتقاص من قدر دوافعه . وفى هذه الحالة تكون كل قيمة هذا التحليل الايديولوجى منحصرة فى الكشف عن الدلالة الحقيقية للدعوى التى يدافع عنها الخصم ، بوصفها مجرد ستار ذهنى يخفى وراءه مصالح متسترة أو منافع خفية . ومعنى

K. Mannheim : «Ideology and Utopia», London, 1936, (١)

p. 55. (An Introduction to the Sociology of Knowledge),
Harcourt, Brace. & Kegan Paul.

هذا أن الباحث هنا يحاول أن يكشف عما يكن وراء التعمية الانظمية أو الإيهام الحرفي من معان خفية أو قيم ضمنية .

بيد أن العصر الحديث لم يلبث أن شهد انتقالاً سريعاً من هذا التصور الجزئى للإيديولوجيا إلى تصور آخر أوسع مدى وأبعد أثراً، ألا وهو التصور الكلى للإيديولوجيا . ولقد اقترن هذا الانتقال بضرب من التفكك العميق الذى أصاب الوحدة العقلية للمجتمع الحديث، مما أدى إلى إشاعة جو من الصراع، والريبة، والنزاع المستمر بين القيم المختلفة . حقاً إن هذه الريبة الساذجة قد اقتصرت فى بداية الأمر على المستوى السيكولوجى، ولكنها لم تلبث أن تحولت إلى المستوى العقلى أو العرفانى حينما اتسع نطاق التفكك الاجتماعى حتى شمل الجهاز الفكرى للمجتمع الغربى كله . ومن هنا فقد ظهرت الطبقة البورجوازية مزودة بقائمة جديدة للقيم، وعمل ظهورها على قيام « نظام اقتصادى » جديد، لم يلبث أن اقترن بأسلوب جديد فى التفكير . وهكذا شهد القرن التاسع عشر تحولاً خطيراً فى أساليب تفسير العالم، وفهم الآخرين، وتحديد الصلات بيننا وبين الطبيعة، مما أدى إلى ظهور « ايدولوجية بورجوازية » بمعنى الكلمة . وسرعان ما تسلحت طبقة البروليتاريا بنفس السلاح الايديولوجى لمواجهة خطر البورجوازية الناشئة، فكان من ذلك أن أصبحنا نرى اليوم نزاعاً حاداً بين وجهتى نظر اقتصاديتين مختلفتين، وبين نظامين اجتماعيين متباينين، وفى مقابلهما، بين أسلوبين مختلفين من التفكير .

والظاهر أن الفلسفة — فيما يقول مانهايم — قد لعبت دوراً كبيراً فى العمل على توطيد دعائم هذا التصور الكلى للإيديولوجيا . وهنا نجد أنفسنا بإزاء مراحل ثلاث يمثلها على التوالى — من بين الفلاسفة المحدثين — كلٌّ من كانت، وهيغل، وماركس . والمرحلة الأولى فى السبيل إلى ظهور النظرة الكلاسية

للإيديولوجيا إنما هي تلك التي تحققت في ألمانيا ، حينما تفرقت فلسفة الوعي ، فأحلت رويداً رويداً محل وحدة العالم الموضوعية الأنطولوجية التي كانت سائدة في العصور الوسطى المسيحية ، وحدة الأنا الذاتية التي دعت إليها فلسفة التنوير . وقد أسهم كانت — على وجه الخصوص — في العمل على تقويض أركان تلك النزعة التوكيدية الأنطولوجية التي كانت تنظر إلى « العالم » بوصفه موجوداً في استقلال تام عنا ، متصفا بصورة ثابتة نهائية حاسمة . أما المرحلة الثانية في تطور المفهوم الكلي للإيديولوجيا فهي تلك التي حوّل فيها هيجل هذا المفهوم الكلي من حقيقة عالية على الزمان إلى حقيقة تاريخية . وهكذا أكد هيجل (والمدرسة التاريخية) أن وحدة العالم إنما تتحقق خلال عملية تحول تاريخي مستمر . وبعد أن كانت « الذات » في عصر التنوير ، بوصفها حاملة لوحدة الوعي أو الشعور ، تُعدّ بمثابة موجود مجرد عال على الزمان ، مرتفع فوق مستوى المجتمع (وكأنما هي شعور أو وعي في ذاته) ، أصبحت « روح الشعب » : Volkgeist في هذه المرحلة الجديدة تمثل العناصر التاريخية المختلفة للشعور ، وقد تكاملت واتحدت على صورة وحدة كلية ، ألا وهي — على حد تعبير هيجل — « روح العالم » : Weltgeist وهذا التغيير في وجهة النظر قد كان — في جانب منه — ثمرة لما اختلف على الروح الأوروبية من تطورات سياسية واجتماعية : إذ نفذت النظرة السياسية إلى صميم الحياة اليومية ، كما ترقّى الشعور بالقومية خلال حروب نابليون وبعدها . . . الخ . وأخيراً بلغ المفهوم الكلي للإيديولوجيا مرحلته الثالثة حينما ظهر ماركس ، لمحاول أن يستميعض عن فكرة « الشعب » أو « الأمة » بفكرة « الطبقة » ، وقال عن « الطبقة » إنها الدامة التي يتركز عليها الوعي في تطوره التاريخي . — وهكذا أصبح ينظر إلى بناء المجتمع ، مع ما يقابله من أشكال ذهنية ، بوصفه خاضعاً لتغيرات نابعة من صميم العلاقات القائمة بين الطبقات

الاجتماعية . ومن هنا فقد حلت محل فكرة هيجل عن « روح الشعب »
Volksgeist فكرة ماركس عن « وعى الطبقة » ، أو بالأحرى عن
« الأيديولوجية الطبقيّة »^(١) .

وقد كان من نتائج هذا التصور الجديد للوعى أو الشعور أن أصبحنا نعتبر
أن الظواهر البشرية هي من التماسك بحيث إنه لا سبيل إلى فهمها بفصل
عناصرها بعضها عن البعض الآخر ، بل لا بد لفهم أى حدث فى أية مرحلة تاريخية
بالرجوع إلى سياق ذى معنى خاص ، وهذا المعنى — بدوره — لا بد من أن
يحملنا إلى معنى آخر ، وهلمّ جرّاً . وتبعاً لذلك ، فإن تأويل أية حقبة تاريخية
كائنة ما كانت يستلزم افتراض قيام « وحدة عقلية » أو نظام متماسك من
الأفكار فى صميم تلك الحقبة . ومن جهة أخرى ، فقد أصبحنا نسلم بأن النظام
المتسق (أو التماسك) من المعانى (أو الدلالات) يختلف من حقبة تاريخية
إلى أخرى ، لا فى مجموعه (أو كليته) *totalité* فحسب ، بل فى أجزائه
(أو عناصره) أيضاً . ومن هنا فقد أصبح الشغل الشاغل للعلوم التاريخية الحديثة
هو إعادة تأويل هذا التغيير المستمر المتسق الذى يطرأ على المعانى أو الدلالات .
ولئن كان هيجل قد أسهم بقسط كبير فى هذا الجهد الخطير الذى بُذل من أجل
تحقيق الترابط أو التكامل بين عناصر المعنى المختلفة فى صميم الخبرة التاريخية
للمواحدة ، إلا أن هيجل كان يتبع فى هذا البحث طريقة نظرية صرفة ، فى حين
أن علماء الاجتماع اليوم قد تمكنوا من ترجمة تلك الفكرة البنائية إلى لغة البحث
التجريبي ، فأصبحت أداة عملية فعالة فى أيدي القائمين بالدراسات التاريخية
الاجتماعية .

H. Chambre : « Le marxisme en Union Soviétique » (١)
Paris., Editions Seuil, 1955., Introduction, pp. 27—28.

٦٦ — وهكذا نرى أنه على الرغم من الفارق الذى يفصل المفهوم الجزئى للايديولوجيا عن المفهوم الكلى ، فإن ثمة مصدراً تاريخياً واحداً يجمع بينهما . ومن هنا فإن المفهوم الجزئى للايديولوجيا قد أصبح يختلط علينا فى الظاهر بالمفهوم الكلى ، خصوصاً وأننا لم نعد ننظر إلى الخضم على أنه يمثل وضعاً سياسياً أو اجتماعياً معيناً ، وبالتالي فإننا لم نعد نهتم بالتقوية الشعورية أو اللاشعورية ، بل أصبحنا نتشكك فى صميم وعيه ، وتتوجس من البناء الكلى : *Structure totale* لتفكيره ، ومن ثم فإننا لم نعد نتق فى مدى قدرته على التفكير الصحيح . ومعنى هذا أن الشك فى صحة نظريات الخضم قد أصبح أعمق وأبعد مدى ، لأننا لم نعد نستند فى هذا الشك إلى مجرد أساس سيكولوجى أو نفسانى محض ، بل أصبحنا نستند إلى دعامة عقلية أو عرفانية ، لأن لم نقل أو نطولوجية ، ما دامت آراء الخضم هى مجرد « دالة » للموقف الاجتماعى السائد . وهنا نجد أنفسنا بإزاء مرحلة جديدة من مراحل تطور التفكير ، وهى مرحلة قد تكون — فى نظر بعض علماء الاجتماع — بمثابة الخطوة الحاسمة فى ترقى ضروب الفكر . والواقع أن المفهوم الكلى للايديولوجيا يثير مشكلة فكرية هامة ، لعلها أن تكون على أكبر درجة من الخطورة ، ألا وهى مشكلة « الوعى الزائف » *fausse conscience* ، ونعنى به تلك العقلية المنحرفة التى تشوه كل ما يقع بين يديها . ولئن كانت فكرة « الوعى الزائف » أو « الشعور الكاذب » ليست فكرة جديدة كل الجدة ، إلا أننا ندين للماركسية بأقوى تعبير عن هذه الفكرة ، فضلاً عن أن دعاة الماركسية هم أول من خلع على هذا الاصطلاح دلالة اجتماعية عميقة .

وقد شرح إنجلز فى خطاب بعث به إلى مهرنج Mehring بتاريخ ١٤/٧/١٨٩٣ الأصل فى نشأة هذا « الوعى الكاذب » ، فكتب يقول : « إن الايديولوجيا عملية يحققها الفكر الزعمون بشيء من الوعى أو الشعور ، ولكنه وعى كاذب

أو شعور زائف . وآية ذلك أن القَوَى الحركية الحقيقية التي يصدر عنها في فعله تظل مجهولة لديه ، وإلا لما كنا في هذه الحالة بإزاء عملية إيديولوجية . وهكذا يتخيل الفكر قوى محرّكة أخرى تكون بالضرورة زائفة أو ظاهرية . ونظراً لأنه يجد نفسه في هذه الحالة بإزاء عملية ذهنية ، فإنه يستخلص منها مضمون الفكر المحض وصورته ، سواء أكان هذا الفكر هو فكره الخاص ، أم فكر السابقين عليه . ومعنى هذا أن الفكر يقنع بالوثيقة العقلية التي يجدها بين يديه ، دون أن يدقق النظر فيها عن كثب ، أو دون أن يدرسها دراسة أعمق وأبعد مدى بوصفها مستقلة عن الفكر نفسه ^(١) . وخطر الوعي الكاذب إنما يتمثل على وجه التحديد في أنه يجعلنا نُغفلُ أو تناسي تلك الوقائع الاقتصادية التي تحدّد تفكيرنا . وإذا كان ماركس قد أخذ « الإيديولوجيا » على محمل سئ ، فذلك لأنه لم يكن يرى في الأيديولوجيا « سوى تفكير منفصل عن الواقع ، مادام الفكر الإيديولوجي لا يفتن إلى الوقائع الاقتصادية التي تحدّد وجوده . فالإيديولوجيون إنما هم أولئك المفكرون الذين يحميون في ملكوت الفكر المحض ، وإن كان هذا لا يمنع من أن يظل فكرهم مشروطاً بمجموعة من العوامل الاقتصادية . ولهذا فإن مفهوم « الإيديولوجية » الذي تستعين به الماركسية إنما هو المفهوم السكّلي ، مادام التفسير الاقتصادي للأحداث قد أصبح عند الماركسيين بمثابة الحكّ أو المقياس الذي يحتكمون إليه للوقوف على « العنصر الإيديولوجي » المحض في كل تفكير صادر مباشرة عن الحقيقة الواقعة . ومن هنا فإنه ليس بدعاً أن يُعتَبَر مفهوم « الإيديولوجيا » بمثابة جزء لا يتجزأ من صميم البروليتارية الماركسية ، حتى لقد وحد البعض بين مفهوم « الإيديولوجيا » و « التصوّر الماركسي للحركة البروليتارية » .

K. Marx & F. Engels : « Études Philosophiques », (١)
 Paris, Editions Sociales. 1951, p. 139.
 (١٧ - مشكلة الفلسفة)

والفكر البشري — فيما يرى ماركس — إنما هو ظاهرة تاريخية تتوقف تماماً على الواقع الاقتصادي البحت . فلا بدّ من أن يكون وراء كل موقف عقلي مصلحة مادية أمّلت على صاحبه الأخذ به . ولما كانت « المنفعة » في رأى ماركس هي الأصل في قيام « الإيديولوجيات » ، فإننا نرى الماركسيين لا يكفون عن الحديث عن عملية « فضّح » الإيديولوجيات ، أو تفريتها ، أو إزاحة النقاب عنها . ولكن على حين أن الماركسيين يفسّرون الترابط الوثيق القائم بين الواقع الاجتماعي والأفكار العقلية بالرجوع إلى مفهوم « المنفعة » ، نجد أن مانهايم يحاول أن يثبت أن باعث المنفعة ليس هو « معامل الارتباط » الوحيد الذي يجمع بين المجتمع الواحد من جهة ، وبين شتى ما يقوم فيه من مواقف ذهنية أو اتجاهات عقلية من جهة أخرى . حقاً إن بعض المواقف الفكرية قد تكون وليدة بعض المصالح المادية ، كما هو الحال مثلاً حينما تعتنق جماعة معينة من الناس نظرية اقتصادية أو سياسية بعينها ، لأنها تتلاءم مع مصالحها المادية ، أو لأنها تتجاوب مع حاجاتها الاقتصادية ، ولكن ثمة جوانب أخرى من النشاط البشري — كالجمال الفنى — مثلاً — لا يكون اعتناق الفنان فيها لهذا الطراز أو ذاك مجرد صدى مباشر لحاجة مادية أو منفعة اقتصادية ، بل يكون نتيجة لتوافر بعض الشروط التاريخية والاجتماعية الخاصة التي تحدّد اختيار هذا الأسلوب الفنى أو ذاك .

وهنا يقرر مانهايم أنه إذا كان لنا أن نوسّع من نطاق البحث الإيديولوجى ، لكي نجعل منه « سوسيولوجيا معرفة » نربطها بالدراسات العلمية القائمة في مضمار تاريخ الأفكار ، فلا بدّ لنا من تجاوز تلك النظرة التحيزيّة الضيقة التي تقتصر على تأويل الأفكار بالاستناد إلى معيار المنفعة وحده . والواقع أن من أظهر سمات

التاريخ أن أى نظام اقتصادى ينشأ فيه لابد من أن ينبثق فى حضن عالم عقلى خاص ، بحيث إن أولئك الذين يحدّون فى البحث عن نظام اقتصادى بعينه ، لابد من أن يجدوا أنفسهم مضطرين إلى البحث أيضا عن وجهة النظر العقلية التى تتلاءم معه . ومن هنا فإنه حينما تهتم جماعة معينة من الجماعات اهتماماً مباشراً باتخاذ نظام اقتصادى بعينه ، فإنها لابد من أن تجد نفسها بطريقة غير مباشرة مستغرقة فى أشكال معينة من النشاط العقلى ، والفنى ، والفلسفى . . . إلخ ، مما يتناسب مع هذا النظام الاقتصادى المعين . ولهذا يقرر مانهايم أن ثمة مقولة أشمل وأعمّ تعتبر عن ترابط الأفكار بالإطار الاجتماعى ، وتلك هى مقولة « الارتباط » أو « الالتزام » من حيث إن لكل جماعة ارتباطاً غير مباشر ببعض الأشكال الذهنية أو الأساليب الفكرية^(١) .

وهكذا نرى أن علماء الاجتماع يؤكدون وجود ترابط وثيق بين الواقع الاجتماعى من جهة ، وأساليب التفكير أو الاتجاهات العقلية من جهة أخرى . وعلى حين أن الماركسية المتبدّلة لا يفتننها سوى إيجاد رابطة مباشرة بين الإنتاج العقلى ، حتى ولو كان روحياً سامياً أو فلسفياً مجرداً ، وبين المصالح الاقتصادية للطبقة الاجتماعية ، نجد أن أصحاب البحث الاجتماعى لا يستعينون بالتفسير النفعى إلاّ حين يكون فى الإمكان الوقوف على مصالح حقيقية عملت بالفعل على ظهور نظرية بعينها ، لا حين يكون هناك مجرد تعلق أو أو تقيّد بنظرة خاصة إلى العالم . وحجة مانهايم فى هذا الصدد أننا حينما نجعل من مقولة « المنفعة » مبدأ عاماً مطلقاً فإننا نحيل مهمة عالم الاجتماع إلى مجرد عملية اقتصادية يقتصر فيها على إعادة تكوين « الإنسان الاقتصادى » *homo oeconomicus* ، فى حين أن مهمة علم الاجتماع فى حقيقة الأمر هى دراسة الإنسان ككُلّ .

K. Mannheim : «Problem of Social Knowledge», p. 184. (١)

وتبعاً لذلك فإنه ليس من حقنا أن نستند إلى تحليل المصالح وحده ، لكي ننسب هذا الأسلوب الفكرى المعين ، أو ذلك العمل الفنى المحدد ، إلى زُمرة اجتماعية بعينها . وإنما نستطيع أن نبين كيف أن أسلوباً معيناً فى التفكير ، أو اتجاهها ذهنياً بعينه ، قد اندمج فى نسق خاص من المواقف ، وكيف أن هذا النسق بدوره قد ارتبط بنظام اقتصادى معلوم . وفى هذه الحالة قد يكون من حقنا أن نبحث عن الجماعات التى ترتبط مصالحها بقيام هذا النظام الاقتصادى الاجتماعى المعين ، ويكون من مصلحتها استمرار قيام هذا النظام ، لكي نبين كيف أن هذه الجماعات تعتنق فى الوقت نفسه نظرة خاصة إلى العالم تتفق مع طبيعة هذا النظام .

٦٧ — ولو أننا أنعمنا النظر الآن إلى هذه الدراسة الاجتماعية للمعرفة ، لوجدنا أنها تقوم بطريقة غير مباشرة على مفهوم « النسق الكلى » أو « النظام الشامل » للنظرة الكونية : Weltanschauung ، وبالتالى فإنها تستند إلى « علم الاجتماع الحضارى » . وليس فى وسعنا (فيما يقول مانهايم) أن نربط موقفاً فكرياً بعينه بطبقة اجتماعية معينة بطريقة مباشرة ، بل كل ما يمكننا أن نعله هو أن نقتصر على بيان معامل الارتباط القائم بين « أسلوب التفكير » الكامن وراء موقف بعينه ، وبين البواعث العقلية التى تستند إليها زمرة اجتماعية بعينها . والواقع أننا لو عمدنا إلى فحص تاريخ المعرفة والتفكير ، للاحظنا من أن الصراع لا يقتصر على « جماعات » تتنازع فيها بينها ، بل هو يمتد أيضاً إلى « مسلمات عالمية » Postulats mondains تتنافس أيضاً فيما بينها . ومعنى هذا أن الصيرورة التاريخية لا تنكشف لنا فقط عن منافع تتصارع مع منافع أخرى ، بل تكشف لنا أيضاً عن مبادئ كونية تتصارع مع مبادئ كونية أخرى . وهذه المبادئ أو المصادرات المتباينة عن العالم لا يواجه بعضها البعض بطريقة

تسفيه مفككة ، بل إن كل مبدأ منها مرتبط بجماعة خاصة ، وهو إنما يتطور من خلال تفكير تلك الجماعة . ولو أننا وجهنا انتباهنا إلى حقبة تاريخية بعينها ، لوجدنا أنه لا بد من أن تتوافر في هذه الحقبة طبقة اجتماعية بعينها يكون من مصلحتها استمرار بقاء النظام الاقتصادي الاجتماعى السائد ، ومن ثم فإنها تتمسك بأسلوب التفكير الذى يتلاءم مع هذا النظام . ولكن لا بد أيضاً من أن تكون هناك طبقات أخرى يشعر أهلها بأن ملكوتهم الروحى هو هذه المرحلة أو تلك من المراحل القديمة للتطور ، كما أنه قد تكون هناك أيضاً طبقات غير هذه وتلك يشعر أهلها بأن ملكوتهم الروحى لم يوجد بعد ، فيضعون ثقتهم في المستقبل مؤملين ظهور عالم فكرى جديد .

ويعنى مانهايم إلى حد أبعد من ذلك ، فيقرر أنه لا سبيل لنا إلى فهم ما يطرأ على هذه الإيديولوجيات من تحول مستمر ، اللهم إلا إذا عملنا حساباً لتغيرات التركيب الاجتماعى التى تطرأ على ما يقابل تلك الإيديولوجيات من « طبقات فكرية » أو « مستويات عقلية » . ولئن كانت « البروليتاريا » مثلاً تكون طبقة واحدة ، إلا أن هذه الطبقة الاجتماعية ذاتها ، هى منقسمة على نفسها من حيث « المصادرات السكونية » لأفرادها ، بدليل أن البروليتاريا تشايع عدداً غير قليل من الأحزاب السياسية المختلفة . ولكن ليس ثمة طبقة اجتماعية ، فى أية لحظة من لحظات التاريخ ، تستحدث أفكارها فى فراغ مطلق ، وكأنما هى تبتكرها ابتكاراً ، أو تخلقها من العدم . وإنما الملاحظ أن الجماعات المحافظة — مثلها فى ذلك كمثل الجماعات التقدمية — تراث الإيديولوجيات التى كانت قائمة فى الماضى ، وإن كانت الأفكار الموروثة تكتسب دالة جديدة بحسب طبيعة الموقف الجديد الذى تندمج فيه . ومعنى هذا بعبارة أخرى أن تغير دالة الفكرة (أو وظيفتها) لا بد من أن يقترن

يتغير مائل في معناها (أو دلالتها) ، مما يدل على أن التاريخ هو « وسيط مُبدع » يخلق المعاني الجديدة ، لا مجرد وسيلة سلبية تتحقق عبرها تلك المعاني القائمة من ذى قبل . وإذن فإن في وسعنا أن نضيف إلى قائمة مقولاتنا (فيما يقول علماء الاجتماع الحضارى) تلك المقولة الجوهرية الأساسية ، إلا وهي « مقولة تَغْيِير الدالة » : *Changement de fonction* . ولولا هذه المقولة ، لما كان ثمة تاريخ حضارى ، بل لكان كل ما هناك هو مجرد « تاريخ أفكار » . والمقصود بمقولة « تغير الدالة » هو أن من شأن كل فكرة أن تكتسب دلالة جديدة حينما تُطَبَّق على موقف حيوى جديد . فحينما تعتنق فئة اجتماعية ما نظاماً فكرياً لفئة اجتماعية أخرى ، فإن الألفاظ التي يستخدمها أهل الفئة الجديدة ، حتى إذا كانت هى بعينها تلك التي كان يستخدمها أهل الفئة القديمة ، تكتسب دلالات جديدة وتشير إلى معان أخرى مختلفة ، نظراً لأنها قد اندمجت في سياق جديد من الآمال والمطامح والغايات . وتبعاً لذلك فإن « التغير الاجتماعى للدالة » ، إنما يعنى في الوقت نفسه تغير المعنى أو الدلالة . ويضرب مانهايم مثلاً لذلك بالمنهج الجدلى (الديالكتيكي) الذى استعان به كل من هيجل وماركس ، فيقول إن هذا المنهج قد ظهر لأول مرة عند هيجل في إطار مُسَلَّمة كونيةٍ محافظة . ولما اعتنق ماركس هذا المنهج ، ادخل عليه تعديلات جوهرية أساسية ، فجعله أولاً يسير على قدميه بعد أن كان يسير (عند هيجل) على رأسه ؛ بمعنى أنه انتزعه من سياقه التصورى المثالى ، واعد تأويله بالاستناد إلى دعامة من الواقع الاجتماعى ، ثم جعل الحد النهائى لديناميكية التاريخية هو المستقبل لا الحاضر . وليس من شك في أن هذين التعديلين اللذين أدخلهما ماركس على معنى « الديالكتيك » إنما يرتدان إلى تغير فى الدالة فرضته آمال الطبقة البروليتارية التي شاء ماركس أن يتكلم

باسمها . وربما كان في وسعنا إذن أن نفّسر السمات الجديدة للنظام بأن نبين كيف أن حياة الطبقة العاملة تدور حول مشكلات اقتصادية ، وكيف أن توترها الحيوى مُوجّه نحو المستقبل . وفضلاً عن ذلك ، فإنه ليس من العسير أن نكشف عن العوامل الاجتماعية التى عملت أيضاً على ظهور مذهب هيجل ، بدليل أن المرحلة النهائية في ديناميكية التاريخ عند هيجل هى الحاضر ، والحاضر إنما يعكس نجاحاً حققته طبقة اجتماعية استطاعت أن تبلغ هدفها ، فلم يكن في وسعها سوى أن تعمل بكل طاقتها على استبقاء ما سبق لها تحقيقه .

وهذا قد يحق لنا أن نتساءل : ماذا عسى أن تكون صلة الأيديولوجيا بهذه الدراسة الاجتماعية للمعرفة ؟ وردّ مانهايم على هذا التساؤل أن ظهور الصياغة العامة لمفهوم الأيديولوجيا الكلى ، هو الذى أدى إلى قيام « سوسيولوجيا المعرفة » ، بوصفها منهجاً علمياً في دراسة التاريخ الاجتماعى والفكرى بصفة عامة . ومحور الارتكاز في هذه الدراسة هو أن تفكير أية جماعة ما من الجماعات إنما يصدر أولاً وبالذات عن ظروف معيشتها . ومن هنا فإن مهمة التاريخ الاجتماعى للفكر هى تحليل سائر العوامل المتضمنة في الموقف الاجتماعى القائم بالفعل ، من أجل الوقوف على مدى تأثيرها على الفكر . وإن عالم الاجتماع ليؤكد بكل قوة أن الفكر ترمومتر حسّاس يسجّل كل ما يطرأ على الجماعة من تغيرات حضارية أو اجتماعية . ومعنى هذا أن تغّير معانى الكلمات أو تنوع دلالات المفاهيم ، إنما يعكس لنا ما يقوم بين أساليب الحياة المتعارضة من استقطاب واقعى . ولهذا يقرر الباحثون الاجتماعيون أن الكلمة والمعنى المرتبط بها ، إنما هما في حقيقة الأمر واقعة اجتماعية أو ظاهرة جمّعية . وأى تغّير طفيف يطرأ على النّسق العام للتفكير ، لا بد من أن تتردّد أصداؤه في الكلمة المفردة ، وبالتالي في ظلال للمعنى التى تحملها تلك الكلمة . وليس من شأن اللفظ أن يربطنا بالتاريخ

للماضى فى جملة غسب ، بل هو يعكس أيضاً فى الوقت نفسه صميم الحاضر ككل (la totalité du présent) .

وقصارى القول أن « سولوجيا المعرفة » إنما تهدف إلى الكشف عن تلك العلاقة الوظيفية التى تجمع بين أى موقف فكرى من جهة ، وبين تلك الحقيقة الاجتماعية التى تكمن من ورائه من جهة أخرى . وليست المعانى (أو الدلالات) التى يتكوّن منها عالمنا سوى ذلك البناء التاريخى الذى لا يكف عن الترقى ، والذى يتطور فى كنفه الوجود البشرى نفسه . فلا موضع إذن للقول بوجود معان مطلقة أو دلالات ثابتة ، بل لابدّ من التسليم بأن الفكر البشرى ينشأ ويتطور ويعمل دائماً أبداً فى نطاق بيئة اجتماعية محدّدة . وليس يكفى أن نقول إن الفكر البشرى لا يعمل فى الخلاء ، بل لابدّ لنا أيضاً من أن نقرر — فيما يقول علماء الاجتماع — أن كل معرفة تاريخية هى بالضرورة « معرفة علاقية » une connaissance relationnelle ، بمعنى أنه لا سبيل إلى صياغتها إلّا من وجهة نظر الملاحظ . وهكذا يتخاض أصحاب هذه النزعة إلى القول بأن كل وجهة نظر إنما هى خاصة بموقف اجتماعى معيّن ، ممّا يستتبعه بالضرورة القول بنزعة علاقية relationnisme (لا مجرد نزعة نسبية) .

٦٨ — تلك هى « سوسولوجيا المعرفة » على نحو ما وضعها كارل مانهايم ، مستنداً فى ذلك إلى اكتشاف ماركس لأولوية العامل الاجتماعى ، وضرورة التحليل الايدولوجى لمذاهب الفكر . — وعلى الرغم من الفروق الهامة التى تفصل هذه الدراسة الاجتماعية للفكر ، عن التفسير المادى الماركسى لشتى الظواهر البشرية ، إلّا أننا نلاحظ لدى كل منهما ميلاً إلى اعتبار « التاريخ » بمثابة « المطلق » ، وكأن فى وسع « المقولات التاريخية » أن تحلّ نهائياً محلّ سائر « المقولات المنطقية » . ونحن لا ننكر بطبيعة الحال أن المؤثرات الاجتماعية

تعمل عملها في التأثير على مذاهب الفلاسفة ، ولكننا نلاحظ أن كارل مانهايم قد خلط بين المشكلات الاجتماعية والمشكلات الإستمولوجية ، دون أن يدري أن الأفكار قد تكون نسبية من وجهة النظر الاجتماعية ، دون أن تكون كذلك من وجهة النظر الإستمولوجية . ومهما حاول مانهايم أن يفرق بين كل من « النزعة العلاقية » و « النزعة النسبية » ، فإن دراسته الاجتماعية للفكر والمعرفة ، ستظل ذات صبغة نسبية أصليّة ، دون أن تكون ورائها أدنى محاولة جدية من أجل تبرير تلك النسبية ، أو تفسير المصادرة الأيديولوجية التي تستند إليها^(١) .

وفضلا عن ذلك ، فإننا لو سلمنا مع كارل مانهايم بأن الفكر البشري مشروط بعوامل موضوعية كالحقيقة الاجتماعية ، فإننا سنجد أنفسنا مضطرين إلى أن نطبق هذا المبدأ نفسه على النظرية التي نحن بصدددها ، وعندئذ لن تكون هذه النظرية سوى ثمرة لبعض القوى الاجتماعية الموضوعية التي عملت على ظهورها ، وبالتالي فإنها ستفقد كل قيمة نظرية عرفانية . والواقع أن مانهايم يسلم بادیء ذي بدء بأن لكل تفكير طابعا أيديولوجيّا ، لكي ينتهي في خاتمة المطاف إلى القول بأن كل تفكير لابد بالضرورة من أن يكون كاذبا . ونحن نسلم معه بأنه قد يكون من المفيد لنا أن نبحث عن أصل الفكرة الواحدة ، لكي نضعها في سياقها الحقيقي ، فيكون في وسعنا عن هذا الطريق أن نحسن فهمها ، ولكننا نظن أنه قد يكون من الخطأ أن نستنتج من ذلك أنه لا يمكن أن تتمتع أية فكرة ما من الأفكار إلا بصحة نسبية ، أو أنه ليس ثمة حقيقة على الإطلاق . ولو صح ما يقوله مانهايم ، لكانت « النزعة

R.K. Merton: «Sociology To-day», Basic Books, N-Y., (١)
1961. p. 218.

العلاقية « ضرباً من التناقض في الحدود ، لأنها تنسب لنفسها طابعاً مطلقاً ، وبالتالي فإنها تهدم نفسها بنفسها . وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول إن «سوسيولوجيا المعرفة» مضطرة على الأقل إلى التسليم بصحة دعواها الخاصة ، وإلا لما كانت لها أدنى دلالة ، فهي ملزمة إذن بأن تعترف بإمكان قيام « حقيقة » . ولكن ليس هناك تناقض في أن تزعم نظرية ما أن كل فكر محدد محدداً اجتماعياً ، وأنه لاحق له بالتالي في أن يتذرع بالصحة أو أن يدعى لنفسه الصدق ، ثم تنجى بعد ذلك هذه النظرية نفسها فتزعم أنها هي وحدها الصحيحة ؟ ألا تدخل هذه النظرية في نطاق المعرفة التاريخية العلاقية ، وبالتالي أفلا يصح لنا أن نقول إنها هي الأخرى جزء عن تلك المعرفة المحددة بعوامل اجتماعية ؟ وعلى ذلك ، أفلا ينبغي لنا أن نقرر أن كل نظرية تزعم أن التفكير محدد محدداً كلياً بعوامل اجتماعية إنما هي نظرية متهافنة تنقض نفسها بنفسها ؟

الواقع أننا نحيا في عصر اضطراب فكري ، وهذا الاضطراب الفكري هو المسئول عن توقف الكثيرين عند صراع الأيديولوجيات المختلفة ، دون الاهتمام بالعمل على مناقشة الأفكار ، أو تعقل المذاهب ، أو مواجهة الفلسفات بعضها ببعض الآخر . وللمشاهد في عصرنا الحاضر أن الكثيرين لم يعودوا يُعَتِّقُونَ أنفسهم بمناقشة آراء خصومهم ، بل أصبحوا يَقْنَعُونَ بالظن فيها والانتقاص من قيمتها ، بدعوى أنها مجرد «أيديولوجيا» . ولكن مثل هذه النسبية إنما هي ظاهرة فكرية ذات دلالة خطيرة ، لأنها تظهرنا على أن « صراع الأيديولوجيات » قد أصبح في عصرنا الحالى هو « الحقيقة الوحيدة » . وحين نحاول « سوسيولوجيا المعرفة » أن تبين لنا أن كل مذهب فلسفي أو إبستمولوجي ليس إلا مجرد لحظة من لحظات تاريخ الفكر ، فإنها إنما تحذف بالصيرورة التاريخية إلى هاوية « المحال » ، أو « اللامعقول » . وآية

ذلك أن البناء التاريخي Structure historique لا يكفي وحده لفهم العالم ، بل لا بد من التسليم بوجود شيء فيما وراء التاريخ ، لكي يكون للتاريخ نفسه معنى أو دلالة . ولعل هذا هو ما عناه أحد المفكرين المعاصرين حينما كتب يقول : « إنه بدون الأبدية الإلهية ، لا يمكن أن يكون ثمة تاريخ إنساني . » . فلو كان الإنسان موجوداً تاريخياً محضاً ، لما كان ثمة تاريخ بالنسبة إليه . ولو لم يكن في وسع الإنسانية أن تتجاوز الصيرورة التاريخية ، بوجهه من الوجوه ، لفقد التاريخ نفسه كل معناه^(١) .

إن الماركسيين يريدون أن يجعلوا من « التاريخ » الحكم الأوحد للإنسان ، حتى لقد قال البعض إن الماركسية لا تجعل من « التاريخ » علماً ، بقدر ما تجعل من كل « علم » مجرد « تاريخ » ؛ ولكن الإنسان موجود مزدوج يجمع بين الزمان والأبدية ، فليس في وسعه أن يقنع بأية فلسفة تجعل من « التاريخ » الحقيقة النهائية أو « المطلق » نفسه . وهذا الاستقطاب القائم بين « الزمان » و « الأبدية » إنما يدلنا على أن « الأبدى » l'éternel هو من « التاريخي » l'historique بمثابة معناه الخفي . فليست « الأبدية » نوعاً من « الفرار » أو الهروب من الزمان ، بل هي الوسيلة الوحيدة التي نحكم بها على الزمان ، لأنها هي التي تمخض على الزمان كل ما له من معنى ودلالة .

وأخيراً نلاحظ أن أصحاب النزعة الاجتماعية في المعرفة يريدون أن يستبدلوا بالفلسفة ضرباً من الدراسة الإيديولوجية للذاهب ، وكأن ليس ثمة منطق موضوعي أو حقيقة موضوعية . ولكن مهمة الفلسفة — على وجه التحديد —

Cf. Jean La Croix : “Marxisme, Existentialisme, Personnalisme”, Paris. P. U. F., 1951. pp. 74. (١)

لأنما تنحصر في مقاومة شتى المصالح المادية ، والأهواء الفعنية ، والأحكام الذاتية ، من أجل العمل على إحلال « المقولات المنطقية » محل « المقولات التاريخية » أو « النظرات الاجتماعية » . والفيلسوف إنما هو (بمعنى ما من المعاني) ذلك الديالكتيكي العنيد الذي يرفض الانحدار إلى هاوية النسبية ، ويأبى مسaire منطق العاطفة في الأخذ بضرب من البرجماتية السهلة ، ويؤمن دائماً بإمكان الوصول إلى « الحقيقة » فيما وراء مصالح الطبقات الاجتماعية ، ويتشبث بالمنطق الموضوعي على الرغم من شتى المحاولات الإيديولوجية . وهذا ما سيكون علينا أن نوضحه بصورة أظهر في دراستنا التالية للصلة بين الفلسفة وتاريخ الفلسفة .

الفصل الحادى عشر

بين الفلسفة وتاريخ الفلسفة

٦٩ — لو أننا نظرنا إلى تاريخ أى علم ، لوجدنا أنه لا يكون فى العادة جزءاً لا يتجزأ من هذا العلم . فإن تاريخ علم الطبيعة (مثلاً) لا يدخل فى صميم الفزياء الحديثة ، كما أن تاريخ علم الحيل لا يدخل فى صميم علم الميكانيكا على نحو ما ندرسه اليوم . وأما إذا نظرنا إلى الفلسفة (فيما يقول ألفريد فوييه) فإننا نجد أنها العلم الوحيد الذى ينطوى فى ذاته على تاريخه الخاص . وربما كان السر فى ذلك راجعاً إلى أن لكل من الفلسفة وتاريخ الفلسفة موضوعاً واحداً مشتركاً ، ألا وهو العقل حين ينعكس على ذاته لى يتأمل طبيعته ومبدأه وغايته . فإكتشفه كل فرد منا فى صميم ذاته عن طريق التفكير الفلسفى ، هذا بعينه ما يحاول تاريخ الفلسفة أن يظهرنا عليه بصورة مكبرة ، فنراه يعرضه أمامنا من خلال جبهة من المذاهب الفلسفية التى توالى على مر العصور . وبهذا المعنى قد يصح لنا أن نقول إن التاريخ هو الجانب الآخر المقابل للنظر العقلى : فهو حيناً يؤيده ويكمله ، وحيناً آخر يصحّحه ويعدّل منه ^(١) .

ولكن إذا صح ما قاله بعض الباحثين من أن « إغفال ماضى التفكير ميسور فى العلم ، مستحيل فى الفلسفة ، لأن تاريخ العلم يختلف عن العلم نفسه ، فليس هذا هو الحال فى تاريخ الفلسفة ، فإن تاريخ الفلسفة فلسفة » ، فهل لنا أن نستنتج من ذلك أن موضوع الفلسفة هو استعراض طائفة من الحلول

(١) A. Fouillée " Histoire de la Philosophie " Paris, Delagave, 13 éd. p. II & III.

لبعض « المشكلات الفلسفية الخالدة » ؟ هل نقول مع المفكر الفرنسي ليون روبان L. Robin « إن المشكلات التي أثارها القداى من الفلاسفة لم تزل بعد باقية وستظل باقية دواماً ، لم تتغير موضوعاتها ، وإن طعمها البحث المتصل بعناصر جديدة ؟ » ^(١) هنا يقرر البعض أننا لو ألقينا نظره فاحصة على المشكلات التي أثارها الفلاسفة فى كل زمان ومكان ، لما وجدنا صعوبة فى أن نتحقق من أن لكل فيلسوف مشاكله الخاصة التى لاتكاد تنفصل عن موقفه التاريخى .

فليس بصحيح فى رأى هؤلاء ما يظنه الكثيرون أحياناً من أن المشكلات التى حاول حلها كل من أفلاطون وأرسطو والرواقيين والأبيقوريين والمدرسين والديكارتيين وأهل مدرسة أوكسفورد ، هى بعينها المشكلات التى لزال يدرسها المعاصرون من الوجوديين والماركسيين والوضعيين المناطقة وغيرهم . . . ؛ وإنما الصحيح أن تاريخ الفلسفة هو فى صميمه تاريخ لمشكلات تتطور باستمرار ، وتتغير معها حلولها دائماً أبداً ^(٢) . ويمضى أصحاب هذه الدعوى فى تأكيد الطابع التاريخى للفلسفة فيقولون إننا لانسكربطبيعة الحال أن ثمة استمراراً فى تاريخ الفكر البشرى ، ولكننا نرى من الواجب علينا أن نؤكد الطابع التاريخى للمشكلات الفلسفية . وهم يضربون لذلك مثلاً بنظرية المعرفة فيقولون إن الباحث فى تاريخ الفلسفة قد يتوهم أن ما كانت تعنيه « مشكلة المعرفة » فى نظر أفلاطون هو بعينه ما كانت تعنيه بالنسبة إلى الكنتيين الجدد ، ولكن الحقيقة أنه شتان بين موضع « الإشكال » فى مبحث المعرفة عند أفلاطون وموضع الإشكال فى هذا المبحث عينه عند كآزت أو عند الكنتيين الجدد ، فضلاً عن أنه لمن المؤكد

(١) الدكتور توفيق الطويل : مدخل لدراسة تاريخ الفلسفة « جامعة الإسكندرية ١٩٦٠ ،

ص ٢٧ — ٢٨ .

John Lewis : “ Introduction to Philosophy ” Watts, (٢)
London, 1954 p. 9.

أن الحاجة التي دفعت كلا منهما إلى إثارة مشكلة المعرفة مختلفة كل الاختلاف لدى الواحد منهما عنها لدى الآخر . هذا إلى أننا لو تتبعنا تاريخ المذاهب الفلسفية (فيما يرى أنصار النزعة التاريخية) لألفينا أن ثمة مشكلات فلسفية تزول بزوال بعض الظروف التاريخية التي أحاطت بنشأتها ، كما أن ثمة مشكلات أخرى تظهر للمرة الأولى في تاريخ الفكر البشري لارتباطها ببعض الأوضاع الاجتماعية الخاصة التي استجدت على البشر في تطورهم التاريخي . وليس معنى انقراض بعض المشاكل أنها قد لقيت حلها للنهائي ، وإنما معناه أنها قد قعدت طابع « الإشكال » الذي كانت تنطوي عليه ، فلم يعد الإنسان في حاجة إلى أن يعرف ما الذي ينبغي عليه أن يعتقد بخصوصها ، حتى يستطيع أن يحيا في موقفه التاريخي الخاص . ولعل من هذا القبيل مثلاً ما حدث لمشكلة « الحكيم » sage بعد العهد الهلنستي ، وما حدث لمشكلة « الكليات » بعد المصور الوسطى ، وما حدث لمشكلة « اتصال الجواهر » بعد القرن الثامن عشر . وأما للمشكلات الجديدة التي تولدت على أعقاب بعض الأحداث التاريخية المحددة ، فلعل من أهمها مشكلة الخلق ، ومشكلة وجود العالم الخارجي ، ومشكلة القيم . . . إلخ . وليس من مصلحتنا — فيما يقول دعاة المذهب التاريخي — أن نفصل الفلسفة عن التاريخ ، بحجة أن بعض المشكلات التي تثيرها الفلسفات المعاصرة اليوم هي في جانب منها نفس المشكلات التي أثارها بعض الفلسفات القديمة (فشكلة الموضوعات المتعلقة عند أصحاب النزعة الفنونولوجية مثلاً هي بعينها مشكلة الكليات عند رجال العصور الوسطى) ، وإنما يحسن بنا أن نميز بين المشكلات المتشابهة في العصور المختلفة ، حتى نستطيع أن نقف على المعنى الحقيقي أو الدلالة الصحيحة لكل مشكلة فلسفية عند أهلها^(١) .

Julian Marias : «Reason and Life», English Translation (١)

Hollis, 1956, p. 6.

بيد أننا لو مضينا مع أصحاب المذهب التاريخي حتى نهاية الشوط ، لكان علينا أن نلغى الفلسفة لحساب التاريخ ، أو أن نقول مع هيجل إن كل مذهب فلسفي ليس إلا تعبيراً عن مرحلة خاصة أو لحظة معينة في عملية التطور التاريخي للفكرة المطلقة أو العقل الكلي . ونحن نعرف كيف أن الروح عند هيجل هي التاريخ نفسه ، وكيف أن التاريخ هو الفكرة المطلقة وهي تعرض نفسها على مر الزمان . فليس بدعا أن نرى هيجل يوحد بين الفاسفة وتاريخ الفلسفة بدعوى أن الفاسفة هي إدراك الروح لذاتها في تطورها . ولم يقتصر هيجل على القول بأنه لا سبيل إلى دحض أى مذهب فلسفي ، مادام كل مذهب يمثل مرحلة تاريخية هامة في التماكب الزمني للتطور الاجتماعي ، بل هو قد ذهب أيضاً إلى القول بأن الفاسفة المعاصرة هي بالضرورة أكل الفاسفات وأوسعها وأصدقها ، مادامت هي ثمرة لشقى الفاسفات التي تقدمت عليها ، ومادامت تحوى بالتالى شتى المبادئ التي تضمنتها تلك الفاسفات . وهكذا قصر هيجل كلَّ شيء على إسقاط الفاسفات فوق شاشة التاريخ ، باعتبارها مجرد لحظات تاريخية ضرورية قد اقتضاها المسار الديالكتيكي للعقل الكلي في تطوره ، فأغفل بذلك البُعدَ الرأسي للإنسان ، وضرب صفحاً من كل ما يرتد إلى الوعي الحر للأفراد .^(١) وليس من شك في أننا حينما نجعل من الفيلسوف مجرد ناطق باسم الزمان ، فإننا نلغى شخصيته لحساب قوة موهومة ننسب إليها عملية الإخراج التاريخي . أما هذه القوة الموهومة فهي ذلك العقل الكلي الذي شاء له هيجل أن يستعرض نفسه عبر التاريخ ، مما حدا به إلى القول بأن « . . تاريخ الفاسفة في مجلته ليس متحفاً لسقطات

F. Alquié : « La Nostalgie de l'Être », Paris, P. U. F. (١)
1950 pp. 2-4,

وارج أيضاً إلى كتابنا : « هيجل أو المثالية المطلقة » مكتبة مصر ، الجزء الأول ، ١٩٧١ ، ص ١٨ - ٢٢

العقل البشرى ومظاهر انحرافه ، بل هو أشبه ما يكون بياثيون تسكنه جبهة من الآلهة^(١) .

٧. - والمشكلة الآن هي في أن نعرف على وجه التحديد هل ينطوي تاريخ الفلسفة على « وحدة » حقيقية ، أم أن هذه الوحدة المزعومة ليست سوى فكرة نفترضها دون أن يكون لها أى سند من الواقع . وهنا نجد فيلسوفا مثل كارل إسبرز يقرر - على العكس مما زعم هيجل - أنه ليس في تاريخ الفلسفة « وَحْدَةٌ » كبرى ، بل هناك مجرد « وحدات » جزئية . وهو يبرر هذا الرأي بقوله إن ثمة مشكلات فلسفية محدودة (كمشكلة العلاقة بين النفس والبدن مثلا) قد استطاعت أن تمتد عبر الزمان ، ولكننا لا نستطيع أن نجزم بأن ثمة بناء عقليا متماسكا يتكون من مجموع المقطعات التاريخية التي يمدنا بها تاريخ الفلسفة . حقا إننا نستطيع أن نقيم ضربا من الاستمرار أو الاتصال بين بعض المذاهب الفلسفية المتعاقبة ، فنكوّن عن الفلسفة الألمانية (مثلا) صورة تخطيطية إجمالية تبدو فيها الفلسفة الهيجلية بمثابة الحلقة الأخيرة في سلسلة التطور الفلسفي العام ، ولكن من المؤكد أن هذه النظرة الكلية الشاملة سوف تبقى مناقضة للواقع ، لأننا سنكون عندئذ قد أغفلنا كل ما كانت تنطوى عليه الفلسفات السابقة من عناصر غريبة تتنافر تنافرا تاما مع الروح الهيجلية . والحق أن هيجل قد نظر إلى كل تلك العناصر الأصيلة باعتبارها تافهة ضئيلة الشأن ، فاستبعد من تفكير الآخرين ما كان في رأيهم أساسيا جوهريا . ولا شك أن الباحث حين يحاول تأويل تاريخ الفلسفة على أنه تعاقب متماسك ذو دلالة ، لمجموعة من المواقف العقلية المترابطة ، فإنه قد يضع عندئذ بناء وهميا لا يتطابق مع الوقائع التاريخية . ولهذا يقرر إسبرز أنه أيا ما كان الإطار

Hegel : « Encyclopedia of the philosophical Sciences », (١)
Vol I., Section 86, note 2.
(١٨ - مشكلة الفلسفة)

الذى نسمين به من أجل تحديد « وحدة » الفلسفة عبر التاريخ ، فإن عبقرية الفلاسفة الشخصية لا بد من أن تجيء فتحطمه . حقا إن كل فيلسوف من الفلاسفة لا بد من أن يستند إلى مجموعة من الروابط المحددة التي يستطيع الباحث التاريخي أن يتتبعها ويستقصيها ، ولكن كلا منهم يتصف مع ذلك بشيء لا مثيل له هو سر عظمته ، وهو الذى يخلق منه « معجزة » يستفلق فهمها ، فلا يكون في وسع المؤرخ العادى الذى يتعقب تطوره الفكرى أن يحدد موضعه بالدقة في صميم التاريخ العام^(١) .

بل إن الفيلسوف الفرنسى ليون برنشفيك ليذهب إلى حد أبعد مما ذهب إليه إسبرز ، فيقرر أن تاريخ الفلسفة لا يسير جنبا إلى جنب مع التاريخ الزمنى ، بل هو يميل في كثير من الأحيان إلى قلب الأوضاع الزمنية رأسا على عقب . وآية ذلك أن فلسفة أرسطو (فيما يقول هذا الباحث) دون فلسفة أفلاطون بكثير ، وإن كانت متأخرة عنها زمنيا ، كما أن تفكير وليم جيمس يعد أدنى بكثير من تفكير بسكال ، وإن كان الفيلسوف الأمريكى قد جاء بعد زميله الفرنسى بعدة قرون فليس من علاقة ضرورية أو رابطة مباشرة — فيما يزعم برنشفيك — بين العصر الذى يحيا فيه الفيلسوف ومستوى ترقيه العقلى أو حالة تطوره الذهنى . وتبعاً لذلك فإن من واجبنا حينما نكتب سيرة أى فيلسوف من الفلاسفة ألا نجهد أنفسنا في ربط الفيلسوف بعصره ، فإن من الجائز جداً أن يكون مثله من عصره كمثل الشخص الأجنبى من بلد غريب ، وعندئذ تجيء المظاهر الزمنية فتعمينا عن رؤية الحقيقة ، ألا وهى أنه لا موضع لهذا الفيلسوف بين بنى عصره^(٢) . . .

Karl Jaspers : « Introduction à la philosophie », Plon, (١) 1951, p. 193.

L. Brunschwig : « De la vraie et de la fausse conversion », article dans la « Revue de Métaphysique et de Morale », 1931 p. 34.

ولكننا لو أخذنا بهذه النظرة التي دعا إليها برنشتيك ، لكان معنى ذلك أن الفلسفة لا تحيا في دنيا الناس ، بل تعيش في أضيائير المكاتب مستغرقة في سكينه الموتى ، ناعمة بسلام التواييت !

والواقع أننا حينما نتحدث عن « تاريخ الفلسفة » فإن من واجبنا ألا ننسى دائماً أن هذا التاريخ لا بد من أن يجرى مختلفاً عن تاريخ العلم لسببين جوهريين : أما السبب الأول فهو أن مدار البحث في العلوم يكاد يكون محدوداً نسبياً ، إذ ليس ثمة صعوبات غير عادية تعترض سبيلنا هنا في تتبعنا للترقى التدريجي للنظريات والفروض العلمية ، فضلاً عن أن بناء العلم مركّز على بعض القواعد الأساسية الواضحة ، في حين أن قضايا الفلسفة عديدة متنوعة ، كما أن موضوعها ليس واحداً في كل العصور ، فضلاً عن أن كل مفكر قلماً يبنى على الأساس الذي خلفه له سابقوه ، بل كثيراً ما يشرع في حل قضيته من جديد ، وكأن لم تسكن من قبله فاسفة ، أو كأن لم يضع أحد من قبله أى أساس للتفكير الفلسفى . وأما السبب الثانى فهو أن ترقى الأفكار أو تأسيس المذاهب إنما يتحقق على يد مفكرين ذوى شخصية ؛ وهؤلاء وإن كانوا مرتبطين في أفكارهم بأفكار من تقدم عليهم ، إلا أنهم يضيفون بالضرورة عناصر جديدة مطبوعة بطابع شخصياتهم ، فتجىء مذاهبهم صدى لأخلاقهم وتجاربهم وأمزجتهم ونشأتهم وتربيتهم . . . إلخ . ولا شك أن الفيلسوف حتى حينما يصوغ فلسفته على شكل قضايا رياضية مجردة ، فإن فكرته العامة عن العالم لا بد من أن تعكس لنا شخصيته ، بحيث إننا حينما نبحث في مذهبه عن « الفيلسوف » ، فإننا سرعان ما نلتقي بالـ « إنسان » .

ولئن كان الفلاسفة كثيراً ما ينظرون إلى مذاهبهم من وجهة نظر « لا تاريخية » محضة ، وكأن الواحد منهم مجرد ترجمان للحقيقة ، أو لسان حال

ينطق باسم الحق ، إلا أن « الحقيقة » في مجال الفلسفة لا يمكن أن يكون مثلاً كمثل « الحقيقة » في مجال العلم حيث تنفصل القوانين العلمية عن أصحابها لكي تندرج في سجل الحقائق الشخصية . والواقع أن النظرية العلمية ملك للجميع (لا لصاحبها وحده) ، بحيث إننا حينما نتحدث عن « مبدأ إقليدس » أو « قاعدة أرشميدس » ، فإننا هنا إنما نتحدث عن أسماء لا عن شخصيات . وأما في مجال الفلسفة ، فإن من المؤكد أننا لن نستطيع أن نفصل فلسفة لينتس عن شخصية صاحبها ، لأن هذه الفلسفة لا تصدق على وجه التحديد إلا بالنسبة إلى لينتس أولاً وبالذات . وتبعاً لذلك فإننا قد نستطيع أن نتصورَ رياضة أو طبيعة بلا أسماء ، ولكننا لن نستطيع أن نتصور فلسفة بدون أسماء . وعلى الرغم من كل تلك المحاولات التي طالما بذلها الفلاسفة في سبيل جعل فاسقتهم علماً صارماً محكماً ، ابتداء من عهد ديكارت واسبينوزا ، حتى كانت ثم هوسرل ودعاة الوضعية المنطقية من بعد ، فإن من المؤكد أن الفلسفة لم تصبح علماً بعد ، فضلاً عن أن فلسفة ما لم تنجح حتى اليوم في أن تظهر بإجماع الآراء . ولسنا ننكر بطبيعة الحال أن دارس الرياضة أو الطبيعة قد يفيد الكثير من دراسته لتاريخ هذين العلمين ، ولكننا نريد أن نقول إن مثل هذه الدراسة ليست بمثابة جزء ضروري لا غنى عنه لكل باحث في الطبيعة أو الرياضة . وأما في مجال الفلسفة ، فإنه قد يكون من المستحيل على الباحث أن يستغنى عن « تاريخ الفلسفة »^(١) .

٧١ - ولكن هل يكون معنى هذا أن تاريخ الفلاسفة إنما هو في صميمه تاريخ الفلاسفة؟ ألا يستطيع المؤرخ أن يُجرّد أقوال الفلاسفة من شخصياتهم

Cf. G. Gusdorf «Traité de Métaphysique». Colin, 1956, (1)
p. 11.

وظروفهم التاريخية ، لكي يقتصر على تحليل مذاهبهم ونقد فلسفاتهم بالأدلة العقلية المحضة ، والأسانيد المنطقية الخالصة ؟ وإذا أصبح هذا ، فهل يمكن تصور تاريخ الفلسفة على أنه « صيرورة لاشخصية » *devenir impersonnel* تنفصل فيها الأفكار عن الأفراد الذين صاغوها ؟ أليس من سبيل أمامنا للوقوف على « الإنسان الفيلسوف » مجرداً من لباسه التاريخي ، عارياً عراه « الروح المحض » *l'esprit pur* ؟ هنا يتصدى نيتشه للرد على تساؤلنا فيقول :

« إن أية فلسفة عظيمة عرّفتها التاريخ حتى اليوم لم تكن سوى مجرد اعترافات أدلى بها صاحبها ، أو لعلها نوع من المذكرات التي سجلها الفيلسوف بطريقة لا إرادية غير محسوسة . » ويضرب لنا نيتشه مثلاً يؤيد به رأيه فيقول إن كل تلك الشعوذة الرياضية التي استعان بها اسبينوزا من أجل تغطية مزاجه الفلسفي وإخفاء محبته لحكمته الشخصية ، إن هي في الحقيقة إلا دِرْعٌ واق أراد به قياسونها أن يبقى منذ البداية ما قد يوجهه إليه الخصوم من انتقادات . فليس ذلك القناع الذي غطى به مذهبه سوى ستار صفيق يخفى وراءه حياة مريض متوحد كان يخشى دائماً أن يهاجمه الآخرون ^(١) ! وليس من شك عندنا في أن نيتشه على حق حينما يلفت أنظارنا إلى ضرورة الربط بين مذهب الفيلسوف وحياته الخاصة ، فقد دلتنا التجارب في كثير من الأحيان على أن العمل الفلسفي (مثله في ذلك كمثل الإنتاج الروائي أو الشعري) قد يكون مجرد دفاع شخصي يقوم به الفيلسوف من أجل إخفاء شخصيته أو التعمير عنها . . الخ . ولكن هذا لا يمنعنا من النص على خطورة تلك المحاولات التي يقوم بها البعض من أجل

F. Nietzsche : « Par delà le Bien et le Mal » . Albert. (١)
Mercure de France, § 5 & 6.

تأويل المذاهب الفلسفية بالكشف عن نوايا أصحابها الحقيقية ، ومعارضتها بأقوالهم الظاهرية ومعانيهم المباشرة . فليس أمعن في الخطأ من أن نحيل تاريخ الفلسفة إلى مجرد رواية بوليسية ، وكأن كل فيلسوف يخفي وراءه سرّاً ليس على مؤرخ الفلسفة سوى أن يفضحه ! والواقع أننا هنا يلزنا خطر جسيم يشبه إلى حد ما بعض المخاطر التي ينطوي عليها كل تحليل نفسي : فإن الباحث قلما يأخذ بما يقوله الفيلسوف ، بل هو يضع كل ما يكتبه الفيلسوف موضع الشك ، لكي يعضى في افتراضاته متنقلاً من المضمون الظاهري إلى المضمون الخفي ، دون أن تكون هناك ضمانات كافية تبرر مثل هذا الانتقال . وهكذا ينتهى الأمر بالمؤرخ إلى إحلال عقيدته الشخصية أو رأيه الخاص محل المذهب الفلسفى الذى يدرسه ، فلا يكون صاحبه سوى مجرد شاهد يلتجئ إليه بين الحين والآخر للتدليل على صحة تفسيره ، دون أن يكون فى وسع المفكر المسكين أن يدافع عن نفسه ، مادام هو قد أصبح فى ذمة التاريخ ، أو مادامنا نفترض بالأحرى أنه لا يعرف منذ البداية ماذا يريد أن يقول !

أما أصحاب النزعة الماركسية فإنهم يتزعنون شتى للمذاهب الفلسفية من أيدي أصحابها ، لكي يجعلوا منها مجرد مظاهر تاريخية تعبر عن الطبقات الاجتماعية التي كانوا يتكلمون باسمها . وتبعاً لذلك فإنهم قلما يعنون بنقد المذاهب الفلسفية « من الداخل » ، أعنى بوصفها آراء مقبولة تقبل المناقشة ، بل هم يقتصرون فى الغالب على رفضها « من الخارج » ، بدعوى أنها مجرد انعكاسات إيديولوجية لبعض المواقف المادية والأوضاع الطبقيّة . وهكذا نرى الماركسيين يقدمون لنا كانت بصورة « الفيلسوف البورجوازي النموذجي . . . الذى تركّز فى مذهبه كل المتناقضات المتفشية فى حياة صغار البورجوازيين الألمان . » ومعنى هذا أن مذهب كانت الفلسفى لم يكن سوى مجرد « حساء » عامت على سطحه شتى

المفاهيم البورجوازية التي كانت سائدة في عصره . ولكن الماركسيين ينسون أو يتناسون أن هذا المبدأ يصدق أيضاً على سائر الفلسفات التي كانت سائدة في عصر كانت ، وهي كما نعلم عديدة متنوعة . فالنقد الذي نحن بصددده يصدق — إن صدق — على الجميع ، وهو لهذا السبب عينه لا يخص أحداً على وجه التحديد . ولسنا ننكر بطبيعة الحال أن كانت كان رجل موقف بعينه ، ولكننا نظن أن المشكلة إنما تنحصر على وجه الدقة في معرفة السبب الذي من أجله تجسدت النزعة العقلية التي كانت سائدة في أواخر القرن الثامن عشر رجلاً بعينه من مدينة كونجسبرج ، هو السيد إمانويل كانت ! فليس في استطاعتنا أن نسوّي بين سائر الفلاسفة العقلين — ومن بينهم كانت — بحجة أن العقل ليس إلا مجرد ملكوت مثالي للبورجوازية ؛ وإلا لما كان ثمة موضع للتفرقة بين مذهب عقلي ومذهب عقلي آخر ، ما دامت سائر المذاهب العقلية إنما تحمل سرّاً واحداً ، وتنطق باسان طبقة اجتماعية واحدة .

والحق أنه إذا كانت الفلسفة الحقيقية ترفض أمثال هذه التأويلات الماركسية ، فذلك لأن المبدأ الأسامي الذي يقوم عليه كل تفكير فلسفي إنما هو مبدأ الحوار ، مع ما يقترن به من ثقة بأقوال الغير . وأما أن ندحض أقوال الآخرين بدعوى أنهم يعنون غير ما يقولون ، فإننا عندئذ إنما نحيل تاريخ الفلسفة مجرد عملية هدامة نقضى فيها على شتى الفلسفات . ولسنا نغنى بذلك أن فكر الفيلسوف غير مشروط بأية عوامل تاريخية أو اجتماعية أو حضارية أو اقتصادية ، وإنما كل ما نحن حريصون على تقريره هو أن فكر الفيلسوف قلما يساوى مجموع هذه العوامل . حقا إن المجال الفلسفي لهو أبعد ما يكون عن ذلك الملكوت العقلي الذي يصوره لنا البعض حينما يتحدثون عن « عالم الفلسفة » ، ولكن من المؤكد

مع ذلك أن عالم الفلسفة ليس ملكوتنا لاعقلياً خالصاً ، وكأننا هو مجرد انعكاس
لأهواء المفكرين ودوافعهم اللاشعورية وأوضاعهم الاجتماعية . . . الخ فليس
في استطاعتنا إذن أن نركن إلى المنهج التاريخي وحده من أجل فهم مذاهب
الفلاسفة ، بل لا بد لنا أن نقرر مع بعض الباحثين أنه مهما كان من تأثير بعض
الظروف التاريخية على فكر الفيلسوف الواحد ، فإنه لا بد من أن يكون المحك
الذي تقاس به أفكاره ونُقد على أساسه آراؤه ، إنما هو الدليل العقلي وحده .
وهكذا نعود فنقول إن تاريخ البشرية ليس تاريخ عواطف ، وأهواء ، وأديان ،
وفلسفات لاعقلية ، وفن ودين فحسب ، بل هو أيضاً تاريخ عقل وتاريخ علم^(١) .

٧٢ — فإذا ما انتقلنا الآن إلى دراسة مشكلة « التقدم » الفلسفي ، ألفينا
أن بعض الباحثين يؤكدون لنا أن تاريخ الفلسفة لا ينطوي على أى تقدم ، بل
هو تعبير عن أبدية ذلك النداء المستمر الذى يدعونا دائماً إلى الارتداد نحو
« الوجود » L' Etre . فالفيلسوف لا بد من أن يشرع في التفلسف بمجرد
ما يتحقق من أن « الموضوع » لا يكفيه ، وأن « التاريخ » لا يستوعبه ، وعندئذ
لا بد من أن يجد نفسه مضطراً إلى التماس « الوجود » ، والبحث عن « الذات » .
حقاً إن كل فيلسوف لا يمكن أن يضطلع بهذه العملية الميتافيزيقية إلا ابتداء من
الصورة التى يقدمها له عن « العالم » ذلك العلم السائد فى عصره ، ولكن لا بد
اكتلوعى فاسفى من أن يشعر بتلك الحاجة الأبدية إلى استجاء زمام ذاته ،
وتحديد موقفه بالنسبة إلى العالم الجديد الذى يقدمه له العلم . فالوعى الفاسفى
(فيما يرى أصحاب هذا الرأى) لا يسير فى اتجاه معين ، ولا يحقق أى تقدم
ختمى ، بل هو يندُّ عن التاريخ ، من حيث إنه عملية مستمرة لا بد فيها من

Popper : ، - The Open Society - Vol. II. (quoted by (١)
John Lewis : - Introduction to philosophy - London, Watts, 1954
p. 8.)

معاودة البدء من جديد . « وربما كانت هذه الحركة المستمرة التي نبدأ فيها من جديد دائماً أبداً عَبَرَ الزمان هي سبيل الإنسان الأوحـد لإظهار معنى الأبدية أو التعبير عن مبدأ الخلود »^(١).

ولكن ، هل يكون معنى هذا أن ليس ثمة تطور على الإطلاق في تاريخ التفكير الفلسفي ؟ ألسنا نلاحظ أن تاريخ الفلسفة شاهد على وجود بعض مظاهر الترابط أو التسلسل بين أفكار بعض المفكرين ، كما هو الحال مثلاً بين سقراط وأفلاطون وأرسطو ، أو بين كانت وهيجل ، أو بين لوك وهيوم مثلاً ؟ هنا يقول يسبرز إن وجود هذا التسلسل بين أفكار بعض الفلاسفة لا يعني مطلقاً أن الفيلسوف المتأخر قد استطاع أن يحتفظ بالحقيقة التي اهتدى إليها سابقوه ، أو أنه قد نجح في تجاوزها والعلو عليها . وحتى لو نظرنا إلى الأجيال التي تجمع بينها رابطة روحية ، فإننا نلاحظ أن ما يأتي به الجيل الواحد من جديد لا يفسر بما جاء به سابقوه . وآية ذلك أن ما كان جوهرياً لدى السلف كثيراً ما يترك جانباً لدى الخلف ، بل كثيراً ما يعجز الخلف عن فهم تراث السلف على حقيقته . والظاهر أن ثمة عوالم قد استطاعت أن تظل على قيد البقاء ، خلال فترات زمنية بأكلها ، بفضل ازدهار التبادل الفكري بين أهلها ، واهتمام كل مفكر من مفكريها بإسماع صوته للآخرين ، كما حدث مثلاً إبان الفلسفة اليونانية ، والفلسفة المدرسية ، والحركة الفلسفية الألمانية التي امتدت من سنة ١٧٦٠ إلى سنة ١٨٤٠ ؛ وهذه كلها فترات تبادل روحي خصب تم بين أفكار جوهرية

F. Alquié : “ Le Nostalgie de l' Etre ” p. U. F. 1950 (١)
pp. 89

نشأت منذ بداية ازدهار التفكير الفلسفي . ولكن هناك فترات أخرى لم يقدر للفلسفة أن تبقى خلالها إلا بوصفها مجرد ظاهرة من الظواهر الحضارية ، كما أن ثمة عصوراً أخرى كادت فيها الفلسفة أن تختفي .

وكثيراً ما يجد الباحث نفسه مدفوعاً إلى اعتبار ترقى الفلسفة أو تطورها في مجلته ضرباً من التقدم المستمر ، ولكن هذا الظن — فيما يرى كارل إسبرز — إن هو إلا خطأ صُراح . والواقع أن تاريخ الفلسفة لمو أشبه ما يكون بتاريخ الفن : من حيث إن أعظم إنتاج عرفه الواحد منهما إنما هو إنتاج فريد لا مثيل له ولا سبيل إلى استبداله بغيره . ولكن تاريخ الفلسفة يشبه أيضاً تاريخ العلوم من حيث إن كلا منهما يستخدم بطريقة واعية تتزايد يوماً بعد يوم ، مقولاتٍ ومناهج تنسج دوائرها باستمرار . وربما كان في استطاعتنا أيضاً أن نشبّه تاريخ الفلسفة بتاريخ الأديان ، من حيث إن هذا التاريخ يظهرنا على سلسلة من المواقف الوجدانية الناشئة عن إيمان أصلي ، وإن كانت هذه المواقف لا بد من أن تتخذ في الفلسفة صورة عقلية ، فتعبر عن نفسها بأسلوب منطقي . وكما أن للعلم والدين فتراتها الخصبة ، فإن لتاريخ الفلسفة أيضاً عصوره المزدهرة وفتراته المبدعة . ولكن الأمر يختلف في مجال الفلسفة عنه في غيرها من مجالات الفكر البشري : فإن من الجائز أن يظهر على حين فجأة — في عصر تعدد من عصور الانحلال — فيلسوف ممتاز أو مفكر من الطراز الأول ، وهكذا ظهر أفلاطون مثلاً في القرن الثالث ، كما ظهر سكوت إيريجين Scot Erigène في القرن الحادى عشر ؛ وكلاهما يمثل نموذجاً فلسفياً فريداً في نوعه ، وإن كانا يبدؤان في تاريخ الفلسفة بمثابة قمتين منعزلتين . حقاً إن مضمون فكر كل منهما مرتبط بالتراث الفلسفي ، كما أن بعض أفكارها قد تكون مستمدة من أفكار أخرى سابقة ، ولكن من المؤكد أن كلا منهما قد

جاء بفتوحات جديدة في مجال التفكير البشرى^(١)

لهذا يقرر يسبرز أنه ليس من حقنا على الإطلاق أن نزع أن الفلسفة قد شارفت النهاية ، أو أنها كادت تصبح أثراً بعد عين . والواقع أن الفلسفة لمى سمة جوهرية من سمات الإنسان في كل زمان ومكان ؛ حتى إننا لنلاحظ في أحلك العصور وأقسى الأزمات أنه لا بد للفلسفة من أن تظل ماثلة في تفكير بعض الأفراد المنعزلين ، فيكون إنتاجهم الفردى هو الثمرة الوحيدة التى استطاع أن يجمود بها عصرهم المجدب . وكما كان هناك دين في كل زمان ، فقد كانت هناك فلسفة أيضاً في كل زمان . ومن هنا فقد لا يرى مؤرخ الفلسفة في تطور التفكير الفلسفى بصفة عامة سوى مجرد مظهر ثانوى لا يؤثر كثيراً على سير الفكر البشرى بوجه عام . وآية ذلك أن كل فلسفة عظيمة هى في حد ذاتها تامة ، مكتملة ، مستقلة ، وهى تيمى دون أن تكون فى حاجة إلى الارتباط بأية حقيقة تاريخية أشمل منها . وإذا كان من شأن العلم أن يتقدم باستمرار ، بحيث تكون كل خطوة تالية فيه أبعد مدى من سابقتها ، فإن الفلسفة لتقتضى بطبيعتها أن تكون كل خطوة فيها مُحَقَّقة لمعنى الفلسفة بأسره كاملاً غير منقوص . وإذن فقد يكون من العبث أن نحاول ترتيب الفلاسفة فى سلم تصاعدى ، أو أن نجعل من فلسفاتهم مجرد درجات متعاقبة فى حركة تصاعدي مستمر . وإنما يجب أن نتصور تاريخ الفلسفة على أنه مسرح فكرى هائل تتلاقى فيه بعض الشخصيات الممتازة ، دون أن تحتكر إحداها الكلمة النهائية للإنسان ، أو التاريخ ، أو الفكر . وحينما نتاح لنا الفرصة — عن طريق هذا التاريخ الفكرى الهائل — لأن نلتقى ببعضاء المفكرين ونعامل معهم ونحتك بهم ، فإن مثل هذا

K. Jaspers : "Introduction à la philosophie" 1951. p, 196. (١)

اللقاء الفكرى الخصب هو الكفيل بأن يجعلنا نحرص على اكتساب بعض من عاداتهم، وأفكارهم، ومشاعرهم، وعقلياتهم، فضلاً عن أننا قد نتعلم منهم كيف نحج الحقيقة ونجذب في إثرها . وربما كان من بعض أفضال تاريخ الفلسفة علينا أنه يثبت في نفوسنا روح الإعجاب والعرفان بالجميل نحو نوابغ الفكر البشرى ، فيظهرنا على قيمة التراث الإنسانى الذى نُسهمُ جميعاً في تنميته وترقيته والحفاظة عليه . وإذا كان تاريخ الفلسفة هو مدرسة التسامح الكبرى ، فذلك لأنه يعلمنا أن الفلاسفة ليسوا خصوماً وأعداء (كما توهم شوبنهاور) ، بل هم في الواقع إخوة وأصدقاء ، تجمع بينهم جميعاً محبة الحقيقة ونزاهة الفكرة ووضوح البصيرة . أليس مؤيدو المذهب الواحد ومعارضوه ، إنما يخدمون الحقيقة على قدم المساواة بما يسلطون من أنوار على هذا المذهب أو ذاك ؟

بيد أن تاريخ الفلسفة — كما لاحظ شوبنهاور — لن يخلق منا يوماً فلاسفة . وإذا كان من الخير للإنسان ألا يظل أسيراً لفكرته ، وألا يحيا في عزلة عن التاريخ ، وألا يفكر بمنأى عن الآخرين ، فإن من الخير له أيضاً أن يكون شيئاً بمفرده ، وأن يفكر لنفسه وب نفسه ، وأن يعيد بناء الفلسفة من جديد لحسابه الخاص . والحق أنه حينما يحل التاريخ محل الفاسفة النظرية (كما يحدث في كثير من الأحيان) ، فإن هذا كثيراً ما يكون على حساب الجِدَّة والأصالة ، وعندئذ يقوم الجمع والتوفيق والتلفيق ، مكان الابتكار والتنقيب والتحقيق . وتبعاً لذلك فإن على مؤرخ الفلسفة أن يتذكر دائماً أنه لا يدرس تاريخ الفلسفة من أجل التاريخ ، بل من أجل الفلسفة . ولا شك أن هذا التاريخ حينما يُظهرنا على أن الفلاسفة الحقيقيين كانوا أهل أصالة وابتكار ، فإنه لا بد من أن يستثير في نفوسنا روح البحث وحب الاكتشاف . وما أصدق بسكال حين يقول : « إن الفلاسفة الحقيقيين لم يستمعينوا بما خلف لهم السابقون من كشوف اللاهم

إلا بوصفها مجرد وسائل استطاعوا عن طريقها أن يستحدثوا مبتكرات فكرية جديدة ، فكان لديهم من الجرأة الفكرية ما استطاعوا معه أن يشقوا طريقهم نحو آفاق أخرى جديدة . وما أحرانا نحن أيضاً بأن نقف من مبتكراتهم نفس هذا الموقف ، فنجمل منها مجرد وسائل للبحث ، لا غايات نهائية للدراسة ، وبذلك نحاول أن نعلو عليهم ، بأن نعمل على محركاتهم والنسبهم بهم^(١) . وهكذا نخلص إلى القول بأن الفلسفة مخاطرة فكرية كبرى هيئات الفكر أن يحققها ما لم ينفصل بوجه ما من الوجوه عن عصره ، وماضى التفكير الفلسفي ، وتاريخ المعارف العلمية المحصلة ، لكي يعيد بناء كل شيء من جديد ، واثقاً من أنه خير للمرء أن يردّ ينبوع الحَيِّ ، من أن يقتصر على البحث في الأواني العتيقة البالية عن بعض قطرات الماء الصغيرة المتبقية !

Pascal : "De l'autorité en matière de philosophie". (١)

خاتمة

أما بعد فإن القارئ الذي تتبّع هذا العرض السريع لصلات الفلسفة بكل من العلم ، والدين ، والفن ، والأخلاق ، والسياسة ، والتاريخ ، والأيدولوجيا ، لابد آخذ علينا أننا لم نعرض لمواجهة الفلسفة في صميمها ، ما دمنا قد تجنبنا الحديث عن ماهيتها ، ومناهجها ، وأقسامها ... إلخ . ومهما حاولنا أن ندافع عن موقفنا بأن نقول إننا آثرنا النظر إلى الفلسفة على أنها اتجاه أو موقف ، لا على أنها نسق أو مذهب ، فإن القارئ لن يجد صعوبة كبرى في رد هذا الدافع ، بدعوى أن الفلسفة فلسفة قبل أن تكون علماً ، أو فناً ، أو ديناً ، أو سياسة ، أو تاريخاً ! وقد يتصدّى أنصارُ الفلسفة التقليدية لمهاجتنا بحجة أننا أسأنا إلى الفلسفة من حيث لا ندرى ، إذ جعلنا منها دراسة غير ذات موضوع . ، وقلنا عن المشتغل بدراستها إنه متخصصٌ في علم التخصص ! وربما راق للبعض أن يتهمنا بأننا حَكَمْنَا على الفلسفة بالموت ، ما دمنا قد أعلنّا أكثر من مرة أنها ليست من العلم في شيء ، ومثل هذا الإعلان (فيا يرى هؤلاء) إن هو إلا مُستخرج رسميٌّ يشهد بوفاء الفلسفة !

ونحن ندعو كل هؤلاء المعارضين أن يتمهّوا قليلاً قبل أن يقذفونا بأول حَجَرٍ ! ولنبادر فنطمئن الجميع إلى أننا بريئون من دم الفلسفة براءة الذئب من دم ابن يعقوب ! ولكننا نرجو خصوصاً الأعداء أن يتوقفوا معنا قليلاً عند مشكلة الفلسفة ، حتى يَرَوْا بعيون رؤوسهم وَجْهَ الإشكال في موضوع دراستهم . وهنا نرى واحداً من أرباب الفلسفة يصف لنا وجه الإشكال في « عميدة العلوم » جميعاً ، فيقول « إن الفلسفة لا تتمتع إلا بقسط ضئيل من الوجود ، حتى أنها

لا تكاد توجد إلا على سبيل المفاجأة ، أو بمجرد ما نحول عنها أنظارنا . ولكننا ما نكاد نتطلع إليها بانتباه وإمعان ، حتى نراها قد تحولت إلى شيء آخر : علم نفس أو علم اجتماع أو تاريخ فلسفة الآخرين ، وكأن الفلسفة لا تعيش إلا على فتات موائد العلوم الوضعية^(١) ثم يعود هذا الكاتب نفسه إلى الحديث عن أهمية الفلسفة فيقول في موضع آخر : « إن مثل الفلسفة كمثل الموسيقى ، فإن كلاً منهما لا تكاد تتمتع إلا بقسط ضئيل من الوجود ، فضلاً عن أنه ليس أبسر من الاستغناء عنها ولكن من يستغنى عن الموسيقى أو الفلسفة إنما يفقد شيئاً ، وإن لم يكن في وسعه أن يعرف على وجه التحديد ماذا عسى أن يكون هذا الشيء الذي يفقده ومهما يكن من شيء ، فإن في وسع الإنسان أن يحيا بدون فلسفة ، وبدون موسيقى ، وبدون غبطة ، وبدون محبة ؛ ولكن حياته عندئذ لن تكون كما ينبغي ! »^(٢) .

أما نحن فإننا نرى أن وجه الإشكال في الفلسفة هو أنها على وجه التحديد ذلك الشيء الكمال الذي قد يكون أكثر ضرورة من « الضروري » نفسه ! ولو أننا فهمنا الفلسفة بمعناها الأصلي ، أعني بوصفها حكمة أو محبة حكمة ، لكان في وسعنا أن نقول إنه لا يستغنى عن الفلسفة إلا مَرْتَكِبٌ أو مُنْتَكِبٌ قد ارتد إلى مرحلة الحيوانية . وهذا تاريخ البشرية شاهد على أن منهج الناس في كل زمان ومكان إنما هو « التعلم » ، ومقصدهم إنما هو « الحكمة » ؛ فليس للبشر من هدف يرمون إليه ، إن من حيث يدرون أو من حيث لا يدرون ، سوى « الحكمة » . ولعل هذا هو ما عناه الكاتب الأمريكي إمرسون حينما قال : « إذا كان رفائيل قد رسم الحكمة ، فقد غناها هندل Hendel ، ونحتها فيدياس ،

V. Jankélévitch : « Philosophie Première », Paris, (٢٠١)
P. U. F., 1954, pp. 261-266.

يقول أحد دعاة « الفلسفة العلمية » : « لقد جاء عصرنا الحديث بعلمه الطبيعي الذي أنتج للإنسان في ثلاثة قرون أضعاف أضعاف ما قد عرفه الإنسان عن الطبيعة في عشرات القرون الماضية ، ولبت هذا العلم الطبيعي أول الأمر مقصوراً على جماعة العلماء ، لا يكاد الناس يحشونه في حياتهم الجارية ؛ لكنه في القرن الأخير قد جاوز بنتائج حدود العلماء إلى حيث الحياة العامة والحياة الخاصة على السواء ؛ فإذا تصنع الفلسفة في عصر يسوده العلم على هذا النحو سوى أن تستخدم سيد العصر ، كما كان شأنها في كل عصر ؟ ماذا تصنع سوى أن تستخدم العلم في عصر العلم كما خدمت الأخلاق في عصر الأخلاق ، والدين في عصر الدين ؟ »^(١).

وردنا على تساؤل هذا الكاتب أنه ليس من شأن الفلسفة أن تكون خاضعة للعلم أو للأخلاق أو للدين ، فقد كانت الفلسفة في كل زمان ومكان تأكيدياً لشعور الفكر البشري بتماليه على الطبيعة ، وخروجه على التاريخ ، ونزوعه نحو اللطلق . وليس أيسر علينا من أن نقول إن العلم قد خلع الفلسفة عن عرشها مرة واحدة وإلى الأبد ، ولكننا عندئذ لا نتكلم باسم « العلم » بل باسم تلك « النزعة العلمية المتطرفة » scientisme التي هي بضاعة الحالمين من المأخوذين بسحر التقدم العلمي . وإذا كان يحلو لهؤلاء أن يكونوا « ملكيين » أكثر من « الملك » ، فإن أهل العلم أنفسهم يعترفون بأن تقدم العلوم في السنين الأخيرة قد أثار من المشكلات الميتافيزيقية أكثر مما أثاره في أي عصر آخر في تاريخ البشرية . ولنا ندرى كيف يمكن أن تكون « الفلسفة » علمية إذا كان المحرك الحقيقي للبحث الفلسفي

(١) الدكتور زكي نجيب محمود : « نحو فلسفة علمية » ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ،

وكتبها شكسبير ، وشيدها رن Wren ، ونشر قلاعها كولمبوس ، وسلحها واشنجنطن ، ونطق بها لوثر آيات بينات ، وركبها وات Watt آلات محكمات^(١) حقاً إن كاتب هذه السطور أو قارئها قد لا يكون فيدياس أورا فائيل أو شكسبير ، ولكنه مع ذلك لن يتردد في الاعتراف معنا بأن « الحكمة » (في صورة أكثر تواضعاً بطبيعة الحال) هي الغاية النهائية لشتى أفعالنا ، أو هي المقصد الأسمى لكل حياتنا . وقد لا تكون الغالبية العظمى من الناس علماء ، أو فنانيين ، أو رجال دين ، ولكن من المؤكد أن الجميع على السواء يتساءلون عن وجودهم ، ويثيرون لأنفسهم مشكلة القيم ، ويحاولون أن يلتمسوا معايير لأفعالهم وتصميحاتهم ، ويكوثنون لأنفسهم صورة عامة عن العالم ، أو هم على الأقل يحاولون أن يمتدوا بأبصارهم إلى ما وراء أنوفهم ، وأن يتجاوزوا في تفكيرهم حدود عصرهم وبيئتهم وظروفهم . فإذا جاز لنا أن نسمى هذا كله « فلسفة » ، كان من حقنا أن نقول إنه ليس ثمة موجود بشري واحد يمكن أن يُحكّم عليه بأنه غريب تماماً على الفلسفة . أجل قد يحيا الإنسان دون علم ، أو قد يحيا دون فن ، ولكنه لن يستطيع أن يحيا دون فلسفة ! وقد يقف الإنسان مكتوف اليدين بإزاء الإنتاج الفني ، أو قد يلتقي المعارف العلمية بشيء من عدم الاكتراث ، ولكنه لا يستطيع أن يصمّ أذنيه تماماً عن نداء الوجود . فليس في وسع أحد أن يزعم لنفسه بحق أنه يعالج مشكلاته بالعلم ، ويوجّه حياته بالمعارف العلمية وحدها ، ويستبعد من دائرة تفكيره تماماً كل قلق ميتافيزيقي ، ويبني عقيدته الخاصة على مجموعة من الأسس العلمية والدعائم الوضعية ! إننا لا ننكر بطبيعة الحال أننا نعيش في عصر « علم » ، ولكننا نرى أن هذا بعينه هو السبب في تزايد الحاجة إلى « الفلسفة » .

Cf. M. Rosenberg : «Introduction to philosophy.» New- (١)
York, Philosophical Library. 1955 p. 18.

إنما هو الشعور بعدم كفاية المعطيات الحسية ؟ أليست مهمة الفلسفة الأولى والأخيرة أن تمضي حتى نهاية الشوط في بحثها عن المعاني ، وتقدمها لشتى الينيات الزائفة ، وكشفها عن سائر الضروب الكاذبة من « المطلق » ، سواء قلنا إن المطلق هو العلم أم التاريخ أم الدولة أم الجنس أم الحزب أم اللذة . . . إلخ ؟ وإذن أفلا يحق لنا أن نقول إنه لو كانت الطبيعة تكفي نفسها بنفسها ، لما قامت للفلسفة أدنى قائمة ، ولما كان ممة موضع لإثارة أية مشكلة ميتافيزيقية ؟

إن دعاء الوضعية المنطقية ليزعمون أن مشكلات الفلسفة ليست سوى مشكلات زائفة يتكفل التحليل المنطقي الصارم بالكشف عن طابعها الوهمي ، ولكنهم حين يفترضون أن العلم هو النشاط العقلي الوحيد الذي يؤدي إلى معرفة مشروعة فعالة ، فإنهم في الحقيقة إنما يحدّدون المعرفة البشرية تحديداً تعسفياً ليس هناك ما يبرره ، دون أن يكون في وسعهم تبرير هذا التحديد الافتعالي لدائرة العقلانية الإنسانية تبريراً علمياً . أما الزعم بأن كل محاولة يراد بها تجاوز العلم إنما هي وليدة أحاسيس وجدانية يمكن التعبير عنها بطريقة ملائمة في ميدان الفن أو الشعر ، دون أن يكون لها أدنى موضع في مجال البحث العقلي الذي ينشد الحقيقة ، فردنا عليه أنه ليس هناك موجب للتوحيد بين المعرفة الفلسفية والمعرفة العقلية ، لأن للوجدان والعاطفة والحدس وأحكام القيمة دوراً هاماً في صميم المعرفة الفلسفية . وحسبنا أن نرجع إلى بسكال ، وبرجسون ، وماكس شلر ، وكيسرلينج ، وهارتمان ، لكي نتحقق من أن ثمة معرفة وجدانية قد لا تقل أهمية عن المعرفة العقلية^(١) . والواقع أن أصحاب « الفلسفة العلمية » المزعومة يضربون صفحاً عن أحكام القيمة ، ويسقطون من حسابهم كل اعتبار للمعرفة الوجدانية ،

N. Berdiaeff : • Cinq Méditations sur l' Existence • (١)
 paris, Aubier, 1936, pp. 21--22.

فليس بدعاً أن نراهم يتجهون إلى « وضعية لا أدرية » ليس لها من الفلسفة إلا الاسم . ولعل هذا هو ما عناه الفيلسوف الروسي الوجودي بردييف حينما كتب يقول « إن الفلسفة العلمية لم تكن فلسفة مفكرين عدموا كل موهبة فلسفية ، وفقدوا كل إحساس برسالة الفيلسوف . وقد ابتكر هذه الفلسفة قوم لم يكن لديهم شيء يقولونه في الفلسفة على الإطلاق . والظاهر أن النزعة العلمية المتطرفة قد ظهرت أول ما ظهرت في عصر ديمقراطى كانت فيه الفلسفة مضطهدة مغلوطة على أسرها ، ولكن هذه النزعة لا زالت عاجزة عن أن تفسر واقعة العلم نفسها ، لأن مجرد إثارة هذه المشكلة يتجاوز دائرة العلم . وكل شيء في نظر النزعة العلمية المتطرفة إنما هو مجرد « موضوع » ، حتى أن الذات نفسها لم تكن في رأيها مجرد موضوع بين طائفة أخرى عديدة من الموضوعات »^(١) .

والحق أن من شأن العلم أن يَشُدَّ وثاقَ الإنسان إلى الطبيعة ، ولكن الفلسفة لا بد من أن تضاف إلى العلم لكي تذكر الإنسان بأنه لا يحيا في الطبيعة إلا لكي يتجاوزها ويعلو عليها . وربما كانت رسالة الفيلسوف الأولى أن يتوجه نحو أولئك الذين لا ينشدون سوى المنفعة ، ولا يهتمون إلا بالنتائج العملية ، ولا يفكرون إلا في المستوى المادى ، لكي يعرفهم بأن هذا كله لا بد من أن يفضى حتماً إلى الهبوط بمستوى الإنسان أو القضاء على صميم وجوده الشخصى ، اللهم إلا إذا انضافت الميتافيزيقا إلى العلم والتكنيك لكي تضيء عليهما روحاً أخلاقية ونزعة إنسانية . فليس من الممكن أن تكون هناك فلسفة إن لم يكن اعتراف ضمني بأن للإنسان « بعداً رأسياً » لا يتكفل بتفسيره العلم ، وحرية ميتافيزيقية لا تنهض بتأويلها المعرفة الوضعية . فإذا ما أصرَّ دعاة

N. Berdiaeff : - Cinq Méditations sur l' Existence . (١)
 Paris, Aubier, 1936, pp. 12-22.

الوضعية المنطقية على إلغاء الميتافيزيقا والأخلاق بجرة قلم ، كان من حقنا أن نتصدى للرد عليهم ، لكي نبين لهم كيف أن الحكمة النظرية لا تنفصل عن الحكمة العملية ، وكيف أن الفلسفة هي بمعنى ما من المعاني « مذهب خلاص » أو « دعوى نجاة » la doctrine du salut . ولناخذ على سبيل المثال مشكلة اجتماعية هامة طالما عني بدراستها علماء النفس ، والاجتماع ، والأخلاق ، كمشكلة الطلاق ، ولنحاول أن نرى إلى أى حد يمكن أن يكون للميتافيزيقا مدخل في حل تلك المشكلة . وهنا نجد أن ظاهرة الطلاق هي بلا شك دليل إخفاق ، كما أن تعدد حوادث الطلاق هو بلا ريب دليل على نفشي حالات الفشل في المجتمع الواحد . ونحن نعرف كيف يحاول التحليل السيكولوجي والاجتماعي أن يحدد الشروط التي تنسب في حدوث الطلاق ، وكيف يعني علم الخلق أو الطباع بتعرف الخصال اللازم توافرها في كلا الطرفين لتحقيق التكيف الزوجي وضمن نجاح الحياة الزوجية .

ولكن هل يكفي مثل هذا التحليل العلمي لتحقيق الغاية التي يرمى إليها المصلحون الاجتماعيون ؟ لو أننا كنا بصدد مجرد أشياء ، لكان هذا التحليل كافياً ، فإن الأشياء محددة أو قابلة للتحديد بالاستناد إلى مجموع الشروط التي تعمل على ظهورها . ولكننا هنا بصدد الإنسان ، والإنسان موجود واع يعرف أن ثمة شروطاً محددة يخضع لها ، وهو لا بد من أن يتدخل بإرادته في مجرى الأحداث ، لكي يتعاون مع الظروف التي تعمل عملها فيه ، وعندئذ قد يتمكن من تعديل آثارها أو قد يتسنى له أن يضيف إليها مجموعة أخرى من المؤثرات . ولا يقتصر الأمر هنا على الإرادة ، بل تجميء عوامل أخرى كثيرة كالأخلاق ، والحلم ، والعواطف ، والميتافيزيقا ، فتؤثر على سلوك الإنسان بإدخال أحكام القيمة واعتبارات المثل العليا ، وهذا ما يحدث بالفعل في حالة

الأسرة : فإن كل أسرة لا بد من أن تتعرض لظروف مواتية لترقى الحياة الزوجية واستمرارها ، وظروف أخرى غير مواتية لهذا النوع من الاستقرار . ولن يقضى للأسرة أن تظل محتفظة بتناسكها ووحدتها ، ما لم يتعاون أفرادها فيما بينهم ، مثْلهم كمثل ركاب السفينة الواحدة حينما يواجههم خطر مشترك ، فيوحّدون أفكارهم وجهودهم لمواجهة الظروف العصيبة ، ولو بالغلب على طباعهم الشخصية التي يمكن أن تعوق نجاح الموقف ، وبذلك يكونون قد أسهموا في تغليب الظروف الملائمة (لاستقرار الحياة الزوجية) على الظروف غير الملائمة . أما إذا نظر كل فرد من أفراد الأسرة إلى الحياة العائلية على أنها مجرد رابطة مؤقتة تقوم على بعض المصالح الشخصية ، وتدوم بدوامها وتسقط بانعدامها ، فهناك لا بد للرابطة الزوجية من أن تنحطّ ، وبالتالي لا بد للأسرة من أن تنفك . وأما إذا نظر الآباء والأبناء إلى الأسرة على أنها « قيمة » *vaueur* تملأ على شتى اعتبارات النفع ، وتمثل غاية أخلاقية لا بد من خدمتها ، فهناك لا بد من أن تتوثق الروابط العائلية فيما بينهم ، وبالتالي فإنه لا بد من أن يتحقق للأسرة الاستقرار المنشود . ولا شك أننا إذا أوحينا إلى النشء بأن الوفاء للأسرة هو وفاء لتقليد اجتماعي ، وإذا نجحنا في إقناعهم بأن الأسرة هي القنطرة التي تعبر عليها أجيال الوطن الماضية إلى أجيال الوطن المقبلة ، وإذا استطعنا أن نبعث في عقولهم مبادئ الولاء للأسرة بوصفها المهد الذي تولد فيه إنسانية أنبل ، والأداة التي يتحقق عن طريقها الاستمرار الزمنى للجماعة البشرية ، أو بالأحرى وسيلتنا إلى المشاركة في عملية الخلق الإلهي المستمر ، فهناك لا بد للأسرة من أن تصبح حقيقة ميتافيزيقية وأخلاقية لها مكاتنها في نفوس الناس . وحينما نعمل عن طريق التربية على نشر مثل هذه المشاعر بين الناس ، فإننا نكون عندئذ قد أسهمنا في توطيد دعائم « الميتافيزيقا العائلية » (إن صح هذا التعبير) ،

وما هذه سوى باب واحد بين أبواب أخرى كثيرة تتكون منها الميتافيزيقا العامة^(١).

والحق أننا نعيش في عصر وضعي يستأثر فيه الواقع التجريبي والاجتماعي بانتباه الغالبية العظمى من الناس ، فليس بدعاً أن تشتد الحاجة إلى الإيمان الميتافيزيقي والأخلاق في مثل هذا الجو المادي الخلاق . وحينما تؤكد الفلسفة لإنسان القرن العشرين أن هناك معرفة وجدانية ، ومعرفة قوامها الإحساس بالقيمة ، والشعور بالتعاطف والمحبة ، فإنها لا تدعوه عندئذ إلى التخلي عن عقله ، بل هي تهيب به أن يقف على حدود المعرفة العقلية ، وأن يوسع من دائرة المعرفة حتى يجعلها خبرة شاملة تستوعب الحقيقة ككل . وليس أيسر على الإنسان من أن يؤله العقل ، وينادي بكفاية العلم ، ويستبعد كل أحكام القيمة ، ولكنه عندئذ إنما يقضي على ثراء التجربة البشرية ، ويضيق من دائرة المعرفة الإنسانية ، ويخلط بين « الموضوع » و « الوجود » ، وينسى أو يتناسى أن كل وعي فلسفي إنما يبدأ دائماً بوصفه شعوراً بالتعالى ، ونزوعاً نحو القيمة « Valeur » . ومادام المقصد الأصلي للفلسفة هو أن تعبر عن وعي الإنسان بتمامه ، فإنها لا يمكن أن تقنع بالوعي العلمى ، مادام من شأن هذا الوعي دائماً أن يظل محددًا محصوراً ، باعتباره وعياً قد اختار لنفسه أن يكتشف « الوجود » من خلال « الموضوع » ، أو على الأصح وفقاً لطبيعة « الموضوع » . وهكذا نخلص إلى القول بأنه مهما كان من أمر مزاعم أصحاب الفلسفة العلمية ، فإن الموقف الفلسفي لا بد من أن ينشأ باعتباره رد فعل ضد موقف سابق كان « الوجود » فيه مختلطاً على أذهاننا بما تقدمه لنا الحواس من « معطيات » ، ولهذا فإن كل من يطرح الميتافيزيقا

R. Le Senne: «De la philosophie de l' Esprit», article (١)
dans : «L' Activité philosophique en France et aux Etats—Unis»,
P. U. F., Paris, 1950, vol. II., pp. 127—128.

إنما ينزل بالإنسان إلى مستوى واحد من مستويات الواقع ، ألا وهو مستوى « الموضوعية » .

وأخيراً قد يحق لنا أن نقف وقفة قصيرة عند اعتراض آخر طالما رده دعاء « الفلسفة الوضعية » في ثورتهم على الميتافيزيقا واستخفافهم بمشكلاتها ، ألا وهو قولهم بأن الفلسفة تهدم عملها بغير انقطاع ، وأن كل فيلسوف يناقض الآخر . ورد كروتشه على هذا الاعتراض « أن المرء يبني منزله ثم يهدمه ، ثم يعيد بناءه ، وأن المهندس الجديد يناقض المهندس القديم ، وأنا إذ نتحدث عن هذه البيوت التي تبنى ثم تهدم ثم تبنى من جديد ، وعن هؤلاء المهندسين الذين يناقض بعضهم بعضاً ، لا نستطيع أن نستنتج من ذلك أن من العبث أن نبنى بيوتاً . . . » ^(١) . ولستأ ندرى لماذا يعيب البعض على الفلسفة أنها لم تستطع بعد أن تتوصل إلى أى حل نهائي لأية مشكلة من مشكلاتها ، في حين أنه لمن العبث حقاً أن نتصور انتهاء الفلسفة في عالم لا ينتهي فيه شيء ! وإلا ، فليقل لنا خصوم الفلسفة الأعزاء هل كُتب اللحن الأخير ؟ هل رُسمت اللوحة الأخيرة ؟ هل اخترعت الآلة النهائية ؟ هل اكتُشف القانون العلمي الحاسم ؟ ألا يظهرنا الواقع نفسه على أن ثمة حاجة مستمرة دائماً إلى إعادة تأويل التجربة ؟ حقاً لقد قال صاحب سفر الجامعة إنه « لا جديد تحت الشمس » ، ولكننا نلاحظ مع ذلك أن ثمة وقائع جديدة ، وأفكاراً جديدة ، وتركيبات جديدة لهذه الوقائع وتلك الأفكار ؛ وأناساً جدداً لتأويل الوقائع والأفكار وتركيباتها ، أو لإعادة تأويلها من جديد ! ولن تقوم فلسفة نهائية حاسمة ، اللهم إلا بوجود آخر كائن بشري على ظهر هذه الأرض !

(١) بنوتو كروتشه : « فلسفة الفن » ، ترجمة الدكتور سامي المدروني ، دار الفكر العربي ،

فلندع الفلاسفة إذن يتناقضون ما شاء لهم التناقض ، وللطعن إلى أنه ربما كانت الكلمة النهائية في الفلسفة هي أنه لن تكون ثمة كلمة نهائية على الإطلاق ! أسنا نفتح أى كتاب فلسفى ، فلا نكاد نجد فى الكلمة الأخيرة لمؤلفه سوى قضية ملتبسة تقبل المناقشة وتستلزم التعقيب ؟ ألا نلاحظ بمجرد ما نشرع فى قراءة مذاهب الفلاسفة أننا نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نضع كل تراث البشرية موضع السؤال ، وكأن شيئاً عما قيل حتى الآن لم يستطع أن يقنعنا أو أن يظفر بتأييدنا ؟ فهل نقول بأن ليس ثمة « حقيقة » على الإطلاق ، بل كل ما هناك أسئلة خالدة وأجوبة مؤقتة ، وشكوك مستمرة ، وجدل لا ينتهى ؟ أم نقول بأن « الحقيقة » هي ذلك الاتجاه العام الذى يرسم من خلال المحاولات الفلسفية العديدة ؟ . . . يبدو لنا أنه ربما كانت أخصب لحظة من لحظات التفكير الفلسفى إنما هي تلك التى يتحقق فيها « التواصل » بين المفكرين ، أعنى تلك اللحظة التى يفهم فيها أفلاطون سقراط ، وأرسطو أفلاطون ؛ اللحظة التى يتلاقى فيها ملبرانش واسبينوزا وليبنيتس لأنهم جميعاً قد اشتروا فى معرفة ديكارت ؛ اللحظة التى يفهم فيها كانت كلا من فولف وروسو وليبنيتس ، اللحظة التى يقف فيها ماركس على حقيقة هيجل . وليس من شأن مؤرخ الفلسفة أن يوزع جوائز على الفائزين من الفلاسفة ، أو أن يمتشق الحسام لمبارزة خصومه من بينهم ، بل ربما كانت أجدى مهمة يمكن أن يضطلع بها هي أن يعمل على تحقيق التوافق بينهم ، مستوحياً تلك الوحدة الأخوية التى تجمع بين سائر الباحثين عن الحقيقة ، واثقاً من أن هذا التوافق إنما هو للتبرير النهائى لكل جهودهم . أما إذا تعذر على الفيلسوف أن يهتدى إلى مثل هذه « الوحدة » ، أو أن يتوصل إلى تحقيق مثل هذا « التوافق » ، فإنه لن يجد أدنى حرج فى أن يدع لكل فيلسوف مهمة التعبير عن تلك الجولة الخاصة التى قام بها فى ربوع الحقيقة . وربما كان التجول مع الفيلسوف فى الطريق الذى اختطه لنفسه من أجل بلوغ الحقيقة ، أجل

بكثير من « النهاية » التي قد أفضت إليها بالفعل رحلته. ألم يقل هافلوك إليس في كتابه « رقص الحياة » : « إن ما يهم في الفلسفة ليس هو بلوغ الهدف ، بل المهم هو تلك الأشياء التي يلتقي بها الفيلسوف في الطريق » ؟

وليعدرنا القارئ إذا كنا قد بلغنا نهاية الكتاب ، ونحن لا زلنا « في الطريق » ! ألم تقل لك منذ البداية إننا آثرنا لأنفسنا أن نكون في زمرة فلاسفة السؤال ؟ إذن فلنختم كتابنا بنفس النعمة الأصلية التي افتتحناه بها ، ولنقتصر على القول بأن الفيلسوف رجل سالك هيات أن يصبح يوماً واصلاً ! أجل ، فإننا لا زلنا سائرين *Homo viator* . ولكننا لا نسير بمفردنا ، بل نحن (لحسن الحظ) نسير مع رفاق كثيرين . فإن معنا سقراط ، ومونتي ، وبسكال ، وكيركجارد ، ونيتشة ، وجبريل مارسيل وغيرهم . ألا ترى معي أنهم جميعاً — مثلنا — فلاسفة تساؤل واستفهام ؟ . . .

تذیل

١ - بين الميتافيزيقا والشعر^(١)

ليس أسمى على نفوس الفلاسفة من أن يقال عنهم إنهم شعراء ضلوا سبيلهم ، أو موسيقيون عدموا كل موهبة موسيقية ! وليس أبغض إلى قلوب الشعراء من أن يقال عنهم إنهم فلاسفة صاغوا مذاهبهم بطريقة لاشعورية ، أو ميتافيزيقيون أعوزتهم الصياغة العقلية . والواقع أن الفيلسوف حريص دائماً على أن يقاس مذهبه بمقياس الحق لا الجمال ، في حين أن الشاعر يتطلب منا دائماً أن نحكم على شعره بمعايير الحسن والقبح لا بمعايير الصدق والكذب . فليس بدعا أن يستاء كل منهما لهذا الخلط البغيض بين الميتافيزيقا والشعر . حقا إن في الميتافيزيقا خيالا شعريا ضمنا ، كما أن في الشعر تفكيرا ميتافيزيقيا ضمنا ، ولكن الخيال الميتافيزيقي لا بد من أن يلبس قناعا عقليا تصوريا ، كما أن الفكرة الشعرية لا بد من أن ترتدى ثوبا حسيا عاطفيا . فليس في وسع الفيلسوف أن يقيم مذهباً ميتافيزيقيا متكاملًا على دعامة من الاحساس والخيال والعاطفة ، كما أنه ليس في وسع الشاعر أن يقدم لنا ملحمة شعرية تستند إلى براعة عقلية صرفة في الربط بين الأفكار والمفاهيم ! ومهما كان من أمر الجمال الفني الذي قد ينطوى عليه المذهب للميتافيزيقي ، فإن العمل الفلسفي هو أولاً وقبل كل شيء إنتاج عقلي يقوم على الفهم والتركيب والتأويل ، ومهما كان من أمر الحقيقة العقلية التي قد تكشف عنها القصيدة أو الملحمة ، فإن العمل الشعري هو أولاً وقبل كل شيء إنتاج فني يقوم على الاحساس والانفعال والتأثير .

وهنا قد يعترض البعض على التقريب بين الفلسفة والشعر ، بحجة أنه ليس في الشعر أى موضع للتفكير أو التعمق أو التصور الذهني بأى وجه من الوجوه .

وأصحاب هذا الرأي يبادرون في سردون علينا قصة المصور الفرنسي دوجا Degas الذى مضى يوما بشكو إلى الشاعر مالارميه Mallarmé ، حاملا بين أصابعه قصيدة كتبها بعد جهد جهيد ، وهو يقول : « لقد عانيت الأمرين ، ومع ذلك فقد كان لدى الكثير من الأفكار » ، فما كان من الشاعر الفرنسي الكبير سوى أن أجابه بقوله « حسنا يا دوجا ، ولكن القصيدة لا تصنع من أفكار ، وإنما تصنع من ألفاظ » . بيد أن دعاة هذا الرأي يتناسون أن اللغة الشعرية لا بد من أن تقول شيئا ، وأن سحر الشعر إنما يكمن على وجه التحديد في أنه يفتزع من الألفاظ طابعا للغوى العادى ، لكى يسبح عليها طابعا تعبيريا جديدا ، فلا يكون اللفظ سوى مجرد واسطة تنتقل عبرها الفكرة لكى تستحيل إلى تعبير . ولعل هذا ما عناه عالم النفس الفرنسي دلاكروا حينما كتب يقول : « إنه ليس ثمة فكر بالنسبة إلى الشاعر — كما هو الحال بالنسبة إلى سائر الفنانين — اللهم إلا إذا وقع هذا الفكر تحت طائلة الحس . ولا تكون الفكرة شعرية في حد ذاتها ، وإنما هي تصوير كذلك . وليس ثمة فكرة لا يمكن أن تصبح شعرية ، كما أنه ليس هناك شعر يستحيل علينا أن نستخلص منه فكرة شعرية . ولكن الفكر الشعرى ليس فكرا نفعيا ، أو فكرا منطوقيا ، أو فكرا نظريا ، بل هو أولا وبالذات فكر متلف في صور الخيال الرمزي » .^(١) وإذن فليس في وسعنا أن نقول مع مالارميه إن الشعر يتألف من « الألفاظ » وحدها ، بل لابد لنا من أن نسلم منذ البداية بأنه لا بد من « الأفكار » لكل من يريد أن يكون شاعرا أو مصورا أو موسيقارا . الخ . حقا إن لغة الشعر لا تنطوى على تفكير مجرد ، أو انفعال مجرد ، أو تحديد دقيق لبعض موضوعات الحس ، ولكن من المؤكد أن المرء لا يصبح شاعرا إلا إذا أحس بالرغبة في أن يقول شيئا ، وهو لن

H. Delacroix : « Psychologie de l'Art » , Paris, Alcan, (١)
1927, p. 93-4

يبحث هذه الرغبة اللهم إلا إذا انبثقت في ذهنه خطرات ، وأفكار ، وانفعالات ، تدفعه إلى أن يقول : لقد كذب لابرويير Labruyère حين قال « إن كل شيء قد قيل ، والرء لا يأتي إلا بعد فوات الأوان » . فليس الشجر ألقاذا ، وإيقاعا ، وموسيقى فحسب ، وإنما هو أيضاً أفكار ، وتعبير ، وحقيقة . ولن تكون شاعرا ، اللهم إلا إذا أحسست أنك تستطيع ببعض الألفاظ العادية أن تنقل إلى الآخرين أعمق الأفكار ، وأدق الأحاسيس ، وأرق الانفعالات . . .

والحق أن ما يجمع بين الشعر والميتافيزيقا إنما هو أولا وبالذات تلك « الصدمة Choc الميتافيزيقية » التي تحدثها لدينا بعض القصائد الرائعة ، وكأنما هي أنظار فلسفية عميقة قد كشفت لنا على حين فجأة عن قرارة الوجود الإنساني ، أو أعماق الطبيعة البشرية ، أو الفور السحيق للوجود العام نفسه . فالقصيدة العميقة لا تكاد تخبرني بشيء أجهله عن العالم الخارجي ، أو هي قلما تسكشف لي عن وقائع خاصة أذكرها للمرة الأولى . ، وإنما هي تجيء فتعبر لي بطريقة أصيلة عن إحساس غامض كان يعتورني ، أو تجربة ميتافيزيقية عميقة سبق لي أن مررت بها ، أو خبرة نفسية دقيقة اجتزتها في وقت ما من الأوقات . وهنا يجيء الشاعر فيكشف لي عما في الطبيعة من عنصر ميتافيزيقي ، أو يظهرني على ما في اللحظة العابرة من طابع أزلي أبدي ، وكأن الألفاظ التي يستخدمها الشاعر مجرد رموز تشير بطريقة خفية غامضة إلى عمق الحياة ، ولا نهائية الوجود ، وسر المصير . . . إلخ .

حقا إن الشعر لا ينطوي على تصورات ، ولا يكاد يستعين بأى مقولات أو مفاهيم ، ولكن من المؤكد أن ثمة ميتافيزيقا ضمنية تسكن في ثنايا قصائد كثير من الشعراء المتأخرين ، من أمثال كيتس ، ووردسورث ، وشلي ، وهيلدرن ، ونوفالس ، ووليم بليك ، وبول فاليري ، وكلودل ، وغيرهم . . . وإذا كان شلنج قد عرف الشعر بأنه اتحاد الشعور واللاشعور ، والداني والموضوعي ، فليس بدعا

أن تكون القصيدة أقدر الوسائل الفنية على التعبير عن متناقضات الوجود
الإنسانى بما يحىء معها من صراع وتوتر وتمزق . ونحن نعرف كيف وصف لنا
هرقلitus ، وهيجل ، وكيركجارد ، وبرجسون ، وغيرهم ، مظاهر هذا التناقض ؛
ولكننا نجد لدى شاعر مثل نوالس Novalis أروع تصوير لهذا التناقض الذى
حار فى وصفه كبار الفلاسفة : فى قصيدته المشهورة المسماة باسم « زواج
الفصول » ^(١) نراه يصف لنا اتحاد المتناقضات ، بينما نراه يحدثنا فى موضع آخر
عن « الشاعر » فيقول إنه الإنسان الذى يشعر على نحو مامن الأنحاء بالاشعور ،
أو هو الرجل الذى يحلم دون أن يكون مستغرقا فى النوم ، أو هو بالأحرى ذلك
الخلق الذى يظل مستيقظا حتى حين يحلم ! فليس الشاعر مجرد مجنون يهذى
بأبيات رائئة لا يدرى من أين استقاها ، وكأن الشعر إن هو إلا محض هذيان
أو مجرد أحلام ، وإنما الشاعر هو ذلك الخلق الناطق الذى يريد أن ينظم أحلامه ،
ويسيطر على هذيانه ، ويتحكم فى أحاسيسه ، لكي يصوغها على صورة موسيقى
تمتزج فيها الفكرة بالعاطفة ، وتتجد فيها المعانى والألفاظ .

فإذا ما تساءلنا بعد هذا عن المراد بالميثافيزيقا ، وجدنا أن موضوع الميثافيزيقا
قد تغير على مر العصور : فهى كانت تعنى عند أفلاطون علم المثل ، ثم صارت
عند أرسطو علم العلل ، ولم تلبث أن أصبحت عند المدرسة الأفلاطونية الحديثة
بمثابة علم الوحدة . أما فى العصور الحديثة فقد فهم ديكارت من الميثافيزيقا أنها
علم اللامادى ، بينما اعتبرها اسبينوزا علم الجوهر ، وجعل منها ملبرانش علم الصور ،
وليبنيتس علم القوى البسيطة أو الذرات الروحية . ثم جاء شلنج فأحالمها إلى علم
المطلق ، بينما جعل منها هيجل علم « الفكرة الحضة » أو الحقيقة الروحية
الخالصة . . . إلخ . ولكن مهما كان من اختلاف موضوع الميثافيزيقا عند كل

هؤلاء الفلاسفة ، فإن من المؤكد أنهم جميعا كانوا يعدون الجهد الميتافيزيقي بمثابة محاولة شاقة يبذلها العقل البشرى فى سبيل الهبوط إلى قرارة الأشياء ، أو الصعود إلى قمتها . ومعنى هذا أن الميتافيزيقي إنما هو — على حد تعبير جاك ماريتان — ذلك المفكر الذى يؤمن بأن عقل الإنسان يعلو على الإنسان ، وأن فى وسع الموجود البشرى بوصفه موجودا ميتافيزيقيا أن يطير بأجنحة ! فإذا ما قيل لنا إنه ليس لدى البشر سوى أرجل وأذرع ، كان رد الميتافيزيقي على هذا القول أن لدى البشر أيضا أجنحة متقلصة ، وأن فى إمكان هذه الأجنحة أن تنمو ، لو كان لدينا القدر الكافى من الشجاعة ، ولو استطعنا أن نفهم أننا لا نتكئ على الأرض وحدها ، وأن الهواء الذى يحيط بنا ليس مجرد فراغ ^(١) فالـميتافيزيقا الحقـة إنما هى تلك التى تستطيع أن تقول « إن مملكتى ليست من هذا العالم » ، والميتافيزيقي الحق إنما هو ذلك الإنسان الذى يريد أن ينمطف برأسه نحو النجوم ، مثبتا قدميه فى الوقت نفسه فوق الأرض .

ولو أننا اعتبرنا « علاقة الإنسان بالكون » هى المشكلة الميتافيزيقية الأولى ، لوجدنا أن الشعراء قد اهتموا بحل هذه المشكلة على طريقتهم الخاصة ، فاستوعبوا شتى المواقف المحتملة فى تحديد صلة الإنسان بالطبيعة . فهذا ليكونت دى ليل Leconte De Lisle فى « أشعاره البربرية » يهتف قائلا : « صه أيها الإنسان ، فإن السماء خرساء ، والأرض نفسها تزدريك » ، وكأنما هو يريد أن يقول لنا إنه ليس فى العالم سوى آلية عمياء ، وأن الإنسان نفسه ليس سوى عرض زائل لا معنى له . وهذا ألفريد دى فى Vigny فى قصيدته المشهورة « بيت الراعى » يعبر عن عظمة الانسان وقدرته على فرض نظامه الخاص وقيمه الإنسانية على الكون فيقول : « لقد أضاع الراعى مسكنه المتواضع ، فأثبت أنه أعظم من الكون

Cf. Jacques Maritain : "Les Degrés du Savoir", 4^e éd. (١)
1946 p. 6.

وأما إذا اتجهنا بأنظارنا نحو الشعر الانجليزي ، فس نجد لدى كل من وردسوورث وشيلي آثاراً أفلاطونية ظاهرة تدلنا على أن هذين الشاعرين قد شاءا أن يتمردا على آلية العلم ، لكي يكشفنا عما تنطوي عليه الطبيعة من قيم جمالية . ولكن على حين أن وردسوورث قد حرص على أن يكشف لنا عما في الطبيعة من ثبات واستمرار ودوام ، نجد أن شيلي قد اهتم على وجه الخصوص بإبراز ما في الطبيعة من حركة وصيرورة وتغير . وقد وضع الفيلسوف الانجليزي المعاصر هويتهد Whitehead « ١٨٦١ — ١٩٤٧ » كلا من بركلي من جهة ، ووردسوورث وشيلي من جهة أخرى ، على قدم المساواة ، فقال إن هذه الشخصيات الثلاث تمثل اتجاهات حداثياً يرفض ميكانيكية العلم المجردة . وليس في وسعنا هنا أن نأتى على نماذج عديدة لقصائد كل من وردسوورث وشيلي التي تبدو فيها بوضوح تلك النزعة المثالية الأفلاطونية ، وإنما حسبنا أن نشير إلى قصيدة وردسوورث المسماة Prelude حيث نراه يتحدث عما في الطبيعة من وحدات عضوية ملتحمة ، يشعر كل منها بحضرة الآخر ، أو قصيدة شيلي المسماة Mont Blanc حيث نراه يصف لنا تداخل المناظر الطبيعية والعقل البشري ، لكي نتحقق من أن هذين الشاعرين الرومانتيكيين قد نظرا إلى الطبيعة نظرة عضوية حيوية ، فحاولا أن يعيدا إلى عقلية عصرهما العلمية الآلية خبرات ميتافيزيقية طمست معالمها مادية العلم .^(١)

وقد اهتم هويتهد بتحليل قصائد كل من وردسوورث وشيلي ، فحاول أن يكشف لنا عما تنطوي عليه تلك القصائد من تعبير جمالي حتى عن مفاهيم التنغير ، والقيمة ، والموضوعات الأزلية الأبدية ، والثبات ، والتعضون ، وتداخل الموجودات . فحاول أن يصف لنا ما في الطبيعة من تغير ، فراح يصف لنا ما في الظواهر الطبيعية من تحول وصيرورة وتطور مستمر ، بينما راع وردسوورث

A. N. Whitehead : "Science and the Modern World" (١)
A. Mentor book, N-Y, 1958, pp. 83-89 .

ما في الطبيعة من ثبات ، فمضى يصور لنا ما في الظواهر الطبيعية من دوام وبقاء وحضرة مستمرة ، ولكن كلا منهما قد عاد إلى الطبيعة ، فاهتم بإبراز ما تنطوي عليه من قيم جمالية ، وحاول الكشف عن حضرة الكل الضمنية في أجزائه العديدة المتناثرة . وهكذا جاء الشعر الرومانتيكي الانجليزي فأظهرنا على الصلة الوثيقة التي تجمع بين الميتافيزيقا والشعر ، بوصفهما نقدا لتجريدات العلم الآلية الضيقة ، وعودا إلى الواقعة الفردية المشخصة ، وكشفنا لما تنطوي عليه الطبيعة من وحدة عضوية حية .

ولكن على حين نجد لدى وردسووث وشيلي أن « الطبيعة » في سكونها وحركتها هي الوجود ، نرى نوفالس وهيلدرن يميلان من « الزمان » صميم الوجود . وقد سبق لنا أن رأينا كيف اهتم نوفالس بتصوير هذا الاختلاط العجيب الذي يتم في نفوسنا بين الاحساس بالجديد والاحساس بالتقديم ، وكيف قرر أن شعورنا بالآن قد يكون في الوقت نفسه شعورا بالأبدية . فليس « الآن » عند نوفالس مجرد لحظة عابرة ، بل إن الأبدية نفسها ماثلة في صميم « الآن » . وهذه الفكرة نفسها تتردد بكثرة عند الشاعر الانجليزي الصوفي وليم بليك W. Blake « ١٧٥٧ - ١٨٢٧ » ، فنراه يجعل من مهمة الشاعر أن يستبقى اللحظة العابرة ، لكي يضيف عليها ضربا من الثبات ، وكأن المرء حين يريد هذه اللحظة أو تلك إنما يقدسها ويخلع عليها نوعا من الأبدية ! وأما هيلدرن فإنه يحاول عن طريق الشعر أن يكشف لنا عن ذلك الطابع التاريخي الزماني الذي يكوّن صميم وجودنا ، بوصفنا كائنات ممزقة مقسمة إلى ماض وحاضر ومستقبل ، ولكنها تسعى جاهدة في سبيل استرداد وحدتها بالارتكان إلى دعامة ثابتة مستديمة . فنحن في صميمنا « حوار » مستمر بين الكثرة والوحدة ، بين الاختلاط والاتحاد ، بين التمزق والتكامل ، بين ديونيزوس والمسيح ! وهذا الحوار المستمر الذي

يتحقق عبر الزمان إنما هو سبيلنا الأوحى إلى الأبدية^(١). حقا إن بعض قصائد هيلدرن قد لا تنطوي على أى مدلول ميتافيزيقي، ولكننا نستشف من ورائها أحيانا بعض الأضواء الفلسفية، فنشعر بأن صاحبها لا يكاد يرى في أحداث الحياة أى معنى، اللهم إلا أنها خلو من المعنى! ولكن هيلدرن حتى حين يشعرنا بأننا موجودون على ظهر البسيطة دون أن ندري لوجودنا أى سبب، يعود فيمجد «الآن» أو اللحظة، بوصفها تلك الخبرة الحية التي نعيشها في الحاضر. وكثيرا ما يصف لنا هيلدرن مناظر عادية مألوقة، ولكننا مع ذلك نلح في وصفه لها نبرة ميتافيزيقية عميقة تسكاد تمضى بنا إلى قرارة الحياة نفسها. فليس من الضروري للشاعر أن يقحم الفلسفة أو التأملات العقلية على صميم قصائده، لكي يصطبغ شعره بالصبغة الميتافيزيقية، وإنما حسبه أن يعبر بأصالة عن إحساسه بالوجود، لكي تجيء صورته الشعرية عامرة بالآفكار الميتافيزيقية التي لا سبيل إلى صياغتها أو تحديدها.

والواقع أن الشاعر كثيرا ما يذبح في الوصول إلى قرارة الأشياء، على حين يظل فكر الميتافيزيقي - بتصوراته الجامدة - قاصرا عن بلوغ الأغوار السحيقة! حقا لقد حاول كل من نيتشه وبوهمه Boehme وشلنج الوصول إلى «ما تحت الطبيعة»، ولكن ويتان Whitman ولورنس Lawrence وبول فاليري Valery قد وقفوا إلى ما لم يوفق إليه هؤلاء، فاستطاعوا أن يكشفوا لنا من خلال صورهم الشعرية عن تلك الأغوار السحيقة التي تسكن في قاع الطبيعة. والظاهر أن لدى الشاعر إحساسا بما في الوجود من اضطراب، وما في اللاوجود من نقاء، فليس بدعا أن نجد لدى مالارميه، وفاليري، وغيرها تعبيرات شعرية رائعة عن اللاوجود، والممكن، والواقعي، إلى آخر تلك المفاهيم الميتافيزيقية التي عبر عنها

M. Heidegger : "Hölderlin et l'Essence de la Poésie" (١)
 dans : "Qu'est-ce que la Métaphysique ?", trad. par Corbin,
 NRF., 1951 p. 241.

هؤلاء الشعراء المتمازون بموسيقاهم اللفظية الباردة . وربما كان في وسعنا أن نقول إن مالارميه لم يسطع الشعر إلا لكي يعبر عن إحساسه بالعدم ، « سواء اتخذ هذا العدم صورة الخواء أم الظلام » وشعوره بالصدفة التي لا سبيل إلى محوها . . . إلخ . فلم يكن الشعر عند مالارميه سوى وسيلة للتعبير عن اللاوجود أو العدم ، والصدفة ، والامكان . . . إلخ .

وهنا قد يقول قائل : « إنكم تحملون الشعر فوق ما يحتمل ، فما كان الشاعر يوما فيلسوفا أو نبيا أو رائيا ، وإنما هو إنسان يتغنى بما يجيش به قلبه ، ويتعفف الناس بأهازيج حبه وروائع خياله . » . وردنا على هذا الاعتراض أن كبار الشعراء من أمثال هوميروس وسوفوكليس وفرجيل ودانتي وشكسبير وجيتيه وهيلدرلن ورلكه لم يكونوا مجرد فنانيين يحرصون على « الجمال » ، بل هم قد كانوا أولا وبالذات وسطاء بين الآلهة والبشر ، يحملون إلى الأرض رسالة « للطلق » أو « الحقيقة المقدسة » the holy . ولعل هذا ما عناه هيلدرلن حينما أنشد يقول : « ماذا نعمل وماذا نقول في هذه الفترة الأليمة من الانتظار الطويل ؟ لست أدري ! وأي جدوى للشعراء في هذا الزمان القاسي المجدب ؟ لعمري إنهم — إن كنت لا تعلم — كهنة ديونيزيوس المطهرون ، ولا بد لهم من أن يجوبوا بقاع الأرض ضارين في دياجير هذا الليل المقدس . » . فليس الشاعر في نظر هيلدرلن أو هيدجر مجرد فنان ينطق بلسان حال « الجمال » ، بل هو نبى أو راء يذيع على الناس سر « الحقيقة القدسية » . وليس معنى هذا أن نضع الشعراء في مصاف الرُّسل أو الأنبياء (بالمعنى الدينى الدقيق) وإنما المقصود أن رسالة الشاعر تنحصر أولا وقبل كل شيء في إظهار الناس على الحقيقة القدسية السكينة في قلب الوجود . فالشاعر يحمل رسالة روحية كهري : لأنه لا بد من أن يضطلع بمهمة التعبير عن تلك « الرموز » أو « العلامات » التي هي منذ القدم لغة الآلهة . وحين يقول

هيلدرن « إن الشاعر هو الذى يسمى الآلهة وينطق باسمهم » فإنه يعنى بذلك أن وظيفة الشاعر إنما تبدأ حين يأخذ على عاتقه أن يفضى إلى الناس بسر خبرته الروحية ، وأن يعلن على الملأ حقيقة الشيء المقدس الذى أتيح له الوقوف عليه . وهذا ما فعله — على وجه التحديد — فى الأيام الأخيرة شاعران من أكبر شعراء الألمان ألا وهما ستيفان جورج Stefan George ورينر ماريا رلكه Rainer Maria Rilke .

يبد أن الشاعر حين ينطق باسم الآلهة ، فإنه لا يلنى الزمان ، ولا يتجاهل حاجات عصره ، بل هو يستشعر الحاجة الروحية التى تعتور قلوب بنى جنسه ، ويربط شعره بالنوازع الدينية التى تيجش فى صدور أهل عصره . ومن هنا فقد أعلن هيلدرن — حتى قبل أن يصيح نيتشه بعبارته المشهورة التى أكد فيها أن « الله قد مات » — زوال الآلهة القديمة ، وراح يبشر بمقدم إله جديد . وقد سائر هيدجر شاعره المحبوب هيلدرن فنادى بسقوط الآلهة ، وإن كان قد اعترف بأن وجود الله واقعة لا شك فى صحتها . ومعنى هذا أن هيدجر قد ذهب إلى أن مأساة العصر الحاضر إنما هى صمت الآلهة ، أو اختفاء الحضرة الإلهية ، حتى لم يعد فى وسع الإنسان أن يسمى الله باسمه الحقيقى . . . وهذا بعينه ما حاول هيلدرن أن يعبر عنه بألفاظه القوية الساحرة حينما أنشد يقول : « ولكن ، يا صديقى ، إننا لم نجب . إلا بعد فوات لأوان ! حقاً إن الآلهة حية ما فى ذلك شك ، ولكنها تحيا فوق رؤوسنا فى عالم آخر ، وهى تعمل هناك بلا انقطاع ، دون أن يخطر على بالها أننا أيضاً نحيا ! وكأن أهل السماء يشفقون علينا ، فما يقوى الاناء الهش الضعيف على أن يضم بين جنباته ذلك الفيض الإلهى الدافق . . . » ويمضى هيلدرن فى وصف شقاء الإنسان الحديث بمد أن خلفته الآلهة وحيداً لا سند له ولا عون ، ولكنه يعلن أن الحقيقة القدسية لم تمت ، ويبشر الإنسان الحديث بمقدم إله جديد : ففى

أعماق العدم الذى يرين على الموجود البشرى من كل صوب ، إنما تكن نباشير
الفجر الإلهى الجديد^(١)

ولسنا نريد أن نسترسل فى المقارنة بين هيلدرن وهيدجر ، وإنما حسبنا أن
نقول إن تلاقيهما لم يكن من قبيل الصدفة ، بل لقد جمعت بينهما تلك الرغبة
المشتركة فى النزول إلى أعماق الهاوية من أجل الكشف عما وراء النجوم . حقا إنه
قد يكون من الخطأ أن نبحت عن « أفكار » لدى هيلدرن ، أو عن « شعر »
لدى هيدجر ، ولكن من المؤكد أن ثمة « حقيقة ميتافيزيقة شعرية » تفرض
نفسها علينا من خلال أشعار الواحد وأفكار الآخر . وليس بدعا أن يتلاقى هيدجر
وهيلدرن ، فقد تلاقى من قبل كانت وشيار ، وشوبنهاور وجيته ، وهو يتهد وشلى
ووردسوورث ، وبرجسون وبول كلودل . الخ . . ولئن كان فيلسوف مثل
أفلاطون قد حمل بشدة على شعراء اليونان من أمثال هزود وهوميروس ، إلا
أن أفلاطون نفسه هو الذى مزج الشعر بالفلسفة إلى أعلى درجة ، وأفلاطونيته
هى التى فتحت السبيل أمام الكثير من الشعراء (عبر المصور التاريخية المتعاقبة)
للتسلل إلى الميتافيزيقا . وليس غريبا أن نجد لدى كثير من الفلاسفة المعاصرين
اهتماما زائدا بالشعر والشعراء : فإن قصائد بودلير ، وكيثس ، وفاليري ، ورلكه ،
ونوفالس ، ورامبو ، وويتمان ، وغيرهم ، كثيرا ما تتقادنا إلى صميم « المنطقة
الميتافيزيقية » ، دون وسائط عقلية أو تصورات ذهنية . لسنا نغنى بذلك أن مزاج
الفلاسفة هو بعينه مزاج الشعراء ، أو إن عبقرية الميتافيزيقي وعبقرية الشاعر هما
بالضرورة من فصيلة واحدة ، وإنما كل ما نريد أن نقرره هو أن التعبيرات الشعرية
كثيرا ما تنجى مليئة بالشحنات الميتافيزيقية ، كما أن المفاهيم الميتافيزيقية كثيرا

Cf. M. Heidegger : " Existence and Being ", Vision, (١)
London, 1949, (An account on the Four Essays by W. Brock)
pp. 190-192.

ما نتجىء مُتَلَفَةً بالرموز الشعرية . وهل استطاع الفيلسوف يوماً أن يجتاز مرحلة الخيال ، لكن يقبض على الحقيقة بمُجْمَع يديه ، ويزعم لنفسه أنه ليس في فلسفته سوى البدهاءة والوضوح واليقين والنظر العقلي الخالص ؟ أو هل نجح الميتافيزيقي يوماً في القضاء على الأساطير والرموز والشفرات ، حتى يدعى أنه ليس في مذهبه سوى نتائج مستخلصة من مقدمات ؟ !

هنا قد يقول البعض إن الفكر الذي يلجئ إلى الشعر والرمز والتشبيه لم هو فكر غامض لم يستطع بعد أن يستبين ذاته ، ولكننا لو عدنا إلى تاريخ التفكير الميتافيزيقي ، لاستطعنا أن نقف على الصلة الوثيقة التي طالما جمعت بين الحقيقة والشعر . ومهما حاول الفيلسوف أن يحكم عقله في كل شيء بل مهما وقع في ظاه أن مذهبه الميتافيزيقي هو نظر عقلي خالص ، فإنه لا بد من أن يجد نفسه محمولا على أجنحة الخيال إلى عالم تختلط فيه الحقيقة بالشعر ، ويمتزج فيه الواقع بالمثال . وحتى حين يبدو لنا أن ثمة صراعا من قبل الميتافيزيقي ضد الشعر ، أو من قبل الشعر ضد الميتافيزيقي ، فإن هذا لن يمنعنا من الاعتراف بما يجمع بينهما من صلة وثيقة : لأنه ما يكاد الواحد منهما يصمت ، حتى يرتفع صوت الآخر ، وما يكاد الواحد منهما يتهقر أو يعترف بالهزيمة ، حتى يتقدم الآخر لكي يأخذ بيده . . .

ولعل هذا ما أراد جان فال أن يعبر عنه حينما تصور الميتافيزيقي مخاطب الشعر فتقول له : « أيها الشعر ، إنك لعمري أخى الوفي ، فليرتفع صوتك عاليا ، ولتعلم أنني أنصت إليك ، فإنني حينما ألقى إليك السمع ، إنما أكون أنا المتكلمة ! » . ولئن كنا نجعل — كما يقول فال — ماذا عسى أن تكون الميتافيزيقي ، وماذا عسى أن يكون الشعر ، إلا أننا نعلم على الأقل أن جوهر الشعر لا بد من أن يظل ميتافيزيقيا ، ومن الجائز أيضاً أن يظل جوهر الميتافيزيقي شعريا . . أليست الميتافيزيقي هي شعر الفلاسفة ، كما أن الشعر هو ميتافيزيقي الأدباء ؟ ألا يصبح الفيلسوف شاعرا لكي يصير ميتافيزيقيا أفضل ، والشاعر فيلسوفا لكي يصير شاعرا أفضل ؟ !

٢ — الرواية الوجودية

ليس من شك في أن القارئ العربي الذى اطلع على روايات سارتر أو كامو أو سيمون دى بوفوار ، يعلم تمام العلم أنه بإزاء نوع جديد من « الرواية » غير ما اعتاد أن يقرأه لدى روائيين آخرين من أمثال فلوير أو بلزاك أو إميل زولا أو غيرهم . ولكنك لو ساءلت القارئ العادى عما يميز هذه الروايات « الوجودية » — إن صح هذا التعبير — عما عداها من الروايات ، لكان جوابه أنها روايات فلسفية تناقش مشكلات ميتافيزيقية في سياق روائى ، فتقدم لنا مزيجاً من « الأدب الفلسفى »^(١) . ونحن لا ننكر أن « الرواية الوجودية » رواية فلسفية تمزج الأدب بالميتافيزيقا ، وتحلل الإنسان بوصفه موجوداً حراً تفيض تجربة بالعمق والثراء والواقعية ، ولكننا نعتقد أن روائيين كثيرين قبل سارتر وأتباعه قد قدموا لنا من خلال أعمالهم الفنية نظرات خاصة إلى الوجود . حقا إن هؤلاء الروائيين لم يقدموا لنا قضايا حاولوا البرهنة عليها ، أو موضوعات أرادوا التدليل على صحتها ، ولكنهم حاولوا أن يضعوا بين أيدينا أحداثاً إنسانية تنطوى على مدلولات فلسفية ، ومواقف بشرية لا تخلو من معانٍ ميتافيزيقية . وحسبنا أن نرجع إلى بلزاك وستندال ودوستويفسكى وبروست ومالرو وكافكا وغيرهم ، لكي نتحقق من أن كل هؤلاء — وغيرهم كثير — روائيون فلاسفة قد اهتموا بمشكلات المصير الشخصى ، والقلق أمام الموت ، والعلاقات الشخصية مع الآخرين ، وصراع الحب ، وغير ذلك من موضوعات إنسانية ترتبط بالآلام الفرد وآماله . . .

Cf. R. Campbell : "J. P. Sartre : Une Littérature Philosophique", Paris, Pierre Ardent, 3e éd., 1947. (١)

بيد أن الرواية الوجودية لم تعد تقف من الإنسان موقفا موضوعيا على نحو ما كان يفعل فلويد ، أو موقفا تهكيا ساخرا على نحو ما كان يفعل أناتول فرانس ، كما أنها لم تعد تهتم بأن تقدم لنا عن الإنسان دراسات اجتماعية طويلة الباع على نحو ما كان يفعل بلزاك أو إميل زولا ، بل هي قد أصبحت تقدم لنا عن الإنسان صورة واقعية ملموسة ، تصوره لنا في إطاره الاجتماعي المعتدل ، أو تصفه لنا في جوه العائلي الاعتيادي ، فتكشف لنا عن عمق أهوائه ورذائله وشتى مظاهر نقصه ، وتجرده من وظائفه الاجتماعية لكي تضعه وجها لوجه أمامنا على نحو ما هو في صميم علاقته بذاته ، وبالعالم ، وبغيره من أبناء هذا العالم . . . ولعل هذا هو ما أرادت سيمون دي بوفوار أن تعبر عنه حينما كتبت تقول : « إن لكل تجربة إنسانية بعداً سيكولوجيا خاصا . ولكن على حين نجد أن البحث النظري يستخلص تلك المعاني محاولا دائما أن يكوّن منها مركبا عقليا مجردا ، نرى أن الروائي يعبر عنها تعبيراً حيا بأن يضعها في سياقها الفردي الواقعي . وإذا كان بروسث مثلاً يبدو مملا سقيا باعتباره تلميذاً لرييو ، حتى أننا لنسكاد نجزم بأنه لا يأتي بجديد على الإطلاق ، فإنه بوصفه روائيا أصيلا يكشف لنا عن حقائق جديدة لم يستطع أي باحث نظري في عصره أن يشير ضمنا أو صراحة إلى أي معادل تجريدي لها »^(١) .

والواقع أن الوجودية إن هي إلا جهد يراود به التوفيق بين الموضوعي والذاتي ، بين المطلق والنسبي ، بين اللازمي والتاريخي ، بين العمق الفكري والثقيل المادي . . الخ . والوجودية أيضا محاولة إنسانية شاقة من أجل إدراك الماهية في صميم الوجود ، والكشف عن معنى الحياة من خلال المواقف والأحداث . فليس بدعا أن نراها

Simone de Beauvoir : "L'Existentialisme et la Sagesse" (١)
des Nations", Paris, Nagel, 1948, p. 114.

ترحب بالرواية ، وتصطنع أسلوب التأليف الروائى ، مادامت الرواية هى التى تسمح للفيلسوف بأن « يقف على الانبثاق الأصيل للوجود فى حقيقته الكاملة النوعية التاريخية » . حقا إن ثمة فلاسفة يزددون أسلوب التعبير الروائى ، ولا يرون موضعا للمزج بين الفلسفة والقصة ، ولكن هؤلاء — فيما تقول سيمون دى بوفوار — إنما هم أولئك الفلاسفة الذين يفصلون الماهية عن الوجود ، ويحتفرون « للمظهر » بوصفه دون « الحقيقة المستترة » ، وأما إذا عرّفنا أن « المظهر » نفسه « حقيقة » ، وأن « الوجود » إنما هو حامل « الماهية » ، وأنه لا سبيل إلى فصل الابداسية عن الوجه الباسم ، ومعنى الحدث عن الحدث نفسه ، فهناك لابد لماننا الفلسفى من أن يعبر عن نفسه من خلال اللمع الحسية والبارق للمادية (على حد الاصطلاح الصوفى الاسلامى) التى تنبعث من العالم الأرضى نفسه . ومن هنا فقد التجأ الفكر الوجودى إلى الروايات والقصص والمسرحيات ، ليلتمس فيها تعبيراً حياً خصباً عن شتى خبرات الانسان الوجودية بوصفه « كائناً ميتافيزيقياً » يحيا فى العالم ومع الآخرين .

ولا تنحصر مهمة الروائى الوجودى فى استغلال بعض الحقائق السابقة المحصلة فلسفياً ، فى مضمار العمل الأدبى أو الإنتاج الفنى ، وإنما تنحصر مهمته فى الكشف عن « مظهر » معين من مظاهر التجربة الميتافيزيقية ، ألا وهو ذلك المظهر الذى لا سبيل إلى تبيانته على أى نحو آخر ، نظراً لما يتسم به من طابع ذاتى ، جزئى ، درامى . وما دامت الحقيقة — فيما يرى الوجوديون — لا تدرك عن طريق العقل وحده ، فإن أى وصف عقلى لا يمكن أن يقدم لنا عن « الواقع » صورة صادقة مكافئة . ولهذا يحاول الروائيون الوجوديون أن يعبروا عن الواقع فى شتى مظاهره ، على نحو ما ينكشف لهم من خلال تلك العلاقة الحية التى تربط الانسان بالعالم ، وهى تلك العلاقة التى يقولون إنها فى صميمها فعل وعاطفة ، قبل أن تكون فكراً

وتصوراً . وم حين يصطنعون الرواية للتعبير عن الواقع على هذا النحو من العمق والنفاذ والنصاعة ، فإنهم لا يسترسلون في شرح تعليمي يقتل الرواية أو يحيلها إلى مجرد محاضرة فلسفية ، بل هم يكتيفون للملاحظات الذاتية مع اللقطات الموضوعية ، ويحققون التكامل بين تحليل العواطف وتوازن الأحداث أو المواقف . وعلى حين أن بعض دعاة « الأدب الموجّه » قد يتخذون من الرواية مجرد خريفة أو مناسبة لتقديم بعض الدعاوى الفكرية أو القضايا الفلسفية ، نجد أن جماعة الروائيين الوجوديين يعمقون أحداث الحياة اليومية على مستوى ميتافيزيقي ، فينفذون إلى جذور الوجود الإنساني ، دون التوقف عند المناقشات الفكرية الخالصة أو المساجلات الجدلية المحضة .

صحيح أن رواية « الغريب » لألبير كامو هي تصوير روائى لفلسفته المبتنية ، وصحيح أيضاً أن روايته « الطاعون » تعرض لنا في ثنايا أحداثها الدرامية قضية « الإنسان المتمرّد » . ولكن من المؤكد أن كامو — في كلتا الروايتين — إنما يقيم لنا عملاً فلسفياً نستمتع به ونستغرق فيه ، دون أن يحشد في هذا العمل أدلة عقلية أو براهين فلسفية . وقد نجد في رواية « المثقفين » أسيمون دى بوفوار بعض مناقشات فلسفية أو مساجلات سياسية تجري بين بعض أشخاص الرواية ، ولكن الذى لا شك فيه أن القضايا التى يطرحها هؤلاء الأشخاص ليست محض قضايا ميتافيزيقية مجردة ، بل هي مواقف إنسانية حية تنبع من صميم تجاربهم المعاشة... والواقع أنه ليس أفسد للعمل الأدبى — روائياً كان أم مسرحياً — من أن يتخذ صورة قضية يظهر صاحبها بمظهر الباحث الذى يسعى جاهداً في سبيل الحصول على أدلة أو براهين لتأييد مذهب أو الدفاع عن قضية . وربما كان برييه محققاً حين يقول : « إن ثمة أعمالاً أدبية نجد فيها أن الروائى قد استحال إلى مفكر جدلى ، كما أن ثمة أعمالاً فلسفية نجد فيها أن المفكر الجدلى قد استحال إلى روائى ، ولكن من المؤكد أن مثل هذه الأعمال إنما هي الدليل القاطع على أن عصرنا

الحاضر لا يخلو — مع الأسف — من ذوق رديء ، وفهم سيء ، وميل إلى الخلط ^(١) . وقد يقع في ظن البعض أن برييه يشير من طرف خفي إلى بعض الأعمال الأدبية التي أنتجها الوجوديون ، ولكننا نعتقد أنه إذا صح أن هذا الحكم قد يصدق على بعض مسرحيات جبرييل مارسيل ، فإنه قد يكون من التجنى الصارخ أن نطبق مثل هذا الحكم على روايات سارتر ، أو سيمون دي بوفوار ، أو ألبير كامو . والسبب في ذلك أننا لا نجد عند هؤلاء قضايا جاهزة يحاولون البرهنة عليها ، أو تعاليم عقلية يعملون على إثبات صحتها ، بل نحن نجد لديهم دائماً أبدا مواقف إنسانية معاشة ، وأحداثاً تاريخية معمقة ، وربطاً مستمراً للخاص بالعام . ويمجبنى — في هذا الصدد — ما كتبه أحد إخواننا العرب في تعليق له على رواية « المتنفذين » لسيمون دي بوفوار ، فقد فطن هذا الباحث إلى أن « مهارة الكاتبة وذكاءها كروائية أصيلة ينبعان من قدرتها على تطوير كل قضية يطرحها العالم الخارجى على أبطالها تطويراً تتعمق فيه هذه القضية حتى تصل إلى مستوى الموقف الإنسانى من الحياة بأكملها .. وإن تعميق الأحداث على هذا المستوى يحمل قدرة فائقة تشير إلى إمكانية البحث في حياتنا اليومية على مستوى موقفنا من الوجود . لقد نبذت الكاتبة المشاكل الفكرية التقليدية التي طرقتها كل من جوته ودوستويفسكى وتولستوى ، وهى مشاكل ميتافيزيقية فى جوهرها ، وقدمت لنا الحياة اليومية فى منظور وجودى يمدح كل حادثة عمقا يصل بها إلى جذور الحياة فى معناها وجدواها أو عبثها ^(٢) .

حقاً إن سيمون دي بوفوار نفسها قد اعترفت بأن الراوية الوجودية هى فى صميمها تعبير عن « البعد الميتافيزيقى » الذى يعحرك عبره الوجود البشرى ، ولكن

E. Bréhier : “Transformation de la Philosophie Française” (١) 1950, pp 190-194.

(٢) محمى الدين صبحى : « المتنفذون فى عالم جامع » ، مجلة الآداب ، أكتوبر سنة ١٩٦٢ ، ص ٥٩ (العدد الماشر) .

من المؤكد أن هذا « البعد الميتافيزيقي » إنما ينكشف في « الرواية الوجودية » من خلال مواقف متعارضة وأحداث متشابكة ، ومشاعر متناقضة . . . إلخ . وليس من الغريب أن تكون ثمة رواية سارترية ، ما دامت وجودية سارتر هي في صميمها ، فلسفة تؤكد بكل قوة ما للتجربة من طابع ذاتي ، جزئي ، عيني ، درامي ، تاريخي ، زماني .

وإذا كان من المستحيل أن تتصور رواية أرسططالية أو أسيبنوزية أو ليننتسية ، فذلك لأنه ليس للذاتية أو الزمانية أى موضع في مذهب أرسطو أو أسيبنوزا أو ليننتس . وأما عند سارتر ، فإننا دائماً بصدد مواقف ميتافيزيقية ينكشف من خلالها قلق الإنسان ، وعيب الحياة ، وصراع الحريات ، وجزع الوجود البشري من الموت ، وحينه إلى المطلق . إلخ . وحين يحاول الفيلسوف الوجودي أن يعبر عن هذه المواقف الميتافيزيقية ، فإنه لا يفسرها على الأحداث قسراً ، كما أنه لا يسقطها على الشخصيات إسقاطاً ، بل هو يضعها في سياقها الواقعي الجزئي ، ويدعها تنطق بلفتها الخاصة من خلال اللقطات الموضوعية . ومن هنا فإن أبطال سارتر أو كامو أو سيمون دي بوفوار ليسوا بالضرورة فلاسفة أو مفكرين أو أهل جدل ، بل هم أولاً وبالذات موجودات بشرية تواجه مصيرها ، ويعمل كل منها على تعميق كل قضية تعترضه ، مدركاً في الوقت نفسه أنه « ملتزم » أمام نفسه ، وأمام العالم ، وأمام الآخرين .

والحق أن الرواية الوجودية ليست مجرد عمل أدبي يجمع بين العمق الفلسفي والتحليل النفسي ، بل هي أيضاً أسلوب جديد من أساليب التعبير الميتافيزيقي تنبع فيه عقدة القصة من ربط أحداث الحياة بمعناها وغايتها . وهكذا يبدو لنا « الإنسان » في الرواية الوجودية كائنًا مشخصاً تربطه بالعالم علاقات ديناميكية معقدة ، وينتفضي وجوده في داخل هذا الإطار الخارجي الذي يعيش فيه ، وتتعدد

حريته في نطاق ذلك السياق التاريخي الذي يحيا بين ظهرانيه ... وما كان الإنسان « موجودا ميتافيزيقيا » إلا لأنه يضع نفسه دائما ككل ، بإزاء العالم بأسره ككل ، فيواجه العالم في كل لحظة ، ويركب عالمه الخاص ابتداء من بعض المواقف الوجودية الخاصة . وحينما يقول بعض الوجوديين إن لكل حدث إنساني دلالة ميتافيزيقية ، فإنهم يعنون بذلك أن الإنسان يجد نفسه دائما في كل حدث من الأحداث « ملتزما » بأسره ، في العالم بأسره . ومن هنا فإن أبطال سارتر وسيمون دي بوفوار وألبير كامو يكتشفون من خلال تجاربهم الوجودية حضورهم أمام العالم ، واستناد كل واحد منهم إلى ذاته وحدها ، ومقاومة القوات الأخرى له ، واختياره لنفسه بمقتضى حريته الخاصة . . . إلخ . حقا إن ثمة فوارق شخصية شاسعة بين ماتيو بطل « دروب الحرية » ، وهنري بيرون أحد أبطال « المتقنين » ، ومرسو بطل « الغريب » ، أو تارو أحد أبطال « الطاعون » ، ولكن من المؤكد أن كل هذه الشخصيات الوجودية إنما هي أولا وبالذات موجودات بشرية واعية تحيا قضايا الإنسان المعاصر بكثافة وعمق ونصاعة وجودية .

والظاهر أن الروائيين الوجوديين لم يريدوا لشخصياتهم أن تغفل بمثابة مخلوقات سلبية يدرسها النقاد، ويحللون سماتها، ويفسرون تصرفاتها ، بل هم قد شاءوا أن يقدموا لنا شخصيات واعية تضطلع هي نفسها بمهمة تفسير المعاني التصورية التي ينطوى عليها وجودها . . . وآية ذلك أن الشخصيات الروائية عند سارتر تقول هي نفسها كل ما يراد لها أن تقوله ، وكل ما يمكن أن يقوله عنها الآخرون ! ومعنى هذا أنها لم تعد بمثابة موضوعات دراسة ينثرها الروائي هنا وهناك ، وإنما هي قد أصبحت بمثابة شخصيات واعية تفهم ذاتها ، وتنفذ سلوكها ، وتعلق على تصرفاتها . فأنت — مثلا — إذا نظرت إلى شخصية ماتيو أو شخصية دانيال في رواية « دروب الحرية » ، وجدت نفسك بإزاء شخصية واعية لا تنتظر منك

أن تتعرف على طابعها الخاص ، أو أن تدرجها تحت بعض الأنماط الشخصية العامة ، لأنها هي نفسها تقوم بهذه المهمة لحسابها الخاص ، دون أن تنتظر من أى ناقد فى أن يحىء فيتأولها أو يفسرها أو يضطلع بشرحها ! فاتيوا — مثلا — يعلن منذ البداية شعار الحرية التى انتهجها لنفسه ، إذ يقول بصريح العبارة : « إن الحرية هي المنفى ، وأنا محكوم على بأن أكون حراً » .. وهو حين يقبع فى داخل ذاتيته ، فإنه يدرك تماما أن الحرية قضية شخصية ، وأن المنفى هو ممارسة لارادته المطلقة ، ولكن الأحداث التى اختلفت على فرنسا إبان الحرب لا تلبث أن تظهره على أن الحرية ليست مجرد انطلاق طائش للإرادة ، بل هي تعبير عن إرادة الفرد من خلال إرادة الجماعة . وتبعاً لذلك ، فإنه يصطبغ زملاءه ويمضى إلى المعركة ، محاولاً أن ينقذ ماضيه ، مدركاً أن الحرية الحقيقية إنما هي الالتزام وفقاً لاختيار أصيل يقوم على وعى وتبصر .

وهكذا الحال أيضاً بالنسبة إلى شخصية مرسو فى رواية « الغريب » : فإن هذا الموظف البسيط فى أحد المكاتب بالجزائر يشعر بأن حياته اليومية سلسلة من الأعمال الروتينية ، والتصرفات الآلية ، والحركات المبتذلة (أكل وشرب ونوم وتدخين) ، فهو لا يتردد فى أن يصيح قائلاً : « إن الأمور لدىّ سواء » . وهذا « الوعى » الذى يصاحب إحساس مرسو برتابة الحياة هو الذى يجعل منه بطلا وجودياً يدرك أنه لا معنى لحياته على الإطلاق . وآية ذلك أنه يشعر شعوراً واضعاً بأن حياته « لا تتقدم نحو هدف ، ولا تنظم حول فكرة ، بل تجرى عياء آلية . إنها منسوجة من ترديد أبدي للحركات ، والأفكار الصغيرة ، والأحاسيس الفجة » ^(١) . ويقتزف مرسو جريئة التنا ، فلا يلبث أن يحدد نفسه وجهاً لوجه بإزاء

(١) روبرى دى لوبييه : « كامو والتمرد » ، ترجمة الدكتور سهيل إدريس ، بيروت ، ١٩٥٥ ، ص ٧٠ .

واقعة الموت . وهنا يحىء الموت فيزيد من حدة شعوره بمبث الحياة ، ويثير في نفسه الرغبة في التمرد ، وهكذا يبدو المبعث بمثابة « وعى للموت » ، ورفض له في الآن نفسه » . (ص ٧٧) . ويقرأ الناقد كلمات مرسو أثناء المحاكمة ، فيدرك أنه يلزاء شخصية واعية تراقب ما في الحياة من واقع عبثي ، وتجد نفسها وجها لوجه أمام الموت فتختار التمرد لا الاستحار . . .

وأما في رواية « الطاعون » ، فإننا نجد تارو يقول بكل صراحة : « ان ما يهمني بالإجمال هو أن أعرف كيف يصبح الإنسان قديسا » . ويعترض عليه الطبيب ريو بقوله : « ولكنك لا تؤمن بالله » ، ولكن تارو يجيبه بقوله : « من أجل هذا أسأل سؤالي : هل في وسع الإنسان أن يكون قديسا من غير الله ؟ تلك هي القضية الوحيدة المحسوسة التي أعرفها اليوم »^(١) . وتمضى أحداث الرواية فتزيد من شعورنا بأن تارو وعى عبثي متبصر « يعرف كل شيء في الحياة » . وحين يعصف الطاعون بالأطفال والأبرياء ، يحىء الوقوف على عذاب الآخرين ، فيثير في نفس تارو الشعور بالحب ، ولكنه في الوقت نفسه يوظف في قلبه الاحساس بالتمرد أيضا . وهكذا يثور تارو على الله لكي يرفضه أو ينكره ، لا باسم الحب والتمرد فقط ، بل باسم تلك القداسة التي لا يمكن أن توجد مع الله !

ولكن تارو لا يكتفى بالتمرد ، بل هو يقوم بصراع عنيف ضد الشر ، وهو يؤكد في الآن نفسه أن هناك طاعونا داخليا يقابل ذلك الوباء الخطير الذي يطيح بالأجسام ، ألا وهو طاعون الروح الذي يتمثل في الحقد والكذب والكبرياء . وهو لذلك يقرر بكل صراحة « أن كل إنسان يحمل في جلدته الطاعون ، لأنه ليس ثمة في الدنيا من هو معصوم منه » . وكما أن من واجب الطبيب أن يصارع

(١) أليير كاو : « الطاعون » ترجمة الدكتور سهيل إدريس ، بيروت ، ١٩٦٢ ، ص ٢٦٠ .

الطاعون الجسمي ، فإن من واجب الرجل النقي أن يقوم بصراع باطنى ضد الشر (أو الطاعون الروحي) . ومن هنا فإن تارو يؤكد مرة أخرى « أن الطبيعى هو الجرثومة . وأما الباقي : ألا وهو الصحة والسلامة والنقاء ، فهذا كله — إذا شئت — أثر للإرادة، تلك الإرادة التى لا ينبغي أن تتوقف قط .. » (الطاعون ، الترجمة العربية ، ص ٢٥٨) . — ويشترك الدكتور ريو مع تارو فى المناقشة ، فلا يلبث أن يعلن انغماسه إلى زمرة العاملين من أجل التخفيف من ويلات الإنسانية فى الحاضر المباشر ، دون التفكير فى حياة مقبلة . وريو طبيب أجسام ، لا طبيب أرواح ، فهو لذلك مهتم بصحة الإنسان ، على اعتبار أن « حب الإنسان يقتضى العناية به ، لا إنقاذه من أجل حياة مقبلة » . ويلتقى القارىء بتارو وريو فى مواقف عديدة ، فلا يكاد يجد ليهما تصرفات غامضة تحتاج إلى تفسير ، بل يجد ليهما فى كل مرة مشاعر إنسانية على أعلى درجة من الصدق والأمانة والتوتر . ولعل من هذا القبيل مثلاً ما عبر عنه الدكتور ريو ببساطة ووضوح حينما قال : « .. إننى أستشعر مع المتهورين حظاً من التضامن أكثر مما أستشعر مع القديسين . وأحسب أنى لا أحب البطولة ولا القداسة . إن الذى يهمنى هو أن يكون المرء إنساناً » . (ص ٢٦٠ — ٢٦١) . وهكذا نجد أن كل شخصيات كامو إنما هى فى الحقيقة شخصيات واعية لا تنتظر من أى ناقد فنى أن يحىء فيتأولها أو يفسرها أو يحللها ...

ولسنا نريد أن نستعرض فى شرح نماذج أخرى لبعض الشخصيات الوجودية ، وإنما حسبنا أن نقول إن الرواية الوجودية لا تضع بين أيدينا أبطالاً نادريين يأتون من أعمال الشجاعة والقداسة ما ليس لنا عليه يدان ، بل هى تقدم لنا فى معظم الأحيان شخصيات بشرية عادية تتعاطف معها ، وتتأثر بها ، وتستجيب لها . حقاً إنه ليس من الضروري للقارىء أن يكون قد اجتاز نفس الأزمات الوجودية التى مرت بها هذه الشخصيات ، ولكنه مع ذلك لن يجد أدنى صعوبة فى أن

يلبس ما في تصرفات تلك الشخصيات من صدق وأمانة وواقعية . ومن هنا فإن القارئ العادي الذي يتابع مجرى الأحداث في أية رواية من روايات ساتر أو كامو أو سيمون دي بوفوار قلما يشعر بالحاجة إلى ناقد فني يأخذ بيده حتى يكشف له عن مبررات سلوك دافيد أو ماتيو ، وتارو أو ريو ، وهنري بيرون أو صديقه روبر دو برى . . إلخ . وحسب القارئ أن يندمج في حركة الرواية وتسلسل أحداثها ، لكي يدرك الحدث وتحليله في آن واحد ، ولكي يشارك في تصرفات الشخصيات وبواعثها في الوقت نفسه . وربما كان من بعض أفضال الوجوديين على الرواية أنهم قد حاولوا دائما أن يقيموا ضربا من « التوازن » بين تصوير المناظر وتسجيل الأحاسيس ، بين عرض الأحداث وتحليل العواطف ، بين اللقطات الموضوعية والملاحظات الذاتية ، بين تسلسل المواقف وتناغم البواعث . . إلخ . ولا شك أن هذا « التوازن » إنما هو السرفيا تنطوى عليه معظم الروايات الوجودية من صدق فني وعمق فلسفي .

يبد أن البعض قد يأخذ على جماعة الروائيين الوجوديين أنهم وإن كانوا قد أضفوا على الرواية عمقا فلسفيا وثقلا فكريا ، إلا أنهم قد انحدروا بها في كثير من الأحيان إلى مستوى الإسفاف الخلق والتبذل الجنسي . فهذا ماتيو « مثلا » أحد أبطال رواية « دروب الحرية » يغرب بصديقته مارسيل ، ويتخلى عنها ، ثم يسرق مالا من عشيقته تليذه ، اسكى يعمل على إجهاضها ! وهذه آن زوجة دو برى في رواية « المتقنين » تخون زوجها مع أول رجل أجنى تلتقى به ، فتذهب مع الروسي سكرايسين إلى غرفته ، ثم تنقل إلينا تفاصيل دقيقة لتلك الليلة الفاشلة التي قضتها معه ! ولا تلبث هذه المرأة أن تلتقى بالأمريكي لويس بروغان فتقضى معه فترة حب طويلة تدوم ثلاث سنوات ، تعود بعدها إلى زوجها محطمة كسيرة النفس فتعزم على الانتحار ! وأما نادين ابنة آن فإن دي بوفوار تصور لها بصورة الفتاة

المستيرية التي تهرب من كل مشكلاتها عن طريق الجنس ، فتغترط في الانصالات الجنسية ، وتلوم أمها لأنها لم تكن بعد قد عرفت لذة الحياة الجنسية ، مما يدفع بالأم إلى قبول التحدى والاستسلام لأول رجل يدعوها ! والأمثلة كثيرة على ما في الروايات الوجودية من مشاهد جنسية ومواقف مكشوفة ، مما قد يوقع في روع القارئ المتسرع أن هذا النوع من « الرواية » يدخل في نطاق ما اعتدنا تسميته باسم « الأدب المكشوف » . ولكننا بجانب الصواب حتما لو أننا استندنا إلى بعض هذه المشاهد الجنسية التي ترد في تضاعيف روايات سارتر أو سيمون دي بوفوار من أجل الحكم على « دروب الحرية » أو « المثقفين » (مثلا) بأنها رواية جنسية . وحسبنا أن نف على ما في هذه الروايات من تحليل دقيق للعواطف ، وتسجيل عميق للأحاسيس ، لكي نتحقق من أننا لسنا بصدد مشاهد أريد بها الاستثارة ، بل نحن بصدد عواطف فردية قد صورت بدقة وصراحة . وقد تزوعنا نحن الشرقيين تلك الحرية الجنسية التي يتمتع بها أبطال الروايات الوجودية ، ولكن من المؤكد أن المواقف الغرامية التي تواجه هؤلاء الأبطال ليست — في بيئاتهم — مواقف مصطنعة أو أحداثا غير عادية ، بل هي خبرات معاشة تتفق مع طبيعة الصلات بين الرجل والمرأة في تلك المجتمعات . وسواء أكانت هذه المواقف مظهراً من مظاهر الانهيار الخلقى الذي يعانيه المجتمع الأوروبي ، أم مجرد تعبير عن الحرية المطلقة التي يمنحها مثل هؤلاء الأبطال لأنفسهم في تصرفاتهم الخاصة ، فإن من المؤكد أن الشخصيات التي نلتقي بها في كل روايات سارتر و سيمون دي بوفوار هي نماذج إنسانية متوترة للصدق والصراحة والجرأة الخلقية . وليس غريبا أن تنطوى روايات سارتر على الكثير من المواقف الجنسية ، فإننا نعرف كيف اهتم زعيم المدرسة الوجودية الفرنسية في مؤلفه الفلسفي الضخم : « الوجود والعدم » بتحليل الدلالة الإنسانية للجنس ، وبيان معنى الحب ، وتعميق الرابطة الجنسية ، وتفسير معاني السادية والمازوخية ، وتقديم ضرب من التحليل الوجودي لصلة

الرجل بالمرأة... وأما سيمون دى بوفوار فإن كتابها « الجنس الثانى » (بجزأيه) لا زال أعنى دراسة فلسفية لمشكلة المرأة ، ولا زالت آراؤها فيه عن الحرية الجنسية التى ينبغى أن تتمتع بها المرأة موضع جدال ومناقشة . فهل نستكثر على الروائى الوجودى أن يتعرض لتحليل بعض هذه المواقف الجنسية عندما يكون بصدد شخصيات حية تواجه تجربة الحب ، وتصطدم فى حياتها الغرامية بمشكلة الصراع مع « الآخر » ؟

وأخيراً قد يأخذ البعض أيضاً على الروائيين الوجوديين أنهم كثيراً ما يجرون على ألسنة أبطالهم كلمات مبتذلة ، وعبارات سوقية ، حتى إننا نندر أن نجد لدى كُتّاب آخرين كل هذا الحشد الضخم من ألفاظ السباب وتراكيب العامة ! ونحن لا ننكر أن لغة الرواية عند سارتر أو سيمون دى بوفوار تختلف اختلافاً كبيراً عن نظيرتها عند جيد أو بروس (مثلاً) ، ولكن من المؤكد أن الحوار العامى أقرب إلى طبيعة الرواية الوجودية من أية لغة منمقة ، أو أى تراكيب لغوية بليغة . ولعل هذه التجربة التى قام بها الوجوديون حين عمدوا إلى التقريب بين العامية والفصحى هى أكبر دليل على أن عمق الأفكار لا يتعارض مطلقاً مع سهولة التعبير . وأما الألفاظ السوقية التى قد تتردد على ألسنة بعض الشخصيات فى روايات الوجوديين ، فإنها لا تزيد عن كونها مجرد تعبيرات عامية تدور على كل لسان فى مجتمعات جريئة لم تعد تصنع التأدب أو تتكلف التعبير ! ولستأ بصدد تبرير مثل هذا الأسلوب ، وإنما حسبنا أن نذكر القارئ بأننا هنا بإزاء روايات قد انبثقت فى مجتمعات منهاره عانت ويلات الحرب ، والاحتلال ، والتفكك الاجتماعى ، فليس بدعاً أن نراها تصور لنا أشخاصاً معذبين قد فقدوا إيمانهم بقيم مجتمع ما قبل الحرب ! وهكذا نذكر شخصيات سارتر وسيمون دى بوفوار للمجتمع الفرنسى البورجوازى ، فتثور على نفاقه ، وتمرد على لغته المنمقة ، وتنبذ تأديبه المصطنع ، لسكى تؤكد

فضيلة الصراحة العامة ، وتعلو من شأن لغة الكلام العادية ، وتصطنع في حوارها أساليب العامة من الناس ! وهل كانت « الرواية الوجودية » سوى مجرد تعبير عن هذا الوضع الإنساني المشترك الذي يحياه أناس زالت الفوارق بينهم ، وتوحد مصيرهم ، ووجدوا أنفسهم — للمرة الأولى في تاريخ الإنسانية — بإزاء خطر مشترك يهدد مستقبل حياتهم ؟ فكيف لثقل هذا المجتمع الجديد أن يتكلف التمييز ، أو ينفق الأسلوب ، وهو الحريص على محو الفوارق اللغوية ، ونخاطبة أناس من لحم ودم بلغة بسيطة يفهمها الجميع ؟

٣ — التفكير الفلسفي

في عهد الثورة

لن نتحدث عن الجهود الخاصة والعامة التي بذلت — وما تزال تبذل — في سبيل نشر تراثنا الفلسفي . ولن نتحدث أيضاً عن مشروع المكتبة العربية الذي يضطلع به الآن المجلس الأعلى للآداب والفنون والعلوم الاجتماعية من أجل العمل على نقل أمهات الكتب الفلسفية ، قديمة كانت أم حديثة ، إلى لغتنا العربية ، وإنما سنحاول — في هذه المجالة القصيرة — أن نمضي مباشرة إلى الحديث عن الأثر الملموس الذي خلفته الثورة على تفكيرنا الفلسفي المعاصر ، خصوصاً بعد أن تحددت معالم اشتراكيتنا العربية في السنوات الأخيرة .

ولنتساءل — بادئ ذي بدء — إلى أي حد استجابت أنظارُ المفكرين المعاصرين عندنا للإطار الاشتراكي الموحد الذي رسمته الثورة لجمهوريتنا العربية الناهضة ؟ أو بعبارة أخرى : هل يكون في وسعنا أن نهتدي إلى بعض السمات المشتركة التي وحدت بين أفكار معظم الباحثين عندنا ، في ظل هذا الإطار الاشتراكي الجديد ؟ هذا هو السؤال الذي سنحاول الإجابة عليه فيما يلي ، بالاستناد إلى إنتاج فلاسفتنا المعاصرين في السنوات الأخيرة .

والواقع أنه على الرغم من وجود سمات فردية قد وسمت بطابعها الخاص تفكير كل مفكر عربي على حدة ، إلا أن المشاعر القومية التي وحدت بين كل هؤلاء المفكرين قد عملت على خلق « جو فكري » موحد كان له الأثر الأكبر في التقريب بين شتى الاتجاهات الفكرية المتباينة .

ومن هنا ، فقد أصبح في وسعنا أن نتلمس — فيما وراء شتى النزعات الوجودية ، والمثالية ، والروحية ، والوضعية المنطقية ، والمادية الجدلية ، وما إلى ذلك — ميولاً

فكرية مقارنة نبعت من صميم كياناتنا العربى ، وعملت على إيجادها ظروفنا الاجتماعية المشتركة . وليس على مؤرخ الفلسفة — اليوم — سوى أن يتجاوز الأفكار الفلسفية الخاصة التى يتعصب لها أنصار كل مذهب ، حتى يستشف تلك الميول الفكرية العميقة التى تجمع بين أصحاب الدعوات المختلفة .

وربما كانت السمة الأولى التى أصبحت تجمع بين أصحاب الاتجاهات الفلسفية المختلفة عندنا هى اتفاقهم جميعا على ربط الفلسفة بالمجتمع والتاريخ : فلم يمد التفلسف فى نظر المفكرين العرب مجرد سلسلة من التأملات الذاتية الصرفة ، أو مجرد حوار للذات مع الذات ، بل أصبح بمثابة استجابة لحاجات العصر ومطالب المجتمع ، أو حوارا مستمرا بيننا وبين الآخرين . ولعل هذا ما عبر عنه الأستاذ الدكتور عثمان أمين حينما كتب يقول :

« لقد كان أفلاطون شيخ الفلسفة القديمة يقول : إن الفلسفة يجب أن تكون حارسا للمدينة . وكان ديكارت شيخ الفلسفة الحديثة يقول : إن الفلسفة هى وحدها التى تميزنا من الأقوام المتوحشين والمهجمين ، وأن حضارة الأمة وثقافتها إنما تقاس بمقدار شيوع التفلسف الصحيح فيها . ولذلك فإن أجل نعمة يعمم الله بها على بلد من البلاد هى أن يمنحها فلاسفة حقيقيين . وكان لفلسفة فشته الفضل الأكبر فى إيقاظ الأمة الألمانية من سباتها ، ورد الأجنبي الفاسد عن أراضيتها » .

ثم يستطرد الدكتور عثمان أمين فيقول : « . . . إن الفلسفة هى مناط الوعى عند رائد قوميتنا العربية . . . ولسنا نجد تأييدا لقضية الفلسفة أقوى وأبلغ مما جاء فى خطاب الرئيس العربى وتصريحاته ، نذكر منها — على سبيل المثال لا الحصر — قوله : « إن نصف الطريق مرهون بما يقوم به أصحاب الفكر فى شرح مفاهيم الثورة ومفاهيم المجتمع الذى نحن بصدد بنائه » ^(١)

(١) د . عثمان أمين : « مجتمعنا فى حاجة إلى الفلسفة » جمعية البحث والتوجيه القومى ١٩٦٠

ويعاود الدكتور يحيى هويدى أن يكشف لنا عن خطورة المضمون الروحي للفلسفة فيقول إنه لازال على المواطن العربى أن يحاول التعرف على نفسه واستيضاح شخصيته ، كما لازال عليه أيضا أن يعمل على زيادة وعيه الروحي وكيانه التاريخي (١)

ويرد الدكتور يحيى هويدى - فى موضع آخر - على أولئك الذين يجزعون من كل خلط بين الفلسفة والسياسة فيقول لهم : « إن هذا الاقحام ليس فى حد ذاته عيبا ، فإيجب أن تظل الفلسفة بعيدة عن واقعنا الثورى الذى نعيش فيه الآن . والحق أننى لا أدري لم يستجيب الأدب والفن وجميع فروع الدراسات الإنسانية لواقعنا الثورى على هذا النحو الرائع الذى نلسه ، ونطالب به ، وننفذه فى برامجنا ، وتظل الفلسفة وحدها بمفردها بمعزل ، مع أنه كان عليها - باعتبارها علما لمبادئ - أن تتقدم الصفوف استجابة لتلك الصيحات التى أخذت ترتفع من الكثيرين من الأدباء أنفسهم تنادى بضرورة إقدام الفلاسفة على مثل هذه الخطوة » (٢)

ويؤكد الدكتور محمد فتحي الشنيطى أيضا (فى مقدمة كتابه المسمى باسم « المعرفة ») أهمية الدور الحضارى للفلسفة فى تاريخنا المعاصر ، فنراه يبرز خطورة مشكلة القيم ، ويدعو إلى ربط الفلسفة بواقعنا العملى ، وينادى بضرورة تأصيل جذور الفكر فى تربتنا الاجتماعية .

ويضم كاتب هذه السطور صوته إلى صوت الدكتور الشنيطى فيثور على الصورة التقليدية للفيلسوف باعتباره رجلا انطوائيا يحترق العالم ، ويزدرى المجتمع ، ولا يتدخل فى السياسة ، ولا يهتم بشئون الدولة . . الخ . . وهو يقول فى هذا :

(١) و (٢) د . يحيى هويدى : « أضواء على الفلسفة المعاصرة » مكتبة القاهرة الحديثة . ١٩٥٨ م .

« انه ليس في استطاعة الفيلسوف أن يخرج عن إطاره الحضارى ، أو أن يتنكر لصميم وجوده الطبيعى ، أو أن يتحرر تماما من كل إسار اجتماعى ، بل لابد له من أن يقيم استقلاله الروحى على دعائم موقفه البشرى نفسه ، أعنى ابتداء من تلك الشروط الأولية التى تفرضها عليه حياته العادية بوصفه مخلوقا بشريا . . . » (مشكلة الفلسفة ص ١١٨) .

ويؤكد الكاتب فى موضع آخر أن فيلسوف العصر الحالى لم يعد يجاهد بمفرده فى سبيل الوصول إلى الحقيقة وتحقيق المصير البشرى بل هو قد أصبح يفهم أنه لابد له من الحوار مع الآخرين والاشتراك معهم فى صراع موحد ضد شتى عوائق التقدم الإنسانى .

وهكذا أصبح الوجود البشرى يعلم حق العلم أنه هيهات له أن يكون حرا ، اللهم إلا إذا كانت هناك موجودات أخرى حرة مثله لأنه لا يمكن أن تقوم حرية « فى الخلاء » . .

وكل هذه الآراء انما تدلنا على أن معظم المشتغلين بالتفكير الفاسفى عندما قد أصبحوا ينظرون إلى الفلسفة على أنها قوة تاريخية حاسمة تقتزن بكل تغير يطرأ على الحضارة ، وتتمثل فى ذلك « الوعى » الذى تحصله كل حقبة تاريخية عن نفسها . . وهذا هو السبب فى انصراف بعض مؤرخى الفلسفة عندنا إلى الاهتمام بمفكرين من أمثال جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، وعبد الرحمن الكواكبي وغيرهم ، كما فعل (مثلا) الأستاذ الدكتور عثمان أمين فى كتابه « رواد الوعى الإنسانى فى الشرق الاسلامى » (أكتوبر سنة ١٩٦١) ، حيث نراه يبرز لنا دور هؤلاء المفكرين فى قيادة حركة التحرر الفكرى فى العالم الاسلامى ، وإيقاظ الوعى الإنسانى فى النفوس ، وتنبيه الناس إلى الأخطار المحدقة بهم فى الداخل والخارج (مقدمة ، ص ٣) .

وقد كان من آثار ثورتنا العربية الكبرى في الميادين السياسية والحربية والاقتصادية والاجتماعية أن تنبه المشتغلون بالدراسات الفلسفية عندنا إلى ضرورة إعادة النظر في « مشكلة القيم » من أجل العمل على فهم مثلنا العليا ، وممايرنا الأخلاقية ، في ضوء المفاهيم الثورية الجديدة . وليس من قبيل الصدفة أن تعرف « مشكلة القيم » — لأول مرة في تاريخ تدريسينا للفلسفة — طريقها إلى منهاج التعليم الثانوى : إذ نجد أن مؤلف كتاب « مبادئ الفلسفة والأخلاق » (المقرر على طلاب السنة الثالثة من القسم الأدبى) يمدننا عن مفهوم القيمة ، وأحكام الواقع وأحكام القيمة ، والتفسير البيولوجى للقيم ، والتفسير الاجتماعى للقيم ، والتفسير الانسانى للقيم ، والقيم بين الذاتية والموضوعية ، والتقسيم الثلاثى للقيم ، إلى آخر تلك الموضوعات التى تناولها الكاتب فى الفصل الثالث من كتابه (ص ٨٥ - ١١٨) .

ونحن نعرف كيف أن نزعة الدكتور زكى نجيب محمود الوضعية المنطقية قد أملت عليه استبعاد مشكلة القيم من دائرة التفكير الفلسفى — بمعناه الدقيق — ولكننا مع ذلك نراه يعود إلى هذه المشكلة فى كتابه الأخير « فلسفة وفن » فيحدثنا عن « قيمة القيم » ، ويحاول أن يحدد لنا دور كل من الفرد والجماعة فى تكوين مفاهيمنا عن الحق والخير والجمال . ولئن كان الدكتور زكى نجيب محمود يؤكد أنه لاهياة للانسان بدون القيم ، وأن كيانه يهتز من أساسه إذا علم أنه قد اقتات على إحدى هذه القيم ، إلا أنه يضع أصابعنا على عجيبة من عجائب البشرية يقول :

« إنه بينما ترى كل جماعة من الناس على إدراك تام ووعى كامل بأنه لاهياة لها إلا إذا روعيت العدالة بين أفرادها . . تراها فى الوقت نفسه تأبى أن تقوم هذه العدالة نفسها بينها وبين غيرها من الجماعات . وأن الأسر فى هذا بدرجات متفاوتة : ذلك أن الإنسان الفرد لا ينتمى إلى جماعة واحدة بل ينتمى إلى جماعات كثيرة تظل

دائرتها تتسع وتتسع حتى تشمل الجماعة الإنسانية بأسرها ، وكلما ازدادت ثقافة هذا الإنسان الفرد واتسعت مداركه وانداح أفقه ، ازدادت بالتالى واتسعت دائرة الجماعة التى يريد أن تقوم العدالة فيها بينه وبين سائر أفرادها « (ص ٦٧) .

ويركز الدكتور زكى نجيب محمود اهتماما خاصا على بعض القيم مثل العدالة ، والحرية ، والسلم ، فراه يقرر أنه ليس ثمة اختلاف بين البشر — من حيث الأساس — حول هذه القيم ، وإن اختلف رأى عليها فى الشرح والتطبيق . ولكن بيت التقصيد — فى رأى المؤلف — أن تبنى التربية القومية فتنسق — فى فطرة الإنسان — بين الظاهر والباطن ، وتثبت فى ذهن الفرد تلك المعانى الشريفة ، بحيث يسلك الإنسان عندئذ سلوكا سويا يجمع الإنسانية كلها بمنزل ما يجمع اليوم أفراد الأسرة الواحدة « (ص ٧٠) .

وهذه النزعة الإنسانية — فى النظر إلى القيم — تتجلى بصورة أوضح عند الدكتور عثمان أمين الذى يرى أن الدعوة إلى الوعى الإنسانى لابد من أن تسبق الدعوة إلى الوعى القومى ، خلافا لما يقوم به بعض المتوهمين :

« فإنك لا تستطيع أن تحرك فردا من الأفراد إلى معنى أو عمل ينفع قومه ، ما لم تحرك فيه إنسانيته أولا . ولا ريب أن من لوازم الإنسانية الإيثار والغيرية ، والعمل من أجل المجموع ، والتحرر من أسر الأنانية . وكل دعوة قومية لا تعتمد على دعوة إنسانية يكون نصيبها الفناء . فبالوعى الإنسانى ترسخ فى نفوس الناس المثل العليا والقيم الروحية والمعانى الجميلة . . إلخ^(١) »

والدكتور عثمان أمين حريص كل الحرص على ربط النظر بالعمل ، والدين بالسياسة ، فراه يدعو إلى الدفاع عن « القيم الروحية » بشتى الأساليب ، حتى

(١) د . عثمان أمين : « رواد الوعى الإنسانى » القاهرة ، دار القلم ، أكتوبر ١٩٦١

ولو أدى الأمر إلى أن نجعل من كل أدبنا العربى « أدبا توجيهيا هادفا ،
أو « أدبا ملتزما » كما يعبر الوجوديون اليوم .

وربما كان فى وسعنا أيضا أن نقرب من آراء الدكتور عثمان أمين رأى
الدكتور محمد فتحى الشنيطى الذى يرى أن القيم الأخلاقية ضرورية لكل إصلاح
لأن « يقظة الوعى الاجتماعى تقتزن لا محالة بالتكامل الأخلاقى . ويتمثل هذا
التكامل فى ظواهر اجتماعية عديدة تتكشف فى العلاقات البسيطة والمعقدة التى
تجرى بين أبناء المجتمع » .

ولا يقتصر الدكتور الشنيطى على القول بأن « الأخلاق » هى الأساس الذى
ينهض عليه العمل الصالح ، وتنتج بفضلها المشروعات ، فى جميع قطاعات المجتمع ،
بل هو يضيف إلى ذلك أيضا أن « النظرة التكاملية » للإصلاح الاجتماعى
تدعونا هى نفسها إلى ضرورة التثبت بالقيم الأخلاقية ، خصوصا وأن فى ترائنا
الروحى معيننا لا ينضب لها . ومن هنا فإن الكاتب يريد لنهضتنا العلمية المادية أن
تقتزن بنهضة إنسانية أخلاقية ، لأنه يرى أن مستوى المعيشة — من وجهة النظر
الحضارية — يشتمل على عنصرين متلازمين متكاملين : ألا وهما العنصر المادى
الاقتصادى والعنصر الفكرى الروحى .

وأما الأستاذ الدكتور توفيق الطويل فإنه يقدم لنا « مثالية معدلة » يحاول
فيها أن يقيم ضربا من التوازن بين القوى الحيوية للفرد ، والمعايير الأخلاقية
للجماعة . والأصل فى هذه « المثالية المعدلة » هو الرغبة فى التوفيق بين النزعة
الحسية من جهة والنزعة الروحية من جهة أخرى ، أو بين ذات الإنسان الصغرى
التي هى فرديته من جهة ، وذاته الكبرى التى هى المجتمع الذى ينتمى إليه من جهة
أخرى . وحجة الدكتور الطويل فى هذا التوفيق هى أنه لا بد من أن « تتمزج
الأنانية بالغيرية ، ويذوب تأكيد الذات فى نكرانها ، ويعيش الفرد بريثا من
الانحرافات النفسية ، وتبرا الأخلاقية من تفكيك الطبيعة البشرية بالفصل القاطع

بين العقل والحساسية ، وكفالة السلطة لأحدهما على الآخر ، كما فعل المتزمتون من المثاليين من ناحية ، والمتطرفون من الحسين من جهة أخرى ؛ وبهذا تصبح الأخلاقية مطلبا ميسور المثال^(١).

ومعنى هذا أن الدكتور الطويل يؤكد ضرورة العمل على إشباع القوى الحيوية للذات دن جور على قيم المجتمع أو استخفاف بمعايره . ولا شك أن كمال الفرد إنما يرتبط بكمال المجموع ، فلا موجب لإقامة تعارضٍ حاد بين مطالب الفرد الحيوية ، وقيم المجتمع الروحية ، أو بين الأنانية الفردية والغيرية الاجتماعية . وهكذا يخلص صاحب هذه « المثالية المعدلة » إلى التوفيق بين التفسير الفردى للقيم والتفسير الاجتماعى لها ، بفضل نزعتة الأخلاقية التكاملية التى وثقت الصلة بين الحس والعقل ، بين الفرد والمجتمع ، بين ذات الإنسان الصغرى وذاته الكبرى . . . الخ .

وأما الدكتور فؤاد زكريا — صاحب كتاب « الإنسان والحضارة فى العصر الصناعى » فإنه يتخذ من المشكلة موقفا معارضا تمام المعارضة لكل الآراء السابقة ، لأنه يرى أن الخطوة الأولى نحو كل بناء روحى سليم إنما هى السيطرة على المادة ، والتخلص من إلحاحها ، حتى يصبح فى وسعنا — عن طريق هذا التحرر المادى — أن نتفرغ من بعد لتنمية القيم الروحية . . . وهو يقول فى ذلك بصريح العبارة إنه « كثيرا ما يدعى كتاب يفرض أنهم نابهون أن ما ينقصنا فى مرحلتنا الحالية من الحياة هو الأخلاق . . أو القيم الروحية . . فإذا شئنا أن نرد على هذا الزعم ، قلنا إن مشكلتنا الحاضرة ليست ناشئة من فقدان القيم الروحية ، بل إن هذا النقص فى حقيقته نتيجة وليس سببا ، أعنى أنه نتيجة لانفجارنا إلى ضرورات الحياة ، وليس هو علة ما نعانيه فى هذه الحياة من متاعب^(٢) .

(١) د . فؤاد زكريا « الإنسان والحضارة فى العصر الصناعى » ١٩٦٠ ص ٣٦٤ .

(٢) د . فؤاد زكريا « الإنسان والحضارة فى العصر الصناعى » مذكر كتب الشرق الأوسط

وحجة الدكتور فؤاد زكريا هنا هي أن الغالبية العظمى من الناس عندنا لا زالت مفتقرة إلى ذلك الحد من الاكتفاء المادى الذى يمكنها من التفرغ لسائر المظاهر الإنسانية الرفيعة لحياتهم ، فلا بد لنا أولاً وقبل كل شيء من العمل على تحرير الإنسان من عبودية المادة ، ومن السعى طوال حياته وراء أدنى حد من المطالب الحيوية .

ولا شك أن تخليص الإنسان من قبضة الاهتمام المفرط بضرورات الحياة اليومية إنما يمثل الخطوة الأولى في سبيل توجيه الفرد نحو الاهتمام بتحقيق أهدافه الروحية . ولما كان من المحال أن ننتظر سمو أخلاقيا من شخص جائع ، أو إنتاجا فكريا من مريض هزيل ، فإن تحقيق حد معين من الاكتفاء المادى للناس هو الأساس الأول لقيام الأخلاق وازدهار القيم الروحية . وإذن فإن الهدف الحقيقى للاقتصاد السليم إنما هو تجاوز الاقتصاد ذاته !

وكاتب هذه السطور يوافق الدكتور فؤاد زكريا على ضرورة الاهتمام بالقيم المادية ، لأنه يسلم معه بأن الاقتصاد عملية إنسانية كاملة ، لا مجرد عملية مادية خالصة . وهو يذهب في كتابه « مشكلة الإنسان » إلى أن العمل البشرى لا يمكن أن يكون نشاطا ماديا خالصا ، بل هو نقطة التقاء « الروحى » بـ « المادى » . ولكنه يرى في الوقت نفسه أن تغير الأحوال الاقتصادية في مجتمع ما من المجتمعات لا يمكن أن يكون هو الكفيل وحده بحل سائر مشكلاته الاجتماعية والأخلاقية . حقا إن للظاهرة الاقتصادية تأثيراً واضحاً على الظواهر الأخلاقية ، إلا أن « الثورة الأخلاقية » لا يمكن أن تحدث من تلقاء نفسها ، وكأنما هي مجرد نتيجة حتمية لتحسن أحوالنا الاقتصادية ، بل هي ستكون ثمرة لجهودنا الإيجابية في سبيل العمل على خلق « مجتمع جديد » . وهذا هو السبب في أن كاتب هذه السطور يدعونا إلى مواجهة المشكلة الأخلاقية عندنا بطريقة صريحة مباشرة ، دون الاقتصاد على مواجهتها من خلال بعض الظروف الاقتصادية أو المادية .

«وربما كانت أخطر ظاهرة تواجهها المجتمعات في انتقالها من المرحلة الإنفاضية أو الرأسمالية إلى المرحلة الاشتراكية هي ظاهرة « الصراع الثقافي » الناجم عن تناقض المعايير . . وقد يكون جانب كبير من الفساد الخلقي الذي ما زلنا نعانيه في الوقت الحاضر راجعا إلى أننا نجتاز مرحلة انتقالية خطيرة لا تزال فيها القيم البائدة والمعايير القديمة تحيا جنبا إلى جنب مع القيم الجديدة المستحدثة » .

ثم يستطرد كاتب هذه السطور فيعرض لدراسة مفهوم « الأخلاق » عندنا ، لكي يبين لنا كيف أن هذا المفهوم قد بقي ضيقا لا يكاد يتجاوز مسائل الجنس وتنظيم العلاقات بين الرجل والمرأة ، حتى لقد أصبحت كلمة « الفساد الخلقي » عندنا مرادفة تماما لكلمة « الإباحية الجنسية » . وأما أن يكون « شرف » الرجل أو المرأة مرتبطا باحترام كل منهما لكلمته ، ونهوضه بواجباته « وإخلاصه في عمله ، وتفانيه في خدمة وطنه ، فهذا مالا يكاد يدخل في فهمنا التقليدي للأخلاق . ولا شك أن الخطوات التي خطاها مجتمعنا العربي في سبيله نحو تحقيق « الاشتراكية » قد أصبحت تتطلب منا اليوم إعادة النظر في هذا المفهوم التقليدي للأخلاق من أجل الاستعاضة عنه بمفهوم جديد يتلاءم مع حاجة مجتمعنا الاشتراكي إلى ضمير مهني وأخلاق اجتماعية وفضائل تعاونية .

وحينا نتحدث عن « الأخلاق المهنية » فإننا لا نعني بها مجرد اضطلاع كل فرد من أفراد المجتمع بأداء واجبه على الوجه الأكمل ، بل نحن نعني بها أيضا إخلاصه في عمله ، وتفانيه في إجادة حرفته ، واهتمامه بتحقيق ضرب من التعاون بينه وبين غيره من أرباب الحرف الأخرى . ولسنا نريد في مجتمعنا الجديد مواطنين يقتصرون على أداء واجباتهم بأقل جهد ممكن ، بل نريد مواطنين يشقون مهنتهم ، ويمجدون لذة كبرى في تحقيق عمل جيد .

... وهكذا نرى أن اهتمام الباحثين عندنا بمشكلة القيم قد اقتادهم إلى إثارة

الكثير من المشكلات الأخلاقية التي تمس مجتمعنا العربي الجديد ، على اعتبار أن السمو الخلقى لا بد من أن يسير دائما جنبا إلى جنب مع ما يصيب المجتمع من ترق في شتى مرافق الحضارة الإنسانية . ولئن كان المشتغلون بالتفكير الفلسفى عندنا قد اعترفوا في معظم الأحيان بوجود صلة وثيقة تجمع بين التنظيم الأخلاقى وغيره من ضروب التنظيم الأخرى ، إلا أنهم قد حرصوا في الوقت نفسه على مواجهة « المشكلة الأخلاقية » بروح المصلح الاجتماعى الذى يعمل جاهدا في سبيل التمجيل بظهور « الأخلاق الجديدة » .

ولم يقتصر اهتمام المشتغلين بالفلسفة عندنا على مواجهة مشكلة القيم وما يتصل بها من مشاكل أخلاقية — في ضوء واقعا الثورى — بل هم قد وجهوا اهتمامهم أيضا إلى دراسة « مشكلة الحرية » من أجل تحديد علاقة مفهوم « الحرية » بمفهوم « السلطة » أو « التنظيم الاجتماعى » . ونحن نلاحظ في معظم ما كتبه مفكرونا العرب عن « الحرية » فهما عميقا لطبيعة هذه القيمة الإنسانية الكبرى التى طالما خاض الناس بينها وبين القوضى ، فترام لا يفسرون الحرية كما فسرها بعض الوجوديين الذين تصوروا مطلقا لا يحدها حد ، بل يفسرونها كما فسرها المعتدلون من فلاسفة المذهب العقلى الذين جعلوا من السلوك الحر ثمرة لوعى مستبصر يفهم صاحبه قوانين الأشياء ويرتكز عليها من أجل السيطرة على نفسه والتحكم في العالم الخارجى . ولعل هذا ما عبر عنه مؤلف كتاب « مبادئ الفلسفة والأخلاق » حينما كتب يقول : « إن الحرية الحقيقية لا تنحصر في حلم الاستقلال عن قوانين الطبيعة ، بل تنحصر في معرفة تلك القوانين من أجل استغلالها لتحقيق غايات معينة بطريقة منهجية مرسومة . . . ولو أن العالم الطبيعى كان خاليا تماما من كل « حتمية » ، أو لو أنه كان مسرعا لسلسلة مستمرة من المعجزات ، لما وجد الفعل البشرى نقطة ارتكاز يقوم عليها أو يستند إليها ، ولكننا مجرد عبيد تحت رحمة تقلبات الكون وأهوائه » (ص ٧٧) .

ثم يطبق المؤلف هذه الفكرة على المجتمع نفسه فيقول : « وهكذا الحال أيضا بالنسبة إلى الجماعة : فإن مجتمعا بلا قوانين ، لن يكون مجتمعا حرا ، كما قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة ، بل سيكون مجتمعا فوضويا يسحق قويه ضعيفه . وما دام في المجتمع قوى وضعيف ، فستكون الحرية دائما أداة للجور والظلم ، وسيكون القانون أداة للتحرير والتنظيم » .

وهذا هو المعنى الذى اتجه إليه أيضا الدكتور محمد فتحى الشنيطى فى بحث قيم له بعنوان : « الحرية توازن بين الحقوق والواجبات » : إذ نراه يحاول أن يقدم لنا نظرة تكاملية تجمع بين تصور حرية إنسانية نقية خالصة من جهة ، وبين ربط هذا التصور بالمتعضيات العملية فى حياة الفرد والجماعة من جهة أخرى . ولما كانت حرية الإنسان هى بالضرورة حرية واعية مقيدة ، فلا غرابة فى أن يقتزن مفهوم الحرية بسلطة المجتمع ، ما دام تحقق الحرية إنما يتم فى وسط اجتماعى تتجاوب فيه أفعال الفرد مع حاجات الجماعة . « فالحرية على ذلك لا يستقر لها مفهوم واضح إلا إذا ارتبطت بسلطة المجتمع . وسلطة المجتمع تنحرف عن مضمونها السليم إذا لم تعتمد إلى تأييد الحرية وتعزيزها برفع شأن الكرامة الفردية » .

إلا أن حرية الفرد وسلطة المجتمع أمران متلازمان لاغنى لأحدهما عن الآخر . ولا ينشأ التعارض بينهما إلا حين تنقلب الحرية فوضى وتحكما ، وتستحيل السلطة طغيانا ، فتضطرب موازين الحياة الاجتماعية بإهدار كرامة الإنسان . ومن هنا يمكننا أن نقول « إن الحرية من حيث التطبيق تتمثل فى التوازن بين الحقوق والواجبات » . ويمضى الدكتور الشنيطى فى الحديث عن تكامل الحق والواجب فى حياة الفرد والجماعة ، لى يخلص من هذه الدراسة الاجتماعية الواعية إلى القول بأن التوازن بين الحقوق والواجبات هو أجل إطار للحرية الإنسانية تصورا وتطبيقا .

ويناقش الدكتور يحيى هويدى فهم سارتر « للحرية الملزمة » ، لكن يبين لنا أن ما يسميه هذا الفيلسوف الوجودى الكبير باسم « المواقف » إنما هو مجرد امتداد لذلك الوجود الفردى الذى خلقه الإنسان لنفسه بمحض اختياره . وأما المواقف الحقيقية — فى نظر الدكتور هويدى — فهى تلك المواقف الاجتماعية التى لا تقتصر على ربط وجود الفرد بوجود غيره من الأفراد بأن تؤصل جذور وجوده فى صميم تلك التربة الاجتماعية التى لا بد له من أن يحياها فيها . ومعنى هذا — بعبارة أخرى — أن الدائرة التى يتعامل فيها الفرد ليست مجرد دائرة « أنا والغير » ، أو « أنا والآخر » بل دائرة « أنا والمجتمع » . وليس من شك فى أن دائرة المجتمع أوسع بكثير من تلك الدائرة المحدودة التى ينقضى فيها تعامل الأنا مع الآخر .

ولكن الدكتور هويدى يستطرد فيقول إن المجتمع الذى يتحدث عنه ليس هو تلك « السلطة العاشمة » التى تلغى « فردانية » الفرد وشخصيته لحساب المجتمع وكأن الفرد مجرد « آلة » أو « أداة » تعمل من أجل هذا المجتمع ، بل هو تلك « السلطة الواعية » التى تقف فى منتصف الطريق بين الحرية الفردية العادية العابثة ، والمجتمع المضاعط الذى يشل فى الإنسان فردانيته وشخصيته . وإذن فنحن هنا يلزنا فلسفة واقعية لا تفهم من الحرية أنها حرية إنسان أهلى ، أو إنسان على صورة وجودية ، بل حرية إنسان متكامل هو إنسان المجتمع ، والمجتمع يلزم الفرد بأكثر من تلك المواقف « المائمة » التى حدثنا عنها الوجوديون ، لأنه يلزمه بمراعاة الصالح الاجتماعى . ولكن الدكتور يحيى هويدى لا يريد لذلك « الصالح الاجتماعى » أن يقضى على « فردانية » الفرد وإنسانيته ، أو هو بعبارة أخرى لا يريد أن يقتل الفرد باسم ذلك « الصالح الاجتماعى » أو تحت ستار المجتمع^(١) .

(١) د . يحيى هويدى « أضواء على الفلسفة المعاصرة » مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٥٨

ويناقش الدكتور فؤاد زكريا مشكلة « الحرية والتنظيم » في المجتمع الصناعي الحديث ، فيقدم لنا دراسة واعية مستنيرة لطبيعة العلاقات البشرية المتشابكة في المجتمعات الصناعية الحديثة . ويحاول المؤلف في هذه الدراسة أن يبين لنا كيف أن التضاد المزعوم بين حرية الفرد وبين سلطة النظام الاجتماعي واضح البطلان ما دامت الحرية نفسها هي مجرد نتيجة تكتسب بفضل هذا التنظيم . « فالمشكلة اليوم لم تعد في قبول إشراف المجتمع على الأفراد أو عدم قبوله ، وإنما في مدى هذا الإشراف ، الذي أصبح مرغوباً فيه على الدوام . وتتفاوت النظم تبعاً لمدى دقة هذا الإشراف ، وتبعاً للمجالات التي تترك للتنظيم الفردي . والاتجاه العام يسير نحو مزيد من التدخل بالتدريج ، على ألا يكون هذا التدخل غاشماً يقصد منه تحقيق أهداف غير إنسانية »^(١)

ولا تعني الدعوة إلى إيجاد نوع من التنظيم الاجتماعي فرض سلطة مستبدة على الأفراد ، وإنما تعني إشراف المجتمع على العلاقات المختلفة في داخله ، ورعايته لمصالح الضعفاء ، وحمايته لهم من استبداد الأقوياء وطغيانهم . وهذا النوع من التنظيم ينمى الحرية ويرعاها ، لأن الفرد يستطيع في ظله أن يمارس قدراته ممارسة إيجابية ، دون أن يطنى على حقوق الآخرين أو أن ينال منهم — بقوته — حقاً غير مشروع . وهكذا يخلص الدكتور فؤاد زكريا إلى القول بأن « التنظيم والتخطيط ضرورة أساسية للمجتمع الصناعي ، ولكنه لا يحل محل الحرية أو يقضى عليها ، بل هو يضمن الحرية ويدعمها ، وإن كان يضيف عليها صورة جديدة . فإذا فهمت الحرية فهماً إيجابياً ، وأصبح قوامها العمل والإنتاج ، لا التخلص السلبي من الالتزامات ، فمندئذ يصبح التخطيط شرطاً من شروطها الأساسية » . (ص ١٤٦ من المرجع السابق) -

(١) د . فؤاد زكريا « الإنسان والحضارة في العصر الصناعي » مركز كتب الشرق الأوسط

وأما كاتب هذه السطور فإنه يحاول في الطبعة الجديدة من كتابه « مشكلة الحرية » (سنة ١٩٦٤) أن يهبط بالحرية من سماء التجريد الميتافيزيقي إلى أرض الواقع الاجتماعي ، لكي يجعل منها عملية تحرر يشارك المرء عن طريقها في حركة التاريخ . وهو يهتم على الخصوص بدراسة العلاقة بين « الحرية والضرورة » عند كل من هيجل وماركس ، لكي يبين لنا كيف أن الحرية الحقيقية هي بمعنى ما من المعاني فهم للضرورة ، وإدراك لشيء ضروب الحتمية التي يرزح تحتها الفرد والمجتمع ، ولكنها في الوقت نفسه تحرر منظم من أسر تلك الضرورات التي طالما رانت على الوجود البشري فهبطت به إلى مستوى « الشيء » أو « الموضوع » . وليس اهتمام كاتب هذه السطور بنقد آراء العقاد في « الحرية الفردية » سوى مجرد صدى لثورته على ذلك المفهوم التقليدي للحرية : وهو المفهوم الذي يضع « الحرية » في الخلاء ، وكأنما هي مجرد تخلص سلبي من كافة الالتزامات . ولا شك أننا إذا عرفنا أن للحرية شروطا مادية واجتماعية ، فلننا لن نجازف بتعريف الحرية خارج نطاق التاريخ ، كما أننا لن نخاطر بالحديث عن حرية مطلقة تكون هي والعبودية الاجتماعية سواء بسواء . .

. . ولو أننا حاولنا الآن أن نلقي نظرة سريعة على تلك المشكلات الفلسفية الهامة التي أصبح المفكرون عندنا يهتمون بإثارتها والعمل على حلها ، لوجدنا أن معظم هذه المشكلات قد نشأ عن أوضاعنا الاجتماعية الجديدة في ظل التنظيم الاشتراكي الحالي . ولئن كان بعض المشتغلين بالفلسفة عندنا لم يستطع حتى الآن أن يستجيب للحركة الثورية الكبرى التي أصبحت تفرض علينا اليوم نوعا جديداً من المشكلات الفلسفية أو القضايا الفكرية ، إلا أن من المؤكد أن الغالبية العظمى من المشتغلين بالفلسفة في الجمهورية العربية المتحدة قد أصبحوا على وبن تام بخطورة المضمون الروحي لثورتنا الاشتراكية العربية^(١) .

(١) ظهرت عندنا أيضا دراسات قيمة لموضوع « القومية العربية » وفي مقدمتها البحث الهام الذي كتبه المرحوم الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الأهواني ١٩٦١ في (المكتبة الثقافية) العدد ٢٧ .

ولازلنا ننتظر من الباحثين عندنا المزيد من الاهتمام بفلسفة الاشتراكية ، ومشكلات الحرية والتنظيم ، وصلات الفرد بالجماعة ، وعلاقات الإنسان بالحضارة .. الخ .

ومهما كان من جزع بعض مفكرينا من شتى مظاهر « التوحيد الفكري » أو « المذهبية العقائدية » ، فإن المستقبل سيكون هو الكفيل بإظهارهم على أن « الإطار الإشتراكي » ليس سوى دائرة واسعة يستطيعون أن يتحركوا في نطاقها بحرية ، دون أن يتقيدوا بأية صورة محددة متحجرة من صور « المذهبية » .

ونحن على ثقة من أن اهتمام المشتغلين بالفلسفة عندنا سوف يتجه في السنوات المقبلة إلى دراسة الأصول الفلسفية التي تركز عليها شتى المذاهب الاشتراكية ، يوتوبية كانت أم قابية أم علمية أم غير ذلك . ولكن فلاسفتنا العرب لن ينسوا أيضا في هذه الدراسات أن يربطوا فلسفاتهم الاشتراكية بترائنا العربي ، وكياننا القومي ، لأنهم لن يضعوا بين أيدينا حلولاً جاهزة أو آراء مستجلبة ، بل هم سيقدمون لنا ثمرة تأملاتهم الفلسفية في هذا الجو الروحي « العربي » .

٤ — دور الفلسفة

في مجتمعاتنا المعاصرة

لسنا بصدد التساؤل عما إذا كانت هناك فلسفة عربية معاصرة أم لا ، ولكننا بصدد التساؤل عما إذا كانت الفلسفة قد أدت دورها في مجتمعاتنا العربي المعاصر أم لا . وفارق كبير بين السؤالين : فإن الأول منهما يطرح قضية محلية هي ظهور فكر فلسفي معاصر في منطقة معينة من مناطق العالم ، بينما يطرح الثاني منهما قضية حضارية هي مدى تأثير مجتمعاتنا العربي المعاصر بالروح الفلسفية ، على اعتبار أن « الفلسفة » رافد هام من الروافد الأساسية التي تغذى الجرى الأصلي لنهر الحضارة . ونحن نزعم أن « الفلسفة » لم تؤد بعد دورها الحضاري الهام في مجتمعاتنا العربي المعاصر ، وأنه ما يزال علينا — نحن المشتغلين بالحركة الفكرية في مصر — أن نشارك في النهوض بمهمة بث الروح الفلسفية في المناخ الفكري العربي . ومن هنا فإننا سنحاول - في هذه المجالة القصيرة - أن نكشف عن الأبعاد التي لا بد للروح الفلسفية من أن تمتد إليها في صميم كياناتنا العربي ، حتى نضع أيدينا على نقاط الضعف في البناء الفكري لمجتمعاتنا المعاصر ، آملين من وراء ذلك تهيئة الجو لظهور فكر عربي حر .

نحن في حاجة إلى نزعة « عقلانية » أصيلة :

ولعل أول ما يروع الباحث العربي — حين يتصدى للحديث عن دور الفلسفة — هو هذا التشكك المريب الذي تلقاه « الفاسفة » عندنا من جانب السواد الأعظم من الناس ! فالفلسفة — في مجتمعاتنا — كلمة مشبوهة بمجوعة ، والناس عندنا يستخدمون هذه الكلمة للإشارة إلى لغو الحديث وهذره ! وليس من السهل أن نعيد إلى هذا اللفظ المنبوذ « حق المواطن » في عالمنا اللغوي المعاصر :

فإن الاستعمال الشائع لكلمة « الفلسفة » قد ألقى على هذه الكلمة ظللا كثيفة من التوجس، والريبة، والاشتباه، والغموض... إلخ. ولكن من واجبنا — مع ذلك — أن نسهم في تصحيح هذا الفهم الخاطئ لكلمة « الفلسفة »، عن طريق العمل على تقديم نماذج فلسفية سليمة للأجيال التي تتلقى أول دروس فلسفية لها في التعليم الثانوي، بحيث يفهم النشء العربى أن الفلسفة ليست تعقيدا لما هو واضح، بل توضيحا لما هو معقد. ونحن نعلق أهمية كبرى على أول احتكاك للطلاب المصرى بالفلسفة: فإن من شأن هذا الاحتكاك — إذا كان قاصرا أو غير موفق — أن يخلق فى نفس الشباب إحساسا غامضا بعقم التفكير الفلسفى أو عدم جدواه! ولا شك أن الانطباعات السيئة التى قد تتولد فى نفوس شبابنا عن الفلسفة، كثيرا ما تكون ثمرة لهذه المعالجة المشوهة أو الشائبة لقضايا الفلسفة، على أيدي بعض من القائمين على تدريس هذه المادة فى مدارسنا الثانوية. وهذا ما يدفعنا إلى التشديد على ضرورة معاودة النظر فيما بين أيدي طلابنا من كتب فلسفية، حتى تكون هذه الكتب — بين أيدي المدرسين والطلاب — عوناً على فهم الفلسفة، وتوعية صحيحة لدورها فى حضارتنا العربية الراهنة، لا مجرد تجميع لبعض المعلومات الفلسفية المشوهة التى قد لا يرى فيها الطالب سوى حشد مهوش من الأفكار.

والحق أنه ليس المهم — بالنسبة إلى الطالب المبتدئ — أن يلم ببعض المعارف السطحية عن الواقعية، والمثالية، والبرجانية، والماركسية، والوضعية المنطقية... إلخ، بل المهم أن يقف على روح « الإيمان الفلسفى »، من حيث هو إيمان بالعقل، وثقة فى قدرته على المعرفة، واعتراف ضمني بإمكان الوصول إلى الحقيقة. ولعل هذا ما عبرنا عنه — فى موضع آخر — حين كتبنا نقول « إنه لا يمكن أن تقوم فلسفة ضد العقل، اللهم إلا إذا أمكن أن يقوم فن ضد الجمال، أو دين ضد الله »! صحيح أن تاريخ الفلسفة قد عرف الكثير من النزعات الشككية،

واللا أدريّة ، والنسبيّة ، واللاعقليّة (وغيرها مما يدخل في هذا الباب) ، ولكن من المؤكّد أن « البشريّة العاقلة » (على حدّ تعبير هوسرل) لم تكن ترى في كلّ هذه الاتجاهات المناهضة للعقلانيّة سوى مجرد أشكال سيئة أو صور فاسدة للعقلانيّة ، وكأنّ من شأن « العقل » حين يستبدّ به الكسل ، أو حين يقعده التواكل عن مواصلة البحث ، أن يقنع بأمثال هذه النزعات اللاعقلانيّة ! ومن هنا فقد أصبح لزاما علينا ، نحن المشتغلين بالفلسفة (بوصفنا « رسل الإنسان الناطقة » — على حدّ تعبير هوسرل مرة أخرى —) أن نعمل على استمرار « التقليد العقلاني » ، وأن نعيد إلى أهل العصر الحاضر تقمّم الضمنيّة بمجديّة البحث عن الحقيقة . ولا شك أن كلّ جهد يبذل في سبيل استرجاع الإيمان الفلسفي الحقيقي ، إنما هو جهد إنسانيّ يحقق للبشريّة وحدة عقلية شاملة ^(١) .

ونحن — في مجتمعنا العربيّ المعاصر — أحوج ما نكون إلى مثل هذا الاتجاه العقلانيّ الأصيل ، فقد سيطرت على نفوسنا — منذ عهد بعيد — نزعات عاطفيّة متطرّفة ، واتجاهات وجدانيّة هوجاء ، حتّى أصبح الحرك الأوحّد لكلّ أفكارنا ، وأفعالنا ، وسائر مظاهر نشاطنا ، إنما هو « الوجدان » . وليس في وسع أحد — بطبيعة الحال — أن ينكر دور « العاطفة » في تحديد الكثير من مظاهر السلوك البشريّ (وفي مقدمتها : الحياة الخلقيّة) ، ولكن الذي لا نزاع فيه أن « المواقف الوجدانيّة » ، لا تكفي وحدها لخلق « روح فلسفيّة » ، أو لإرساء دعائم أية « عقلية علميّة » . وهذا هو السبب في أن العديد من أحكامنا — إن في مجال الفكر ، أم في مجال السياسة ، أم في مجال التنظيم الاجتماعيّ ، أم في مجال التخطيط الاقتصاديّ ، أم في غير ذلك من المجالات — قد بقيت أحكاما عاطفيّة تغلب عليها صبغة الاندفاع الوجدانيّ ، وتسيطر عليها سمة التهور الانفعاليّ ! وقد

Husserl : La Crise des Sciences Européennes, Trad. (١)
E. Gerrer, In « Etudes Philosophiques », 1949. pp. 139 — 142.

كان آخر مظهر لهذا الاندفاع الوجداني الأهوَجُ، ما سجلته « عدسات التليفزيون » في العالم أجمع ، يوم الاحتفال بتشيع جثمان بطلنا العظيم جمال عبد الناصر ، حين اندفعت جماهير الشعب نحو نعش القعيد ، تنزع العلم الملقوف به ، وتحاول الحيلولة دون إتمام مراسيم الجنازة ! ومهما يكن من أمر تعلق الشعب بزعيمه الراحل ، ومجزه عن تصديق نبأ موته ، فقد كان الظن بشعب يحترم جلال الموقف ، ويقدر رهبة الموت ، أن يكتم عواطفه ، ويتحكم في مشاعره ، حتى يكون لموكب الراحل العظيم — وهو في طريقه إلى مثواه الأخير — جلاله القدسي الذي يليق بأمثاله من عظماء الرجال . ولكن عواطفنا الملتهبة ، وأحزائنا المتأججة — مع الأسف الشديد — هي التي سيطرت على الموقف بأسره ، فلم نستطع أن نواجه « الموت » بالاستجابة للملائمة اللائقة بكائنات عاقلة ! وليست هذه الواقعة — في نظرنا — سوى نموذج واحد (بين نماذج أخرى كثيرة) لهذه النزعة العاطفية المتطرفة التي كثيرا ما تنجيء فتشل قوانا العاقلة ، وتجعلنا عاجزين — أو شبه عاجزين — عن إصدار الحكم العقلي الراجح ، أو الاستجابة للمواقف بطريقة واعية سليمة . وليست « النزعة العفانية » هبة فطرية قد اختص بها شعب دون آخر ، بل هي عادة مكتسبة يمكن أن تصبح لدى أى شعب من الشعوب — تحت تأثير التربية والدراسة والممارسة — عادة عقلية يصدر عنها الأفراد في كل سلوكهم . ولا شك أن « التفكير الفلسفي » عامل من ضمن العوامل الأساسية التي تساعد الأفراد على اكتساب هذه « المادة العقلية » : لأنه تدريب ذهني ينمي لدى الفرد وظيفة الحكم ، ويعينه على الاستجابة للمواقف بروح موضوعية .

ولابد أيضا من « تفكير منهجى »

وقد دللنا التجربة على أنه ليس أخطر على الحياة الفكرية فى أى مجتمع ، من أن تكون « الثقافة » التى يحيا عليها أفراد ذلك المجتمع مجرد مجموعة من « الأفكار الجاهزة » أو « الإطارات العقلية الجامدة » ، التى يسلم بها الناس تسلياً دون أن يتساءلوا مطلقاً عما تنطوى عليه من معان ، أو ما تستند إليه من فروض . وأما « الفكر المفتوح » الذى لا يكف عن الرجوع إلى الأصول ، والبحث عن الافتراضات الأولية ، دون التمسك بأية آراء مسبقة ، أو للقبض بأية أفكار جاهزة ، فهو وحده « الفكر الحر » الذى لا يكف عن معاودة البحث ومطارحة المسائل ، من أجل الانطلاق فى آفاق البحث العقلى ، غير متقيد إلا بما يمليه عليه المنطق ، وما يتطلبه منه الاستبدال النهجى السليم .

والواقع أننا أحوج ما نكون اليوم إلى « تفكير منهجى » لا يستخرج من المقدمات إلا ما يلزم عنها بالضرورة من نتائج ، ولا يترك فى سلسلة استدلالاته العقلية أية فجوات أو ثغرات ، بل يحاول دائماً أن يلتزم فى أبحاثه ودراساته قواعد « المنهج الرياضى » التى طالما أشاد بها كل من ديكارت ، وليبنس ، وهوسرل وغيرهم . وإذا كنا قد دأبنا على الانتقاص من قدر الفلسفة ، والتقليل من شأن « التفلسف » ، فقد آن لنا الأوان — اليوم — لأن ندرك دور الثقافة الفلسفية فى تزويد الناس بروح الدقة ، والتحديد ، والصرامة . ونحن حين نتحدث عن أهمية « التفكير المنهجى » ، فإننا نعنى أنه لابد للباحثين عندنا من توخى الدقة فى استخدام المصطلحات ، ومراعاة التسلسل المنطقى فى تنظيم الأفكار ، والتزام قواعد البحث العلمى فى التفكير . وليس من شك فى أن دراسة مناهج العلوم كثيراً ما تكون بمثابة مدخل ضرورى إلى أية دراسة علمية كائنة ما كانت . فما أحوجنا إلى إدخال هذه المادة الأكاديمية على شتى مناهجنا التعليمية فى كافة

كلياتنا الجامعية . والحق أننا نلاحظ - في كثير من الأحيان - أن معظم طلابنا في الجامعة يجيدون جميع المعلومات وعرض الآراء ، ولكنهم قلما يحفلون بالتزام قواعد « المنهج » في أبحاثهم العلمية . ومن هنا فقد أصبحت الحاجة ماسة اليوم إلى التشديد على أهمية « التفكير المنهجي » ، وتأکید دور « التحليل المنطقي » في كل دراسة علمية جادة . وهذه المهمة إنما تقع أولا وبالذات على عاتق أساتذة الفلسفة والمنطق في الجامعات العربية المختلفة : لأنه لا بد للأجيال الناشئة من أن تعرف أهمية « المنهج » ، قبل الاقدام على القيام بأى بحث . وليس أقدر من رجالات الفلسفة على نشر الروح المنهجية ، وتعريف الشباب بقواعد المنهج العلمى ، خصوصا وقد أصبح معيار النجاح في أى ميدان من ميادين البحث هو سلامة « المنهج » المستخدم فيه ..

... دور « الفلسفة »

هو دور « الحوار الفكرى » الحر ..

لقد كان هيجل يقول - في معرض الحديث عن ترقى الوعي البشرى عبر التاريخ - إن الشرقيين لا يعرفون أن الروح أو الإنسان باعتباره كذلك ، إنما هو فى ذاته حر . ونظرا لأنهم لا يعرفون ذلك ، فإنهم ليسوا كذلك - يعنى أنهم ليسوا أحرارا - وكل ما يعرفه الشرقيون أن ثمة إنسانا واحدا هو وحده الموجود الحر . ولكن هذه الحرية نفسها لا تزيد عن كونها حرية تعسفية بربرية ، تكشف عن انحطاط العقل وتدهوره ، تحت تأثير نزوات العاطفة وأهوائها^(١) . ولنا بصدد الحكم على مدى صحة رأى هيجل أو مدى مجانبته للصواب ، بل كل ما يميننا هنا هو أن نشير إلى الصلة الوثيقة التى أقامها هيجل بين ترقى الوعي من

Hegel : «La Raison dans l'Histoire», Paris, 1965, p. 83. (١)

جهة ، وتزايد شعور الأفراد بالحرية من جهة أخرى . وإذا كان هيجل قد جعل ظهور الفلسفة على مسرح الحضارة البشرية رهنا بتقدم الإنسان ، وتزايد إحساسه بالحرية ، فذلك لأنه قد فطن إلى أن من أخص خصائص الروح الفلسفية أنها روح البحث المستمر ، والحرية الفكرية ، والتسامح العقلي ، والرغبة الدائمة في الحوار مع الآخرين . والحق أنه لا يمكن أن تكون ثمة فلسفة ، مالم يكن هناك أولا شعور بالحرية ، وإيقان بأن الحق فوق القوة ، واعتراف بأن العلاقات البشرية ينبغي أن تقوم على التفاهم والتسامح ، لا على التضاصم والتنازع . ولعل هذا ما عناه أحد الباحثين المعاصرين حين كتب يقول : « إن الفلسفة لا تبدأ إلا حينما يتهيأ للبشر أن يتنازلوا عن روح العنف والشدة ، لكي يستعوضوا عنها بروح التفاهم والمودة »^(١) .

وإذا كان للفلسفة — اليوم — أن تقوم بدور فعال في مجتمعتنا العربي المعاصر ، فلا بد لكل منا — كأنا ما كان وضعه في المجتمع — أن يفهم أنه مواطن حر ، وأن حريته لا تعني الانطواء على نفسه ، أو قطع وشائج التواصل بينه وبين الآخرين ، بل هي تعني الحوار مع غيره من أبناء الجماعة ، وتحقيق المزيد من أسباب التفاهم بينه وبين الآخرين . وما دامت الفلسفة حديث الإنسان مع الإنسان ، وحوار المواطن الحر مع المواطن الحر ، فلا يمكن للروح الفلسفية الحققة أن تقتن بالتعصب أو التمسب أو العداء أو الاستبداد بالرأى ، بل هي لابد من أن تكون حليفة الحرية والتسامح والانفتاح وسعة الأفق . وإن الفيلسوف ليعلم أن الشجاعة هي أول شرط من شروط التفكير الحر ، فليس بدعا أن نراه يحمل على « الخوف » باعتباره أعدى أعداء الروح الفلسفية الحقيقية . ونحن اليوم — في مجتمعتنا العربي المعاصر — أحوج ما نكون إلى مفكرين أحرار ، أمناء يفهمون أن

Eric Weil : « Logique de la Philosophie », 1950, Ch. I et II. (١)

الشجاعة الفكرية هي الشرط الأول لكل نزاهة عقلية ، وأن الصراحة مطلب أساسي من مطالب كل تفكير حر . ومن هنا فقد أصبح لزاما علينا — في هذه الحقبة التاريخية الهامة من حقب تطورنا الحضارى — أن نفتح المجال للحوار الفكرى ، وأن ندعو المفكرين إلى مطارحة الآراء الحرة ، واثقين من أن كل محاولة للتحكم فى القول ، لابد من أن تكون أسوأ بكثير من أية محاولة للتحكم فى الجسوم ! وليس اختلاف الآراء فى حد ذاته شرا ، بل الشر أن يقوم رأى على الجهل ، والتعصب ، وضيق الأفق ! وأما الحوار الفكرى الصحيح ، فهو لا يمكن إلا أن يولد مجتمعا مستنيرا واعيا ، شعاره التواصل العقلى ، وقوامه الانفتاح على شتى التجارب الحية ..

ولكن ، لا حوار بدون خلفية فلسفية سليمة . .

بيد أن الحوار الفكرى الصحيح لا يمكن أن يقوم بين قوم لا يملكون أية خلفية فلسفية ، بل هو يستلزم بالضرورة إلماا واعيا بأهم قضايا الفكر وشتى اتجاهات الفلسفة قديما وحديثا . وكثيرا ما نجد أناسا ينادون بالحوار ، ويدعون إلى المناقشة ، دون أن يفتنوا إلى أن الحوار الذى يقوم بين أطراف لاعلم لها بموضوع المناقشة هو حوار عقيم لاجدوى منه ولا طائل تحته ! ولسنا ندرى — مثلا — كيف ننتظر من مواطنين لم يدرسوا الاتجاهات السياسية أو الاجتماعية السائدة فى مختلف أرجاء العالمين الشرق والغربى ، أن يكونوا على وعى بقيمة هذا الاتجاه أو ذاك ، أو أن تكون لهم أدنى دراية بمزايا (أو عيوب) هذا النظام أو ذاك ! ومن هنا فإن دور الفلسفة فى مجتمعنا العربى المعاصر لابد من أن يكون هو دور المعلم الذى يقوم بمهمة « التوعية » . ونحن نعرف أن صحفنا الأدبية ومجلاتنا الثقافية حافلة بالكثير من الأسماء ، عامرة بالعديد من الشعارات ، ولسكننا قلما نجد لدى جمهور القراء إدراكا واعيا لحقيقة أمر أصحاب تلك الأسماء ، وأهل هذه

الشعارات . . إلخ . ولعل هذا ما لاحظته كاتب هذه السطور لدى العديد من طلابه دارسى الفلسفة فى جامعاتنا العربية : فإن معظم المعلومات المتوافرة لديهم عن المذاهب الاجتماعية والأنظمة السياسية هى فى الغالب معارف مهوشة مشوشة تقتصر إلى الكثير من الدقة والصرامة والتحديد ! وليس فى استطاعتنا أن ندعو مثل هؤلاء الطلاب إلى الحوار ، أو أن نفسح أمامهم المجال للمناقشة ، اللهم إلا بعد أن نكون قد زدوهم بالمعلومات الصحيحة التى تسمح لهم بالحوار ، وتؤهلهم للقيام بالمناقشة . وأما أن نتركهم يتناقشون ويتحاورون — دون أن تكون لديهم أية خلفية فلسفية سليمة — فإننا عندئذ إنما نسهم فى العمل على زيادة حظهم من التعثر والتخبط والاضطراب الفكرى !

والواقع أن الكثير من "دعاة الفكر الحر ينسون — أو يتناسون — أن الحرية الفكرية لا يمكن أن تقوم فى فراغ ، بل لابد من أن تستند إلى توعية عقلية صحيحة يستطيع معها المواطن الحر أن يكون على دراية واعية بالأطراف التى يحقق اختياره فيها بينها . وقد يميل إلينا — فى بعض الأحيان — أنه لا جدوى من دراسة آراء أفلاطون وأرسطو ، والقديس أوغسطين والقديس توما الاكويينى ، والفيزيالى وابن رشد ، وبيكون وديكارت ، وكانت وهيجل ، وماركس ، ونيتشه ، وهوسرل ، وهيدجر ، وسارتر ، وغيرهم من رجال الفلاسفة قديما وحديثا ، ولكن من المؤكد أن تاريخ الفلسفة جزء هام من التاريخ العام للحضارة البشرية ، بحيث قد يستحيل علينا أن نقيس مدى التقدم التاريخى عموما دون الرجوع إلى تقدم الأفكار الفلسفية بصفة خاصة . وليس أيسر على الباحث للتهور أو التعتجل من أن يضرب صفتنا عن تأملات الفلاسفة ، بدعوى أنها مجرد أحلام خيالية أو نظرات واهمة ، ولكنه — عندئذ — إنما يتعاضى عن حقيقة تاريخية هامة : ألا وهى أن النظر العقلى هو المحرك الأساسى للتقدم الاجتماعى . وهل كان تأثير

أرسطو أو بيكون أو ديكارت أو كانت أو هيجل أو ماركس ، على مجرى الحضارة البشرية بصفة عامة ، أقل من تأثير الاسكندر أو قيصر أو شرلمان أو نابليون أو غيرهم من القادة العسكريين ؟

ولابد للفلسفة أيضا من أن تهيء فتستثير إحساسنا بالقيم :

على أن الفلسفة ليست مجرد قوة فكرية هائلة تعمل جنباً إلى جنب مع سائر القوى التاريخية الفعالة التي تغير المجتمع وتنحكم في سير الأحداث ، بل هي أيضاً أداة أخلاقية ناجعة تهيء فتستثير إحساسنا بالقيم ، ونفمي قدرتنا على الإعجاب . والملاحظ — في مجتمعنا الراهن — أن الناس قد أصبحوا جامدين متبلدين ، لا شيء يلهمهم ، ولا شيء يمسهم ، ولا شيء يحرك كوامن وجودهم الباطني . وهذا هو السر في أن الحماسة قد اختفت — أو كادت — كما أن القدرة على التعجب قد انحلت — أو أوشكت — . ولا شك أن الانزلاق على سطوح الأشياء (كما لاحظ هارتمان) يمثل أسلوباً سهلاً من أساليب الحياة ، فليس من الغرابة في شيء أن نجد الإنسان العادي عندنا مرتاحاً إلى هذا الأسلوب السطحي من أساليب الحياة ، دون أن يفتن إلى ما يكن وراءه من « خواء باطني » . وهذه الضحالة في الإحساس بالقيم تقترن عندنا — في العادة — بأحاسيس الجذب ، والسأم ، وعدم الاكتراث ، لدرجة أن الكثيرين قد أصبحوا يحميون ، دون أن يكون لديهم أي وعي حقيقي بالحياة التي يعيشونها ولا سبيل إلى علاج هذا المرض الأخلاقي ، اللهم إلا باستثارة ما لدى الإنسان العربي من قدرة على التحمس والإعجاب ، من أجل دعوته إلى رؤية القيم ، والإحساس بثراء الحياة .

والحق أن الكثيرين قد أصبحوا يتوهمون أن الحياة هي الإشباع المادي ، وأن السعادة هي « الرفاهية » ، فلم يعد الناس يرون من « القيم » سوى جانبها النفعي . ولا شك أن العامل أو الرجل السكادح حين يتصور أن الفنى يتمتع بكل ما هو

في حاجة إليه ، فإنه قد يتناسى أن هناك قوماً أخرى غير « الرافضة » ، وأن « السعادة » ليست بالضرورة مجرد نتيجة لضرب من « الحساب النفى » .

ومن هنا فانه قد يكون من واجب فيلسوف الأخلاق — في مجتمعنا العربي المعاصر — أن يسلط الأضواء على الكثير من « القيم » التي يتجاهلها الناس : كالعرفه ، والثقافة ، والتذوق ، والفن . . الخ . وربما كان الخطر الأكبر الذي يهدد المأخوذين بسحر المنفعة هو الوقوع تحت « وهم اللذة » ، أو « خداع السعادة » ، مما قد يدفع بهم نحو الجرى — عبثاً — وراء سراب المنفعة ، لكي لا يلبث الواحد منهم أن يحمد نفسه — في خاتمة المطاف — أمام تهاويل براءة لا تخلف وراءها سوى الاحساس بالخواء ! وإذا كان من واجبتنا اليوم أن نعمل على تذوق قيم الحياة — بكل ما فيها من وفرة وامتلاء — فذلك لأن احساس المرء بوجوده رهن بتلك الحساسية الأخلاقية المتروية التي تفتتح لشتى ضروب الثراء الكامنة في الحياة . ولا بد لفيلسوف الأخلاق من أن يجيء فيحاول استثارة قدرتنا على الإعجاب ، حتى يصبح في مقدور الإنسان العربي أن يدهش ، ويمجب ويتحمس ، ويتذوق ، ويماد النظر إلى عالم الأشياء والأشخاص والأحداث بعين نفاذة ترى « القيم » ، وتذكر « المعاني » ! وسيظل الإنسان المتحضر الواعي بذاته ، هو على النقيض تماماً من الرجل الجافى الغليظ المتبلد ، أو الإنسان المغلق المقفر المتجمد ، لأن الوعى وثيق الصلة بالتذوق ، ولأن الحضارة تسير دائماً جنباً إلى جنب مع تزايد الحساسية بالقيم . أفلا يحق لنا إذن أن نقول إنه لا بد للفلسفة — في مجتمعنا العربي المعاصر — من أن تجيء فتعمل على استثارة إحساسنا بالقيم ؟

والفلسفة كذلك « أداة رفض » ، و « وسيلة نقد » ..

ولكننا لن نستطيع أن ندرك الدلالة الحقيقية للقيم ، ما لم نشرع — بادية —
ذى بدء — فى نقد ما بين أيدينا من « متواترات » ، و « رفض » ما اعتدنا
الأخذ به من « مسلمات » .. والواقع أن الفلسفة — فى كل زمان ومكان — قد
عملت على محاربة السذاجة ، والإمعية ، والتصديق السريع حتى لقد كان الفلاسفة
على مر العصور موضع شبهات الجماعة ، ومثار توجس الجماهير . ولا ريب ، فإنه
ليس من طبيعة الروح الفلسفية أن تقنع بما بين أيدي الناس من حقائق ومعتقدات ،
بل هى لا بد من أن تضع كل هذه الآراء المسبقة موضع البحث ، حتى يتسنى لها
أن تعيد بناءها من جديد على ذاتهم نقدية يقرها العقل . و « الرفض » هو تلك
القوة النقدية الكبرى التى تنتقل بالناس من عهد « الأسطورة » إلى عهد
« التفكير » . وإذا كان مجتمعنا العربى المعاصر أحوج ما يكون إلى الروح
الفلسفية ، فما ذلك إلا لأن الناس عندنا يفتقرون بالفعل إلى النقدية النقدية التى
تعرف كيف تواجه الشكوك والأكاذيب والخرافات بكلمة « لا » ، بدلا من
الاقتصار على قبول آراء ظنية وأفكار زائفة لا تستند إلى أية دعامة ثابتة ،
ولا تقوم على أية ركيزة متينة . وليس المقصود بالرفض هو المذهب المجرد المدم ،
أو الإنكار المجرد الإنكار ، بل المقصود بالرفض هو القضاء على الأساطير
الوهمية الكاذبة التى ما يزال الناس يرون فيها « حقائق » واضحة بينة . وهذه
العملية السلبية هى المرحلة الأولية الضرورية أو الخطوة الأساسية الجوهرية ، لقيام
« وعى فلسفى » صحيح يكون بمثابة اليقظة الزوجية التى تنتقل بنا من عهد
« الأسطورة » إلى عهد « التفكير » .

وكثيرا ما نلاحظ — حتى لنبى بعض المشتغلين بالدراسات الفلسفية عندنا —
مجرد اهتمام بالأخذ عن كتاب الغرب ، أو الحرص على ترجمة أفكارهم

إلى لغتنا العربية ، دون العناية بنقد تلك الأفكار أو تمحيصها ، وَكَأَنَّ كُلَّ مَا كَتَبَهُ
فلاسفة أوروبا وأمريكا لابد بالضرورة من أن يكون صحيحا ! وهكذا سرت بيننا
عدوى النقل ، وحى الترجمة ، حتى لقد اقتضت جهود الكثيرين (من خيرة
الأساتذة عندنا) على تعريب الكتب الأجنبية ، أو تلخيصها ، أو النقل عنها !
واسننا ننكر أهمية الترجمة (خصوصا حين يتعلق الأمر بأهميات الكتب الغربية
في الفلسفة أو الاجتماع أو السياسة أو غير ذلك) ، ولكننا لا نتصور أن نقف كل
جهودنا العلمية عند الترجمة ، أو أن تقتصر كل مظاهر نشاطنا الفكري على النقل !
وكان الظن بالكثير من الباحثين عندنا أن يكونوا أهل تمحيص ونقد ، لا مجرد
أقلام مكددة تقتصر على التعريب والنقل ! ولو أننا عنيينا — منذ البداية — بتنمية
روح النقد لدى أبنائنا ، وتزويدهم بالمقالية الفلسفية القادرة على الرفض ، لما شب
النشء عندنا على التقليد والمحاكاة ، أو التردد والاتباع ، بل لوجدوا في نفوسهم
حافزا إلى التجديد والمبادأة ، إن لم نقل الابتكار والابداع . ومن هنا فإن
المهمة الكبرى التي تقع على عاتق القائمين بتدريس الفلسفة — في المدارس الثانوية
وفي الجامعات على السواء — هي العمل على تعليم النشء كيف يفكر ، بدلا من
الاقتصار على تزويدهم ببعض الأفكار الجاهزة ! ولا يمكن أن تنشأ لدينا مثل
هذه « اليقظة الفكرية » ما لم نحاول — أولا وقبل كل شيء — النهوض من
ذلك السبات الأسطوري الذي ما زال يخيّم على عنولنا !

وأخيرا ، ليست الفلسفة مجرد حفاظ على الماضي ، بل هي أيضاً انطلاق
نحو المستقبل !

وهنا قد يقال : « إن لدينا تراثا فلسفيا عربيا ، ولابد لنا من العمل على
بعث هذا التراث ، فإنه لا يمكن لأية نهضة فلسفية معاصرة أن تتجاهل ماضي
الفكر العربي . » ونحن لانشك لحظة واحدة في أن حاضرا الفكرى المعاصر

هو من جهة استمرار لاتجاهاتنا الفكرية الماضية ، وهو من جهة أخرى انطلاق نحو آفاق المستقبل . ولكننا لا نريد للماضي أن يكون مجرد مخدر يشل حركتنا ، ويحول بيننا وبين الابتكار أو التجديد . وكما حاول أسلافنا وأجدادنا وضع ثقافة عربية أصيلة (دون الاختصار على ترديد التراث اليوناني) ، فكذلك لا بد لنا اليوم من العمل على التفكير لحسابنا الخاص (دون الوقوف عند ترجمة الثقافة الغربية) . وأما أن ينصرف كل -- أو جل -- اهتمام المشتغلين بالدراسات الفلسفية عندنا ، إلى تحقيق المخطوطات القديمة ، والعمل على نشر التراث العربي ، فهذا ما قد يجعل منا مجرد نقلة ومرددين ، دون أن يقوم بيننا بمجهود أو مجددون . وليس من شك في أن إفلاس الفكر العربي المعاصر - نتيجة لظروف عديدة لا مجال للحديث عنها في هذا المقام - هو الذي حدا بالكثيرين إلى الارتداد نحو الماضي ، من أجل العمل على بعث تراثنا العربي القديم ، دون المساهمة بأية إضافة جديدة حقيقية . ونحن لا ننكر أهمية تحقيق التراث العربي القديم ، والعمل على نشر أمهات الكتب العربية القيمة في الفلسفة وعلم الكلام وأصول الفقه (وغير ذلك) ، ولكننا لا نقصود أن يقتصر كل إنتاجنا الفلسفي على أعمال التحقيق والترجمة ، دون أن يتجاوز هذه المحاولات التقليدية للحفاظ على الماضي ، من أجل الاضطلاع بمجهود إبداعية تكون بمثابة إنتاج فلسفي جديد . وليس ما يمنع ثقافتنا الراهنة من أن تستند إلى ثقافة الماضي ، وتستلهمها ، وترتكز عليها ، ولكن لا معنى لأن تكون كل ثقافتنا المعاصرة مجرد محاكاة لثقافة الماضي ، وترديد لأقوال القدماء ، وسير على نهج الأولين ! ومن العجيب أن بعضا من المشتغلين بالدراسات الفلسفية عندنا قد بدأوا حياتهم الفكرية بأعمال أصيلة لم تكن تخلو من محاولات جديدة للقيام ببعض الإضافات الجديدة ، ولكنهم لم يلبثوا أن انصرفوا عن هذا الاسهام الإبداعي ، من أجل الاختصار على القيام بأعمال التحقيق ونشر التراث العربي القديم !

يبد أن الاضطلاع بأمثال هذه الإضافات الفكرية لا يمكن أن ينهيا لرجالات
الفكر العربي المعاصر ، اللهم إلا إذا توافر لهم المناخ الروحي اللائم ، بحيث
يكون في وسعهم التحرر من أسر ضغوط الماضي ، دون الوقوع تحت سحر
التيارات الغربية المعاصرة . ونحن — في مجتمعنا العربي الراهن — على وعى تام
بتفوق الغرب علينا في مضمار العلم ، والفن ، والفلسفة ، وشتى مظاهر الثقافة ،
ولسكننا على ثقة أيضا من أنه ليس ما يمتنعنا نحن العرب — بشرط أن تتوافر
لنا الظروف اللائمة — من أن نقوم بدورنا الحضارى في العالم المعاصر ، بحيث يحى
مستقبلنا الثقافي أفضل بكثير من ماضينا .

المراجع

المراجع العربية(*)

- ١ — أبو العلا عفيفي : « المدخل إلى الفلسفة » ، تأليف كوله ، ترجمة عربية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٢ .
- ٢ — توفيق الطويل : « أسس الفلسفة » ، الطبعة الثالثة ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، ١٩٥٨ .
- ٣ — زكريا إبراهيم : « مشكلة الإنسان » ضمن مجموعة مشكلات فلسفية ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، طبعة ثانية .
- ٤ — زكريا إبراهيم : « الفلسفة بين العلم والفن » مقال بمجلة « المجلة » ، العدد ٤٥ ، السنة الرابعة — سبتمبر ١٩٦٠ .
- ٥ — زكريا إبراهيم : « تأملات وجودية » ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٦٢ .
- ٦ — زكي نجيب محمود : « نحو فلسفة علمية » مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الأولى ، القاهرة — ١٩٥٨ .
- ٧ — زكي نجيب محمود : « خرافة الميتافيزيقا » ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٥٣ .

(*) اقتصرنا هنا على ذكر المراجع العربية التي تعرض لبيان مفهوم الفلسفة وعلاقتها بالعلم وأهميتها الحيوية ، مع مراعاة استيعاب شتى الفترعات الفلسفية المعاصرة (من وجودية ، ووضعية منطقية ، وبرجماتية ، وواقعية . . الخ) . وللقارئ أن يقارن وجهات نظر هؤلاء بلووقف الفلسفي الخاص الذي اتخذته المؤلف .

- ٣٥٩ -

- ٨ — عثمان أمين : « محاولات فلسفية » ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٣ .
- ٩ — عثمان أمين : « شخصيات ومذاهب فلسفية » ، القاهرة ، منشورات الجمعية الفلسفية المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٤٥ .
- ١٠ — فتحي الشنيطي : « مشكلات فلسفية — لكارل يسيبرز ووليم جيمس » ، مكتبة القاهرة الحديثة ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٧ .
- ١١ — يحيى هويدى : « مقدمة فى الفلسفة العامة » الطبعة الثالثة ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٥٩ .
- ١٢ — يحيى هويدى : « أضواء على الفلسفة للمعاصرة » الطبعة الأولى ، مكتبة القاهرة الحديثة ، ١٩٥٨ .

ثانيا : المراجع الإنجليزية والأمريكية

- 1) Ayer (A.J.) : «Language, Truth and Logic.», Oxford University Press, New-York, 1936.
- 2) Bahm (A. J.) : «Philosophy; An Introduction», John Wiley & Sons, New-York, 1953.
- 3) Barrett (C.) : «Philosophy», The Macmillan Co, New-York, 1935.
- 4) Brennan (J. G.) : «The Meaning of Philosophy», Harper & Brothers, New-York, 1953.
- 5) Brightman (E.S.) : «An Introduction to Philosophy.», Henry Holt and Co., 1925.
- 6) Bronstein (J. D.) & Y. H. Krikorian & Ph. B. Wiener : «Basic Problems of Philosophy.», Prentice Hall Co., New-York 1947.
- 7) Cunningham (G.W.): «Problems of Philosophy», Henry Holt and Co., New-York, 1924.
- 8) Dewey (J.) : «Philosophy and Civilization», Putnam's Sons New-York, 1931.
- 9) Drake (D.) : «Invitation to Philosophy.», Houghton Mifflin Co., Boston, 1933,
- 10) Hocking (W. E.) : «Types of Philosophy », N—Y., Charles Scribner's Sons, 1939.
- 11) James (W.) : «Some Problems of Philosophy», Longmans, Green & Co., New-York, 1911.
- 12) Langer (Suzanne) : « Philosophy in a New-Key. », Harvard University Press, Cambridge, 1942.
- 13) Lewis (J.) : « Introduction to Philosophy. », Watts & Co., London, 1954.
- 14) Long (M.) : « The Spirit of Philosophy.», W. W. Norton & Co., New-York, 1953.
- 15) Marias (Julian) : « Reason and Life, The Introduction to-Philosophy. », London, Hollis & Carter, 1956.

- 16) Maritain (J.) : «An Introduction to Philosophy», Sheed & Ward, New-York, 1930.
- 17) Patrick (G. T. W.) : «Introduction to Philosophy», Houghton Mifflin, Boston, 1935.
- 18) Perry (R. B.) : «A Defence of Philosophy.», Harvard University Press, Cambridge, 1931.
- 19) Rosenberg (Max) : «Introduction to Philosophy», Philosophical Library, New-York, 1955.
- 20) Sellars (R. W.) : «Principles and Problems of Philosophy.», Macmillan Co., N—Y., 1926.
- 21) Sinclair (W. A.) : «An Introduction to Philosophy.», Oxford University Press, London, 1944.
- 22) Titus (H. H.) : «Living Issues in Philosophy.», American Book Co., New-York, 1946.
- 23) Wahl (Jean) : «The Philosopher's Way», Oxford University Press., New-York, 1948.

ثالثاً : المراجع الفرنسية

- 1) Alain : «Eléments de Philosophie», Paris, N. R. F., Calimard, 1941.
- 2) Alquié (F.) : «Leçons de Philosophie», 2 vol., Didier, 1939—1941.
- 3) Alquié (F.) : «La Nostalgie de l'Etre.», Paris, P.U.F., 1950.
- 4) Berdiaeff (N.) : «Cinq Méditations sur l' Existence», Paris. Aubier, 1936.
- 5) Bergson (H) : «La Pensée et le Mouvant.», Paris, P. U. F., 1946, 220 éd.,
- 6) Blondel (M.) : «La Pensée.», Paris, Félix Alcan, 1934, 2 vol.
- 7) Bréhier (E.) : «La Philosophie et son passé.», Paris, P.U.F., 1940.

- 8) Cuvillier (A) : « Manuel de Philosophie », Paris, Colin, 2 vol., 1948.
- 9) Foulquié (P.) : « Précis de Philosophie », Edition de l' Ecole, Paris, 1946, 2 vol.
- 10) Gouhier (H.) : « La Philosophie et son hisitoire », Vrin, 1940.
- 11) Gusdorf (G.) : « Mythe et Métaphysique », Paris, Flammarion, 1953.
- 12) Gusdorf (G.) : « Traité de Métaphysique », Paris, Colin, 1956.
- 13) Janet (P.) & Séailles (G.) : « Histoire de la Philosophie : Les Problèmes et les Ecoles », 1938.
- 14) Jankélévitch (V.) : « Philosophie Première », Paris, P. U. F., 1954.
- 15) Jaspers (K.) : « Introduction à la Philosophie », trad. franç. par J. Hersch, Plon, 1951.
- 16) Jaspers (K.) : « La Foi Philosophique », trad. franç. par J. Hersch & H. Naef, Plon, 1953.
- 17) Le Senne (R.) : « Introduction à la Philosophie » P. U. F., 3e. éd., 1949.
- 18) Maritain (J.) : « Distinguer pour unir, ou les Degrés du Savoir », Paris, Desclée, 1932.
- 19) Maritain (J.) : « Eléments de Philosophie », I et II., Paris, Téqui.
- 20) Merleau—Ponty (M.) : « Eloge de la Philosophie », Paris, Gallimard, N. R. F., 1953.
- 21) Raeymaeker (Louis De) : « Introduction à la Philosophie », Louvain, I. S. F., 1944.
- 22) Wahl (Jean) : « Traité de Métaphysique », Paris, Payot, 1953.
- 23) Weil (Eric) : « Logique de la Philosophie », Paris, Vrin, 1950.

فهرس تحليلي

الصفحة

تصدير ١٦ - ٥

ليس ثمة « مدخل إلى الفلسفة » — هل يكون كتابنا هذا مجرد « دفاع عن الفلسفة » ؟ — ديكارت يقول إنه ليس في وسع الإنسان المتحضر أن يحيا دون فلسفة ! — أهمية مشكلة الحقيقة — خطورة موقف عدم الاكتراث — دور « الحوار » في عملية « التواصل الفكري » — ليست « الفلسفة » مجرد ظاهرة اجتماعية نسبية — الفلاسفة يزعمون أنهم ينطقون باسم الحقيقة الكلية المطلقة — تاريخ الفلسفة هو تاريخ العلاقات الفكرية والنازعات الذهنية ! — هل نضع فكرة « الشهادة » محل فكرة « الحقيقة » ؟ — كل نظرة فلسفية هي بطبيعتها نظرة جزئية ، فلا بد من ربطها بما عداها من وجهات النظر الأخرى — ليس ثمة « فلسفة في ذاتها » . — الفيلسوف الكبير هو « موحد الأفكار » — هل تكون التجربة الميتافيزيقية وفقاً على بعض العقليات الممتازة ؟ — موضوع الوعي الفلسفي هو « الخبرة المادية » . — الإنسان ووعي وحرية — لن تزول الفلسفة إلا بزوال آخر موجود بشري !

مقدمة ١٧ - ٢٥

هل يمكن أن تكون الفلسفة « رسالة روحية » يحيا من أجلها المرء ؟ — موضوع الفلسفة الأول هو البحث في مشكلة المصير — فلاسفة المشكاة وفلاسفة الحل — الفيلسوف إنسان « سالك » هيات له أن يصبح يوماً « واصلاً » — الفلسفة تراث إنسانى مشترك تعيش عليه البشرية قاطبة — هل تكون هناك « فلسفة خالدة » ؟ — سحر « للذهبية » — الدهشة هي الأم التي أنجبت لنا الفلسفة (أرسطو) — الفلسفة لا تبدأ إلا حينما يلتقي المرء بـ « اللامعقول » ! الإنسانية لا تثير من المشكلات إلا ما هي قديمة على حله (ماركس) — الفيلسوف هو رجل الإنكار والانفصال والمعارضة — ليس في الوجود شفافية مطلقة تجمل منه كتاباً مفتوحاً أمام العقل ! التفكير الميتافيزيقي مشروط بضرب من الدوار العقلي — الفلسفة نفسها مشكلة ! — لا بد من العمل بنصيحة أرسطو بحيث « تفلسف » لنثبت لزوم « التفلسف » . . .

الفصل الأول

تطور التفكير الفلسفي

الصفحة

٢٦ — ٦١ .

الفلسفة حق إنساني لا شأن له بخطوط الطول والعرض ، ولا علاقة له بمسائل
الجنس والدين واللون — التفكير الفلسفي مائل في الأساطير والحكم والأمثال وغير
ذلك — هيات لأحد أن يستغنى عن الفلسفة ! — الفلسفة عند اليونان كانت تشير
في البدء إلى حب الاستطلاع عامة — ثم أصبحت تعنى حب الحقيقة — . فيثاغورس
يحدد معنى الفلسفة لأول مرة — الفلاسفة الطبيعيون يتصورون الفلسفة على أنها بحث
عن العناصر — النزعة الشككية تتطرق إلى الفلسفة على أيدي السوفسطائيين —
سقراط يوجه الفلسفة نحو دراسة الإنسان — « أيها الإنسان : اعرف نفسك » —
أهمية منهج « التهكم والتوليد » — الفلسفة تصبح على يد سقراط هي « علم للاهيات
أو المعاني » . أفلاطون يحيل الفلسفة إلى علم كلي يدرس الطبيعة والنفس والأخلاق . . .
إلخ . — المنهج الجدلي عند أفلاطون — الفلسفة حكمة تجمع بين العلم والعمل —
— أرسطو يقسم العلوم إلى علوم نظرية ، وعلوم عملية ، وعلوم فنية — . العلم عند
أرسطو هو دائماً علم بالعام — خصائص الروح الفلسفية — منهج أرسطو في البحث
منهج علمي تحليلي صارم — الرواقيون يخلعون على الفلسفة طابعاً أخلاقياً — الفلسفة
عند أبيقور نشاط يوصلنا إلى الحياة السعيدة — الفلسفة اليونانية تختلط بالتصوف
الشرقي في خاتمه اللطاف — تلاقى الفلسفة والدين — هل يمكن القول بوجود « فلسفة
مسيحية » ؟ — الاهتمام بمشكلة « العقل والنقل » في العصور الوسطى — تأثير
الدراسين بفلسفة أرسطو — التفكير للدرسي يستحيل إلى الأعياب لفظية عقيمة —
حركة الإصلاح الديني وظهور النزعات الشككية — . نشاط الحركة العلمية
في أوروبا —

الخصائص العامة المميزة للفلسفة الحديثة — ديكارت يرى في الفلسفة علم للمبادئ
الأولى — اهتمامه بقواعد المنهج — الشك الديكارتي — « أنا أفكر فأنا إذن
موجود » — فلاسفة القرن الثامن عشر يحاولون أن يفصلوا الفلسفة عن سائر العلوم
— الأيديولوجيا أو علم دراسة الأفكار — كانت يحمل من الفلسفة العلم النقدي الذي

يحدد العناصر الأولية للمعرفة والعمل — العقل في نظره يدرك الظواهر لا « الأشياء في ذاتها » — . يحجز الميتافيزيقا التقليدية — أهمية مسلمات العقل العملي — أوجه الشبه والاختلاف بين كل من لوك وكانت — . الفلسفة هي « علم العلم » عند الفلاسفة اللاحقين لسكانت — موقف كل من فشته وغلنج وهيجل — التوحيد بين الفكر والوجود أو بين المنطق والميتافيزيقا — أهمية للنهج الجدلي عند هيجل — . كارل ماركس يقول إن الهم هو تغيير العالم ، لا تفسيره ، الصدارة للمادة على الفكر — روح للمادية الجدلية أو التاريخية — الجدول للماركسي ودور « التناقض » في التاريخ البشري — الفلسفة الوضعية عند أوجست كونت — استبعاد فكرة « المطلق » وتأکید الطابع « النسبي » للمعرفة — قانون الأطوار الثلاثة — تصنيف كونت للعلوم — للنهج الوضعي — .
تقد موقف الوضعية من الفلسفة —

تعدد الاتجاهات الفلسفية في القرن العشرين — خصائص الفلسفة للعاصرة من حيث الشكل ومن حيث المضمون — التقارب الشديد بين التيارات الفلسفية للعاصرة — دعوة الفلسفة البرجماتية إلى الاهتمام بالواقع والعودة إلى التجربة — دعاة الوضعية للمنطقية يستبعدون الميتافيزيقا ، وعنى العلوم المعيارية — . « المنطق » عندهم هو الموضوع الأوحد للفلسفة — النزعة الحيوية عند برجسون — الصلة بين الفلسفة والعلم عنده — أهمية للنهج الحدسي — الميتافيزيقا علم يستغنى عن الرموز اللغوية — فلاسفة الوجود يدعون إلى ربط الفكر بالوجود — موقف كيركجارد من الكوحيثو الديكارتي — هيدجر يقرر أن العلاقة وثيقة بين الحياة والفلسف — دور « تعالى » أو « للفارقة » في الوجود البشري — للمشكلة الفلسفية الكبرى — اليوم — هي مشكلة الإنسانية بأسرها ، لا مشكلة الوجود الفردي — لا بد للبشرية من أن تأخذ على عاتقها مسئولية وجودها — دور « الفلسفة » في عصر « القوة الدرية والنوعية » لقد أصبح استعمرار الإنسان في البقاء متوقفاً على قراره الشخصي نفسه . . . ١

الفصل الثاني

معاني الفلسفة

الصفحة

٦٢—٧٩

هل الفلسفة علم لم يتحدد موضوعه بعد ؟ اهتمام مشترك يجمع بين كل الفلاسفة : ألا وهو البحث عن الحقائق الكبرى التي يعيش عليها الإنسان في حياته الروحية — الفلسفة : نقد للحياة — الحكمة النظرية والحكمة العملية — الفلسفة الحققة في نظر التراث الفلسفي القديم « فن حياة » — للمشكلة الرئيسية في الفلسفة هي مشكلة المصير البشري — قد تفهم الفلسفة بمعنى عام ، فتكون مجرد عملية تساؤلية نحاور فيها أنفسنا ، وتتبادل فيها مع العالم والآخرين — وهناك تصور ثالث للفلسفة يجعل منها « نظاماً خاصاً أو نسقاً معيناً من الاعتقاد » — أهمية « المذهب » في هذا التصور — الفلسفة تفترض الإيمان بقدرة العقل على المعرفة ، وقابلية العالم للمعقولة — التصور الرابع للفلسفة يجعل منها نظرة كلية إلى الأشياء : أهمية فكرة « الكل » في هذا التصور — التوحيد بين الفلسفة والليتافيزيقا — تصورات أخرى للفلسفة تربطها بالمنطق والتحليل اللغوي — نظرة الوضعية للمنطقية إلى الفلسفة — محاسن هذه النظرة وعيوبها — هل نقول إن الفلسفة هي مجرد « وصف للخبرة » ؟ — عمق التجربة الروحية لدى الفيلسوف وسعة أفقها — الفلسفة الحققة تفتح تام لكل ما في الوجود من قيم ...

الفصل الثالث

الفلسفة والإنسان

الصفحة

٨٠—٩٩

الفلسفة اعتراض مستمر ضد كل محاولة آلية يراد بها إدماج الإنسان في دائرة مغلقة من التحديدات الموضوعية — المشكلة الإنسانية لا تحل على المستوى العلمي الصرف — لا « معنى » إلا بالقياس إلى « وعى » يخرج من عداد الموضوعات — هوسرل يحمل على كل نزعة طبيعية تعتمد على « تطبيع » الوعي — العلم يستبعد « الإنسان » من حسابه ، وكأن الطبيعة وقائع محض لا أثر للوعي فيها — الذات ليست مجرد

« موضوع » يتكفل بتفسيره العلم — رفض للثنايفيقا هو بمثابة رد للإنسان بأسره إلى بعد واحد من أبعاده ، ألا وهو البعد للوضوعى — الإنسان هو الكلمة النهائية لكل فلسفة — الفلسفة أنثروبولوجية ، لا بيولوجية ، أو ميكولوجية ، أو اجتماعية — بلوندل يعلن أنه لا بد لنا من أن نأتى بالفيلسوف إلى مدرسة الإنسان — الفلسفة وثيقة الصلة بالحياة فى نظر صاحب « فلسفة الفعل » — الوجوديون يحملون على فلسفة العالم وفلسفة الأفكار ضرورة العودة إلى « الحجرة للمعاشة » — حملة على هيجل والفلسفة الإطلاقيه — ضرورة التحرر من « المجرد » من أجل العودة إلى « العيني » — كيركجارد ويسبرز يدعوان الفيلسوف إلى تخطى كل معرفة موضوعية — طابع « المخاطرة » الذى تسم به الفلسفة الوجودية عند سيرز — أهمية التأمل الفلسفى بالنسبة إلى الإنسان المعاصر — اصطدام الفيلسوف الوجودى بمجران « اللامعقول » — الأفكار الفلسفية وقائع حية أو خبرات معاشة — شعور الفيلسوف بما فى الوجود البشرى من « سر » — الحساسية الوجودية — الإنسان يتفلسف لأنه يتألم — دور « الأفكار السلبية » فى عملية « التفلسف » ...

الفصل الرابع

خصائص الروح الفلسفية

الصفحة

١٢٧—١٠٠

هل تكون الروح الفلسفية مجرد مزاج شخصى ؟ — أول خاصية تتميز بها الروح الفلسفية هى الرغبة العارمة فى البحث — الروح الفلسفية روح تساؤلية لا تقنع بأى حل نهائى — الفيلسوف رجل خطير يرفض اليقين السائد — إنه يضع كل شئ موضع الشك — اتهام الفلاسفة بالإلحاد — كسقراط مثلاً — الروح الفلسفية ناقوس يدق بين الحين والآخر معلناً أن الإنسان « سيد للعنى » ، وأن الطبيعة لا تكفى نفسها بنفسها — الانتقال من عهد « الأسطورة » إلى عهد « التفكير » يتم على يد الفيلسوف — الروح الفلسفية تقترن بظهور علامة الاستفهام : « لماذا ؟ » — الفيلسوف رجل الابتكار والتجديد وللإبداء ، لا الاتباع والتقليد والمسايرة — الفلسفة بعيدة كل البعد عن الروح الانعزالية — الفيلسوف لا ينفصل عن إطاره التاريخى — الفلسفة تتولد من جديد على يد كل فيلسوف ، ولكن أحدا لا يستطيع أن يضرب صفعاً عن ماضى التفكير البشرى كله — دور الحرية الفكرية فى عالم الفلسفة — الخوف أعدى أعداء

الروح الفلسفية — صفة الاستقلال التي ننسها عادة إلى الفلاسفة — للوقوف الفلسفي ليس مجرد موقف جمالي — استقلال الفيلسوف قائم على دعائم موقفه البشري — دور الوجدان في حياة الفيلسوف بوصفه مجرد إنسان — النزعة التأملية في الفلسفة — الفارق بين الوعي الفلسفي والتأمل الباطني — موازنة سرية بين الروح الفلسفية والروح العلمية . دور الجدل في كل من الفلسفة والعلم — القيم الأخلاقية تجمع بين روح الفيلسوف وروح العالم — الصراع الودى القائم بين العلم والفلسفة .

الفصل الخامس

بين العلم والفلسفة

الصفحة

١٢٨ — ١٦١

ضرورة تحديد مفهوم « العلم » — الفارق بين « المعرفة » و « العلم » — نحن نعيش في « عصر العلم » — العلاقة بين « العلم » و « الحس المشترك » — للمعرفة العلمية معرفة تنظيمية تصليفية — أهمية التنظيم للنطق في مجال العلم — النزعة للوضعية في العلم — لغة الرياضيات هي اللغة العلمية الوحيدة — مشكلة « المعنى » تحمل محل مشكلة « الملاحظة » في العلم الحديث — الوقائع العلمية مجرد صياغات رمزية ، والقوانين هي مجرد دلالات رياضية — الواقع العلمي على صلة دياكتيكية بالعقل العلمي — الصلة وثيقة بين « التجربة » و « النظرية » — لا علم إلا بما هو خفي — النشاط العلمي نظريات من جهة ، وأدوات من جهة أخرى — فلاسفة البرجماتية يخالون في تأكيد أهمية الجانب التكنيكي في العلم — ولكن العلم أيضاً مخاطرة فكرية للكشف عن المجهول — تطور الفلسفة قد ارتبط بتطور العلم — لا علم إلا بما يقبل القياس — الإنسان ملزم بفلسفته (لا بعلمه) الفيلسوف جدير بلفظ العالم لأنه مهتم بالتفسير العقلي والعلم بالعام — خير أمانة للروح العلمية أن يحب المرء الفلسفة — العلم والفلسفة في أصلهما « نظر » — « الفلسفة العلمية » عند كل من أوجست كونت ، وهربرت اسبنسر ، وبرتراند رسل — النزعة العلمية للمتطرفة عاجزة — في رأي برديائيف — عن تفسير واقعة العلم نفسها — ليس من مصلحة « الفلسفة » أن تبقى أسيرة لتنازع العلوم الجزئية — الفلسفة لا تخضع لمنطق التقدم العلمي أو التطور التاريخي الصرف : لأنها — في جانب من جوانبها —

مرتبطة بما هو « أزل » — « الوجود » في نظر العلم هو « الطبيعة » ، وأما في نظر « الفلسفة » فهو « الروح » — الطابع الأثروبولوجي للفلسفة يفصلها عن العلم الذي يرى العالم دائماً في استقلال عن الإنسان — حركة الوضعية المنطقية تحيل الفلسفة إلى مجرد « تحليل منطقي » — الفارق بين « للمنى » و « التعبير » — قضايا الميتافيزيقا « لغو فارغ » — نقد هذا المذهب — للسمة الميتافيزيقية التي تستند إليها الوضعية المنطقية — حجبها التام على كل تفكير فلسفي — التجربة البشرية أوسع بكثير من كل تلك التحليلات اللغوية — « المعقولة » عندهم ضيقة لا تعدو حدود الواقع التجريبي — ربط الفلسفة بالعلم عند كل من ريفو ، ووايتهد ، وغيرها — خطأ النزعة العلمية المتطرفة — العلم لا يملك تلك الفلسفة التي هو جدير بها — اهتمام العلماء أنفسهم ببعض المشكلات الفلسفية — لم تعد الحياة غير معبورة بين العلم والفلسفة — أهمية الفلسفة بوصفها نظرة كلية شاملة تستوعب شتى جوانب التجربة البشرية — ووايتهد نفسه يهيب بتجارب الشعراء — العلم لا يملك ميزة سحرية تجعل منه موجه البشرية وكانم أسرارها — الفيلسوف الميتافيزيقي يحاول أن يحقق ضرباً من « التلاقى » بين سائر المعنيين بمشكلة الإنسان — التفسير التكاملي للوجود البشري — الفيلسوف هو « الإنسان الكلى » ، أو الرجل المتخصص في « عدم التخصص » ! الفلسفة هي التي تحقق « الوحدة » و « التكامل » بين سائر العلوم الجزئية والدراسات الخاصة ...

الفصل السادس

بين الفلسفة والأدب

الصفحة

١٦٢ — ١٧٩

الفلسفة وليدة العقل والخيال معاً — قد يكون هناك علم بلا علماء ، ولكن ليس عمة فلسفة بلا فلاسفة ! — الفارق بين العمل الفلسفي والعمل الأدبي — الفيلسوف والشاعر — الصلة وثيقة بين الفلسفة والأدب ، في الفكر اليوناني القديم ، وعند العرب ، وفي كل من الفلسفتين الحديثة والمعاصرة — برجسون يرفض إقحام الأدب على الفلسفة — الطابع الفلسفي لبعض الأعمال الأدبية الفرنسية — السر في تقرب الفلسفة من الأدب في عصرنا الحاضر — « الإنسان » هو نقطة تلاقى كل من « الرواية » و « الفلسفة » — الوجودية تقرب الفلسفة من الأدب — . ولكن (٢٤ — فلسفة)

العمل الفلسفي ليس مجرد عمل أدبي يستهدف المتعة . — الفيلسوف قابع داخل مذهبه ، بينما الفنان مائل أمام عمله الفني — مذهب الفيلسوف — مع ذلك — يحمل طابعه الخاص — الشخصيات الروائية في أعمال سارتر تقول كل ما يرادها أن تقوله . — الطابع الخاص المميز للرواية الفلسفية — هل يكون الخلط بين الفلسفة والأدب نذيراً بانتهاء الفلسفة ؟ — الفلسفة ليست مجرد نظر عقلي خالص — أسلوب التعبير الروائي يناسب كل فلسفة لاتفصل للماهية عن الوجود — . أهمية « الرواية الميتافيزيقية » عند الوجوديين — . الوضعيون للمناطقة يهتمون الميتافيزيقيين بأنهم يخلطون المعنى بالتعبير ، ويمزجون الفلسفة بالموسيقى ! ولكن هؤلاء يتناذرون أن الفلسفة دراسة عقلية تبني المعرفة ، لا مجرد فن ينهد التعبير ! — معايير الحكم على العمل الفلسفي هي معايير الصدق والكذب ، لا معايير الحسن والقبح — لا يمكن أن نالحق الفلسفة بالفن . .

الفصل السابع

بين الفلسفة والدين

الصفحة

٢٠٣ — ١٨٠

هل نشأت الفلسفة — في جانب منها — عن الدين ؟ — علاقة الإيمان الديني بالتمسك العقلي عبر العصور المختلفة — إثارة مشكلة حدود المعرفة العقلية — أهمية دراسة العلاقات للركبة التي طالما جمعت بين الفكر الفلسفي والإيمان الديني — دور الأسطورة في التفكير اليوناني القديم — استقلال الفلسفة اليونانية عن الديانات الشعبية — الدين عند كل من السوفسطائيين ، وأفلاطون ، وأرسطو ، والرواقيين ، والأفلاطونيين الجدد — وقوع الفلسفة اليونانية تحت تأثير الديانات الشرقية في عهد أفلاطون — مذاهب الفلاسفة المسيحيين في التوفيق بين العقل والنقل — موقف فلاسفة الإسلام من قضية المعرفة العقلية والعقيدة الدينية — رأى المتكلمين في كون المعارف كلها معقولة بالعقل ، واجبة بنظر العقل — دعوة الغزالي إلى إلجام العوام عن علم الكلام — ابن خلدون يقول بمعجز العقل عن إدراك أسرار الإيمان — التوحيدى يرى أنه لا تعارض بين الحكمة والشريعة — . هل تكون الفلسفة هي أسمى صورة من صور الحق عند ابن رشد ؟ استقلال الفلسفة عن الدين في عصر النهضة — . موقف يكون وديكارت من قضية فصل الفلسفة عن الدين — هل أراد كانت أن يستبعد « العلم » ليفسح مجالاً أمام « الإيمان » ؟ — الدين هو الابن الطبيعي للإنسان عند هيجل

— ولكن الفلسفة عنده معرفة مطلقة تملو على الدين — كيركجارد يهاجم هيجل ويدافع عن التجربة الدينية — المسيحية عنده على النقيض تماماً من كل تفكير عقلي — كيركجارد يلتصر للدين ضد الفلسفة . — موريس بلونديل يقرر قصور الفلسفة وافتقارها إلى أنوار الدين — لا بد للمشكلة الدينية من أن تدخل في صميم الدراسة الفلسفية . — المنهج الباطني يوصلنا هو نفسه إلى « الحقيقة للتمالية » — فلاسفة الوجودية للحدة يحملون على فكرة « الله » — ميرلوبونتي يقول إنه لا شأن للفلسفة بالدين وسارتر يعلن أنه لا موضع لإثارة مشكلة الله ومع ذلك فإن « فلسفة الدين » ما زالت تكون جزءاً لا يتجزأ من صميم التفكير الفلسفي للعاصر — لن نستطيع الفلسفة أن تستقل نهائياً عن الدين !

الفصل الثامن

بين الفلسفة والأخلاق

الصحة

٢٠٤ — ٢٢٥

أهمية المشكلة الخلقية — ما المقصود بالأخلاق ؟ للوجود البشري حيوان أخلاق — الطبيعة لا تحدد سلوك الإنسان ، والمجتمع لا يحمل أزماته النفسية — الأخلاق شك في بداها « اللذة » — مشكلة دعامة الأخلاق عند كانت — نقد دعاة الأخلاق الوضعية لسكل أخلاق مميارية — ليس ثمة « إنسان في ذاته » — فكرة النسبية الأخلاقية — رد الفلاسفة على الأخلاق الاجتماعية والوضعية (عند دوركايم) — المشكلة الخلقية هي أولاً وبالذات مشكلة شخصية لا تحل على المستوى الاجتماعي الصرف — الحرية الوجودية تؤكد ضرورة الاعتراف بأولوية ضمير للتكلم — مهمة فيلسوف الأخلاق في نظر الوجوديين — الأخلاق الجديدة لا تتجاهل تاريخ الفرد ، ومتناقضاته الخاصة ، وأحداثه الدرامية للشخصية — تعقد المشكلة الخلقية وضرورة العودة إلى الخبرة للعاشة — الصلة الوثيقة بين الفلسفة والأخلاق — الأخلاق كالفلسفة : كلاهما مخاطرة كبرى — لا بد من مخاطبة الإنسان الواقعي ، في عصره الحالي ، وبيئته الحضارية الراهنة —

الفصل التاسع

بين الفلسفة والسياسة

٢٢٦ — ٢٤٠

هل نقول إنه لا شأن للفلسفة بالسياسة ، بدعوى أن الفيلسوف يجب دائماً على هامش التاريخ ؟ — الفلاسفة كانوا يتعدون رجالاً السياسة — قصة أنكسار خوس ونجديه

لذلك الطاغية للسبب الذي حكم عليه بالتعذيب — أبكتاتوس العبد الرواق يتحدى سيده — قصة سقراط وتمجديه لقضائه — السيادة الفلسفية — علاقات بعض الفلاسفة بكبار رجال الدولة في عصرهم — الفلسفة قوة تاريخية هائلة — لم يعيش الفلاسفة يوماً بمعزل عن مجتمعاتهم — للذاهب الفلسفية تعكس روح العصر الذي نشأت فيه — . دعاة المادية الجدلية يقررون أن الاقتصاد — لا الفكر — هو المحرك الأول للجماعات — ولكن النظر العقلي هو الذي يحرك العالم بأسره — . التفاعل مستمر دائماً بين حياة المجتمع وفلسفات مفكره — . نتائج التفكير الفلسفي قد لا تقل أهمية عن أعمال بعض رجال السياسة — . ضرورة فهم التقدم البشري في ضوء النظريات الفلسفية — الثورة الفرنسية (مثلاً) ثمرة لبعض الاتجاهات الفلسفية — «الفكر» قوة فاعلية هائلة في مجرى الحضارة البشرية — لا موضع للتفرقة بين «حضارة القول» و «حضارة الفعل» — . تاريخ الأعمال لا يفهم إلا على ضوء تاريخ الأفكار — العلاقة بين الفلسفة والحضارة — الأفكار لا يمكن أن تكون مجرد ذرات من الغبار تذروها الرياح — دور الإيمان الفلسفي في تغيير المجتمعات — لكل فلسفة إطارها الحضاري الخاص — تاريخ الفلسفة جزء لا يتجزأ من التاريخ البشري العام .

الفصل العاشر

بين الفلسفة والأيدولوجيا

الصفحة

٢٤١ — ٢٦٨

أوجه الاختلاف والتشابه بين كل من «الفلسفة» و «الأيدولوجيا» — نابليون يتحدث عن جماعة «الأيدولوجيين» — ماركس يستبر «الأيدولوجيات» مجرد تبريرات عقلية لبعض أساليب التفكير والسلوك — النزعة العقلية — الأيدولوجيا والطبقة البورجوازية — كارل مانهايم يضع فلسفة اجتماعية في المعرفة ويقول إن الأفكار تتوقف تماماً على السياق التاريخي والاجتماعي — تأكيد أولوية «العامل الاجتماعي» في تحديد الاتجاهات النهائية على كل مجتمع — التفرقة بين أيدولوجيا جزئية خاصة وأخرى كلية عامة — . المفهومان الجزئي والكلّي للأيدولوجيا يميلان من أفكار أى شخص مجرد «دالة» تكشف عن وضعه الخاص في المجتمع — . ولكن الأول منهما يملك الأفكار على أساس نفسي ، والثاني منهما يملكها على أساس عرفاني — وجود تقابل بين الموقف الاجتماعي للمعين ، ووجهة النظر الفكرية للعينة — تاريخ مفهوم الأيدولوجيا — الأوثان الأربعة

مؤلفات الدكتور زكريا إبراهيم

أولاً : رسائل جامعية :

- ١ - « فلسفة الفعل عند موريس بلوندل » ؛ رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ، ١٩٤٩ .
- ٢ - « ميتافيزيقا هوكينج » ؛ رسالة أصلية لدكتوراه الدولة ، جامعة السوربون ، باريس ، ١٩٥٤ باللغة الفرنسية .
- ٣ - « المشكلة الدينية عند وايتهد » ؛ رسالة فرعية لدكتوراه الدولة ، جامعة السوربون ، باريس ، ١٩٥٤ . — باللغة الفرنسية .

ثانياً : مجموعة « مشكلات فلسفية » :

- ١ - « مشكلة الحرية » ، القاهرة ، مكتبة مصر . طبعة ثانية ، ١٩٦٤
- ٢ - « مشكلة الإنسان » ، مكتبة مصر ، طبعة ثانية ، ١٩٦٧
- ٣ - « مشكلة الفن » ، مكتبة مصر ، طبعة ثانية ، ١٩٦٧
- ٤ - « مشكلة الفلسفة » ، مكتبة مصر ، طبعة ثالثة ، ١٩٧١
- ٥ - « مشكلة الحب » ، مكتبة مصر ، طبعة ثانية ، ١٩٧٠
- ٦ - « المشكلة الخلقية » ، مكتبة مصر ، طبعة أولى ، ١٩٦٩
- ٧ - « مشكلة الحياة » ، مكتبة مصر ، طبعة أولى ، ١٩٧١

ثالثاً : مجموعة « عبقریات فلسفية » :

- ١ - « كانت أو الفلسفة النقدية » ، مكتبة مصر ، ١٩٦٣ [نقد]
- ٢ - « هيجل أو المثالية المطلقة » [صدر منه الجزء الأول]
- ٣ - « ماركس أو المادية الجدلية » [معد للطبع]

رابعاً : دراسات فلسفية متفرقة :

- ١ - « دراسات في الفلسفة المعاصرة » ، الجزء الأول ، مكتبة مصر ، ١٩٦٨ .
- ٢ - « برجسون » (مجموعة نوايغ الفكر الغربى) ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٧ .

- ٣ - « تأملات وجودية » ، بيروت ، الآداب ، ١٩٦٣ [نقد]
- ٤ - « الفلسفة الوجودية » ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٧ [نقد]
- ٥ - « مبادئ الفلسفة والأخلاق » ، مكتبة مصر ، طبعة ثانية ، ١٩٦٥
- ٦ - « الثقافة الاجتماعية » (الجزء الخاص بالمنطق) ، وزارة التربية والتعليم ، ١٩٥٩
- ٧ - « الأخلاق والمجتمع » ، المكتبة الثقافية ، مؤسسة التأليف والترجمة ، القاهرة ، مارس ١٩٦٦

خامساً : دراسات جمالية :

- ١ - « فلسفة الفن في الفكر المعاصر » مكتبة مصر ، ١٩٦٦
- ٢ - « الفن والفنان » (مجموعة دراسات جمالية معدة للطبع) .

سادساً : دراسات إسلامية :

- ١ - « أبو حيان التوحيدى » مجموعة أعلام الفكر العربى - مؤسسة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٤ .
- ٣ - « ابن حزم الأندلسى » - مجموعة أعلام الفكر العربى - مؤسسة التأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

سابعاً : دراسات سيكولوجية واجتماعية :

- ١ - « سيكولوجية الفكاهة والضحك » ، مكتبة مصر ، ١٩٥٨
- ٢ - « الجبرمة والمجتمع » ، مكتبة النهضة العربية ، ١٩٥٩
- ٣ - « سيكولوجية المرأة » مكتبة مصر ، ١٩٥٧
- ٤ - « الزواج والاستقرار النفسى » ، مكتبة مصر ، ١٩٥٧ .

ثامناً : كتب مترجمة :

- ١ - « الفن خبرة » لجون ديوى ، مكتبة النهضة العربية (بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين) . القاهرة ، ١٩٦٥ .
- ٢ - « الزمان والأزل » - لستيس ، المؤسسة الوطنية (بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين) ، ١٩٦٧

رقم الإيداع ١٩٧١/٢٩٣٠

مشكلات فلسفية

للدكتور زكريا إبراهيم



- ١ - مشكلة الحرية .
- ٢ - مشكلة الإنسان .
- ٣ - مشكلة الفن .
- ٤ - مشكلة الفلسفة .
- ٥ - مشكلة الحب .
- ٦ - المشكلة الخلقية .
- ٧ - مشكلة الحياة . (تحت الطبع)

دار مصر للطباعة